

اختيال العقل

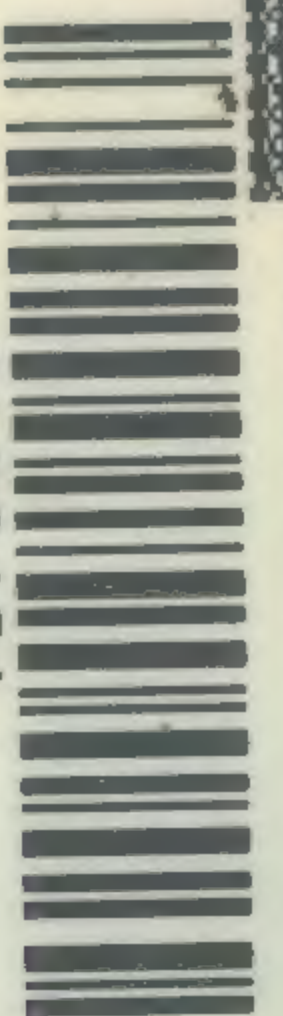
محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية

د. برهان غليون



Bibliotheca Alexandrina

0129421



لختيل العقل

* د . برهان غليون : إغتيال العقل

* الطبعة الثالثة ١٩٩٠

* جميع الحقوق محفوظة

٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١

مكتبة مذبول

MADBOULI BOOKSHOP

6 Talat Harb SQ. Tel: 756421

د. برهان غليون

اختلال العقل

مكتبة مديولا

أزمة التقدم العربي

أعلن صعود الهيمنة الأوروبية ، والغربية عامة ، في العالم أجمع ، نهاية المدنيّات الكلاسيكية ، وبداية تحلل بنياتها الأساسية ، وأدخلها في أزمة تاريخية طويلة مادية وروحية . ولم تكن المدنية العربية بمعزل عن هذه الهزة التاريخية ، بل كانت في قلبها . وقد أدى تأكيد الغلبة الجديدة العسكرية والحضارية منذ القرن الثامن عشر إلى تحلل أكبر امبراطورية اسلامية تدريجياً وتطايّر أشلائها ، في مطلع القرن العشرين ، في كل الاتجاهات . لقد نخرت هذه الغلبة الأسس الثابتة والتقليدية للهيمنة الداخلية والسلطة الاجتماعية ، وأفقدت نظمها القائمة ، الاقتصادية والعقلية ، فاعليتها وتأثيرها .

فكل أزمة تاريخية تحمل في طياتها ، بقدر ما تبشر بغلبة جديدة ، تحلل النظام الحضاري ، وتدفع العناصر المكونة له إلى البحث عن أطر جديدة تلثم من جديد عبرها ، وتعيد تركيب نفسها وتوحيدها من خلالها ، بما يوفر لها إمكانية الاستمرار في البقاء . فإذا أخفقت اضطرت إلى ان تندرج في إطار النظام الجديد الصاعد ، وتصبح جزءاً لا يتجزأ منه ، فتذوب شخصية الأمة والثقافة التي تمثلها وتنتهي إلى الانحلال النهائي في غيرها .

وفي إطار البحث عن توازنات جديدة عقلية وسياسية واقتصادية منذ انهيار السلطنة العثمانية ، وبحافز مقاومة خطر التحلل الكامل والتلاشي تحت ضغط المرحلة الاستعمارية التقليدية ، حاولت الجماعة العربية في نهاية القرن الماضي

وحقّ منتصف هذا القرن محاولات متعددة لإعادة تكوين عناصرها ولحمها وتشكيل نفسها كمدنية فاعلة ضمن الحضارة الجديدة ، أي كذات مستقلة وعاملة .

ولا شك أن محاولة محمد علي التصنيعية والتوحيدية في منتصف القرن الماضي ، كانت أولى هذه المحاولات الكبرى وأكثرها طموحاً . بيد أنه لم يكتب لها النجاح ، وسقطت تحت ضربات التدخل الأجنبي الغربي لأنها بقيت حركة عسكرية برقراطية وفوقية عاجزة عن تعبئة الطاقات العربية الفاعلة في تلك الحقبة والموزعة في مختلف أرجاء الامبراطورية العثمانية الواسعة . فقد حرمت هذه التجربة نفسها من منابع عظيمة للتغيير والتوحيد ، شكلت بالنسبة لأوروبا الناهضة مرتكزات قوتها الأساسية ، ونقصد بها المنابع الفكرية والسياسية التي لا يمكن لنهضة أن تتحقق بمعزل عنها . وكان محمد علي قد أدرك ذلك حينما بدأ بإرسال البعثات العلمية بكثرة إلى أوروبا ، وشجع حركة الترجمة والتأليف في مصر ذاتها ، وشكل ما يشبه المجلس الاستشاري للأعيان والوجهاء ، رداً على تزايد الشك بنوايا أوروبا ، وتفاقم ضغطها عليه . لكن ذلك جاء في الحقيقة في حدود ضيقة جداً وبعد فوات الأوان .

وقد أعقب إجهاض تجربة محمد علي ، مرحلة جديدة انطلقت بالضبط من الفجوات التي تركتها هذه التجربة مفتوحة وعجزت عن الاستفادة منها ، ونقصد بها التغييرات الفكرية . وقد انطبعت هذه المرحلة لذلك بطابع فكري أساسي ، وسمت نفسها مرحلة النهضة أو اليقظة العربية التي حاولت أن تعيد لحم عناصر الجماعة العربية من خلال الفكرة والأيديولوجية الإصلاحية والأدبية . وقدمت مساهمات كبرى في هذا المجال سواء ما تعلق منها بتجديد أسس العقائد الدينية أو تجديد الآداب واللغة العربية . وكان للنهضة تطلعات سياسية لا شك فيها ، تجسّدت في تكوين الجمعيات العربية والنوادي والأحزاب التي برزت منها جمعية العلماء الشهيرة . بيد أن هذه النواة السياسية للحركة كانت أضعف من أن تقف في وجه حركة التفكك الطاحنة التي كان يتعرض لها المجتمع العربي - الإسلامي . وتحولت بسرعة إلى منظمات انقلابية صغيرة ومعزولة التأثير والنفوذ . ولم تنجح في

لم الشمل ومقاومة حركة التوسع الاستعماري العسكري . وهكذا قضى الاحتلال الأوربي على آمال النهضة العربية قبل ظهورها ، وفرض على العرب نظام التجزئة الإقليمية والحماية والوصاية الأجنبية .

وخلال أكثر من نصف قرن ، استمرت عوامل المقاومة في التفاعل داخل المجتمع العربي . وتبلورت شيئاً فشيئاً في مواجهة الاحتلال جبهات وطنية مكونة من أحزاب سياسية متعددة المشارب والاتجاهات ، ونجحت في صياغة برنامج جديد للحركة العربية ، مضمونه الأساسي الاستقلال ، وتكوين نظام إقليمي عربي عبر عنه تأسيس الجامعة العربية في القاهرة عام ١٩٤٥ ، ونشوء الدول العربية والهوية العربية التي جسدها وضبط صياغتها أكثر فأكثر تيار القومية العربية لما بعد الاستقلال منذ الخمسينات .

وقد نجحت أفكار العروبة التي اتخذت شيئاً فشيئاً منحى شعبياً جماهيرياً ، واصطبغت بصبغة التقدمية والاشتراكية ، في خلق مناخ جديد على صعيد الوطن العربي بأكمله ، ساعد على تعميق مشاعر الثقة بالنفس والميل إلى تأكيد الذات والاستقلال ، كما ساعد على تكوين أغلبية سياسية ثابتة ومستقرة لصالح التغيير الاجتماعي والوحدة العربية . وقد شكلت هذه الأغلبية الاجتماعية ، رغم تناقضاتها الذاتية وهشاشة تنظيماتها ، ورغم الطفرات والانقلابات التي تعرضت لها النظم النابعة منها ، قاعدة قوية فكرية وسياسية لقيام حركة عربية واحدة ، أعطت للجماهير وللقيادات إطاراً للعمل ، وقدمت للممارسة وجهة وبرنامجاً يسمح بالمبادرة ويدفع إليها .

وقد بعثت الحركة القومية العربية جدلية جديدة وفاعلة في الحياة العربية ، وبلورت داخل كل بلد عربي ، وعلى صعيد الجماعة العربية ككل نظاماً من التوازنات والمطامح والآمال فتح آفاق نهضة جديدة ، وأعطى الغلبة إلى قوى التحرر والتقدم والتغيير على صعيد العالم العربي ، رغم بقاء بعض البلدان بمعزل عنه . وهو ما سميناه بالنظام القومي العربي .

فقد نجحت الثورة المصرية (١٩٥٢) في بلورة نهج وطني واجتماعي لف حولها أغلب جماهير الشارع العربي ، وجعلها ، داخل مصر وعلى الصعيد

الاقليمي معاً ، مركز استقطاب جديد لقوى التغيير العربي . واستطاع هذا النظام الجديد أن يستمر في البقاء مستنداً إلى تصاعد قوة مصر السياسية والعسكرية ، وبقاء المبادرة المحلية في أيدي القيادة العربية النابعة من الحركة القومية أو الملتفة حولها . وعاش العرب لأكثر من عقدين من الزمن آمال التحرر والوحدة وحلم تحقيق النهضة المادية والثقافية ، والخروج من إطار التبعية والاستعباد . واعتقدوا لفترة من الزمن أن عهد صلاح الدين الأيوبي قد تجدد ثانية ، وأن مرحلة الضعف والفقر والتقهقر قد زالت إلى الأبد .

بيد أن النظام القومي العربي الذي استند بشكل رئيسي على العمل السياسي ، ونهل من قيم القومية والحرية الوطنية والعداء للاستعمار وللإمبريالية ، واستمد منها أكثر مشروعياته ، حتى صارت السياسة نهضة والنهضة سياسة ، بدا في الوقت ذاته شكوكاً في المبادرة العقلية والايديولوجية ، يفضل برقيات التأييد وإظهار الولاء على الحرية الفكرية والنقد البناء وإحياء القيم المبدعة والانسانية المستمدة من الحاضر أو من التراث ، بل ميالاً إلى محو كل ما سبقه ، وخاصة مكتسبات النهضة الفكرية الأولى . كما بدا ضعيف التقدير لأهمية العوامل الاقتصادية ومشاكل الاستقلال الاقتصادي والتنمية . فلم يقبل من الفكر والايديولوجية إلا ما يدعم مركزه السياسي ، ولم يقم في مجال التنمية إلا بما يقوي من مركزه الاجتماعي ويحفظ له قاعدة الولاء التقليدية أو الجديدة . فبنى نظامه الفكري على الدعاية الايديولوجية الضيقة وأشاد اقتصاده على تنمية براغماتية فاقدة للهدف البعيد وللاتساق الذاتي . وهكذا قلّص عملية النهضة القومية إلى بعدها السياسي المحض ، وجعل من بناء الحزب الواحد ، والحركة العربية السياسية الواحدة أساسه الوحيد وأداته الرئيسية . وكان لا بد له أن يمحور ذلك كله حول بناء شخصية القائد أو الزعيم ورعايتها . فأصبح تقدم الحركة كلها مرتبطاً بنشوء حركات أو أحزاب موالية في كل بلد عربي للزعيم الأول . وصار الانقلاب هو الوسيلة الأساسية لهذا التقدم حتى أصبحت السياسة كلها مركزة في حقبة الستينات في تنظيم هذه الانقلابات وقيادتها .

هكذا حرمت الحركة القومية نفسها من منبعين عظيمين للتطور والتغيير ، منبع الفكر وحرية الفكر ، ومنبع التنمية الاقتصادية والتصنيع السريع المتكامل

والضروري . فلا تمكنت من تعبئة القوى الاجتماعية الفاعلة وتوحيدها ولا نجحت في تكوين طبقة صناعية فعالة ومنتجة . وما إن ضعف مركز الزعيم الأول وتأثرت سطوته نتيجة للاخفاقات التي واجهها في صراعه السياسي ، في الانفصال السوري المصري (١٩٦١) وحرب اليمن ، وهزيمة ١٩٦٧ ، حتى فقدت هذه الحركة زخمها ومصدر تقدمها . ومن دائرة هيمنتها وغلبتها نفسها (نعني السياسة) بدأت تظهر تناقضاتها . إذ أن القيادات التي صنعت الحركات الانقلابية باسم الوحدة والقومية ، هي نفسها التي أخذت تحيّر هذه الانقلابات لبناء زعامتها المحلية ، ولم تعد تشعر بأية ضغوطات فعالة لتسليم الحكم الذي ورثته أو انشأته إلى الزعيم الأول . بل إن الصراع داخل المجتمع العربي ومن أجل التغيير سرعان ما تحول إلى صراع على الزعامة بين مختلف فئات الحركة القومية . وأصبح كل قائد جديد يطمح إلى أن يكون زعيماً أول ومركزاً مستقطباً عربياً ، وأصبحت سياسات النظام (والأنظمة) الثقافية منها والاقتصادية مرتبطة جميعاً بهذا الصراع بين الزعامات وخاضعة له . وكان ذلك إعلاناً بانتهاء النظام القومي ونهايته أيضاً .

وبانتهاء هذا النظام الذي شكل المحاولة الأخيرة للحكم عناصر المجموعة العربية وإعطائها صيغة سياسية وأهدافاً اجتماعية وتاريخية مقبولة للممارسة والعمل ، عدنا إلى عصر الأزمة المفتوحة . وعندما نقول أزمة مفتوحة فنحن نقصد ، انهيار التوازنات الاجتماعية والاقليمية التي خلقها وضمها النظام القومي ، وانفتاح الصراع من جديد بين مختلف مكونات الجماعة العربية : الفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية والطائفية ، على مصراعيه ، من أجل إعادة توزيع عناصر الثروة والمواقع السياسية والاجتماعية ، وتكوين الفكرة أو الايديولوجية التي تكرر هذا التوزيع . وهو يعني إذن انحلال روابط التضامن الداخلي والاقليمي ، وانفلات القوى دون ضابط وتناقريها ، وذبول القيم والمبادئ القومية واستخدامها السوقي لغايات الصراع الفتوي ، والجنوح نحو سياسات الانكفاء على الذات وخدمة المصالح الانانية ، أي زوال العام وصعود الخاص إلى مقدمة المسرح الاجتماعي .

ولا يماثل هذه الأزمة إلا تلك التي فجرها منذ أكثر من قرن فشل محاولات تحديث السلطنة العثمانية ، مما أدى إلى تفككها وترك مصير العرب السياسي والقومي معلقاً وفي مهب الريح . وكما أعطى القضاء على القوى الاجتماعية التي ربطت مصيرها في تلك الحقبة بمصير حركة الإصلاح المبادرة للقوى الغربية (وكان تقسيم البلاد العربية واحتلالها نتيجة المباشرة) فإن انحطاط وتشردم الحركة القومية العربية اليوم يقود إلى عودة النفوذ الغربي ، وتحكمه بشكل مباشر بمصير المنطقة العربية ودولها .

وإن نظرة سريعة إلى ما يجيش به المجتمع العربي من صراعات وانفجارات لكافية لرؤية الأبعاد الروحية والمادية لهذه الأزمة المفتوحة . ولعل أهم مظاهرها وأعمقها اليوم هي فقدان الأمن والطمأنينة ، وزوال كل يقين ، والخوف من العالم والميل إلى الانطواء على النفس والتخلي عن كل موقف إيجابي تجاه الواقع ، والخلود إلى موقف السلبية الشاملة المتجسدة في رفض الذات وفي رفض الآخر معاً ، وغياب فاعلية كل المثل الكبرى الباعثة للأمل والحياة على العمل والمحفزة للإرادة .

ومن مظاهرها البارزة ازدياد المواقف القائمة على ردود الأفعال ، والتطرف الفارغ والبرم بكل ما هو قائم ونقده دون تمييز ، وضيق الأفق والخيرة واليأس من أنسداد السبل ، والقنوط من كل تغيير . ومنها أيضاً تدهور المناخ الفكري وتراجع حدود المناظرة العقلية تحت ضغط التيارات الأصولية الحداثية والتقليدية ، و بروز الظواهر الطائفية والعشائرية أو عودتها وانحطاط الممارسة السياسية في شقيها الرسمي والشعبي إلى نوع من الارهاب المتبادل ، وتحلل علاقات السلطة وزوال الأسس القانونية والدستورية للحكم وللمؤسسات العامة ، وسقوط الدولة تحت اقدام مراكز القوى وخضوعها للمنافسة وتنازع أصحاب المصالح على اقتسامها ، وحرمان المجتمع بذلك من وسيلة تنظيم وتنسيق أساسية للمصالح العامة . ومن مركز ضروري لتوحيد الإرادة القومية وتجديدها .

ومن الطبيعي أن يشجع جو الأزمة هذا عناصر النفور والنشاز على البروز

والتكاثر ، وأن يفتح لأصحاب المصالح الجزئية والأنانية أوسع المجالات لتحقيق مآربهم وأهدافهم ، وأن يخرج مصير البلاد من أيدي أبنائها ويضعها بين أيدي أولئك الذين يظهرون مهارة أكبر في التعامل مع القوى الكبرى والدول المهيمنة . ففي جو فقدان الإرادة الجماعية أو ضعفها تصبح إرادة السيطرة مصدراً للعزيمة والسطوة . ويصبح تهور الغامرين إقداماً وقوة . وعند غياب الرؤية الواضحة تصبح قناعة الجاهلين منبعاً للعرفان ، وإدعاء المطالين والمتعالمين رؤية ونبوة . فهي سنة كونية تقضي بأن السلطة إذا ضعفت تحلل أصحابها منها ، وأن الدولة إذا هزمت تبرات أطرافها منها ، وأن الدعوة متى انحطت كثر المناهضون لها ، وأن الأمة متى وهنت وطال تفسخها زاد ابتعاد الناس عنها ويرمهم بها حتى تنحل ويقضى عليها ، أو يبعث فيها من يوفر لها ظروف نشأة جديدة .

ومن مظاهر هذه الأزمة أن الكلام الدائم عن التقدم والتحرر والتمدن والتنمية قد اختفى ليحل محله وصف لا ينتهي للتخلف وآلياته ، وللسقوط والاختفاق وتبعاته . فقد أصبح من البديهي اليوم الحديث في الأوساط المثقفة والبعامة عن إجهاض مشروع النهضة العربية التي حلم بها رجال القرن التاسع عشر وعملوا من أجلها . وارتبط هذا الحديث بميل عارم إلى المراجعة والنقد الذاتي . وإلى إعادة النظر بالمفاهيم والنظم والعقائديات التي سادت في الحقبة الماضية . فتقويم الأطار النظري العام ، وفحص المسائل بدقة وإعادة تحليل الواقع وفهمه فهماً جديداً هي من الشروط الأولية لتصحيح المسار ، وجعل الممارسة الاجتماعية ممكنة بعد تردد والنشاط والمبادرة الانسانية مقبولة بعد توقف وتوجس .

ويكاد النقد ان يشمل اليوم جميع عقائديات ونظريات الحقبة الماضية ولا يستثني أحداً منها ، بل غالباً ما يتجاوزها لينفي الواقع العملي الذي كانت تعبر عنه كما يحصل لفكرة القومية العربية ولغيرها من النظريات السلفية أو الاشتراكية . وإذا عبر هذا الجموح عن شيء ، فلأنما يعبر عن عمق مشاعر الشك والحيرة التي بدأت تلف الوعي العربي حتى لتبدو جميع الحقائق واهية في مرآته ولا سند لها . ومن المعروف أن موت نظام اجتماعي ما أو تفسخه ينعكس مباشرة على الحقائق والبدييات التي ترتبط به وتبرره أو تضي عليه المشروعية فيفقدتها

عقلانيتها وصلاحياتها . ولا ريب أن لهذا الشك العميق مخاطره مثل ما له إيجابياته أيضاً . فهو يمكن أن يكون شكاً مدمراً كما يمكن أن يكون شكاً خلاقاً وذلك بحسب ما يفضي إليه من تعطيل للعقل وللممارسة أو ما يؤدي إليه من حث على التفكير والتأمل ودفع إلى إبداع أطر معرفية ومبادئ جديدة للنظر وللمبادرة . وليس هناك حتى الآن أي مؤشر عميق إلى أننا قد اجتزنا مرحلة الخطر في هذا المجال . فالأدبيات العربية الحديثة توشك أن تكون شكوى لا نهاية لها لما وصلت إليه الحياة الثقافية من انحدار ، واحتجاجاً لا يهدأ على ما وصلت إليه الحياة السياسية من تدهور ، وندباً متواصلاً على ما بلغتته الحياة الاقتصادية الزراعية والصناعية من خراب .

وبالرغم من أن المطلب الأساسي المعلن أو الضمني هو دائماً الحصول على تفسير مقبول لإجهاض النهضة أو ظهور الإخفاق ، فإن القليل من هذه الأدبيات ما يتجاوز الأفكار العامة والشائعة ويطمح إلى تقديم تحليلات وتصورات متكاملة تحيط بالوضع في كليته وتعطي جواباً وافياً للظاهرة المدروسة . فالقسم الأكبر منها يتبنى تفسيرات ثقافية أو سياسية أو اقتصادية سريعة ، جزئية ومبتسرة ، ويندر ما يسجح منها في تقديم إمكانية لنفهم الإجمالي ، وأقل من ذلك ، ما يفتح منها آفاقاً نظرية فعلية للخروج من المأزق وتحديد معالم سياسة قومية بديلة .

ويعمق الحديث المكرر والامي عن الأزمة ، مما تنشره الصحافة وتعممه أجهزة الإعلام ، شعوراً بالانحباس والمأزق التاريخي والمصير الحتمي . ويطمس حدود الأزمة وأسبابها وأبعادها ومعالمها .

فهو إما أن يصورها كمظهر طبيعي من مظاهر ماهية عربية مفترضة تتسم باللاعقلانية والسلبية والشقاق ، وفي النتيجة ، بالدونية ، أو أن يصورها كأزمة سطحية ، أو جزئية أو مؤقتة مرتبطة بسلوك هذا القائد ، أو ضعف هذا الزعيم أو فشل هذه السياسة . ويكفي عندئذ تأكيد هذا الفريق أو ذاك ، حتى تعود الأمور إلى نصابها ويستقر الحال .

وتجبر النظرة الأولى إلى مواقف عنصرية تحاول أن تبحث عن تفسير هذا

الواقع بالكشف عن أسبابه في العقل العربي أو في الذات العربية أو في الثقافة أو في التراث باعتباره تجسيدا لهذه الذات . فتدير ظهرها للتاريخ وللحركة الاجتماعية وللصراعات الدولية ، أي باختصار للواقع الفعلي ، وتجعل من التاريخ ، أي تاريخ تقدم وتغير أمة ما ، ثمرة للفكرة التي تصنعها هذه الأمة عن نفسها أو يصنعها عنها الآخرون . ونتيجتها هو الاستسلام للأمر الواقع والحكم على الذات بالقصور واليأس من كل عمل .

وتجر النظرة الثانية إلى موقف التغطية على أبعاد الأزمة ، والتفاؤل الكاذب ، والاستمرار في التأكيد على صلاحية النظم الفكرية والاجتماعية القائمة ، وتبرير التعامل معها والعمل من خلالها ، وتصبح المشكلة في نظر أصحاب هذه النظرة مراجعة « التكتيكات » للحفاظ على المواقف ذاتها . ومضمون هذه النظرة هو في النتيجة الحفاظ على الوضع القائم واستغلاله لتأمين المصالح الخاصة والذاتية ، والنفي العملي لكل قيمة أو مصلحة عمومية وقومية .

نحن نعتقد إذن أن الأزمة أعمق من ذلك . وهي ليست مرتبطة بزعيم ما ، أو سياسة جزئية ثقافية أو اقتصادية ، ولا حتى بنظام معين أو بالأنظمة عامة باعتبارها تشكل تعبيراً عن مصالح اجتماعية جزئية . وإن انحباس كل تقدم اجتماعي وسياسي ، هو أكبر دليل على أن الأزمة تتجاوز السطح إلى العمق ، والسياسة إلى الثقافة ، والأنظمة إلى المعارضات ، والاستراتيجيات إلى الأهداف والمفاهيم . ولا يفسر هذا الانحباس ، وفقدان البديل بتفاهل العنف والقمع . فالقمع لم يحطم إرادة شعب في التاريخ ولم يخفه ، بل إنه كثيراً ما يحثه على المقاومة ، ويدفعه إلى المواجهة ، ويشحذ عزيمته .

إن السبب الرئيسي لاستمرار هذا الانحباس أو المأزق التاريخي كما يقول البعض ، والذي هو نفسه ليس إلا تعبيراً عن استمرار الأزمة وتفاقمها ، هو غياب الوعي الموضوعي بأبعاد المشكلة الاجتماعية والتاريخية ، وغياب الرؤية الواضحة والتصور السليم والتفسير المقنع الذي يخلق إرادة الفعل ، ويفتح أفق العمل ، ويبعث في الإنسان الأمل . وبمعنى آخر ، إن استمرار الأزمة هو أكبر

دليل على انعدام البديل أو ضعفه . ولا نقصد هنا بالبديل ، السياسي منه ، وإنما المشروع الاجتماعي الثقافي والسياسي الذي أعطت النهضة ، وأعطت الحركة العربية القومية الحديثة نماذج سابقة منه . وهو ليس بهذا المعنى إلا الرد الجديد الشامل الفكري والعمل على الأزمة التاريخية التي يعيشها المجتمع العربي منذ أكثر من قرن ، وليس الرد على أزمة جزئية لهذا النظام أو ذاك .

فنحن نعتقد أنه لا يوجد على مستوى الشعوب والمجتمعات « مآزق تاريخية » ، أي أزمات لا مخرج منها ، وآفاق مسدودة لا سبيل إلى فتحها . ويتعلق الأمر بقدرة قوى التغيير والمقاومة على فهم الوضع القائم فهماً موضوعياً ، وتطوير وسائل العمل الكفيلة بقلب توازناته الفاسدة وإقامة توازنات جديدة فعالة ومنتجة في مكانها .

ولا يعدم الوضع العربي قوى تغيير اجتماعية جدية ومخلصه . ولكن هذه القوى قد حبست نفسها للأسف في أفق الأزمة ، وأصبح همها الوحيد أن تدافع عن نظرات ونظريات سابقة فاتها الواقع والزمن لتؤكد بقاءها وتحفظه في حدود الوجود الجامد والراكد خوفاً مما يمكن أن تحمل لها الحركة ، ويحمل لها تبديل الرؤية والأفكار من مخاطر على توازنها الداخلية التي تضمن استمرار قياداتها . فهي تراجعت جميعاً إلى مواقف دفاعية . ووضعت نفسها في مواقع تحرمها من فائدة وإمكانية النقد الذاتي والمراجعة الموضوعية لتجربتها . فوجدت نفسها تفقد شيئاً فشيئاً هذه المواقع بالذات . ولعل السبب الرئيسي لضعف الحركة القومية والمعارضة السياسية في العديد من البلدان العربية هو كونها ما زالت تنطلق من نفس المنطلقات الفكرية والأيديولوجية للنظم القائمة وكونها أظهرت عجزها عن تجاوزها . وكل معركتها ما زالت مركزة على تأكيد تفوق النظام القومي العربي السابق على النظم القطرية اليمينية القائمة . وهي معركة خاسرة سلفاً ، لأنها تدافع عن الماضي ، وعن نظام فقد مصداقيته لأنه بالضبط لم يستطع أن يثبت جدارته وفعاليته . ولن يستطيع اليسار القومي أن يسترجع المبادرة التاريخية بالاصرار على الدفاع عن نظام تتطلع الجماهير إلى تجاوزه وتنظر إليه كتجربة من التجارب المجهضة رغم حنينها من فترة إلى أخرى إليه . فرغم المكاسب الكبرى

التي حققها في وقته هذا النظام ، ويصرف النظر عن نقائصه وتبذاته . أصبح اليوم أبعد ما يكون عن التعبير عن القوى الجديدة المعارضة ، أو عن الرد على الظروف الطارئة المحلية والعالمية

فقد تغيرت في العقود القليلة الماضية ، ونتيجة لقيام هذا النظام وإجهاضه أيضاً ، خارطة القوى الاجتماعية العربية وتوجهاتها السياسية والنفسية ، كما تغيرت الظروف الخارجية . ولم يعد من الممكن إقناع الناس بأن ما كان صالحاً منذ ثلاثين عاماً ما زال صالحاً اليوم ، ولا بالمراعاة في تجاوز النقائص النظرية والتنظيمية له على قدوم شخصية جديدة للزعيم المنقذ والملمهم التي جسدها لفترة جمال عبد الناصر كبطل للتحرر من الاستعمار .

ثم إن الوعي قد زاد عموماً في المجتمع العربي بأهمية التحدي وضخامته فلم يعد أحد يؤمن بأن من المنطقي والممكن رهن قضية الوحدة مثلاً بنجاح الانقلابات العسكرية لتنظيمات « الضباط الأحرار » العرب التقدميين ومشاعرهم الوطنية . وأصبحت الديمقراطية والحريات الأساسية مطلباً شعبياً ورئيسياً يتعلق بتأكيد قيمة الإنسان ودوره ومكانته وكرامته المبدئية ، وأصبحت مشاركة الفرد الإيجابية في حياة الجماعة السياسية هي شرط استقلال الدولة ونزاهتها تجاه محاولات إخضاعها من قبل الفئات الخاصة واستخدامها لتحقيق مصالح جزئية ضد المصالح العامة . ولم يعد من المقبول أن تستمر التنمية قائمة على اختيارات عشوائية أو أيديولوجية ، وعلى سد ثغرات سياسية وعلى توزيع الاستثمارات حسب خطة شكلية لا تمجدي ولا تنفع في خلق أي قطاع صناعي أو زراعي رائد لعملية التنمية . كما لم يعد من الممكن تجاهل المشاكل الثقافية التي تطرحها مسألة الهوية الوطنية ، وتعميق الشعور بالانتماء إلى حضارة وتاريخ محليين لا غنى عنه لتحقيق أي مشروع نهضة مستقلة وبالتالي الشعور بالمشاركة الفعلية والايجابية في مصير الإنسانية .

فهناك قناعة صحيحة اليوم بأن حصاد العقود الثلاثة الماضية كان ضعيفاً جداً في قطاعات رئيسية من التجربة الحضارية فلم يحصل أي تراكم نوعي وجدي في ميدان الخبرة الصناعية والتكنولوجية ، ولا في ميدان البحث العلمي التطبيقي

والأساسي ، الطبيعي والانساني ، ولا في بناء الدولة القومية المعبرة عن إرادة الجماعة والمجسدة لها ، ولا في تنظيم السلطة الاجتماعية والقانونية وهيكله المجتمع المدني .

كل ذلك يجعلنا نقول إن الرد المطلوب منا اليوم ليس إصلاح النظام القومي العربي الذي عرفناه في العقود الماضية ، أو إعادته إلى ما كان عليه . وليس هو الرد على إخفاق هذا النظام ، ولا الدفاع عن حسناته أو إبراز سيئاته . وليس هو مواجهة الأزمة التي يعيشها هذا النظام اليوم والتي لا تشكل في نظرنا إلا غطاءً لأزمة تاريخية أعمق . وإنما التفكير من جديد بهذه الأزمة التاريخية ، ودراسة الردود التي قدمناها منذ أكثر من قرن ، والانطلاق من الصراعات والمشكلات الكبرى التي تضعنا فيها هذه الأزمة ، حتى نستطيع أن نلم بكل معالم المسألة ونحيط بها من جميع أبعادها . ولهذا علينا أن نخرج من أرضية النزاع السياسي الظرفي القائم اليوم بين المدافعين عن النظام القومي أو الواقفين ضده . وأن نذهب إلى ما بعد الاشكاليات السطحية التي يثيرها من مثل : هل الفكرة القومية أفضل أم الفكرة الإسلامية أم الماركسية . الخ . لنذكر ما يكمن وراء الفكرة القومية والإسلامية والماركسية ذاتها . أي أن نذهب إلى المعركة الأساسية بين المدنية الغربية والمدنية العربية . وعلى ضوء هذه المسألة الكبرى علينا مراجعة نقائص الردود العربية منذ النهضة على هذه المشكلة ، بهدف إعادة النظر في تصور طبيعة هذه المعركة وتحديد القوى الفاعلة فيها وأهدافها ومراميها ورهاناتها ، وفي سبيل الوصول إلى رؤية واضحة ومقبولة لما يمكن أن يكون عليه نظام المستقبل العربي ، أي أيضاً ، الرد الجديد على حركة التحلل والتفكيك التي يثيرها صعود الهيمنة الغربية في قلب المدنية العربية . وعلينا أن نفحص مفاهيمنا العقلية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ونعيد دراستها على ضوء الأوضاع الجديدة ، سواء ما تعلق منها بمفاهيم النهضة أو الحركة القومية أو التحديثية القديمة والجديدة . فإذا تغيرت الأوضاع تغيرت أو لابد أن تتغير مفاهيمنا وتصوراتنا لطبيعة الهدف ووسائل تحقيقه . وعندئذ نستطيع أن نحدد خطاً واستراتيجيات جديدة . فهل ما زالت شعاراتنا صحيحة ، وما زالت وسائل تحقيقها والفلسفة

التي تكمن وراءها صالحة أم أن علينا أن نعيد النظر في فهمنا لوضعنا العام ، وتناقضاته وطرق تبدله ، وفي أهدافنا ووسائل عملنا . باختصار علينا أن نعود إلى الأصل ونفحص فلسفة النهضة العربية حتى نستطيع أن نخرج بحل جديد ويمكن .

وقد أصبحت شروط هذه المراجعة في نظرنا ممكنة . والقانون الاجتماعي يؤكد انه عندما يطرأ انحباس أو إعاقة للحركة الاجتماعية على أحد الأصعدة ، كصعيد السلطة مثلاً ، تتحرر الأصعدة الأخرى لا محالة . ورغم كل أنواع المراقبة والحصار على العقل وعلى الضمير ، يشهد المجتمع العربي اليوم أكبر مراجعة فكرية ، تبرز في الجرأة على طرح موضوعات جديدة أو في العودة إلى طرح المسائل الكبرى التي طرحناها على أنفسنا في عهد النهضة الأول ، وتعبير عن حاجة الفكر إلى أن يعيد فحص مفاهيمه كخطوة أولى على طريق إعادة تأسيس نفسه كفكر فاعل وإيجابي . وهذه المراجعة التي يتسع نطاقها ليشمل كل الميادين والأيديولوجيات ، هي في نظرنا الشرط الأول الذي لا غنى عنه ، ولا يحيد عنه ، لإعادة بناء الرد العربي نظرياً ، وسياسياً واجتماعياً . أي في الواقع لإعادة بناء القوى الاجتماعية الفاعلة وتعبئة الجماعة وبلورة تحالفاتها الداخلية من أجل التغيير المنشود الذي يضع العرب على مستوى المشاركة الإيجابية لا الاستهلاكية في الحضارة والمجموعة الدولية . ويحفظ لهم بهذه المشاركة نفسها ، كيانهم القومي وثقتهم بأنفسهم واستمرار مدنيته .

وينبغي علينا في هذه المراجعة أن لا نستثني حقبة من حقب تاريخنا الحديث ، ولا نمحوها جميعاً كما يفعل الانقلابيون حتى يجعلوا من عهدهم بداية تاريخ الجماعة والأمة ، كما ينبغي علينا أن لا نتأصل طرفاً أو نغبنه أو نتجاهله . فليس هدف المراجعة التجريح ولا التدمير ، وإنما الكشف عن عوامل الحركة والتطور والوحدة والتلاحم الفكري والمادي وإبرازها وتعميقها وتوسيعها . فهو بمعنى من المعاني إنشاء الجماعة، أي تكوينها في الذهن كما يجب أن تكون . وكما من الممكن أن تكون - في الواقع . ويستدعي هذا الإنشاء الكشف عن المصادر والمنابع الروحية والمادية ، الثقافية

والاجتماعية والاقتصادية التي تغدي النهضة وإبرازها ، كما يستدعي مناقشة الأسس التي قامت عليها التجارب السابقة وتبيان مدى نجاحها أو فشلها في استغلال هذه المصادر وتعبئتها دون تفريط لانجاز الهدف المطلوب . ولذلك ، ولتسهيل البحث ميزنا بين ثلاث مسائل رئيسية تشكل أساس التفكير في مسألة النهضة العربية أولها المسألة الثقافية ، ثم المسألة السياسية ، ثم المسألة الاجتماعية . واخترنا أن نخصص الكتاب الأول للمسألة الأولى لسببين . أولهما أن مسألة الثقافة والصراع على تقدير مكانة الثقافة العربية في النهضة ، كانت وما زالت ميدان النقاش الرئيسي بين المثقفين العرب حول مشاكل النهضة . وهي المسألة التي ارتبطت بها أول محاولة عربية شاملة لتكوين مفهوم وتصور نظري لعملية التغيير العربي . ولذلك فإن إشكالياتها ما زالت هي نفسها التي رسمها لها رجال عصر النهضة ومفكروها . وثانيها لأن العقل يستطيع أن يطل من الثقافة باعتبارها مجموعة القيم العامة التي تلهم سلوك الجماعة وممارستها الفكرية والسياسية والاقتصادية على مجمل البنية الاجتماعية . وبالمقابل لم تتبلور النظرية السياسية للنهضة ، ونقصد بها القومية والوحدة ، إلا في مرحلة متأخرة نسبياً ، أي في منتصف القرن الراهن ، وارتبطت بنشوء النظام القومي العربي . أما مفهوم النهضة كانتقال للمجتمع من حالة إلى حالة أخرى ، فقد وجدناه يتردد نفسه منذ تجربة محمد علي حتى تجربة التنمية المعاصرة ، باعتباره نقلاً للتقنية وتحديثاً للبنى الاجتماعية ، رغم أن تنظيره ووعيه ليس هو نفسه الآن وفي الماضي .

القسم الاول

زمن الفتنة

(أو الوعي المنقسم)

I

طرح المسألة : النهضة والثقافة النهضة

يكاد النقاش حول الأزمة التي يمر بها المجتمع العربي يتركز ، اليوم وفي كل مرة تتجل فيها للعرب الأبعاد التاريخية والعالمية لهذه الأزمة ، في موضوع الثقافة . ذلك أن كل نقد للتجربة الماضية ، وكل تأسيس لمشروع مستقبلي لا بد أن يناقش الأسس والمبادئ ، أي المفاهيم العقلية التي توجه العمل وتبلور معالم المبادرة والممارسة .

ولا بأس في ذلك . فبغض النظر عن أن الثقافة تلخص تجربة المجتمع ووعيه بذاته وبمحيطه ، فهي تشكل أيضاً ، كما ذكرنا من قبل ، نافذة يطل منها الباحث على كل نواحي الحياة العلمية والسياسية والاقتصادية والروحية للمجتمع بما هي تسجيل أو سجل للقيم الأساسية التي تحكم الممارسة العلمية والسياسية والانتاجية ، وتشكل إذن وبامتنار لحمة الجماعة الأساسية .

ولا يعني أخذ الثقافة كميدان رئيسي لطرح مسألة النهضة العربية ، أن النهضة الثقافية (أو الثورة الثقافية كما يتردد اليوم ، أو التحرر العقلي ، أو كسب العقلانية) هي بالضرورة أساس النهضة الحضارية والمادية . ولو أن البعض يقع في هذا الخطأ . ولكنه يعني في الواقع ، وكما يطرح الموضوع منذ أكثر من قرن ، تحديد علاقة الثقافة بالنهضة ، ودورها فيها . ويدور النقاش الأساسي إذن حول مدى صلاحية أو عدم صلاحية الثقافة العربية في توفير القيم والمفاهيم المساعدة على التغيير الفكري والعلمي والسياسي والتكنولوجي . أو هكذا طرح المثقفون

العرب المسألة ، فاعتبرها بعضهم عاملاً من عوامل التقدم واعتبرها البعض الآخر عاملاً من عوامل التخلف أو مصدر التأخر وقاعدته . والموضوع يتجاوز في الحقيقة هذه المسألة الجزئية إلى علاقة الوعي بالممارسة عامة ، والوعي العربي الحديث بالتغيرات الفعلية الحاصلة .

هكذا يمكن القول أن الاهتمام بالثقافة لذاتها ، أي لما تعبر عنه وما تمثله في النسق الاجتماعي بقي اهتماماً ضعيفاً في العالم العربي . واعتبرت الثقافة بشكل عام أقل قيمة في إحداث التغيير الاجتماعي من العوامل السياسية والاقتصادية بالرغم من حصول المناقشة كلها تقريباً في الميدان الثقافي . ولم يهتم الدارسون العرب بالثقافة إلا من زاوية ما تستطيع أن تقدمه من دعم للممارسة السياسية أو الاجتماعية ، ومن تشجيع لقيم التقدم أو التغيير . باختصار إن البحث العربي في الثقافة قد تمحور حول دور الثقافة في النهضة لا على وظيفتها الاجتماعية . ولم تصبح قضية الثقافة مسألة متميزة للبحث إلا مع تفجر مسألة الهوية . فأصبحت علاقة الثقافة بالنهضة حكرراً على المتحدثين بالتغيير والثورة ، وأصبحت علاقتها بالهوية حكرراً على المناادين بالمحافظة والتمايز والاستقلال .

ومن هذا المنظور ، أصبحت المشكلة الأساسية للثقافة العربية هي الصراع أو التناقض بين « الحداثة والتقليد » ، والمعاصرة والأصالة . وضمن هذا الصراع تعددت المواقف والآراء ، واختلطت التحليلات بين من ينكر على الثقافة العربية احتواءها على قيم التقدم والتغيير ، ومن يؤكد فيها على عناصر هذا التقدم ، وبين من يدعو إلى تجاوزها وإقصائها عن موقعها الاجتماعي المتميز ، ومن يطالب بإحيائها وتدعيم مركزها ضمن الجماعة القومية ، بين من يرفضها كقاعدة للتقدم ، ومن يقبلها كأساس له ، ومن يرفضها كلية ويقبلها كلية . ومن يقبل جزءاً منها وينكر جزءاً آخر .

هكذا أصبح الصراع بين أنصار الحداثة وأنصار الأصالة محورا للتفكير العربي في العصر الحديث ، ومصدر حواراته الأساسية . وأصبح تاريخ الثقافة العربية الحديثة هو تاريخ تطور هذا الصراع وتبدل أشكاله وابعائه المتواتر . وعليه

ومنه تنطلق كل المواقف الأخرى التي يحدد كل فرد وكل تيار من خلالها موقفه من الغرب أو من الحضارة أو من الدين أو من العلم أو من السلطة أو من المستقبل .

ويكاد هذا النقاش يشق المثقفين العرب ، بل المجتمع العربي ، إلى معسكرين متخاصمين لكل منهما رؤيته الخاصة للماضي والحاضر ، ونظراته للتاريخ ومفهومه للعقل والعقلانية ، وأهدافه وشعاراته السياسية والاجتماعية . وفي هذا الصراع تنحو دعوة الأصالة إلى توحيد نفسها بالدين ، بينما تنحو دعوة الحداثة إلى مطابقة ذاتها مع العلم . وتتطابق الهوية مع الذاتية ويخفئ التراث إلى جانبه الديني ، وتتطابق الحداثة مع الحضارة ، وتخفئ المدنية إلى طابعها التقني .

هكذا أصبح الصراع بين الهوية والمعاصرة ، والدين والعلم والتقدم والمحافظة مركز تفجر أزمة المجتمع العربي ، وأداة تفريغها وحلها الوهمي في الوقت نفسه .

وقد مرت هذه المناقشة المحورية بمراحل متعددة . واتخذت أشكالاً مختلفة حسب الظروف الاجتماعية والسياسية والايديولوجيات الكبرى السائدة . فكانت منذ نهاية القرن الماضي صراعاً حاداً بين السلفية الإسلامية والعلموية التطورية الاجتماعية . ويكفي أن نذكر في هذه المناسبة برد جمال الدين الأفغاني على أحمد خان ، ورد محمد عبده على أنطون فرح ، ثم فيما بعد شكيب أرسلان ومحمد كرد علي على أحمد لطفى السيد وشبلي شميل وسلامة موسى وطه حسين وغيرهم^(١) .

وقد استمرت نار هذه المناقشة متقدة خلال فترة الحماية الأجنبية في المنتصف الأول لهذا القرن ، وأخذت شكلاً سياسياً يتواجه فيه أنصار التعاون مع الغرب وأنصار المقاومة الشاملة له . ولمت وتعمقت في فترة لاحقة ، فأخذت

(١) ما زالت مؤلفات هؤلاء : الرد على الدهريين (الأفغاني) ، رسالة التوحيد والاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية (محمد عبده) ، ولماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم (شكيب أرسلان) والاسلام والحضارة العربية (محمد كرد علي) ، والاسلام وروح المدنية (مصطفى الغلاييني) من المراجع الأساسية في الفكر العربي

شكل الصراع بين التيارات الاسلامية الايديولوجية والسياسية ، وبين التيارات العلمانية الماركسية والقومية ، وأصبحت بذلك أكثر حدة .

ولا شك أن تنامي أحلام وآمال التقدم العربي بعد الحرب العالمية الثانية ، وانهيار النظم الاستعمارية وظهور الدول الوطنية المستقلة ، قد خفف لفترة من شدة الصراع الفكري ، أو أبقاه في الظل . لكن ما إن تعرضت هذه الحركة إلى أول مكساتها ، حتى عادت المناقشة إلى أحد مما كانت عليه في أية حقبة ماضية . فأصبحت من جديد قطب الرحى في ثقافة العرب اليوم . ودخلت فيها أو اضطرت أن تدخل فيها ، وتبدلي بدلوها ، كل تيارات الفكر والسياسة . وصار الموقف من الإسلام قضية الساعة بالنسبة للتيارات غير الإسلامية ، كما صار الموقف من الغرب والعلمانية والحداثة ، قضية الساعة بالنسبة للإسلاميين ومحور تفكيرهم .

وقد تطور النقاش عبر أكثر من قرن ، ودخل ميادين مختلفة ، وأصبح لقضية الأصالة والمعاصرة أصداء وانعكاسات في الدين والفلسفة والأدب والفن والسياسة والاقتصاد . وشاركت فيه ، أو تشارك فيه حكومات وأحزاب ودول كما تشارك فيه مجلات ونشرات وصحافة وأفراد . فما زال للنقاشات الحامية بين صادق الرافعي وطه حسين امتدادها لدى أنصار الشعر الحديث وأعدائه . وما زال للنقاش أو للصراع الفكري السياسي بين الأزهر وعلي عبد الرزاق حول مفهوم الحكم مكانه في النقاش القائم اليوم بين أنصار الدولة الإسلامية والدولة العلمانية . وما زال للنقاش الذي دار في منتصف هذا القرن على تحديد مفهوم القومية أو الجماعة المحلية ، امتداده في الصراع بين أنصار الدولة العربية والدولة الإسلامية .

وإذا كان من الصعب الحديث في هذا المجال عن نظريتين أو حتى إيديولوجيتين في تحليل الأزمة وأسباب الاخفاق ووسائل وسبل الانطلاقة الممكنة أو المحتملة ، فمن الممكن ، بل من الضروري ، التأكيد على وجود موقفين أساسيين يحددان بشكل عام تفكير وسلوك المجتمع العربي من الحقبة التاريخية الراهنة وما

نتج عنها . ويتجاوز الموقفان تجسيدهما في معسكرين متخاصمين ، ليصبحا في الواقع لحظتين في الوعي العربي ، ويشترطا موقف العربي من ذاته ومن العالم . وليس من الصعب أن يلتقيا في فكر واحد ، أو لدى شخص واحد ، ويعكسا بذلك عمق التمزق والتوتر الذي يعيشه هذا الوعي . وقد برز هذان الموقفان منذ بداية الشعور بخطر التغيرات التي يحملها صعود الحضارة الغربية على الوضع العربي عامة ، وبتحدياتها المتزايدة . ولم يضعف تأثيرهما أو تنازعهما مع الزمن ، بل هو في تطور مستمر . وكل التركيبات النظرية العربية منذ النهضة إلى اليوم ، من إصلاحية دينية ، إلى قومية عربية ، لم تكن إلا محاولات للتقريب بينهما وتجاوزهما أو إعادة عرضهما بشكل جديد على ضوء المعطيات الخاصة بكل حقبة . وليس الاختلاف القائم داخل هذه الإيديولوجيات السياسية التوفيقية ، إلا نتيجة لتغليب أحد العناصر على الأخرى . فبعضها يسعى إلى إزالة التناقض بحذف أحد طرفيه - الغرب أو الإسلام - ، ومن هذه المحاولة تصدر الإيديولوجيات الأصولية التي تسود في وقت انفجار الأزمة ، وبعضها يسعى إلى حله بالتوفيق بين قطبي التناقض ، لصالح سيادة أحدهما وغلبته على الآخر . لكن هذا لا يلغي أن التناقض الذي يشق الوعي العربي ويشكل في الوقت ذاته محركه والدافع إلى الحركة والنشاط والإبداع فيه ، هو الانجذاب بين قطبين : رفض الغرب لتأكيد الذات ، ورفض الذات لتأكيد الحضارة والاندماج فيها .

الثقافة والنهضة

ومن الممكن رد جميع النظريات والإيديولوجيات العربية حسب طريقة خروجها من هذا التناقض أو حله إلى موقفين كما ذكرنا ، ينطلق الأول من الإيمان بعالمية الحضارة ، وخطية التاريخ ، ويرى أن تأخر العرب كامن في تمسكهم بثقافتهم والقيم النابعة منها . وينطلق الثاني من الإيمان بأن الحضارة الراهنة هي حضارة غربية محضة ، وأن تعميمها أو سيطرتها لا تحمل في ذاتها إلا مصادرة تاريخ الشعوب الأخرى وقتل ثقافتها وإزالتها من الوجود . ويعتقد الأول أن إخفاق العرب أو انحطاطهم عائد إلى عوامل ذاتية متعلقة ببنية المجتمع والثقافة العربية

ونقائصهما وقصورهما عن تحقيق القفزات العلمية والتكنولوجية التي حققتها الأمم الغربية وقادتها إلى الحضارة الحديثة . ولا بد إذن من البحث عن أسباب تأخر العرب ، اليوم كما في الماضي ، في القيم السائدة عندهم سواء ما تعلق منها بالقيم النظرية والفلسفية المتسمة بالتدين ، أو بالقيم السياسية المشجعة على الاستبداد أو بالقيم الاقتصادية التجارية المنافية للروح الصناعية والتكنولوجية . والجواب على تخلف العرب لا يمكن أن يكون إلا في مواكبتهم للحضارة الحديثة وأخذهم عنها دون تردد ودون مراجعة ، بسيئاتها وحسناتها كما كان يقول طه حسين . ففي حصولهم على التقنيات الحديثة وفي اكتسابهم السريع لوسائل التفكير الحديث وفي تفتحهم على الوعي العقلاني والموضوعي المرتبط بها والمطابق لمقتضيات العصر ومعطياته تكمن فرصة العرب للتقدم والانطلاق . أما ما يمنح العرب من الأخذ بسبل الحضارة الحديثة الفكرية والمادية ووسائلها ، أو ما يعيق نموها عندهم ، فهو مقاومة البنى الاجتماعية والثقافية التقليدية من دين وأعراف سائدة وطرائق تفكير وممارسات ونظم اقتصادية وسياسية . ولا بد إذن من إزالة هذه العوائق وتغييرها أو تفجيرها أو تفكيكها ، حتى يتاح للوعي الحديث العلمي وللنظام الحضاري أن يرى الوجود ويتطور .

ويتربّ على هذه النظرية في النهضة والانحطاط اختيارات سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية محددة وترتبط بها أنماط معينة من تعبئة الموارد والطاقات الروحية والمادية ، وأشكال خاصة من الاستثمارات القومية والجهوية .

ولا شك أن هناك خلاقات بين أصحاب هذه النظرية فيما يتعلق بتحليل عناصر التأخر الأساسية في الثقافة والحضارة العربية ، وفيما يتعلق بطريقة أو أسلوب معالجتها . فمنهم من يرى التأخر في جوهر هذه الحضارة العربية وصورتها معاً بوصفها حضارة محافظة دينية ولاهوتية مرتبطة بالقرون الوسطى ومتمثلة لروحها . ومنهم من يراه في التشوهات التي تعرضت لها الثقافة العربية عبر الزمن وابتعاد المجتمع العربي عن مصادر الوحي والإلهام الأولى ، إسلامية كانت هذه المصادر أم ما قبل إسلامية . ومنهم من يراه في تغلغل العناصر الأجنبية والثقافات الشعوبية وقتلها للروح العربية أو الإسلامية الأصيلة . أما فيما يتعلق بأسلوب

التغير فالمحدثون يتراوحون بين نظرية الإصلاح العقلي أو الديني أو الاجتماعي وبين نظرية الانقلاب والثورة والتبديل بالقوة والعنف .

أما الموقف الثاني ، ونقصد به موقف الأصالة فهو يرى أن تأخر العالم العربي راجع بالأساس إلى ما تعرض له وما زال من غزو أجنبي غربي سواء أكان هذا الغزو فكرياً جالباً للاستلاب والإنحلال الروحي والأخلاقي ، أم كان سياسياً اقتصادياً مدمراً للقاعدة الإنتاجية ومفككاً للبنى الاجتماعية . ويعتقد هؤلاء أن الثقافة العربية كانت قادرة ، لو لم تخضع لهذا الغزو أن تتمثل بسرعة التجديدات التقنية الحديثة وتهضمها وتتأقلم مع الحضارة الحديثة كما حصل لليابان ، دون أن تضطر إلى التخلي عن قيمها الروحية وحيوية تقاليدها .

وتفترض هذه النظرة أن الثقافة العربية - الإسلامية والقيم المرتبطة بها لا يمكن أن تكون سبباً أساسياً في انحطاط العرب أو تأخرهم ، ولا تفسر عجز العرب عن التكيف مع الأنماط الحضارية الجديدة . بل إن الانحطاط هو نفسه نتيجة للتخلي عن هذه الثقافة وتحريفها ، وأن أية أمة لا تستطيع على كل حال أن تحلم بالخروج من تأخرها واستدراك مافاتهما من تقدم إلا على قاعدة إحياء ثقافتها وبالدرجة التي تنجح فيها باستعادة أصالتها وقيمها الحية . وأن أية حضارة لا يمكن أن تبنى على قيم خارجية أو غربية ليس لها في الواقع المحلي أية جذور .

وبعكس النظرة الأولى ، تتركز خطة التقدم في هذه الحالة على إحياء الثقافة العربية - الإسلامية وتطهيرها من الشوائب والتشوهات التي طرأت عليها ، والاستناد عليها لتدعيم المقاومة المحلية ضد الغزو الأجنبي الفكري والمادي . فهذه المقاومة هي السبيل الوحيدة لاستعادة وعي العرب الأصيل بذاتهم واسترجاعهم لثقتهم بأنفسهم وقدراتهم التي يسعى المستعمرون إلى تحطيمها وإفقاد أصحابها كل أمل بالوجود المستقل والفعال . وهي السبيل الوحيدة أيضاً لاستيعاب الحضارة الحديثة لا باعتبارها نموذجاً فرداً أو تقليداً أعمى لنموذج فرد ، وإنما بعد انتزاعها من إطارها القيمي وتكييفها مع القيم العربية - الإسلامية . وهكذا يتسنى للمجتمع العربي أن يسير العصر ويحتفظ بهويته وأصالته في الوقت

ذاته . ونحن نسمي هذه النظرية بالنظرية التراثية لأنها تراهن على إحياء التراث كعنصر أساسي وضروري لمواجهة مشاكل النهضة والتقدم والحضارة ، ونسمي السياسة والاختيارات الاجتماعية المشتقة منها بسياسة التأصيل الثقافي . وهي بعكس النظرية الحداثية التي تراهن على تشرب المجتمع العربي للقيم العصرية وانطباعه بها ، لا تتحدث عن تخلف ثقافي بقدر ما تركز على مشكلة النفوذ الثقافي الأجنبي والتبعية للخارج^(١) .

وهناك دون شك خلافات داخل هذه المدرسة على تحديد مضمون الثقافة والقيم العربية وتفسيرها تفسيراً أصيلاً وتنقيحها ، وعلى أسلوب مقاومة السيطرة الأجنبية ونحصر منها . فهناك من يختصر الثقافة العربية أو يردّها أساساً إلى الدين الإسلامي ومن ينظر إلى الإسلام على أنه تعبير عن روح الحضارة العربية . وهناك من يدافع عن التراث الديني والأعراف والتقاليد جميعاً ومن يقتصر في دفاعه على مظاهر الثقافة العليا الدينية والفلسفية . وبالمثل يختلف التراثيون بين فريق إصلاحى يؤمن بمقاومة السيطرة الغربية ثقافياً وبالذعوة الصادقة ، وفريق مغالٍ يطمح إلى استئصال كل أثر للثقافة الغربية في الحياة العربية العامة اليومية والسياسية والاجتماعية . وهو غالباً ما يتطابق مع التيارات الدينية السياسية .

وليس من الصعب على المرء أن يدرك أننا هنا أمام نظرتين أو نظريتين متعارضتين على طول الخط ، وأن من المستحيل تصور إمكانية التوفيق بينهما . فما يعتبره الفريق الأول سبباً في النهضة يعتبره الثاني علة الانحطاط والانحلال ، وما ينظر إليه الثاني أساساً للتقدم والانطلاق والانبعث يراه الفريق الأول عقبة كأداء أمام كل نوع من أنواع التغيير الإيجابي .

بيد أن هذا التعارض بين الموقفين ليس مطلقاً إلى الدرجة التي يبدو عليها من اللحظة الأولى . فكلاهما يجسدان النهضة بقيم أو نماذج وأنماط وعي ثابتة متقابلة حديثة أو قديمة ، دينية أو علمانية . فهما يلتقيان في منهج المعالجة وهو

(١) ينبغي أن لا نخلط هنا بين التراثية أو السلفية ، وبين الأصولية التي هي حركة ومذهب سياسي . والموقف التراثي الثقافي قد يوجد عندها ، وعند غيرها ، وهو ليس حركة منظمة .

المنهج الذي يستحق أن نطلق عليه المنهج السجالي مقابل ما سوف نسميه بالمنهج التاريخي الذي يشدد على دراسة كيف تقوم النهضة وكيف تتطور الأمم والجماعات من وجهة نظر الملاحظة التاريخية لنشوء الحضارات وتفاعلها وصراعها . وليس من خلال قياس وضعية تاريخية على وضعية أخرى .

ثم إن الموقفين يتقاطعان في نقاط عديدة ، منها مثلاً ما يتعلق بتفسير القيم العربية - الإسلامية الأصيلة وتقييمها . ومنها ما يتعلق بتعيين أساليب ووسائل العمل السياسي . فقد يلتقي فريق من التغريبيين مع فريق آخر من القوميين على مبادئ مقاومة الغرب أو السيطرة الغربية على العالم العربي أو الإسلامي ، مثل التقاء الليبراليين من الفريقين ، أو الماركسيين والإسلاميين في فترات أخرى . لكن هذه اللقاءات نادراً ما تغير في النظرة الفلسفية لكليهما . وعندما يتحدث القوميون عن الثقافة العربية الإسلامية الأصيلة فهم يركزون اهتمامهم على إحياء القيم الروحية والإنسانية والعالمية بينما يشدد التحديثيون على العناصر العقلانية أو المادية فيها . وبالمثل بينما تتركز مقاومة السيطرة الغربية على مظاهر التشبه بالغرب وتقليده عند الترائين يركز التحديثيون في هذه المقاومة على عناصر التبعية الاقتصادية أو السياسية ويرحبون بالتأثر الثقافي أو ما يسمونه الثقافة .

ثم إن بعض الأجنحة من الفريقين يمكن أن تلتقي على مواقف واحدة في رفض الواقع الراهن واعتباره واقعاً منحطاً وفاسداً وعلى ضرورة تغييره في اتجاه أو آخر ، رغم أن الصفة الغالبة على التحديثيين هي التقدمية التي تعني عدم الاهتمام كثيراً بالماضي وقيمه وتقاليد ، والصفة الغالبة على الترائين هي المحافظة التي تعطي لهذه القيم والتقاليد مضموناً إيجابياً ومستمراً في إيجابيته . ومع ذلك كثيراً ما تلتقي تيارات ثغريبية وقومية تحديثية وتراثية ، مختلفة أو متناقضة في وجهات نظرها الفلسفية والإيديولوجية ، على أرضية سياسية واحدة فتجتمع على تحييد أسلوب الإصلاح والعمل السلمي أو على الدعوة إلى اتباع الوسائل الثورية والانقلابية للإسراع في بلوغ الهدف . فليس من المستغرب أن تختلف آراؤهما العامة وتتفق نظرياتها السياسية وطرائق نضالهما في العمل الديمقراطي أو التغيير الحركي الطبيعي .

وكثيراً ما يدفع هذا اللقاء السياسي المحللين إلى الخلط بين المواقف النظرية والمواقف العملية النابعة من ظروف النضال والعمل وما تحتاجه من تحالفات وخطط وتكتيكات . فيعتقدون أن الليبرالية مثلاً تجسد موقفاً فلسفياً أساسياً يتجاوز الموقفين اللذين أشرنا إليهما . والواقع أن صعيد الرؤية النظرية لا يتطابق دائماً مع صعيد العمل السياسي الذي يفترض توحيد قوى اجتماعية مختلفة الرؤية حول أهداف وبرامج سياسية مشتركة ، ويستند إلى بناء أحلاف وتكتلات مؤقتة مرتبطة بالظرف العام وبالحقبة ، ومستجيبة لتحقيق أمور محددة . وقد جمعت الحركة الليبرالية العربية مثلاً في المنتصف الأول من هذا القرن فئات تنتمي في رؤيتها التاريخية إلى كلا المنطقتين التغريبي والقومي التراثي . وكانت نقطة التقاطع بينهما الاتفاق على مقاومة الاستعمار الأجنبي الذي شكل تحدياً مشتركاً لايديولوجية التحديث وايديولوجية الاحياء الثقافي معاً ، وكان من الطبيعي أن ينشأ عن هذا الحلف السياسي الليبرالي تيار نهضوي تختلط فيه أطروحات التحديث والنقل عن الغرب بأطروحات الحفاظ على التراث ودعم الهوية العربية الإسلامية والقومية .

فليس من الضروري أن تتطابق المواقف الايديولوجية العميقة مع المواقف الاجتماعية السياسية . فمن الممكن أن يكون الإسلامي تقدماً ، والتغريبي رجعيًا ، كما يمكن أن يكون التحديثي تقدماً والإسلامي محافظاً . إذ أن الموقف الأساسي هو لحظة من لحظات الوعي لا يتحقق في صورة ملموسة ولا يتجسد كتيار سياسي إلا إذا نجح في الأخذ بالاعتبار الموقف الآخر . لذلك تضطر الايديولوجيات السياسية إلى أن تأخذ بالحسبان الوضع السياسي والاجتماعي فتوفق بين عناصر نظرية وايديولوجية مختلفة تفيدها في تعبئة هذه القوى أو تلك ، وفي جذبها ، وتربطها بالصراعات الملموسة القائمة في المجتمع .

وهناك ميل متعاظم اليوم إلى أن تتطابق المواقف والحركات السياسية مع المواقف والرؤى النظرية الأساسية . وهذا التطابق لا يعبر عن الشرخ العميق في أساس الوعي العربي المعاصر وحسب ولكنه يشكل أيضاً قاعدة حرب لا هوادة فيها بين التيارات الفكرية والسياسية التي يحيش بها المجتمع العربي ويظهر

الاختيارات المتناقضة المطروحة أمامه . وهذا ما يفسر عودة المناظرة التاريخية العربية إلى نقطة البدء ويفتح موضوع النهضة والتقدم والهوية من جديد على بساط البحث وعلى أوسع نطاق .

ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على ما ينشر اليوم في العالم العربي من أدبيات اجتماعية وسياسية وفكرية حتى ندرك أن هذا الموضوع هو ميدان النقاش الأساسي والأكثر حدة معاً . فهو يتعلق بفهم تجربة العالم العربي الماضية وتقييمها كما يتعلق بتحديد معالم المستقبل العربي للعقود القادمة .

ويتخذ هذا النقاش أكثر فأكثر صورة الصراع الحاد بين دعاة الحداثة والتحديث ، ودعاة الأصالة والعودة إلى الجذور . ويكاد هذا النقاش أن يشق المجتمع العربي إلى فريقين لا لقاء بينهما ، بل أن يشق الوعي العربي ذاته على نفسه ويدخله في صراع ذاتي دائم يمنعه من أية حركة إيجابية ويفلق عليه كل آفاق التغيير . ومع استمرار النقاش والمناظرة يزداد استقطاب الرأي العام وتبلوره حول معسكرين متخاصمين ومتعاديين ، معسكر التقدم - أو التفريب كما يصفه خصومه - ومعه كل الفئات التي تميل إلى التحديث وتمثل أو أخذ الحضارة الغربية ، ومعسكر الأصالة والتراث - أو الرجعية والمحافظة كما يصفه أعداؤه - ومعه كل الفئات التي ترى في العودة إلى الجذور ، وإلى الإسلام بصورة خاصة ، السبيل الوحيد للخروج من الأزمة الراهنة .

ففي الوقت الذي تبرز فيه قوة الإيديولوجية الدينية وجاذبيتها ، تكثر دعوة المثقفين من ليبراليين وماركسيين وقوميين إلى تحديث المجتمع العربي وتجديد بناءه التقليدية وقراءة تراثه قراءة علمية وواقعية وتفسير الإسلام تفسيراً تقدمياً وثورياً ، إلى غير ذلك من غبارات تسترجم هذه الرغبة المستزائدة في التحديث والتجديد . وتطرح هذه الدعوة نفسها كمحاولة لتأسيس أو صياغة رؤية أكثر عقلانية وموضوعية وعلمية للواقع العربي من الرؤية العاطفية والجماعية واللاتاريخية « المفقوة » أو غير المطابقة للواقع التي سادت في الحقبة الماضية . وغالباً ما توصف هذه الرؤية الأخيرة بأنها سحرية قائمة على الحرب من الواقع وعلى مدح الذات أو تضخيمها . بل إن المغالاة تدفع بعضهم إلى وصف التيارات الحديثة

الماضية السلفية والقومية معاً بأنها بقيت تقليدية لم تستطع أن تفهم جوهر الحداثة ومنطقها العميق . ومنهم من يذهب أبعد من ذلك فينتقد العقل العربي عامة ، أي أسس التفكير العربي بغض النظر عن اختلاف النظريات والعقائديات والمذاهب والأفكار وميادين المعرفة باعتباره عقلاً متهاقاً لا بد من « تفكيكه » لاستبداله بعقل موضوعي وواقعي جديد . وهم يقصدون في الحقيقة نقد الثقافة العربية جملة وبما تشتمل عليه من رؤى عامة وروح وقيم وطرائق تفكير ومبادئ وأحكام فلسفية أو دينية أو أخلاقية أو علمية .

الثقافة والهوية

يخفي موضوع النهضة في الواقع موضوعاً آخر لا يقل عنه أهمية ، هو موضوع الذاتية . فالجماعة كالفرد لا تستطيع أن تبادر إلى عمل أو تقوم بإنجاز مشروع ، مهما كان نوعه أو حجمه ، دون أن تعرف نفسها ، وتحدد مكانها ودورها ، وشرعية وجودها كجماعة متميزة ، أي تعرف أيضاً ما هي وما تريد أن تكون عليه . وقبل أن أريد تحقيق شيء يجب أن أدرك من أنا . وقبل أن أغير وأطور وأنهض ، لا بد لي من أن أكون ذاتاً ، أي إرادة .

ولعل سوء التفاهم المطلق بين الفريقين نابع من أن كلا منهما يتكلم على صعيد مختلف لا يراه الآخر . ولعل ضعف موقف التراثيين في النقاش حول علاقة الثقافة العربية بالنهضة نابع أيضاً من نجاح خصومهم في جرهم إلى المناقشة على أرضية إشكالياتهم نفسها ، وهي النهضة والتقدم ، ولذلك نحن لا نستغرب أن تلتقي كما سوف نرى مفاهيم التراثيين والتحديثيين لقاءً كاملاً في تحديد مفهوم النهضة ووسائل تحقيقها العلمية والتقنية . وطالما بقيت أهداف التقدم هي السائدة في المجتمع ، يميل الوعي الاجتماعي إلى الأخذ بمواقف وأفكار التحديثيين . فإذا برزت ظروف أكدت أو اشعرت بأن إمكانية هذا التقدم ضاقت أو لم تعد موجودة صعدت مسألة التراث والهوية إلى السطح من جديد .

وهكذا ، بقدر ما يبدو موقف التراثيين خالياً من أي جواب ، يختلف عن جواب خصومهم ، فيما يتعلق بالنهضة ، يبدو موقف التحديثيين خالياً أيضاً من

أي جواب على مسألة الهوية إذا لم يأخذوا بموقف خصومهم التراثيين . بل إن هناك شبه اتفاق بين الجميع على أن العلم هو أساس التقدم وأن الدين أو الإسلام تخصيصاً هو أساس الهوية . ومن هذا الاتفاق غير المعلن تنبع المواقف المختلفة من الحضارة الممثلة في العلم ومن الهوية الممثلة في الإسلام . فالمغالون من التحديثيين يرفضون فكرة الهوية ذاتها ويعتبرونها هراء لا معنى له ، ترتبط في رؤيتهم بالدين وما يمثله في نظرهم من وعي غيبي ولا عقلاني مخالف للقيم الحضارية الحديثة . والمغالون من التراثيين يرفضون العلم والحضارة باعتبارهما يشكلان نقيضاً للدين وبالتالي للهوية القومية . وأصحاب التوفيق بين الهوية والحضارة يرون في تفسير الدين تفسيراً تقديمياً أساساً لربطه بالعلم ، وترجمة العلم في لغة العرب وتراثهم ، مصدراً لتدعيم الحضارة ودفع عجلة التغيير .

فمن الخطأ إذن تفسير استمرار هذا النقاش أو الصراع الفكري بالقول أن هناك من يرفض الحضارة أو الاندماج فيها . أو أن هناك جماعة أخرى ترفض الهوية والاستقلالية والوحدة الجماعية والذاتية . ولا بد أن يكون لهذا الرفض من طرف أو آخر أسباب أخرى ، ليست بالضرورة واعية لدى الفريقين ، ولا تتعلق بالضرورة ، وكما تشير إليها مقالات الطرفين ، بالاهتمام بالنهضة أو بالاهتمام بالهوية .

وهدف هذا الكتاب هو بالضبط إبراز هذه الأسباب ، لا باعتبارها عللاً أولى ، وإنما كمحصلة لسيرورة ثقافية اجتماعية تاريخية .

فليس هدفاً من هذا الكتاب إذن تقديم نظرية في النهضة الحضارية عامة ، ولا في نهضة العرب خاصة ، فمثل هذه النظرية تستدعي مسبقاً إعادة فحص المفاهيم والإشكاليات والمسائل التي لا بد منها لصياغة مثل هذه النظرية . وليست « فلسفة » النهضة الكامنة أو المتضمنة في الجدال الراهن بين التيارات الإيديولوجية العربية القائمة هي نظرية حقيقية في النهضة بقدر ما تبدو لنا غطاءً إيديولوجياً وإنسانياً لصراع اجتماعي يتخذ من الثقافة العربية موقعاً ممتازاً ومتميزاً . ولهذا أيضاً تركّز النقاش وما يزال على دور هذه الثقافة ومكانتها في هذه النهضة بأكثر مما

تركز على دراسة شروط النهضة داتها فالثقافة العربية تشكل عقبة بالنسبة للبعض وعائقاً أمام تحقيق أهدافهم ، كما تشكل سلاحاً ومركز قوة ، بالنسبة للبعض الآخر

وليس في نيتنا أن نقوم هنا بتحليل أبعاد هذا الصراع الاجتماعي الذي يستخدم الثقافة المحلية كما يستخدم القيم والوسائل الأخرى ، فهو موضوع بحث آخر عن المجتمع والنظام الاجتماعي العربي . إنما هدفنا الأساسي هو أن ندرس مكانة الثقافة ودورها ووظيفتها في هذا الصراع ، كخطوة أساسية لفهم علاقاتها بمسائل المجتمع والتاريخ الأخرى كالنهضة أو الهوية أو التحديث أو العقلانية ولعل هذه الدراسة للثقافة تساعد على حسم الموقف في هذا الجدل الدائر منذ أكثر من قرن والذي لن ينتهي في نظرنا قبل أن ينجح العرب في الدخول محددات كذات فاعلة ومؤثرة في التاريخ بعدما أبعدها عنه .

ولعلها تفسر أيضاً لماذا أصبحت المسألة الثقافية ، وأصبح الموقف من الثقافة العربية ، هو مركز الاستقطاب الأساسي في موضوع مناقشة التغير والتغير في العالم العربي . وهو الموقف الذي يحدد من خلاله كل فرد وكل جماعة مواقفهم من الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية أيضاً .

إذ أن هذه الوضعية المتميزة التي أخذتها مسألة الصراع بين المعاصرة والأصالة هي التي تدفعنا اليوم إلى البدء في إعادة طرح موضوع النهضة العربية على أساس أو انطلاقاً من مناقشة مسألة الثقافة العربية والتوتر الذاتي الذي تعيشه بين قيم الحاضر المعاصر وقيم الماضي التاريخي . وهذا لا يعني أن هذه المسألة تشترط مسألة النهضة أبداً . بل نحن نعتقد العكس تماماً ، أي أن ما تعاني منه الثقافة العربية من تمزيق وأزمة ليس إلا انعكاساً لأزمة المجتمع نفسه . وأن أفضل طريقة لتمييز هاتين المسألتين هو إعادة طرح المسألة الثقافية بشكل مستقل ورؤية العوامل التي تتحكم في جعل هذه المسألة محور النقاش حول النهضة والتقدم ، أي في رد مسألة تاريخية كبيرة ومعقدة ، تشارك في تحديدها عوامل مادية وفكرية متنوعة داخلية وخارجية ، اقتصادية واجتماعية ، إلى مسألة نزاع وتنازع بين قيم

ثقافية ومواقف فكرية . إن توضيح مشكلة الصراع بين القديم والحديث ، يمكن إذن أن يساعدنا كثيراً في تحرير مسألة النهضة التاريخية من ملابساتها الإيديولوجية وطرحها بشكلها السليم .

تتجاوز إذن مسألة الثقافة ما يرتبط بها من إشكالية نهضة وإشكالية هوية وتشمل جوهرياً علاقة العربي بالآخر ، ومن ثم بذاته عبر الآخر بقدر ما أصبح هذا الآخر محوراً موضوعياً للتفكير بالذات ، أو لوعي الذات . ويصبح موضوعها الرئيسي هو الكشف عن أسباب هذه القطيعة المأساوية العميقة التي تجعل من رفض الذات شرطاً لقبول الحضارة أو توطئتها ، ومن إنكار هذه الحضارة شرطاً لتأكيد الذات . وما ينتج عن ذلك من ظواهر تحقير الذات أحياناً وتجريحها كمقدمة لدفع حركة الاندماج في الآخر والانحلال فيه . وما ينتج عنها أيضاً ، وفي الوقت ذاته ، من تعلق بالتقاليد وغيرة مرضية عليها ، وتعظيم للتراث ، وشعور بالاضطهاد يستدعي العدوانية تجاه الآخر ، والتساهل مع النفس ويخلق علاقة نرجسية بالذات .

ففي خضم هذه النقاشات تتكون أيضاً الثقافة العربية ، وتتكون لدى العربي صورته الخاصة عن ذاته وعن الآخر ، أي عن العالم الذي أصبح الغرب محوره ومركزه . بل تتكون صورته عن ذاته عبر صورته عن الغرب ومن خلالها ، يرى نفسه صغيراً وهامشياً ولا عقلانياً ولا معنى لوجوده من جهة ، وعظيماً وفذاً ووراث حضارات وأمجاد لا تبلى من جهة أخرى . ويرى الغرب في الوقت ذاته خطراً جاثماً مدمراً ، ومقراً لكل الحسنات والقيم والفضائل والإبداعات معاً .

فهو المستعمر ، المسيطر ، المهيمن والمتجبر الذي لا يفكر ولا يعمل إلا للإطباق على الشعوب الضعيفة ونهبها وتدميرها . ولكنه يشكل في الوقت ذاته ، المورد الأول للعلم والتقنية والحضارة . ومركز التسلية والسياحة والمتعة وموطن التقدم والمثل الإنسانية والقيم الفنية والجمالية . فكيف ندركه ونستوعبه ؟ كيف نحققه في الذهن ونصوغ صورة مقبولة ومعقولة أي منسجمة وصحيحة عنه ؟ هل

هو الشر أم الخير؟ هل نقبله أم نرفضه ، أو نقبله ونرفضه معاً كنموذج وكمثال يحتذى؟

في الواقع ، لم يستطع الوعي العربي أن يقبل الواقع كما هو ولم يستطع أن يرفضه كما هو ، ولم يستطع أن يحوله حتى يتمكن من قبول ما شاء منه ورفض ما شاء . بقي العالم كما هو منذ أكثر من قرن ، رمزاً للسيطرة الغربية . وبقيت هذه السيطرة ساحرة ومرعبة ، قاتلة ومخلصة ، حامية وفاتحة ، وبقي العربي خائفاً ومسحوراً معاً . وكما أخفق في إيجاد الموازنة المطلوبة بين طموحاته وواقعه الفعلي حتى يحدد مكانة معقولة له في العالم ويتصالح مع التاريخ ، لم ينجح أيضاً في تحديد دائرة التعامل والتبادل الممكنة والثابتة مع الغرب حتى يتصالح مع نفسه . متمرداً على هيمنة الغرب في التاريخ ، أصبح العربي متمرداً على التاريخ في الغرب والعالم ، وهكذا بين الخضوع الكامل ، والاحتجاج الشامل ، ما زال يعيش بين تجريح الذات وتعظيمها ، وإنكار الآخر وتقديسه ، لا قدرة له على رفضه ولا رغبة له في تمثله .

هكذا وضع العربي أمام إحراج مأساوي لا مخرج منه ، فإما الحفاظ على الذات مع التخلي عن الحضارة والتاريخية والفعالية ، أو الانخراط في الحضارة والدخول في العالمية والتاريخ مع التخلي عن الذات . هذا الإحراج المأساوي يشق في الواقع وعي العربي ويهزه في أعماق أعماقه ويرميه في تعاسة وجودية لا مثيل لها . والشقاء الذي يخلقه هذا الإحراج في وعي كل عربي أكثر تدميراً لروح المبادرة والإبداع ، وأكثر تمزيقاً للحممة الاجتماعية من كل ما تشهده الساحة الفكرية والسياسية من صراعات ومعارك بين التيارات المنظمة وغير المنظمة التي تمسك بطرفي هذا النقاش . بل إن هذه التيارات لا تقوم في الواقع ، وليس لها وظيفة أخرى ، سوى إعادة إنتاج هذا الوعي الممزق وتعميق الشعور بالفصام والقطيعة فيه .

ليست المسألة في نظرنا إذن : هل الثقافة العربية أو هل العقل العربي أو الدين العربي أكثر غنى أو علمية أو عقلانية من الثقافة والعقل الغربيين ، أو هل

الثقافة الغربية متفوقة على الثقافة العربية في أنظمتها المعرفية وإبداعاتها ، وهي إشكالية عصر النهضة عامة ومن استمر يفكر في نطاقها . وليست أيضاً مسألة تقرير أيهما من التيارين أقرب إلى الصواب أو أجدى نفعاً للعرب ، وأقدر على إيصالهم إلى الحضارة أو الذاتية ، مما هو مطروح اليوم في النقاش بين الأصاليين والمحدثين ، وفي المقارنة الضمنية أو العلنية بين قيم الحداثة وقيم الأصالة ومحاسن كل منهما . فهذه مسائل لا معنى لها في إشكاليتنا ، وهي في نظرنا بعيدة كل البعد عن الطرح العلمي . إن السؤال الجوهرى هو في رأينا : كيف حصل ذلك ، أي كيف نشأ هذا التعارض والانشقاق في الوعي العربى ، وما هو مغزاه التاريخي ومضمونه الاجتماعي ، ولماذا لم ينجح المجتمع العربى في تجاوزه ، أي في إنتاج وعي متسق ومستقل بذاته ينقل الثقافة العربية ذاتها من دائرة الصراع الإيديولوجي المفقّر إلى دائرة الإبداع المثري ، ومن التقليد الأعمى للماضي والحاضر ، إلى خلق المستقبل أي إلى التجديد .

ولا بد أن نشير في هذه المناسبة إلى أن المساهمات الراهنة في حل هذه المسألة قد زادت في تعقيدها أكثر مما قدمت فرصاً أفضل لتجاوزها . فهي ما زالت غير قادرة على الخروج من آلية المعارضة المستمرة بين القديم والحديث إلى الكشف عما يكمن وراءها وعما تخفيه من رهانات ومواقف وأهداف ، فتجعل من الصراع الفعلي والتاريخي والاجتماعي ، صراعاً بين فكرين أو إيديولوجيتين تنفي واحدهما الأخرى .

وكثيراً ما تقوم هذه الدراسات على المقارنة الشكلية بين قيم الثقافة العربية وقيم الثقافة الغربية ، لإثبات تفوق هذه أو تلك . وتشتق من هذه المناقشة المجردة مسائل وإشكاليات جديدة تساهم أكثر في زرع الفوضى والبلبلة ، كمشكلة العقل والعقلانية ، والعلم والعلمانية ، والنهضة والانحطاط ، والتخلف والتقدم ، فيربط البعض مفهوم الحداثة أو المعاصرة بمفهوم العقل ، وينفون هذا المفهوم الأخير كلياً من الأصالة أو الثقافة العربية ، ويستتجون استنتاجات تاريخية سريعة ، يشاركون فيها لأهداف أخرى خصومهم ، عن تلازم الديني والزمني في الحضارة الإسلامية أو استحالة انفصالهما ، ويشكل عام يعيدون تركيب وتفسير

الثقافة الغربية والثقافة العربية على ضوء حاجات الصراع الفكري ، وبما يخدم غاية فرض التعارض المطلق بين عالمين ثقافيين ورؤيتين متباينتين للوجود والعالم . فتصبح الحداثة علامة العقلانية والعلمية والتقدم والديمقراطية والعلمانية والإنتاجية والإبداعية ، وتصبح الأصالة علامة الجهل والخرافية والركود التاريخي والاستبداد والحكم الديني والتأخر المادي .

وحق يمكن إعادة وضع المسألة في نصائها الصحيح ، وفي السياق الاجتماعي والتاريخي العام الذي يطرحها فيه الواقع العملي نفسه ، لا بد في نظرنا من الارتقاء إلى مستوى البحث الاجتماعي والاجتماعي التاريخي . فعل هذه المستويات وحدها يمكن الكشف عن العلائق المعقدة داخل كل ثقافة ، بين أنظمتها ومبادئها المختلفة ، وبين الثقافات الحية المتنازعة فيما بينها ، والتأثر أو التأثير المتبادل الذي يمارسه بعضها على البعض الآخر . كما يمكن فهم العلاقة المعقدة بين خصوصية الثقافة وعمليتها من جهة وعالميتها أو طموحها لأن تكون عالمية وإنسانية من جهة ثانية ، وما ينجم عن ذلك من تنازع دائم بين مختلف الثقافات الكبرى على احتلال ما نسميه حقل العالمية والمرجعية التاريخية الذي يشكل احتلاله القاعدة الأساسية لتأكيد تفوق ثقافة وهيمنتها ومن ثم علاقاتها بالثقافات الأخرى ، وأشكال تطورها اللاحقة . . وهذا يقود بنفسه إلى دراسة قوانين تطور الثقافات وتغيرها الجزئي أو الكامل وتبدل مفاهيمها وقيمها ورموزها أو موتها وزوالها ، ثم انبعاثها مجدداً أو فنائها نهائياً . فالثقافات كما سنرى كينونات تاريخية متحولة ومتبدلة ومعرضة للموت أيضاً .

وليس من الممكن الإجابة على أي من الأسئلة التي نطرحها على أنفسنا مثل ماذا نأخذ من التراث وماذا نترك ؟ ماذا نحدث وعلى ماذا نحافظ ؟ ما الهوية وما الحضارة ؟ وما هي علاقة الثقافة بالدين والعلم والمجتمع والتاريخ وغيرها من المسائل المتشعبة دون طرح المسألة الثقافية في إطارها الاجتماعي التاريخي هذا ، أو بالأصح في نطاق علم الاجتماع التاريخي الذي يبين تكوين الثقافات ومصائرهما . وسوف ندرك عندئذ أننا غير قادرين على فهم مسألة النهضة الثقافية

ولا على حل مسألة الهوية والاستمرارية الذاتية إذا بقينا ننظر إلى التراث العربي والإسلامي كمصدر للإجابة التلقائية على كل الأسئلة والمشكلات .

إن غاية البحث الاجتماعي في الثقافة هو إذن أن يتحول إلى جزء من البحث التاريخي العام ، أي أن يكشف عن قوانين الحركة في الظاهرة ويبين مصيرها . وأن يدمج هذه القوانين الجزئية في قانون عام يشمل حركة المجتمع ككل . وهي الغاية القصوى من هذا البحث . فغندما ندرس النسق الثقافي نسمى في الواقع إلى تفسير وجه من وجوه حركة التاريخ الاجتماعي الذي يكون تطور البنية الثقافية أحد محاورها الأساسية .

لا يقع بحثنا هنا إذن في دائرة دراسة تاريخ الأفكار والإيديولوجيات ، وهو البحث السائد في الدراسات العربية . وخطأ هذه الدراسات أنها تسعى إلى فهم الثقافة من خلال وعي المثقفين وكتاباتهم ، فتعجز عن فهم الثقافة والأفكار معاً . فالأفكار كلها صحيحة إذا لم يكن معيارها الواقع الاجتماعي والتاريخي ، وليس هناك فكرة خاطئة في ذاتها ، إنما يجب البحث عن المغزى الحقيقي لهذه الأفكار في النسق الثقافي الذي يبرز وحده موقع الفكرة ومضمونها العقلي ، وفي النسق الاجتماعي العام الذي يبين لنا وظيفتها وسبب ظهورها ومآلها وهذا يفسر كيف أن الأفكار التي تبدو مفتقدة إلى المنطق الداخلي (الأرسطي أو الجدلي) ، لها على العكس منطقها الاجتماعي ووظيفتها الخاصة في الصراع بين تيارات ملموسة وبشر حقيقيين .

وإذا بقينا في إطار النقد الإيديولوجي أو الإيديولوجي المعرفي نكون قد وقعنا في شرك الفكر الإيديولوجي ذاته الذي يحول الثقافة إلى أفكار ، ورددنا عليه من منطق نفسه .

فالنقد الإيديولوجي يعامل الثقافة كجوهر ثابت وقائم بذاته من الأبد إلى الأزل ، ويعمل على استنطاقه وفهمه بما هو جوهر ثابت . ولا يفهم التاريخ إلا على أنه امتداد ، امتداد للماضي في الحاضر أو للحاضر في المستقبل ، ولا يفهم النقد إلا على أنه توليد للواقع من المفهوم أو للجوهر من التراث التاريخي ،

فيقول إن جوهر الثقافة العقلي هو كذا ، وبنيتها الشعورية هي تلك . فهو يعزل الثقافة عن المحيط وحقل العلاقات العالمية والحضارية التي تعيش فيها والمشاكل والتحديات والتمزقات التي تعيشها أيضاً أو تتخبط فيها . وقد يفيد هذا المنهج في إيجاد مبرر أو تفسير للعجز العقلي للنخبة الراهنة عن إيجاد حلول للمسائل الاجتماعية الكبرى بما فيها مسألة الثقافة القومية ، كما يمكن أن يعيدها في إلقاء مسؤولية مصاعب الحاضر ونقائص رجاله على مثالب الماضي ولا عقلانية أجياله ، ولكنها لا بد أن تحقق إخفاقاً كلياً في إدراك المشكلات الثقافية والاجتماعية الأخرى المرتبطة بها .

ولعل من الضروري هنا أن نذكر أن ما ندرسه الآن ليس الثقافة العربية الإسلامية منذ نشأتها حتى اليوم ، وإنما الثقافة العربية الراهنة كما نعيشها وكما نفهمها وبما هي استمرار للثقافة التاريخية وانقطاع عنها . فنحن نعتقد أنه لا بد من الفصل بين مرحلتين أساسيتين على الأقل . مرحلة ما قبل ظهور الهيمنة الحضارية الغربية ، والمرحلة التي تلتها . فظهور هذه الهيمنة بشكل في نظرنا بداية قطيعة تدريجية لكن عنيفة في سيرورة كل الثقافات غير الأوربية . وكل التطورات والصراعات والمشكلات المطروحة على ثقافتنا اليوم سواء ما تعلق منها بالهضبة أو بالهوية ، أي بالالتحاق بالحضارة والاحتفاظ بالذاتية ، مرتبطة بهذه القطيعة ولا تفهم بدونها . بل إن هذه القطيعة هي التي تدفعنا إلى الحديث عن التراث بقدر ما جعلت من ثقافتنا الكلاسيكية المحلية ثقافة هامشية غريبة عن الحضارة وفرضت علينا تكييفات جديدة تتجاوز المقدمات والمسابقات الأساسية لهذه الثقافة .

وإذا كان لا بد لنا من تحديد القصد من هذه الدراسة فنقول إنه ليس الدافع عن أيديولوجية عقلانية أو لا عقلانية ولا عن موقف محافظ أو تقدمي ، ولا إيجاد تفسير للتخلف العربي في الحاضر أو في الماضي ، ولا تفكيك البنية السحرية أو « الهرمسية » للفكر العربي ، وإنما وعي الذات ، أي فهم القاعدة الروحية والعقلية التي ينطلق منها الوعي العربي الراهن ويتأسس عليها ، بما فيه من وهي نظري وفلسفي ومن وعي فردي وشعبي . فهذا الوعي الذاتي هو بداية كل وهي ومبدأ كل ممارسة . إذ ليس للإنسان الفرد أو المجتمع أن يحدد أهدافه

ويبادر إلى العمل وبذل الجهد ما لم يفهم نفسه ويدرك المشكلات التي تواجهه ، ويتعرف على ذاته ويحل أولاً تناقضات وعيه وتمزقاته الذاتية . إن الخروج من شقاق الوعي وأزمته هو الخطوة الأولى والضرورية على طريق الخروج من شقاق الواقع وفوضاه ، أو على الأقل من التخطيط الأعمى في هذا الواقع .

ولا بد لهذا القصد أن يفهم أيضاً من وجهة نظر أولية وأساسية هي الالتزام بالجماعة وبوحدتها وتقدمها ، والإيمان بأنه لا بديل للعرب عن ثقافتهم وعن تميّتها وتطويرها ، ورفض كل ما من شأنه أن يهددها بالتفكيك والقضاء . هذه هي المسبقات الأساسية التي تحكم هذا البحث ، وتشترط كل ما عداها من مسبقات نظرية وإيديولوجية ، حداثيّة أو أصاليّة .

إن غياب الوعي أو استلابه ، هو الذي يحول كل صراع اجتماعي إلى حرب ساخنة ويجدد شروطها . ونحن نعيش الآن هذه الحرب المعلنة والخفية : حرب العقل والدين ، الساسة والوجهاء ، الفقر والغنى . وليست الحرب الأهلية اللبنانية هي الأكثر تعبيراً عن هذه الحرب وإن كانت الأكثر عنفاً .

هذه هي المشاغل التي أوحّت لنا بكتابة هذا البحث . ومنها صفنا الأسئلة التي أردنا أن نطرحها على أنفسنا وعلى أطراف النزاع معاً ، مؤملين أن تساهم في إيضاح مسائل النقاش ، وإزالة الاختلاط الحاصل فيه . لعلنا ننجح في إزالة بعض من سوء التفاهم بين أبناء المجتمع الواحد ، وفي تخفيف شدة القطيعة الحاصلة في وعيهم ، والتي هي مصدر النزاع ونتيجته معاً .

فلا يشك أحد بأن ما يعيشه المجتمع العربي اليوم هو حرب مواجهة بكل معنى الكلمة : مواجهة فكرية وضميرية واجتماعية وروحية في الوقت ذاته . وهي حرب تفقده كل قدرة على إدراك واقعه والتفكير بمستقبله ، وتختصر نشاطه وجهوده في الصراع من أجل حماية الذاتيات المتنافية والرابضة كل منها خلف متاريس ذهنية أكثر منها مادية ، ووهمية أكثر منها موضوعية ، تحرم من رؤية الخطر أكثر مما تحمي منه .

طموح هذا الكتاب إذن هو المساهمة في مصالحة العربي مع نفسه أولاً ،

ومع ذويه ثانياً ، ودفعه إلى التضامن معهم والتعامل مع الواقع الموضوعي بدل تغطيته بآليات وهمية تزيد من شدة تحديه وممانعته ، وهجر المعارك الذاتية والعداوات المصطنعة التي كثيراً ما يساهم المثقفون ، في اندفاعهم لتبرير مواقف إيديولوجية أو الدفاع عن مواقع مهنية ، إلى تسعيرها .

وأملنا أخيراً أن يتاح لنا استكمال هذا الكتاب في أقرب فرصة حتى تتحقق الغاية منه . ولنعذرنا القارئ إن لم يجد فيه الإجابات الوافية على العديد من الأسئلة المطروحة ، أو وجد فيه إجابات ناقصة . فنحن لن نتجاوز هنا ما اعتبرناه متعلقاً بفهم أسباب هذه القطيعة وآليات تحقيقها . وستترك الحديث عن المسائل الأخرى إلى أبحاث قادمة إذا اسعفتنا المهمة والوقت .

لكن قبل أن ندخل في الموضوع يبدو لنا من الضروري أن ننبّه إلى بعض الشروط المنهجية التي لا بد منها في كل مراجعة نقدية لا تريد أن تسقط في السلبية والنقد الشكلي . وقبل ذلك ، إلى بعض الأخطاء المنهجية التي تمنع المفكرين عادة من الرؤية الموضوعية وتحرفهم عن الهدف المطلوب .

II

العقل السبالي

موضوع النهضة والتقدم هو إذن في العالم العربي الموضوع الأول والآخر . كل سؤال ينبع منه وكل جواب يطمح إلى أن يصب فيه . انه في أساس العقل ووعي العالم . ويكاد الرجل العامي يستخدمه أكثر من المثقف والسياسي . وهو مع ذلك جوهر خطاب الحكم والمعارضة من أي اتجاه ايدولوجي كانوا . فافتتاح مصنع جديد أو بناء نادٍ رياضي ، أو تدشين سد ترابي ، كل ذلك من الفرص الكبرى للتذكير بمسيرة التقدم . واتهام شخص من قبل شخص آخر بالتخلف هو الشتيمة الأساسية والكبرى . وعدم مراعاة بعض الآداب أو التقاليد الاجتماعية ، توصم بالتخلف . وتوصم تقاليد أو عادات أخرى حديثة الطابع بالتقدمية . باختصار أصبح التقدم قيمة اجتماعية أكثر منه مسألة تاريخية . بل إنه بقدر ما يصبح مستحيلًا على صعيد السيرة التاريخية الموضوعية ، فيبقى العالم العربي في أزمة نموه ، يأخذ أبعاداً أسطورية ورمزية ، ويصبح استعماله الرئيسي على صعيد القيم لا على صعيد المفهوم الإجرائي العلمي .

بالطبع ليست « فلسفة » النهضة أو التقدم المتضمنة في خطاب القائد السياسي أو المقاتل الحزبي أو الرجل العامي فلسفة حقيقية ، أي تنطوي على عناصر نظرية ، حتى في مستواها العملي ، للتقدم . بل هي بالأحرى غطاء ايدولوجي لصراع فردي أو اجتماعي يتخذ من موضوع التقدم ، لأهميته وعموم التأثير به ، موقعاً ممتازاً ومتميزاً . لذلك فإن الجدال لا يمس هنا موضوع شروط النهضة الموضوعية ولا أسبابها ، ولكنه يتخذها ذريعة لوصف ممارسات أو أعمال

لا علاقة لها بها ، بالتخلف أو التقدم . والهدف من ذلك هو تأكيد مواقف محددة وتثبيتها . وهذا هو مصدر نشوء ما نسميه بالمنهج السجالي . وهو لا يشكل في الحقيقة منهجاً علميته ، وإنما لأنه ينطوي على منطق خاص به قائم على إعادة توظيف المفاهيم والقيم والرموز والدلالات العلمية وغير العلمية وتنظيمها بما يفيد في تحسين موقع المتكلم السياسي أو الاجتماعي أو الفكري والدفاع عنه . فهو لا يصدر كما يقال عادة عن خطأ في التقدير ، أو عدم دراية بالموضوع ، أو خلط عشوائي . بل إن الخطأ في التقدير والخلط والتشويش هي من العناصر المكونة لهذا المنهج بما هو طريقة لانتاج إشكاليات ومسائل تفيد في تدعيم الصراع الاجتماعي والإبقاء عليه .

ولهذا فإن من خصائص المنهج السجالي حجب المسائل الحقيقية أو تضييع جوهرها ، والقفز عليها عن طريق الخلط بين قضايا ومطالب ليست واحدة ، ولا تصدر واحدتها ضرورة عن الأخرى ، أو استبدالها بقضايا جانبية تبعد النقاش عن هدفه العلمي وتحرفه عن مقاصده الأساسية .

وليس من الضروري أن نقول أن هذا المنهج هو الذي ما زال يسود موضوع النهضة والتقدم في العالم العربي . ولعل مما يزيد التمسك بهذا المنهج هو الشعور المتزايد اليوم لدى جميع الأطراف الإيديولوجية والاجتماعية المتصارعة ، بانعدام الأرضية المشتركة للحوار ، والإيمان الثابت والمسبق بعقائد متنافية ، والتمسك بقيم ومواقف وإشكاليات لا تتعايش ، أو لا يعتقد أحد بأنها يمكن أن تتعايش مع قيم الآخر ومواقفه وإشكالياته .

فهذه القناعة بالصدور عن مواقف لا يمكن أن تلتقي فيما بينها ، كتلك التي ما زلنا نطلق عليها موقف التقدم وموقف المحافظة ، تحرر المحاور من مهمة السعي إلى إيجاد الحجج العقلية وإبراز الوقائع الفعلية التي يمكن أن تسير بالنقاش إلى نتيجة مقبولة ومدعومة بالبراهين ، وتفرض عليه منذ البدء اتخاذ مواقف دفاعية لتأكيد اختيارات مسبقة وإظهار صلاحيتها ، فكل طرف يشعر أن خصمه يعيش

في تاريخ آخر ، ويصدر عن قناعات ومشاعر واعتقادات لا يمكن نسفها بالحجة أو بالمنطق الموضوعي .

فعلى سبيل المثال ،

إن صاحب المنطق العصري والدعوة الحديثة الذي وقف على أرضية الثقافة الغربية ومفاهيمها واعتبر قدوم العصر الحديث بمثابة قطيعة مطلقة مع الماضي العربي والغربي معاً ، لن يقبل أن يحاور الأصولي أو التراثي على أرضية المفاهيم التقليدية الدينية أو القومية التي يتمسك بها . والتراثي الاسلامي أو العروبي الذي يفقد قضيته أو يضعفها إذا تخلّى عن مفاهيم ثقافته المحلية وقبل الدخول في منطق خصمه ، استمر ينظر إلى المفاهيم الحديثة على أنها تبطن سيطرة ثقافية هدفها الأساسي إحداث قطيعة جوهرية بين وعي الانسان العربي المعاصر وتراثه وفصله عن تاريخه ، ورَقْض هو أيضاً لهذا السبب الدخول مع خصمه في مناظرة علمية . وإذا حصل الإجماع لدى الطرفين على أن المنطلقات المتناقضة والاعتقادات المتباينة والأهداف المتنافية تلغي إمكانية وجود لغة مشتركة بينهما ، أصبحت المناقشة الوحيدة الممكنة هي تلك القائمة على خوض حرب إيديولوجية بكل ما تعنيه كلمة حرب من معنى . فالحرب تقضي باستعمال جميع الوسائل الممكنة لإخراص صوت الخصم ودحره والقضاء عليه . سواء جاء ذلك بالحجة العقلية أم بالدسياسة أم بالخدعة السياسية أو بالآلة العسكرية . فليس من منطق الحرب الوصول إلى تفاهم من خلال تبادل الآراء وموازنة الحجج والوقائع ، بل هو يفترض انهيار هذا التفاهم واللجوء إلى كل ما من شأنه تحقيق التفوق على الخصم وإثبات القوة وحماية النفس . فالحجج الوحيدة المقبولة في الحرب هي الطعنات الموجهة للآخر .

ومن مستلزمات هذه الحرب رفض كل مناقشة داخلية أو مراجعة ذاتية لأن ذلك يهدد بإضعاف معسكر الصديق وإضعاف شرعية ما على قضية الطرف الآخر . إن استمرار المعركة يفترض بالعكس وأد النقاش الداخلي وتسعير العداء للخصم وتغذيته على الدوام بإبراز صورة هذا الأخير الشيطانية والتركيز على عناصر التمايز والتباين والخلاف . وقد يصل ذلك إلى درجة من التمييز شبه العنصري الذي

يجعل كل طرف غير قادر على تصور الطرف الآخر أو الانتصارات إليه ، كما يجعله قانعاً بأن لا حياة له إلا بتصفية خصمه أو إخراجه تماماً من المعركة . ومن الواضح أنه كلما تعمق الخلاف ، زاد منطق الحرب رسوخاً ، وأصبحت المعركة هي مصدر شرعية القضية وقاعدة إثبات وجودها وصلاحياتها .

وانطلاقاً من هذا المنطق ، وبما أن أفضل وسيلة لرد التهمة عن النفس هي تحميلها للطرف الآخر ، فقد تحول النقاش إلى تبادل للإتهامات ، وأصبحت براهين الطرفين وحججهما واحدة تقريباً في الشكل والمضمون ومنهج الحوار رغم اختلاف الحقب وتبدل السياق التاريخي والاجتماعي والفكري . فقد أخذ أصحاب الحداثة على خصومهم تخلف تفكيرهم ، ومعاداتهم للتقدم ، وضلوعهم نتيجة ذلك ، موضوعياً مع القوى التي تريد للمجتمع العربي أن يبقى في حالة الانحطاط التي هو فيها . وما لبث هذا الاتهام أن تحول إلى اتهام بالتآمر مع الغرب ومشاركته في إضعاف المقاومة العربية : فوصمت حركات إسلامية معروفة في العقود الماضية بالعداء لأهداف الأمة والخضوع في توجهاتها وسياساتها لأوامر الغرب وتوجيهات حكوماته . وساهمت صفة الرجعية التي ألحقت بهذه التيارات في تثبيت التهمة أو اعتبارها على الأقل واردة أو ممكنة .

ودرج الأصوليون بالمقابل ، من إسلاميين خالصين أو إسلاميين عروبيين على اعتبار فكر الحداثة والتحديث امتداداً لفكر الغرب ، ووصموهم بالنقل عن المستشرقين والضلوع معهم في التآمر على الثقافة العربية . ونظروا إليهم على أنهم طابور خامس يساهم في تأكيد الغزو الروحي والسياسي والاقتصادي للغرب وتوسيعه ، وعلى أنهم كانوا وما زالوا يستمدون أفكارهم ومواقفهم من السفارات البريطانية أو الفرنسية أو الأمريكية التي لا تطمح إلا إلى إخضاع العالم العربي وتحقيق المؤامرة التاريخية ضد الأمة الإسلامية^(١) . واتهم اليساريون منهم بالعمالة

(١) لعل رشيد رضا ، قبل المحدثين الجدد ، يلخص في موقفه من جماعة الاتحاديين الأتراك هذا الموقف عندما يقول : « إن زعماء هذه الجمعية الذين غلبوا الدولة على أمرها ، هم أوباش من الملاحدة المارقين قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه بكيد يهود سلاتيك وشركاؤهم في النمسة والمانيّة أقوى =

للإتحاد السوفيتي وانعدام المبادئ والقيم والأخلاق ، والابتعاد عن هموم العرب وقضاياهم والتواطؤ على دفع البلاد العربية إلى دات المصير الذي تعاني منه الشعوب الإسلامية الخاضعة للهيمنة السوفيتية

وتكرر إلى جانب تهمة العمالة المشتركة للخارج ، تبادل الاتهام بالتعامل مع الطغيان والتغطية على الاستبداد والعداء للحرية وصب المحدثون جام غضبهم وبقدحهم أكثر من مرة على أتباعهم من المشايخ والمتصوفة ورجال الدين والحركات الإسلامية عامة ، واتهموهم بالدفاع في الماضي عن السلطة العثمانية الجائرة ، والتآمر في الحاضر مع الأنظمة المستبدة أو المطلقة ضد القوى الوطنية والتقدمية وترددت نفس التهم على السنة وأقلام الأصوليين الذين انتقدوا مواقف خصومهم من الأنظمة التي سميت ، بعد الحرب العالمية الثانية ، بالأنظمة التقدمية ، وحملوهم جزءاً كبيراً من مسؤولية تثبيت أقدام هذه الأنظمة وإضفاء الشرعية عليها وعلى تجارب الحزب الواحد والسلطة المستبدة والمطلقة التي بيعت منها وما أدت إليه من نظم أقلية اجتماعية أو عشائرية أو طائفية .

وحصل الأمر نفسه فيما يتعلق باتهام كل طرف الآخر باللاموضوعية واللاعقلانية والابتعاد عن الواقع والنقل والتقليد الأعمى وغياب روح الإبداع والقياس الفارغ ونسخ تجارب خارجية ماضية أو أجنبية فقال المحدثون أن لغة التراثيين وأفكارهم والقيم التي يدافعون عنها أو يتبنونها أصبحت جميعها بالية غريبة عن العصر وبعيدة عن المنطق السليم ووصفوها بالخرافة وربطوها بالعقد النفسية الجماعية القائمة على فساد الشخصية وتمجيد الماضي والادعاء الفارغ وتعظيم الذات والعقلية السحرية ، والانغلاق على الذات والظلامية والتعصب الديني والعنصرية والكسل والإنكالية وغيرها من الأوصاف السلبية

وتلقى خصومهم من التحديثيين نصيبهم من هذه الأوصاف فوصم موقفهم المعادي للتراث والهوية والثقافة المحلية بالصليبية وبالعيب الفكري وفقدان

= أنصارهم ولذلك يرى همهم جمع المال ، رحلات الإمام محمد رشيد رضا ، بيروت ١٩٧١ ص

الموضوعة واللاعقلية . وقيل عن أفكارهم بأنها ليست إلا تقليداً أعمى ونسخاً
لكتب الغرب ، ووصف تحاملهم على التقاليد المحلية وعقلايتهم العالية بالعدمية
القومية والكفر والطائفية والاستلاب الثقافي .

ومما كان يشعر من حملة كيل الاتهامات هذه دون حدود الاعتقاد العميق
لدى كل من الطرفين بأنه يخوض معركة حاسمة يتوقف عليها مصير الأمة وكذلك
نظرته الخاصة ومفهومه للتاريخ والنقطة الحضارية . فقد كان التحديتي يعتقد أن
تيار الحضارة العصرية في تقدم مستمر ولا يمكن مقاومته أو الوقوف في وجهه ، ولا
بد أن يقضي عاجلاً أم آجلاً على كل ما خلفته العصور الوسطى من بنى اجتماعية
وعقليات ومواقف هي التي تغذي تيار الخصم وتدعمه . وأن قضية هذا الأخير لا
بد خاسرة . وكان التراثي يعتقد أن نهضة العرب أو المسلمين كامنة كالبذرة الحية
في ثقافتهم وأخلاقهم وتقاليدهم ، وأنه ما إن تضعف وسائل الغزو الأجنبي
والهيمنة الخارجية حتى تنطلق هذه الحضارة بأقوى مما كانت عليه في الماضي
وتكس في طريقها كل ما أحدثه هذا الغزو من دعوات هدامة أو أفكار مخربة
يعيش منها وعليها تيار المحدثين الطفيليين . فكل فريق كان يعتقد أن أيام الفريق
الأخر معدودة ولا أمل له في المستقبل .

ولم تكن جميع هذه التهم وهمية أو لا أساس لها من الصحة في جميع الأحوال
والأوقات . فالجدال من منطق الحرب كان يتطلب من جميع الأطراف استغلال
كل الظروف والإمكانات المتاحة ، الداخلية والخارجية والفكرية والسياسية
لتحقيق مكاسب إضافية وتحسين مواقعها الواحدة تجاه الأخرى من أجل الاعداد
للجولة القادمة . فإذا وجد فريق أن من مصلحته استغلال وضع أو سلطة ضد
الفريق الآخر ، كان نادراً ما ينظر فيما إذا كانت هذه السلطة استبدادية أو متواطئة
مع الخارج . وكذلك الأمر فيما يتعلق باستخدام الحجج والإيديولوجيات . إذ لم
يكن من المهم أن يناقش مفاهيمه أو فرضياته أو أقاويله وينظر فيما إذا كانت
عقلانية أو قريبة من الواقع ، بقدر ما كان همه أن يثبت للرأي العام ، موضوع
الرهان ، لا عقلانية الخصم وتهافت حججه .

وقد نجح الفريقان في الحقيقة في إفراغ الممارسة النظرية من محتواها العلمي وإبعاد الرأي العام عنها معاً . فلم يكن لهذا التفكير أي أثر يذكر على تطور الواقع العملي وإن كان له تأثير كبير على خلق جماعتين أو نخبتين إيديولوجيتين متنازعتين وعلى لحمهما من الداخل . وخير مثال على ذلك أن سلوك الناس الاجتماعي والأخلاقي كان يتطور ويتبدل في اتجاه يتناقى مع ما أراده المحدثون وما دعا إليه التراثيون ، ويسير نحو نزعة فردية سطحية ومفقرة . وأن تبدلات السلطة السياسية وممارساتها كانت تتقرر على صعيد ميزان القوى المحضنة والتفوق العسكري حتى أصبح الانقلاب العسكري الذي يعكس تفوق القوة من خلال الجيش ككتلة اجتماعية موحدة ، هو النظرية السياسية الوحيدة المعمول بها في المجتمع العربي . وكان الجيش هو الذي يقرر تحالفاته مع هذا الفريق النظري أو ذاك ومع الإيديولوجية أو الحزب أو الطائفة أو العشيرة حسب ما يعتقد أن ذلك أفضل له وأدوم لسلطته . وهكذا أصبح تبدل هذه السلطة وتجديدها يتم بمعزل عن أية عقيدة أو نظرية ، ومن خلال تبدل مراكز القوى والسيطرة القائمة على عصبية بدائية قبلية أو طائفية أو محلية . وهذا مظهر رئيسي لازمة الفكر العربي ، ولتراجع مكانة الوعي والثقافة .

وهناك في هذا المجال أكثر من مثال على تقلب مواقف الأنظمة الإيديولوجية وتغيرها بين تاريخ نشوئها ونهايتها . وقد تردد قسم كبير منها بين أقصى المواقف التراثية وأقصى المواقف التحديثية . ولم يكن لهذا التقلب أو التبدل أي تفسير سوى معادلة السلطة ومنطق الاستمرار في الحكم . إن مقتضيات نعبئة القوى الاجتماعية الصديقة في كل معركة ، أو على الأقل القوى الخارجة مؤقتاً عن الصراع الجاري ضد القوى التي تشكل تهديداً قائماً للنظام ، سواء أكانت إسلامية العقيدة أو تحديثية ، هي التي تحدد في الواقع خطاب السلطة . والخطاب هو عقيدة معلنة أو ذرائعية لا علاقة له بالعقيدة الحقيقية فهو يعني بالضبط أن هذه السلطة لا عقيدة لها . فعندما يأتي الخطر من قوى اجتماعية اتخذت الحدائنة أو ايدولوجيات وأفكار الحدائنة منبراً ، تستنجد السلطة لمحاربتها بالقوى التي ما زالت ايدولوجيات التراث تتحكم بوعياها وسلوكها مؤكدة تعامل قوى المعارضة

مع الخارج . وعندما يأتي الخطر من أصحاب الفكرة التراثية ، تلجأ السلطة إلى تعبئة القوى الحديثة لمقاومتها متهمة خصومها بالظلامية أو العمالة أو الرغبة بالعودة إلى القرون الوسطى وتحطيم المدارس والمصانع والمستشفيات .

ويعبر هذا الاستخدام الانتهازي من قبل السلطات للإيديولوجية عن سطحية العلاقة القائمة بين الإيديولوجيات الموجودة والممارسة السياسية والاجتماعية عموماً . وهو يدل على أن الممارسة التي تتبع مباشرة من تنافس القوى وتضاربها ، هي التي تتحكم بالفكر ، وأن الفكر بما زال عاجزاً عن أن يقدم لها وسائل إضافية أو لن يتحكم بها . ولعل ذلك راجع أساساً إلى استغراق هذا الفكر في الجدال الإيديولوجي واستثبات الحجج والتهم المتبادلة ، مما يجعله مصدراً للخلاف أكثر مما يدفعه إلى أن يكون منارة للعمل ، وبمزله من ثمة عن الممارسة السياسية والثقافية معاً . وهكذا تنمو قيم الأفراد ومبادئ سلوكهم ووعيهم أيضاً خارج جدال المثقفين وبعيداً عن إشكالياته .

وكما يستخدم السلاطين التيارات الفكرية بمنطق الاستفادة والمنفعة السياسية البحتة ، يستخدمون الفئة المثقفة أو جماعاتها المختلفة كقوى هامشية يستفاد من دعمها وتأييدها ومشاركتها . ومثل ذلك ما تقوم به أيضاً الحركات السياسية سواء أكانت في الحكم أم في المعارضة .

ويمكن القول بشكل عام أن المنهج السجالي بقدر ما يمنع الفكر من فهم الواقع وفهم الممارسة الاجتماعية فهماً موضوعياً وسليماً يساعده على التحكم بهما والسيطرة عليهما ، فإنه يفرض عليه العيش في نزاع ذاتي دائم لا يخرج منه ، ويحبس عليه في دائرة الجدال المجهض والمسدود ، وتصبح وظيفة السجال الإيديولوجي الأساسية هي إعادة إنتاج هذا الشقاق الشامل في الوعي والمجتمع ، وترجمته في الفكر أو عكسه عكساً أميناً بحيث يعطي لكل فريق من المتخاصمين الصورة العدوانية والهمجية التي يرغب في امتلاكها عن الآخر كي يستطيع شعورياً وعقلياً الاستمرار في الحرب الباردة أو الساخنة .

بالتأكيد لا يخوض المثقفون معركتهم على أرضية متماثلة ولا يطرحون

إشكالياتهم على نفس المستوى من العمق والتجريد . فمنهم من يكتفي بكييل التهم للأشخاص أو الأفراد أو الأحزاب . ومنهم من يرتفع إلى مستوى نقد الإيديولوجية ومصارعة المفاهيم . ومنهم من ينظر إلى معركته من زاوية دينية أو إيمانية فيصوغ موضوعها في إشكالية عقائدية محدودة ، ومنهم من يعيشها كمعركة سياسية فلا يرى منها إلا السلطة ، ويقارن محاسن الدولة الحديثة مع مساوئ الدولة القديمة أو العكس . وآخرون يذهبون أبعد من ذلك فيجعلون من المجتمع نفسه وثقافته التاريخية الخصم الحقيقي لهم حتى يكون لتقدمهم طابع النقد الكلي والشامل .

وهذا الهرب إلى الأمام باسم العقل ونقد العقل ، هو أفضل تجسيد لما وصفناه بالصراع أو بالحرب العقائدية ، وما يدفع إليه من مزاوَدات ومن تنافس بين المثقفين على مواقع السلطة الثقافية المحدودة والمعلقة بإرادة السلطان وحاشيته .

وعلى كل حال لا يبدو أن هذا الصراع الفكري بين مثقفين قد نجح في ترجمة حقيقة النزاع والنزاعات الثقافية العميقة التي تفتك بالوعي وبالمجتمع العربيين ، بقدر ما بقي إنعكاساً لصراعات المثقفين وتنافسهم . ولذلك بقيت المشكلات الثقافية الأساسية دون حل بل بعيدة عن الإدراك والاستيعاب السليم . وليس من الممكن إذن فهم هذه المشكلات ، وتحليل التغير الثقافي العربي ، بما فيه من ظواهر وانفجارات مثل عودة الإيديولوجية الإسلامية السياسية وصحوة الإسلام كدين ، وهي الظاهرة الثقافية الأكثر بروزاً في العالم العربي اليوم ، من خلال تحليل هذا الجدال أو على أساسه . بل إن من أهم ما يقوم به هذا الجدال هو حجب قوانين التغير الثقافي ومشاكل النزاع الفعلي بين ثقافتين ومنظومتين قيم حديثة وقديمة . ذلك أن منطق الحرب يستبعد كما قلنا إمكانية الفهم والتفهم ولا يقوم إلا بتعميق الشقة بين فريقين ومجتمعين وعقليتين ونخبتين . فهذا هو الذي يؤكد للنخبة الحديثة مكانتها التاريخية والاجتماعية أمام النخبة التقليدية . وهذا ما يسمح للنخبة التقليدية بالاحتفاظ بمكانتها كقيمة علي

تراث الأجداد وحارسة لروح الجماعة وعرفها وتقاليدها . ففي التنافس لنيل حظوة السلطة ورعايتها يجدر بكل فريق أن يظهر ضعف الآخر وخواء تفكيره وضحالة تمثيلته الشعبية ، وتهافت مرتكزاته التاريخية وضآلة نفوذه الاجتماعي . فالحرب لا تعنى بالحجج العقلية وإن استخدمت شعارات العقل والعلم والموضوعية دون حساب . فقانونها هو التعبئة النفسية والمادية للذات والتعريض الدائم بالخصم وتجريحه ، ووصمه بالبربرية أو العمالة ، وسوء النية ، ومنه تنبع النزعات الذرائعية والمواقف الدغمائية . ومنه تنشأ الانتهازية والمروية ، والواقعية التبريرية والطوباوية الحاملة في الوقت ذاته . فمصدر هذه وتلك هو الرد على مقتضيات المعركة اليومية من جهة وتصعيد مشاعر الخوف من القوى الغاشمة التي يصعب التحكم بها وتستحيل الإحاطة بقوانينها . فجموح الخيال لا يكون إلا على قدر عطالة الواقع ، والتأهب الدائم للعدوان لا يكون إلا على قدر مشاعر الخوف والخشية ، والممالة لا تكون إلا على قدر عواطف البعد والنفرة .

لذلك ، وبالرغم من الأهمية القصوى التي يكتسيها اليوم هذا الصراع والمشاكل الكبرى التي يطرحها ، فإن الدراسات العلمية ما زالت قليلة إن لم تكن معدومة في هذا المجال . والكتب والمقالات النادرة التي تعرضت للموضوع لم تكن في أكثرها إلا جزءاً من الجدال وطرفاً فيه تردد بالضرورة حججاً واحدة لم تتغير منذ بداية القرن ، وبالكاد استطاعت أن تضيف إليها ما يضيف عليها صبغة العصر . وسبب ذلك هو أن النقاش يبقى نقاشاً بين دھوتين تستخدم إحداهما العقلانية رمزاً والثانية الهوية درعاً دون أن يكون بالإمكان طرح المسائل التي يطرحها النقاش بصورة مستقلة وموضوعية . بل إن السمة الغالبة على ما يكتب اليوم هو النكوص إلى موقف كلياني وأصولي يقتضي تبني كل ما تتضمنه فكرة الدولة الحديثة عند البعض وكل ما يضعه تحت اسم الدولة الإسلامية البعض الآخر .

ويقوم المنهج السجالي على أربعة عناصر أو أربع آليات رئيسية :
(١) الاختلاط المنهجي .

(٢) العقلية السكولستكية ، أو انفصال الفكر عن الواقع

(٣) ابتسار الواقع أو تجزيته

(٤) الهرب من المسؤولية الفكرية ، والتقلب الدائم .

الاختلاط المنهجي

ونقصد به نزعة الخلط بين المسائل الفكرية والتاريخية والثقافية والدينية والاجتماعية والفلسفية المتعددة ومطابقتها الواحدة على الأخرى ، واستخدام المفاهيم بدون تحديد مع استبدالها عند الحاجة واحداً بالآخر ، والقفز من موضوع إلى موضوع ومن منهج إلى منهج ومن علم إلى علم دون مقدمات وحسب الحاجة ، والعودة بعملية المعرفة إلى نقطة سديمية بدائية تزول فيها الفوارق والتمييزات بين العلوم وتتساوى فيها كل المسائل والأحكام . وهي نوع من البربرية الفكرية لأنها تعني في مضمونها العميق إلغاء كل المكاسب العلمية التي قام عليها التمييز المتزايد بين ميادين مختلفة للمعرفة تقتضي استخدام مناهج وتقنيات متباينة للتقرب من الموضوع المدروس ، وتحديد حقول عمل متميزة للمفاهيم والطرائق والمناهج العلمية، وتعني انكار الطابع المتنوع والحلالي والمعقد لسيروية المعرفة الإنسانية ومستوياتها الفردية والاجتماعية والتاريخية ، ورد العمليات الذهنية من اعتقاد ورأي ومحكمة عقلية وإدراك حسي وتجربة علمية إلى عملية واحدة هي ما يطلق عليه العقلانية لدى البعض والدينية أو الرسالية لدى البعض الآخر ، وإفقار العمليات المنطقية المتنوعة والمتباينة إلى علاقة واحدة هي علاقة الهوية والتناقض ، مما يحول العقل والتجربة الفكرية إلى عقلانية غنوصية ويخفض النشاط الذهني الإنساني الروحي والأدبي والرمزي والإيديولوجي والعلمي إلى أحد أشكاله أو عناصره ويلغي جميع العناصر الأخرى أو يهملها .

فمن مظاهر هذا الخلط على الصعيد المعرفي المجرد، القفز من مستوى التحليل الاستمولوجي إلى مستوى نظرية المعرفة ومنه إلى مستوى علم النفس المعرفي ثم إلى علم الاجتماع المعرفي وإلى النقد الإيديولوجي دون تمييز ودون مسيات . وفي هذا اعتساف كبير لأن الخطاب الذي لا يتمتع بعلاقة منطقية شكلية متينة ، أي التناقض منطقاً ، يمكن أن يكون ذا معنى كبيراً من وجهة نظر علم

اجتماع المعرفة . وشرط الدراسة الاستيمولوجية الجادة أن لا تعمم استنتاجاتها على دراسة نظرية المعرفة، أو علم اجتماع المعرفة ، والعكس أيضاً صحيح .

ومن مظاهر الخلط بين مستويات المعرفة تعميم نتائج البحث الاستيمولوجي على البحث الاجتماعي . فإذا كشف الناقد عن تناقضات أو نقائص في الفكرة القومية استنتج مباشرة أن هذا هو سبب هزيمة العرب أو عجزهم عن تحقيق الوحدة . ولا يدرك أنه انتقل بذلك من مستوى التحقيق النظري والبحث الفلسفي أو الإيديولوجي إلى مستوى البحث الاجتماعي وهو مختلف عنه تماماً . وأن النقائص المنطقية أو الشكلية لفكرة أو إيديولوجية ، أي إخفاقاتها في الامتحان الاستيمولوجي لا يفيد الاستنتاج آلياً أو يفسر إخفاق العرب في الامتحان التاريخي . فعوامل الحركة التاريخية الاجتماعية ومقوماتها تختلف عن عوامل الحركة الفكرية ، وأن التاريخ والفكر لا يخضعان في تطورهما وبنائهما إلى نفس العناصر ولا يتبعان المنطق ذاته ، وإلا لأصبح التاريخ انعكاساً مباشراً و كلياً للفكرة .

ومثل ذلك ما نصادفه في الكتابات العربية الأدبية والعلمية من تعميم نتائج مبحث على مبحث آخر . فاللغوي يريد أن يبرهن على أسباب إخفاق العرب وتخلّفهم في جمود اللغة وتحجرها ، والعالم الطبيعي يعتقد أن ذلك قائم في استمرار الاعتقادات الدينية أو الخرافية . وهم يجهلون أنهم بذلك يصوغون نظرية عامة في التاريخ انطلاقاً من ملاحظات جزئية أو لمعات عقلية بعيدة عن أن تستوعب الموضوع التاريخي أو تحيط به .

ومن مظاهر الخلط بين المفاهيم ، استخدامها معاً دون تحديد دقيق ، وشيوع التوظيف المتبادل لمفهوم مكان آخر ، حتى اختلطت المفاهيم جميعاً على الناس . فمنهم من يتحدث مثلاً عن الخطاب ويعني الإيديولوجية ، وعن الإيديولوجية وقصده المذهب الفكري أو الفلسفي أو النظرية ، وعن العقل وهدفه الثقافة عامة . ومنهم من يخلط بين الإيديولوجية والثقافة ، أو يخفض الثقافة إلى جملة من الأفكار أو الأعراف ، ولا يميز بينها كنسق اجتماعي وبين المذاهب والإيديولوجيات والأفكار المتناقضة التي تعيش فيها وتتغذى منها . ومنهم من يرفع

الإيديولوجية أو إحدى الإيديولوجيات إلى رتبة الثقافة فيستتج من تناقضاتها
تناقض ثقافة العرب وتهافتها

ومن مظاهر الخلط بين المسائل النظرية التوحيد بينها أو استخدام إحداها
بدل الأخرى أو للتغطية على الأخرى . فتري البعض يتحدث عن الديمقراطية
حتى لا يشير مسألة الاستبداد ، وعن العلمانية ليغطي أو ليصعد أو ليتجنب
الخوض في مسألة الطائفية وهما مسألتان متميزتان . وينطق المثل ذاته على دمج
المسألة الطائفية والقومية . وهكذا نجد أنفسا أمام مسائل متشابكة لا تمايز فيما
بينها كأنها متاهة لا بداية ولا نهاية لها . فالاستبداد يقضي إلى تخلف العقل ،
وتخلف العقل يؤدي إلى تخلف التربية وتخلف التربية يقود إلى نقد التراث
والدين . وهكذا نظل ندور في حلقة مفرغة منتقلين من المشاكل الثقافية إلى
المشاكل السياسية والاجتماعية والتاريخية دون أن نستطيع حسم أي منها . فليس
هناك باحث يقبل بأن يقصر استنتاجاته على ميادين نشاطه . فالناقد الأدبي ينتقل
من نظرية الحداثة في الأدب إلى نظرية الحداثة في المجتمع أو في الصناعة .

وهذا الخلط يجعل أساس فكرنا هو الدعاي العفوي الذي يقود من ميدان
إلى آخر ، ومن موضوع إلى موضوع ومن فكرة إلى أخرى لمجرد وجود ارتباط
شكلي أو جزئي بينها ، فيخلق من مجموع المسائل النظرية والعملية مسألة واحدة
تظهر كتين بألف رأس وألف ذراع تسير كلها في اتجاهات متضاربة أو متنافية ، أو
ككبة خيوط متناثرة لا ندري كيف نمسك بطرفها .

إن التمييز إذن بين مراتب المعرفة العلمية والإيديولوجية والفلسفية والدينية
والأدبية ، وبين مقاصد الكلام وغاياته ومطالبه أمر أساسي في دراسة الثقافة .
فهذه لا تدرس من حيث منطقيتها أو عقلانيتها . وربما كانت أكبر المشاكل التي
تواجه اليوم مراجعة الفكر العربي لنفسه ، كما تتجلى على الأقل في معظم الأبحاث
الصادرة في الموضوع هي تخفيض الثقافة إلى مستوى الخطاب ، ودراسة الخطاب
من حيث هو عقلائي أو لا عقلائي ، بغض النظر عن مضمونه ومقصده . ومن
الخطأ الاعتقاد بأن هناك امكانية لوجود ثقافة علمية نزعَت عنها كل المطالب

الروحية والخيالية والرمزية والإيديولوجية والتأملية فأصبحت علماً أو تجربة علمية . وكما أن من الخطأ نقد المعرفة الطبيعية والفيزيائية من منطق البحث الفقهي ، فإنه من الخطأ أيضاً نقد الفكر الديني أو التجربة الصوفية من منطق البحث الطبيعي ومنهجه ومفاهيمه .

فالمفاهيم العقلية هي اصطلاحات مجردة تتغير وتتبدل بتغير الوقت وميدان المعرفة وموضوعها وتطورها وتقدم المعارف والمعلومات . ولها معان متعددة تأخذها من سياقها الموسوعي أو القاموسي ، ومن سياقها المعرفي ، أي من حقل العلاقات الذي يربطها بمفاهيم أخرى في نظام فكري معين ، ومن سياقها الاجتماعي وما يضيفه عليها من محتوى إيجائي أو رمزي . ولذلك لا تستخدم المفاهيم دائماً بنفس المعنى ولا توحى بنفس الإيماءات . فللمفاهيم معنى متباين يقتضي من الفكر إخضاعه دائماً للنقد والفحص والامتحان وعدم الوقوع فيها يمكن أن يسمى وثنية المفهوم . وينطبق هذا على المفاهيم الكلية مثل مفهوم العقل أكثر من المفاهيم العلمية المحددة بطبيعتها . فالمفاهيم النفسية مثلاً شديدة الثقل لأن موضوعها مرتبط بالذاتية والهوى والمزاج والخيال . والمفاهيم الاجتماعية أقل تبديلاً لأنها مرتبطة بالبيئة الاجتماعية التي تخضع لزمانية أبطأ وأثقل من زمانية الفرد ، هي زمانية المجتمع والحقب التاريخية . والمفاهيم الطبيعية أكثر رسوخاً لأنها تغطي زمانية أعظم استقراراً وثباتاً .

والمناهج أدوات نظرية تختلف من حيث صلاحيتها وإجرائيتها من حقل معرفي إلى آخر . لذلك يكتسح بعضها ميادين معينة من البحث ويحقق في ميادين أخرى . بل تختلف فاعليتها أيضاً من وضع إلى آخر . فالماركسية غزت العلوم الاجتماعية ، وارتبطت بها بشكل خاص في فترات معينة اتسمت بتسارع الحركة الاجتماعية واشتداد الأزمات والصراعات الداخلية في المجتمع الحديث ، والوضعية ازدهرت في ميادين المنطق ونظرية المعرفة ، بينما احتلت الوظيفية والبنوية ميادين اللغة والانتروبولوجية الثقافية .

وهذا يعني أن الموضوع النظري هو موضوع مبني ومركب في الذهن ، وهو

غير الموضوع الفعلي الواقعي الذي لا نستطيع أن نمسك به ونعقله إلا من خلال نظم فكرية معينة خاضعة لتطور نظام المعرفة الداخلي وغزو المعارف وتراكمها . والعقل هو ذاته مفهوم مجرد في استخدامه الفلسفي ولا علاقة له بالفكرة الشائعة والعامية التي تجعل منه ملكة إنسانية قائمة بداتها وجوهرية . ويتبدل معناه ومحتواه بتبدل النظام الفكري الذي يستخدمه فيه . فأسوأ ما يصيب التفكير الفلسفي هو أن يرد المفهوم إلى صورة ثابتة ومجسدة فينحط مفهوم العقل إلى مستوى مفهوم الدماغ وهو مفهوم فزيولوجي محض . ولأنه ينحدر بالعقلانية إلى مستوى الخاصية أو الصفة التي تتجسد فهو لا يرى في الحقيقة النظرية إلا ثمرة رؤية مباشرة وحدثاً يوحد بلحظة وبشكل مطلق بين الموضوع النظري والموضوع العملي ، بين الفكرة والواقع ، وعن هذا التوحيد يصدر خطأ توليد الواقع من الذهن بدل تكيف الفكر مع الواقع .

السكولستكية أو النقاش خارج الواقع

من هنا نصل إلى النتيجة السلبية الثانية التي تؤدي إلى البحث في عالم الأفكار عن صحة الأفكار ذاتها . وتعني السكولستكية هنا انغلاق العقل داخل دائرة أطروحات وقضايا تبلورت في وضع وحقة معينين ، فأصبحت هي التي تتحكم برؤية العقل للواقع وتمنعه من تحديد أدواته وطرائقه بالاحتكاك مع التجربة المتغيرة والملاحظة المباشرة ، وتجعله لا يعيش الواقع إلا على مستوى القضايا والأفكار المصاغة مسبقاً . وهي معاناة من الدرجة الثانية ، أو من وراء حجاب . وخطأ السكولستكية هو أنها تخضع تحليل الواقع إلى تحليل الأنظمة الشكلية والصورية للفكر ، وتنتهي إلى قياس الواقع العملي على الواقع النظري .

وهكذا تصبح العملية الفكرية عملية استنباط أفكار من أفكار دون عودة إلى الواقع ، باستثناء تلك التي تسعى إلى قياسه عليها . وهذا ما يجعل الفكر يدور في فلكه الخاص ويشتط في أحكامه واستنتاجاته دون رقيب . إذ يمكن لقضية أن تكون منطقية وصحيحة ، أي أن تطابق نتائجها مقدماتها ، دون أن تكون بالضرورة صادقة من حيث مطابقة نتائجها للواقع . وهذا لا يعني أن ليس لمنطقية

القضايا علاقة بصدقها الواقعي ، ولكنه يعني أن الفكر يتحول هنا إلى الأصل والواقع إلى الفرع الذي يتوجب عليه التكيف مع المقولات والتطابق معها .

وأصل السكولستيكية هو في نظرنا عجز الفكر عن الامساك بالواقع أو التحكم به . وهذا العجز ليس إلا من نتائج المنهج السجالي الذي يجد مبرراته وغايته في البرهنة على صحة الايديولوجيات والمواقف الذاتية وفي الدفاع عنها أكثر مما يجدها في معاينة الواقع وفهمه وتحليل عناصره .

بيد أن للسكولستيكية العربية جذوراً أعمق قائمة في قلب عملية التحول الثقافي الذي نعيشه منذ أكثر من قرن . فعندما تتعرض ثقافة ما إلى دفق متواصل من مفاهيم وأفكار جديدة لا تستطيع أن تقاومها ولا أن تستوعبها داخل أطرها النظرية يحصل أحد أمرين : إما أن تفكك وتنحل كثقافة مستقلة متكاملة وذات انسجام ذاتي ، أو أن تعدل من آلياتها وتكيف نفسها مع المفاهيم والأفكار الجديدة ، حتى لو جاء ذلك على حساب التحامها بالواقع والتصاقها به . وهذه إحدى العمليات الأساسية لإعادة تغيير الواقع وتحويله بما يتطابق مع فكرة جديدة أو نماذج خارجية . وهي أيضاً إحدى مصادر التجديد . لكن هذا التجديد لا يحصل إلا في فترة تالية . إذ أن النظام الفكري الذي يخضع لعملية حقن سريع بالمفاهيم الجديدة تعكس واقعاً آخر أو تشير إليه يفقد في البداية صلته تدريجياً بالواقع المحلي وبالتجربة الحية ، ويتحول إلى نظام مستهلك عاجز عن الإبداع . وبهذه الطريقة يؤدي نفوذ ثقافة ما أو سيطرتها على ثقافة أخرى ، إلى إعادة تركيب الواقع والمجتمع بما يتطابق مع مواقع المجتمع السائد ويؤكد سيادته .

ومن الطبيعي أن يقود ذلك إلى نوع من إنكار الواقع الحي والتكر له . فالدارس الاجتماعي الذي تشرب مثلاً مفاهيم الطبقة والفرد والمشروع الصناعي والأمة الخ ، لا يبدأ من تحليل العلاقات الاجتماعية عندما يدرس مجتمعه ، وإنما يبحث في هذه العلاقات عما يتماشى مع المفاهيم التي يحملها . وعندما لا يتحقق من وجودها ، أو عندما يكتشف أنها تعمل بشكل ناقص أو مختلط مع مفاهيم العائلية أو الطائفية أو القبلية أو الجهوية المحلية فليس أمامه إلا أن يرفض هذه

المفاهيم أو أن يعدّل من طريقة استخدامها أو يعلن إذا أراد الاحتفاظ بها كما هي أن الواقع هو النشار والخطأ والمتخلف واللاعقلاني .

إن تأثير الثقافة الغربية القوي اليوم في العالم الثالث يخلق في ذهن الناس صورة عن الحياة والسلوك والتاريخ والذات والموضوع مختلفة كلياً عن الصورة التي يعيشونها ويعانون منها يومياً . ويشير لديهم هذا التناقض العميق بين الصورة التي لديهم عن الحياة المتحضرة ، وبين الشروط الواقعية شعوراً عميقاً بالحياة والاحباط والنقص . فيعتبرون عفوياً أن مجتمعاتهم متخلفة ومتأخرة بكل ما فيها من تاريخ وثقافة وقيم . فهي صورة مشوهة عن أصل قائم في الذهن فقط وفي « الأفلام » . ولا حياة لها إلا بالمقارنة مع غرب أصبح رمزاً للعقلانية والعلم والتاريخية والإنجاز بقدر ما حول غيره إلى مثال ونموذج للجهد الضائع والفكر المفقوت والانحدار .

والمسألة ليست سهلة الحل ولا تتعلق بالمتقنين ولا بالتأثرين بالقيم الحديثة الوافدة فقط بل بقيم الثقافة التقليدية التي يزداد عدم تطابقها وتقل مجاراتها للواقع بقدر تبدله وتغيره في اتجاه التأقلم مع الحضارة السائدة . فالفكر التراثي يتحول أيضاً إلى فكر سكولستيكي يبحث عن مصداقيته في واقع ماضٍ مطابق ، ويصبح تغيير الواقع بما يتطابق مع صورته الماضية ضرورة منطقية بقدر ما هو شعار سياسي أو إيديولوجي . ففي كلتا الحالتين لا يستقر الفكر إلا بإعادة إنشاء الواقع الراهن وتركيبه . وهنا تكمن أيضاً مشكلته الأساسية ، مشكلة رفض الواقع ، ومن ثم عدم القدرة على فهمه وتحليله أو عدم الرغبة في ذلك مع الاحتفاظ بإرادة تغييره وقلبه وتجاوزه . ولما كان التغيير مستحيلًا في هذه الشروط ، ينجح الفكر إلى تغييره في الذهن ، أي إلى تحويله إلى مفهوم يغني نقده وإسقاطه عن تحويل الواقع أو يعوض عنه . وكلما ظهر له إخفاقه في الإمساك بالواقع الموضوعي زاد في الانكفاء على النفس والاطمئنان إلى الحلول الجاهزة والتأويلات التعويضية أو الخيالية .

ولا تتعارض المثالية المفرطة في الواقع مع التجريبية أو الذرائعية بل هي تستدعيها . إذ كلما بدت النظريات بعيدة عن الفاعلية والتأثير بقيت محفوظة في

الذهن كعقائد وشعارات ، وتركت بمعزل عن الممارسة التي تصبح بالضرورة عفوية قائمة على الصواب والخطأ وتلمس الطريق في ظلام التجربة وضبابها

والفارق بين موقف الفكر السجالي الانقلابي وفكر التحليل والتجديد ، هو أن الأول لا يرى الواقع إلا كتلة واحدة صلبة ومغلقة لا يمكن التعامل معها إلا لرميها وتبديلها ، بينما ينظر الفكر التجديدي إلى نفس الواقع على أنه وحدة متميزة ومتباينة العناصر يمكن تغيير علاقات السيطرة فيها وتبديل وضعها بالكشف عن عناصر القوة فيها واستثمار الإمكانيات القائمة في تناقضاتها ذاتها . إنه يرفض المفاضلة بين واقعين : الأول منحط وتجريري والثاني عظيم ومثالي ، كما يرفض الاستسلام لرغبة الرفض والنقد الشمولي واستبدال واقع كلي بواقع آخر كلي ويتبنى فكرة تطوير الواقع القائم بما هو عليه . فمن خلال تبديل موقع العناصر في تركيبة معينة يمكن الوصول إلى علاقات ووحدات ووظائف جديدة تستجيب أكثر لحاجات العصر أو للنظام العام الذي تدخل فيه هذه الوحدات . والمهم عندئذ وضوح الهدف وواقعيته .

الرؤية التجزئية

ويرتبط بهذه الرؤية الجمودية والماهوية للواقع اتجاه آخر لتجزئء الواقع وتفكيكه ومعاملة الأجزاء باعتبارها ماهيات مستقلة وقائمة بذاتها . ذلك أن وحدة الموضوع لا تظهر إلا من خلال الكشف عن الجدلية الداخلية التي تكونه . وهي تفترض استيعاب التناقض وفهمه ، ولأ تصبح الكلية ماهية ثانية مضافة إلى الأجزاء ، وتتطابق مع أحدها أو بعضهما . ومصدر هذا التجزئء للواقع لا يقوم في الموضوع ولكن في الفكر ذاته ، وفي فقدانه للقدرة على الربط بين المفاهيم وتجاوز المفاهيم الجزئية إلى التركيب الشمولي . فالرؤية الشمولية الواقعية هي التي تنقص الفكر السجالي ، وهي مختلفة عن التعميم الإيديولوجي القائم على إيجاد وحدة وهمية منطلقة من سحب مفهوم الجزء على الكل . ومصدر هذا النظر التجزئئي العميق هو العلاقة السلبية مع التاريخ . وأكثر ما تعاني من هذه النظرة دراسة التراث . فتأخرة هي الأبحاث التي تسمى إلى فهمه في وحدته العميقة

وروحه وتعدد تياراته وتناقضها . ومعظمها يعزل فيه جوانب أو تيارات معينة ويجعلها متعارضة كلياً مع جوانب أو تيارات أخرى وغريبة عنها . ومن مظاهره الأكثر شيوعاً اليوم الحديث عن الواقع العربي كواقع هزيمة أو كواقع مهزوم أو مخفق ، وتعميم هذا الوجه على مجموع هذا الواقع وعلى تاريخه كله فتصبح الهزيمة أو الاخفاق خاصية ملازمة لهذا التاريخ ومرتبطة به ارتباطاً عضوياً . فمن تقرير فشل العرب في تحقيق وحدتهم القومية ينتقل المتكلم إلى تقرير أن تاريخهم الماضي والحاضر ليس إلا سلسلة لا تنتهي من الصراعات والمنازعات العشائرية والطائفية والدينية . ومن رؤية ظاهرة الاستبداد يستنتج أن الطغيان هو السمة البارزة في الحياة السياسية العربية ، ويعفي بذلك نفسه من تحليل الأسباب الموضوعية والواقعية الراهنة للاستبداد ويستبدله بالحديث عن جوهر استبدادي يسعى إلى الكشف عنه في الخطاب أو العقل أو الثقافة أو التراث أو الذات العربية .

فنقد الهزيمة يصبح بناءً لواقع هزائمي وهمي وجوهري يمكن بتخطيطه النظري تخطيط واقع الهزيمة وإلغاء شروط وجودها العقلية والمادية . فالهزيمة كواقع جزئي من واقع تاريخي معقد ومتشعب تصبح هي التي تتحكم بالمهزوم في رؤيته لنفسه ولبيئته وتاريخه وتحجب عنه رؤية ما يجري حوله ، وما يتغير ويتبدل داخل الواقع الذي يدرسه ورؤية التأثير به والتأثير فيه .

ولعل ذلك ناجم عن أن هذا التجزئىء يساعد الباحث على إيجاد التفسيرات والنصوص والشواهد المؤيدة لأطروحاته الإيديولوجية ، أو لإخفاء الجوانب الأخرى التي من شأنها أن تدحض أطروحاته أو تظهر تناقض أقواله والتعسف في أحكامه . وهكذا ، إذا درسها التحديثي على ضوء مسألة النهضة قال إن التخلف العربي ناجم عن قيم الثقافة البالية ، وإذا درسها السياسي قال إن العلمانية لا تتحقق أو لا يمكن أن تتحقق بوجود ثقافة مطبوعة بالقيم الدينية والوعي الغيبي . وبالمثل ، إذا دافع عنها التراثي قال : إن أمور حاضرتنا لا تصلح إلا بما صلحت به أمور ماضينا . وباختصار ، لا ينظر إلى الثقافة كعملية أو سيرورة اجتماعية حية ومتباينة في ذاتها . وإنما كجسم ميت من المفاهيم والقيم والذكريات التي يسعى كل طالب علم أو سلطة إلى استخدامها كأداة لتدعيم

قضيته . وهذا ما يطمس الوظائف الأساسية والأصلية ، التي تؤديها في المجتمع .

ومصدر هذه النظرة المقارنة الضمنية بين هذه الثقافة ، باعتبارها أثراً ماضياً ، وبين الثقافة الغربية أو المعاصرة ، باعتبارها حياة قائمة أو نموذجاً للثقافة الحية . وهي المقارنة التي يتسم بها عموماً القياس الشكلي والتي يتم من خلالها بحث مشكلات تاريخية كبرى مثل نهضة العرب بالمقارنة مع نهضة أوروبا ، أو تخلف البلدان الإسلامية عموماً بالمقارنة مع تقدم غيرها . وبالرغم مما وصل إليه هذا المنهج من طريق مسدودة ، فهو ما يزال المنهج السائد . وسبب ذلك هو بالضبط طبيعة منطق الدائري والدوري . فهو يفسر النهضة بالثقافة « العلمية » والثقافة « العلمية » بالنهضة ، ويصادر على المطلوب : أي أسباب « تخلف » الثقافة نفسها أو تقدمها . ويستفيد هذا الدور المنطقي من خلط عدة مسائل ثقافية بعضها ببعض الآخر فيقضي على خصوصيات المشكلات المطروحة ويفسدها . من ذلك مثلاً ربط مسألة عقلانية المفكرين العرب أو تناقض مقالاتهم بمسألة استيعاب التراث وإعطائه المكانة التي يستحقها في إطار البحث عن الاستمرارية التاريخية والثقافية . وربط مسألة التراث والتعامل معه ربطاً ميكانيكياً بالموقف من الدين عموماً أو من بعض النظم والقيم الدينية أو اللاهوتية . وربط مسألة الهوية المطروحة على العرب بحدّة بسبب القطيعة التي يعيشونها مع ماضيهم ، وانجذاب أغلبهم إلى قيم الحضارة الغربية المتحولة إلى حضارة علمية ، بمسألة العلمانية أو علاقة الدين بالدولة . أو ربط هذه وتلك بالمسألة المعرفية المتعلقة بانتاج المفاهيم العلمية وتطور العلوم

ولا شك أن الدين يدخل ضمن التراث ولكنه يتجاوزه في بعض الوجوه ويبعد عنه في وجوه أخرى ، ولا يستوعبه بالضرورة ، ويقال الأمر نفسه عن الهوية والدين والتراث . والدين لا يمكن اختصاره إلى مسألة علاقته بالسلطة سلباً أو إيجاباً . ومسألة السلطة لا ترتبط أساساً بحل المسألة الدينية أو بالموقف من الدين . وليس من الدقيق ولا المقبول أن نربط مسألة الهوية بمسألة النهضة فنجعل الواحدة بديلاً للآخرى ، ولا أن نوحّد بين مسألة العلمانية ومسألة الديمقراطية ،

أو أن نجعل للموقف من الدين العامل الأساسي والحاسم في تحديد نوعية السلطة أو الحكم .

فمن شأن هذا التشريك في المفاهيم والمسائل أن يغيب المشاكل الحقيقية المطروحة ويدمجها واحداً بالآخرى حتى لا يمكن للوهي أن يميز موضوعه الحقيقي ، وأن يحجب الآلية الحقيقية لعمل الثقافة وتطورها . وهذه هي في الحقيقة غاية المناهج الإيديولوجية في دراسة الثقافة ، وهذه هي وظيفتها الفعلية . ولا يختلف عن ذلك نتائج التحليلات اللغوية أو الاستمولوجية المبسطة التي تطمح إلى فهم أسرار الثقافة وتعقيداتها بقتله وفك بنياتها الشكلية السائدة في إنتاجها الروحي أو العلمي أو الإيديولوجي ، ومعاملتها كشيء مستقل عن المجتمع وعن تطوراتها ذاتها .

التهرب من المسؤولية

يساعد المنهج السجالي في الواقع على التهرب من المسؤولية أو نفيها .

فكل انتقاد على أرضيته هو بالتصريف انتقاد للآخر أو للخارج . أما نقد الذات فهو من الأمور التي تهدد مباشرة موقف الصديق في النزاع الجاري وتفقد المذهب المدافع عنه كل مشروعيته بما هو مذهب قائم أساساً على التأمل الذهني واحتواء الواقع أو التلاعب بمعطياته ونفيه ، وبما أن قوة الإيديولوجية السجالية هي في مصداقيتها النظرية خارج كل زمان ومكان (ولعل أفضل مثال على ذلك التحليلات المتعددة التي ظهرت في السنوات الأخيرة لظاهرة ما سمي بالردة أو التراجع عن مواقف ثورية ويسارية سابقة لبعض الأنظمة) فقد تركزت هذه التحليلات على أمرين : وصف « الهجمة الأمبريالية » المتصاعدة التي تشكل استمراراً للمؤامرة التاريخية على العرب ، والحديث المستمر عن التخلف سواء تعلق الأمر بتخلف الشعب وقصور وعيه أم عن البنيات الاجتماعية المتخلفة التي أخذت تفرض نفسها بقوة بعد تراجع مؤقت . فاللقاء المسؤولية على الأمبريالية ، أو الغرب عامة ، وبشكل مجرّد دون إظهار ترابط هذا الغرب مع قوى وأفكار والمخاط سلوك وعمل وممارسة عملية لا يقصد إلا إلى تعميم نزعته مستهدفة قومية

مهمتها الأساسية التغطية على للمسؤوليات الفكرية والسياسية التي تكمن في قصور المناهج والوسائل التي اتبعت لمحاربة الغرب والتخلص من سيطرته . والحديث الدائم عن تخلف وعي الشعب وجوده أو تدينه أو محافظته يساعد على الاستمرار في اتباع هذه المناهج والوسائل ، ونفي القصور عنها بالتركيز على عامل آخر عمومي وخارجي هو الجهل أو الوعي المتخلف .

وفي جميع الحالات يعني هذا التهرب من المسؤولية رفض الاعتراف بالخطأ أو بالقصور عند أصحاب المذاهب الثورية التي بقيت غلصة للمنهج السجالي . ولا بد لهذا الرفض أن يزداد بقدر ضخامة المواقع والمصالح التي يهددها الاعتراف بالخطأ واتساع دائرة المراجعة التي يستدعيها . لذلك لم تحصل في الفكر العربي اليساري مراجعة نظرية جدية حتى الآن . فالمراجعة الحقيقية تعني أولاً مراجعة النفس والكشف عن أصل الردة في الثورة ذاتها وفي الأسس التي قامت عليها ، سواء كانت نظرية أم عملية . وإذا لم يحصل ذلك تحول النقد بالضرورة إلى اتهام للآخرين أو تنكر للواقع .

وقد يتخذ الهرب من المسؤولية صيغاً أخرى متعددة منها الأحكام العمومية والسريعة التي تلقي المسؤولية على مفاهيم عامة كالعقل والوعي والتخلف والتدين إلخ ، حتى تعفي نفسها من مهمة التأمل والدرس والتمحيص . وهذه المواقف من الأمور الرائجة عندما تصاب أمة أو جماعة بصدمة كبيرة تفقدها ثقافتها بنفسها ، فتصبح على استعداد لرؤية كل العيوب في تاريخها ورؤية كل المحاسن في تاريخ غيرها . وتنتقل من الدراسة الموضوعية المحددة إلى اتهام النفس أو الواقع السيء أو التاريخ أو التراث . ومن الواضح أن هذه المواقف لا تقدمها في شيء ، بل هي تحرمها من ميزة الرؤية الواضحة والصحيحة ، وتدفعها إلى الفرق أكثر فأكثر في الحالة التي تعيش فيها .

وتقتضي المسؤولية النظر إلى الواقع ومعايته كحركة متغيرة ، وكحركة موضوعية ، مستقلة عن إرادة الأفراد وعقائدهم ، وأنها تستند في المجتمع على ممارسات اجتماعية وسياسية وعلى اختيارات محددة ترتبط بقوى ومصالح

وتصورات خاصة . وأن إخفاق (أو نجاح) شكل من أشكال التعبير الاجتماعي يتوقف على صحة هذه الممارسات والاختيارات، وحددها ولا يمكن أن يكون منطلقاً لفهم صحة الاختيارات الأخرى الممكنة والاحتملة . وليس هناك مجتمع يمكن تحفيظه إلى مستوى فكرة أو إيديولوجية أو مذهب .

فكل إخفاق يفترض مسؤوليات تاريخية عينية ، ويتطلب تحليل النقائص التي كانت تشتمل عليها النظرية ، أو النظريات التي مهدت له وحققته . فلا معنى لتحميل ابن تيمية مثلاً مسؤولية إخفاق التحديث العقلي الذي نادى به مفكرو النهضة إذا كان ابن تيمية لم يجعل همه مثل هذا التحديث ولم يفكر به ، والأحرى أن يناقش أصحاب هذا الشعار والمخططين لتحقيقه عن صحة تفكيرهم وتحديدهم للهدف ولطرائق ووسائل تحقيقه . ففي كل عملية تغيير توجد مسؤوليات نظرية وعملية هي مسؤوليات أولئك الذين يأخذون المبادرة ويتنطعون لمهام القيادة ويمسكون بالسلطة ، أي بالإمكانات المادية والصلاحيات الشرعية التي تعطيهم مسؤولية ليست لغيرهم في إطار التغيير .

فالمجتمعات تتغير على قاعدة من التوازنات الاجتماعية والسياسية والمسؤوليات المتباينة . وتحديد المسؤولية أو المسؤوليات هو أساس كل مراجعة تقصد إلى إطلاق عملية التغيير بعد نعطل ، وتعمل على بناء ممارسة جديدة وسياسة موجهة تستفيد من التجربة الماضية وتتجاوزها . ولا بد لها من أن تقترح أشكالاً أفضل للعمل وتصورات أصح لتوزيع الصلاحيات وتنظيم الموارد وتحسين الإدارة والأداء .

ولا يمكن لمثل هذه الممارسة الجديدة ، وبقدر جدتها ومعارضتها السابقة، إلا أن تقوم على قوى اجتماعية مختلفة وأقدر على تحقيق المهمات ، وعلى علاقات وتوازنات أسلم من العلاقات والتوازنات الماضية .

فتحديد المسؤوليات هو أساس كل مبادرة جديدة لا تقصد إلى أن تكون تدميراً لما سبقها ومحوراً للإنجازات القديمة وبدءاً من الصفر ، وإنما سعي إلى أن تكون إصلاحاً للتجربة الماضية ودفعاً لها فتخلق بذلك ديناميكية تاريخية تراكمية

هي عكس ما يعيشه المجتمع العربي اليوم من تدمير شامل لإنجازات الماضي كلها ظهرت سلطنة أو سيادة جديدة . هكذا يتقدم المجتمع ويتقدم الفكر وتتقدم السياسة وينمو الاقتصاد .

إن شرط المراجعة الجدّية هو أن تبرز الأسباب الموضوعية ، المعقولة والملموسة للإخفاق وتحدد ملامح الممارسة الممكنة البديلة والمطلوبة . وليس من مصلحة أحد ، ولا من مصلحة « التقدم » أن يستمر الجدل على أسس سجالية خاطئة مبنية على أحادية النظرة ، والتعامل على الغير والاقتباسات الناقصة أو المشوهة . وقد حان الوقت للبحث ، في قضايانا الرئيسية على الأقل ، عن أسس سليمة للمناظرة قائمة على الكشف عن أصل المشكلات وكيفية التوصل إلى حل ناجح لها . وأن للجدال العربي أن يتقل من مرحلة إثبات الموقف والرأي أو دحض رأي الآخر إلى مرحلة المعرفة البرهانية التي تسعى للتحقق من صحة هذا الرأي أو ذاك عبر الواقع وبه وحده ، لا من خلال حجج مجردة مكرورة . ففكر المباحكات محكوم عليه أن يظل كما هو ودون تغير أو تبدل لأنه حكم على نفسه بالعجز عن تغير الواقع الذي يتحدث عنه ، بل بالبقاء خارجه ، ولا يستمر في هذا البقاء إلا بقدر ما ينبج في إنتاج هذه التخارجية الذاتية وفي إبقاء الواقع الإشكالي أجنبياً ، غريباً ، لا نفاذ إليه . فهو التعبير الصادق عن مأزق فكر يشكل انعكاساً مباشراً لواقع مسلود الأفاق . وهذه العلاقة الخاصة بين فكر سجالي وواقع تكراري هي النموذج الأمثل لوضع مجتمع فقد سيطرته على نفسه وعلى البيئة المحيطة به ، أي على مصيره .

III

منهج النقد الموضوعي

أمام الاختيارات الصعبة التي تواجهها والمسائل المعقدة التي يتوجب عليها حلها ، تحتاج الأمة إلى من يبين لها الطريق وينورها على حقيقة هذه المسائل وعلى الاحتمالات المتعددة النابعة منها وعلى الاختيارات الممكنة ، وما يترتب عليها من مواقف والتزامات تمس مستقبل الأمة وحاضرها وتعلق بتحديد هويتها وأهدافها ومصائرهما . ولا يفيد هنا التهويل كما لا يفيد التهوين . وللكلمات الكبيرة وغير المضبوطة خطر أكبر بكثير من نفعها . ولا يقدم الموضوع في شيء عمالة الرغبات العامة وركوب حيرة الناس وقلقهم وتوظيف مشاعر بأسهم وقنوطهم لتحقيق مكاسب معنوية أو مادية . فمن المؤكد أن العرب يعيشون اليوم كجماعة عملية مراجعة مؤلة وممزقة تشمل جميع المقدمات العقلية والأخلاقية والمادية التي استندت إليها نظمهم الاجتماعية طوال أكثر من قرن . وفي جو من انعدام الأمن الخارجي والداخلي وانفراط عقد النخبة الاجتماعية الثقافية والسياسية يزداد تشكيكهم في أسس كياناتهم ومقوماته ، ويسهل الاستسلام لمشاعر الخيبة وتجريح الذات . ويستدعي هذا الوضع أن تبقى المناقشة على أعلى درجات المسؤولية والموضوعية ، بعيدة عن الشطط والمغالاة وعن اليأس والتشيس الدافع إلى الاستقالة المعنوية الفردية والجماعية . وكي لا تتحول المراجعة إلى حافز للتخلي عن الأهداف القومية وكل أهداف جماعية ، وإلى التنكر للذات من جهة أو إلى نبوءات كاذبة من جهة أخرى ، بل إلى مخاض وولادة جديدة ، لا بد أن ينحصر فحص الأسس والمقدمات العقلية إلى قواعد واضحة ومنطق مقبول ، وأن يتقيد بمنهج موضوعي

ويلتزم بأصول المناظرة العلمية التي تحترم الوقائع والتاريخ وتصيخ السمع إلى الرأي الآخر وتهتدي به حتى تستطيع أن تنمو وتنمي حججها وبراهينها من خلال مواجهتها مع الحجج المقابلة لا عن طريق مسخ آراء الآخرين أو تقويلهم عكس ما يريدون بقصد الإساءة إليهم والإشادة بالذات . وهذه هي المناظرة الوحيدة التي يمكن أن تساعد على الوصول إلى نتائج عملية مفيدة للبدء بداية أفضل .

من التعمية إلى التمييز

وأول مبادئ هذا المنهج ، هو تحديد المسائل المطروحة بشكل دقيق وعزلها أو تمييزها بعضها عن البعض الآخر ، وعن المسائل الجزئية التي تتداخل معها . وتحديد موضوع المسألة ووضعها بدقة وصراحة هو أمر أساسي لتحديد منهج المعالجة وضبط المفاهيم المستخدمة فيها .

ولهذا التحديد في موضوع النقاش حول الحداثة والتقليد أهمية خاصة لأن الأمر يتعلق بدراسة أفكار وتوجهات وقيم ومواقف كلية تمس في الوقت نفسه شؤون العقل والثقافة والدين والسياسة والتاريخ والمجتمع والاقتصاد من حيث أنها تقوم بتعيين الأسس والمبادئ التي يقوم عليها أو يجب أن يقوم عليها البناء الاجتماعي .

ينطوي هذا النقاش في نظرنا على عدة مسائل مستقلة ومتميزة وإن كانت بالضرورة مترابطة لكونها تعبر عن حقيقة اجتماعية واحدة . والابقاء على التداخل وعدم التمييز بين هذه المسائل ما زال من الأسباب الرئيسية لاستمرار القطيعة والجدال السجالي والعجز عن إحراز أي تقدم نظري . إذ غالباً ما يتم الدخول من مسألة ثانوية إلى مسألة عامة أو التطرق للسياسة عموماً من زاوية الدين أو للدين من زاوية العلم . أي حسب ما تقتضيه ضرورات إفحام الخصم وإضاعة فرص ضبط النقاش . ومن المسائل المهمة التي تشكل الإجابة عليها في نظرنا قاعدة للمراجعة النظرية وتجديد الممارسة ثلاث أساسية :

- مسألة الثقافة العربية ، بما فيها من تراث وقيم حية ونظم خاصة أخلاقية ومعرفية وروحية ، وفي علاقتها بالمسائل الأخرى مثل مسألة النهضة ، ومسألة

الهوية ومسألة السلطة ومسألة التنمية . وينبغي أن لا نفهم الثقافة هنا فهماً جامداً تجريدياً ونجعل منها جوهرأ ثابتاً أزلياً لا يتغير يعكس حقائق أو عبقریات جغرافية أو تاريخية أو مناخية أو بيئية أو عرقية كما هو سائد في أغلب الدراسات المنشورة في الشرق وفي الغرب . وحتى داخل هذه المسألة لا بد من التمييز بين مسائل فرعية عديدة يجب عدم الخلط فيها بينها ، منها مسألة التراث أو الإرث الثقافي العربي ، ومسألة الهوية والذاتية الجماعية التي تطرح مشاكل عديدة اليوم على الشعوب التابعة ، والمسألة الدينية التي تتعلق أساساً بمطالب روحية وميتافيزيقية خاصة ، والمسألة المعرفية المتعلقة بإنتاج المعارف وضبطها وتوزيعها وتعميمها .

- والمسألة الثانية الرئيسية هي مسألة السلطة السياسية - والدولة - وشرعيتها وبنيتها الاستبدادية المطلقة أو الديمقراطية التعددية ، وطابعها القومي أو الامبراطوري وسيادتها المدنية الشعبية أو الدينية .

وقد درج المثقفون العرب في سياق الجدال الدائر ، على طرح هذه المسألة وما يتفرع عنها إما من زاوية علاقتها بالدين أو بالقيم الثقافية أو بالخطابات الايديولوجية ، أو من زاوية علاقتها بالهيمنة الأجنبية والاستعمارية ، أو من زاوية علاقتها بالبنية الاقتصادية دون النظر إليها من الداخل ، أو من زاوية مقوماتها الذاتية واستقلالها المنطقي والعملي عن غيرها من المسائل . وهذا الاستقلال لا يعني التعارض أو القطعية ، بل يعني أن معالجتها لا تتحقق على نفس الأسس المفهومية والمنهجية ولا تخضع لنفس الطرائق والمنطلقات .

- والمسألة الثالثة التي نميزها عن المسألتين السابقتين هي مسألة النهضة الحضارية والتقدم التاريخي . والنهضة الحضارية هي التعبير عن علاقة الجماعة بالتاريخ ومكانها وموقعها فيه . وتنطوي هذه المسألة أيضاً على مسائل فرعية تتعلق بتحديد معنى النهضة الحضارية ، وأسبابها وقوانين تحولها ومناهج دراستها ، والتمييز بين النهضة المادية والنهضة الروحية ورؤية العلاقة بينهما . فدراسة النهضة تؤدي إلى دراسة مشاكل التغيير الاجتماعي الفكري والاقتصادي

والسياسي وطرق هذا التغيير واحتمالاته وأسباب فشله أو نجاحه . وتدخل فيها مسائل التحرر العقلي وتطور الوعي السياسي المدني ، ومسألة التنمية والتطور الاقتصادي ومسائل أخرى متعددة سوف تأتي عليها .

المنظرة العلمية

لا تعني المنظرة العلمية الموضوعية تطبيق مفاهيم مجردة واحدة على كل ميادين النشاط الاجتماعي والإنساني ، ولا استخدام تعابير العقل والعقلانية . فكثيراً ما يغطي خطاب العلمية أو العقلانية السعي لإضفاء صبغة من الشرعية الأكاديمية على كلام يفتقد إلى الموضوعية ويبعد عنها كل البعد . بل إن لجوء الباحثين المتكرر إلى تأكيد علمية أقوالهم غالباً ما يغطي شكهم هم أنفسهم بصحة منطلقاتهم ، وفهمهم السطحي والمجرد لصفة العلمية .

يقضي المنهج العلمي كما نفهمه الاعتراف أولاً باستقلال الموضوع عن الفكر وقيامه بذاته . وهذا مبدأ أساسي لكل بحث جدي يرفض أن يماثل بين موضوع البحث كما هو قائم وبين الصورة التي يأخذها عنه . فمن إيجابيات هذه النظرة أنها تحصن الباحث من رؤية الموضوع من خلال ما يريد الموضوع أن يظهر نفسه به أو ما يريد الباحث أن يراه عليه . فكم من باحث يتتقد اليوم الأنظمة العربية على أنها نماذج لأنظمة قومية أو إسلامية ، كما تريد هي أن تظهر نفسها لتتال بعض الشرعية ، أو كما يريد هو أن يوسمها به ليبر دعمه أو رفضه لها بدل تحليل هذه الأنظمة تحليلاً موضوعياً يكشف عن حقيقة القوى الاجتماعية التي تقوم عليها ، وطبيعة الأهداف التي تقوم عملياً بتحقيقها والدفاع عنها . والاعتراف باستقلال الموضوع هو الشرط الأول للإنطلاق من الواقع الموضوعي ، أي من الحركة والظاهرة لفهم قوانينها ، وعدم السعي إلى التقرب منها من خلال الأفكار التي يصنعها المتحدثون عنها .

وينبع من هذا الموقف العلمي التسليم بأن للموضوع عقلانيته أو منطقته الخاص ، أو أن له قوانين تحدد وجوده بمعزل عنا ، هي التي نسميها القوانين الموضوعية . وهذا لا يعني أن العلاقة بين الفكر والواقع معدومة ، ولكنه يعني أن

التفاعل بينهما هو تفاعل بين « عالين » متميزين ومستقلين ، ولا يمكن فهمه بغير ذلك .

وإن نفاذ الواحد منهما في الآخر قائم على قدرة الفكر على تمثل قوانين الواقع والتكيف معها . وهذا التمثل هو شرط كل تغيير للواقع نفسه .

ويتج عن ذلك أن البحث العلمي يقوم على دراسة الظاهرة الواقعية والكشف عن قوانين عملها وعن العلاقات الداخلية التي تكون قوامها بغض النظر عن رأي الناس بها . وهو منهج مخالف كلياً للمنهج السجالي الذي لا ينظر إلى الواقع إلا من خلال رؤية الآخرين له ، في الصراع ضد هذه الرؤية . وهذا يعني أن البحث الاجتماعي العلمي يقتضي الانتقال من دراسة الخطاب وتحليله إلى دراسة الظاهرة نفسها . والمنهج العلمي يقتضي رفض البحث عن قوانين الواقع والتاريخ في الإيديولوجية التي تعبر عنه أو في مفاهيم الواقع والتاريخ ، ذلك أن من وظائف الإيديولوجية تغييب هذه القوانين أو ابتسارها ، ومن خصائص المفهوم تجريدها واختصارها . وهو يقتضي كذلك رؤية الواقع في حركته وتغيره كظاهرة نامية ومتحولة . فبدل المفاضلة المتبعة بين قيم الحداثة وقيم الأصالة ، يقوم البحث العلمي على دراسة ظاهرة التحديث وشروطها الاجتماعية ومظاهرها الثقافية والسياسية والعلمية والتقنية ، والكشف عن قوانينها العامة وعن العوامل التي تدفع إليها والعوائق التي تقف أو يمكن أن تقف في وجهها ، والمصالح التي ترتبط بها وتلك التي تهددها ، وردود فعل الأفراد والجماعات عليها ووعيهم الخاص بها ومطابقة هذا الوعي أو مخالفته لواقعها .

ويمكن لهذا المنهج أن يكشف عن أمور كثيرة مفاجئة لا تظهر في التحليل الإيديولوجي ولا في السجال الدعاوي ، بما في ذلك المضمون الحقيقي الذي تعطيه كل فئة اجتماعية لهذه العملية ، والتناقضات العديدة التي تقوم بين ادعاء الحداثة مثلاً والمحافظة الاجتماعية أو السياسية ، أو ادعاء الأصالة والاستلاب الثقافي . وكثيراً ما يكتشف الباحث أن وراء الحركات الإيديولوجية المتناقضة أو المتباينة مطالب أو مطامح قومية أو اجتماعية واحدة أو متقاربة ، ووراء الدعايات

المتشابهة مصالحي ورؤى متباينة ، وأن بين الرافعين لشعارات القومية عتاة الانفصالية والقطرية ، وبين المتحدثين بالعلمانية حماة العشائرية والطائفية

ولا يعني هذا أن ليس للإيديولوجية قيمة في فهم الواقع أو التأثير فيه ، ولكنه يعني أن الإيديولوجيات لا تفهم بمعزل عن السياق الاجتماعي والتاريخي وخارج الشروط الثقافية والسياسية التي تظهر فيها وتتمو وتتطور تركيباتها ووظائفها كأداة من أدوات الصراع . ويعني أن الإيديولوجية هي التي تفهم على ضوء الواقع وليس العكس . فبمسما تجيب الإيديولوجية أساساً على أسئلة من نوع ما هي المنظومة الأفضل أو ما هو الاختيار الأسلم وما هو الهدف الأكثر واقعية ، يتركز السؤال العلمي على كيفية حصول الظاهرة ، وما هي شروط تحققها التي تسمح للمجتمع أن يتحكم بها ويحولها من الداخل . ومن الأسئلة العلمية في مجال الثقافة العربية السؤال عن كيفية حصول التحول الثقافي في المجتمع العربي وما هي عوامله وغاياته ، وما أصل فكرة الحداثة ، وما أصل الإيديولوجية التي ترتبط بها ، وما هو مصيرها . عندئذ نستطيع أن نقارن بين آثارها السلبية والإيجابية ونبلور سياسة تحديثية أو ننتقد ونفهم عملية التحديث العربي كواقع عملي وكهدف اجتماعي قائم منذ تماس العرب الأول بالحضارة الغربية الحديثة . ونفس الأسئلة نطرحها حول ظاهرة عودة التيار الإسلامي إلى احتلال مكان الصدارة والهيمنة في الثقافة العربية ، فنسعى إلى معرفة منشئه والأسباب الموضوعية لنموه واحتمالات تطوره

وبالمثل ينبغي أن نطرح على أنفسنا أسئلة يمكن الإجابة عليها والتحقق منها فيما يتعلق بالتاريخ وشروط التقدم والنهضة . وبدلاً من التباري في استخلاص أسباب نهضة الأمم من نموذج معين وجاهز يقرأه كل باحث على مراحله . علينا أن ندرس طبيعة الظاهرة التي أطلقنا عليها اسم النهضة ، وكيفية حصولها ومقوماتها وأسبابها الموضوعية والذاتية وتناقضاتها والمشاكل التي أدت إلى إجهادها . ونخرج بذلك من الحلقة المفرغة التي نحاول أن تفهم شروط النهضة وتستخلصها من النموذج الأولي وتختصرها إلى مفاهيم مجردة مثل العلم والعقل والتقنية والحرية الفردية ، ثم نتقل إلى تطبيقها على الواقع العربي . إذ إما أن تكون أسباب هذه

النهضة مشتقة من التاريخ والثقافة الأوروبية فلا يعرف عندئذ كيف سينتج تاريخ الشرق وثقافته نهضة مماثلة ، أو تكون مستقلة عنه ، فلا يدري عندئذ ما معنى وما حدود هذه المقارنة بين العالمين

ولا يعني هذا أن الدراسة العلمية تنفي الجدل الإيديولوجي أو تلغي الحاجة إليه

فالدراسة العلمية تجيب على مسائل لا تستطيع الإيديولوجية أن تجيب عليها ، وهي ليست من اختصاصها والإيديولوجية تجيب أيضاً على مسائل لا قدرة للعلم على إعطاء أجوبة حاسمة عليها وإنما هو يقدم المعطيات الصحيحة لصياغة مثل هذه الإجابة ومن هذه المسائل تحديد كل مجتمع لأهدافه الكبرى وبنائه لرؤيته الكلية ومنظوماته القيمية والأخلاقية وعلايات أفراده أي كل ما يتعلق بإعطاء وجهة عامة لممارسته ومعنى أصيلاً لحياته فالدراسة العلمية لا تغني عن التفكير الفلسفي والإيديولوجي والاجتماعي ولكنها تساعد على تحديد أهداف ممكنة ومعقولة ، وبإسعاد حياة المجتمع على أسس واضحة ، وهي تحضنه ضد الشطط في الاختيار والعشوائية والتخبط في الممارسة ، وتقدم لجميع الأطراف قاعدة مشتركة وثابتة للحوار لا بد منها لقيام أي إجماع

وضوح القصد

شرط ثالث من شروط النظرة الموضوعية فكل من يبحث يضع نصب عينيه غاية من بحثه ولديه حافظ عليه يدفعه إليه ويشترط تحليله وتركيبه للواقع في الدهر وكشفه لحوايه الخاصة وأصل ذلك أن التفكير لا يحصل إلا بقصد ، وأن لا حركة بدون حافظ سواء أدرك الفاعل ذلك أم لا ومن التفكير ما يحصل بحافز الظهور على الآخرين أو منافستهم في الحداثة والأهلية وليست كل منافسة بالامر السوء ، فهي أحد مصادر دفع العلم والمعرفة لكن الاقتصار عليها أو جعلها الحافز الأساسي يعني قلب البحث ولا يسمح له إلا برؤية جرد محدود من الواقع الذي يتيح له الظهور

ومنها ما يحصل بقصد التماهي مع الآخرين ومشاركتهم آراءهم وعقائدهم . وكثيراً ما يدفع حب التواصل والانسجام إلى الامتالية والاقتداء . ومنها ما يحصل بحافز الهوى فلا يرى الباحث موضوعه إلا من زاوية اشباع الرغبة المادية أو المعنوية التي دفعته اليه . ومنها ما يحصل بقصد الفهم والمعرفة الخالصة . ويمكن لحب المعرفة أن يؤدي إلى الاستغراق في الموضوع وتجاهل كل ما يحيط به من عوامل وعواطف وقيم وأهداف إنسانية . ومنه ما يحصل بقصد تغيير الموضوع فيدفع الباحث إلى رؤية عناصر التغيير وتجاهل عناصر الثبات ، الخ . فكل مقصد من هذه المقاصد يظهر جانباً من الواقع ويخفي جانباً آخر لا يريد أن يبصره ولا يوليه اهتماماً . وليس هناك مقولة أو نظرة واحدة تستطيع أن تشمل كل المقاصد وترى الموضوع في جميع حالاته ومن جميع جوانبه طالما لا يوجد وعي متجرد عن كل شرط وحالة وموقع وزمان ورغبة . وهذا أصل أساسي من أصول اختلاف الناس في فهمهم للأمور ، وسبب من أسباب تباينهم في الرأي . فإضافة إلى اختلاف الكلام باختلاف المتكلم وموقعه وشروط تكوينه الذاتية وظروفه الاجتماعية وطبيعة المتلقي والشاهد وموقعه ومكانه ، وهي كلها عوامل تجعل الحقائق نسبية والمعارف متبدلة ، هناك مقاصد الكلام المعلنة أو الخفية التي تعبر عن مبدأ العلاقة الأولى بين الذات المفكرة وموضوع التفكير . ويقدر صدق الرغبة ووضوح المقصد يكون وضوح الفكرة ووعي الباحث لحدود معرفته وظروفها .

وترجمة هذا بالنسبة لموضوع الواقع العربي ، أن التغيير الذي تطالب به كل الأطراف لا يمكن أن يتحقق إلا بقدر صدق الرغبة فيه ووضوح مقصده ، وتوجه البحث نحو فتح آفاق جديدة للممارسة وللمبادرة الاجتماعية . وهذا يقتضي التركيز على مكان القوة في الواقع والثقافة والتاريخ العربي مقابل نقاط الضعف والتفكك ، ورؤية التناقضات المحركة مقابل التشديد على التماثلات المجمدة والمثبطة .

مغالبة الأهواء

ولا نقصد بالأهواء الرغبة المقصودة في تشويه صورة الموضوع المدروس أو

تحريفها وإنما الشروط النفسية والثقافية والبيئية وأوهام العصر التي تتحكم بكل علاقة بين الذات المفكرة وموضوع التفكير ، وبغض النظر عن وعي الباحث بها أم عدمه . فليس من الممكن التعامل مع موضوع دون التفاعل معه بعاطفة إيجابية أو سلبية . والتفاعل الإيجابي بين الذات والموضوع يلغي الحواجز ويسمح بتنفيذ الوعي إلى قلب الموضوع وإقامة علاقة ثابتة معه وحقيقية تجعله يدركه من الداخل . لكنه ينطوي على خطر توحيد الوعي بالواقع ، وإضفاء الرغبات أو المقاصد الذاتية على موضوع البحث . والتفاعل السلبي يمنع المرء من رؤية الموضوع إلا من زاوية ما يسيء إليه (الموضوع) أو يشوه صورته . فهو لا يفكر به إلا ليصده ويرده عنه . وأفضل مثال على ذلك ما يخلق الناس من أسباب للكراهية عندما ينفرون من شخص أو من جماعة أو من ثقافة ، فلا يجدون فيهم إلا الصفات التي تدعم أحكامهم المسبقة عنهم وتخلق بينهم وبين موضوعهم حجاباً لا يمكن تجاوزه ، كما تفعل العنصرية السائدة في بعض الأوساط وتجاه العديد من الجماعات والأوضاع . ونجد مثل هذا الحجاب عند من يتخذون موقفاً سلبياً مطلقاً من الثقافة العربية والتراث أو من الثقافة الغربية والحديثة ، فلا يرى الأولون في الأولى إلا قصوراً وتخلفاً ولا يرى الآخرون في الثانية إلا عداً وتجبراً وطغياناً .

ولا ندعي أن الإنسان قادر على تخطي الشروط الخاصة الذاتية والموضوعية التي تحدد وعيه وطريقة تمثله للواقع وللحقائق المحيطة به ، وتفرض عليه رؤية خاصة تميزه عن غيره . وليس هناك أي نظام للوقاية من أهواء الذات ومغريات الواقع . وليس من السهل على أحد تجاوز محدودية قيم ثقافته أو عائلته الثقافي وعاداته وتقاليده ومشاعره الشخصية والجماعية والدينية والقومية حتى لو ادعى إنكارها ، ولا من اليسير عليه تجاوز أوهام العصر والحقبة وأفكارها السائدة للارتفاع في رؤيته التاريخية - والنظر إلى ما وراء الواقع والتاريخ المحدودين اللذين يعيش فيهما .

فالارتفاع عن الأهواء ، وهو شرط الوصول إلى رتبة الموضوعية في الأحكام لا يحصل من تلقاء نفسه ولا نتيجة للتسلح بمناهج ونظريات عقلانية أمادية .

فكم من عالم يلوي عنق الحقيقة حتى تدخل مرغمة في نظام مفاهيمه الخاص عندما يكون هدفه إثبات مصداقية هذا النظام وإجرائيته . وكم من عالم يلوي عنق منهجه « المادي » حتى يقبل برؤية الحقيقة رؤيةً تنسجم مع مصالحه الخاصة وأهدافه .

إن تخطي المحدودية الشخصية والاجتماعية والتاريخية يتطلب الاعتراف بها أولاً ، ثم الكفاح الواعي من أجل التقليل من أثرها ، ومغالبة الذات الدائم ضد ميل الإنسان الطبيعي إلى اتباع أهوائه الخاصة وتأكيد عقائده وقناعاته . ومحاربة جماعته أو وسطه ومناصرة أترابه ، ومسايرة آراء عصره .

وتستدعي محاربة الأوهام إذن مغالبة ذاتية مستمرة وتجرساً عليها يجعل المرء يتجرد شيئاً فشيئاً عنها وتخلق لديه قدرة على الارتفاع إلى رتبة الحكم والنظر الموضوعيين . وعليه أن يتساءل في كل موقف ما هي الأهواء التي يمكن أن تحجب عن عينيه الرؤية السليمة والصحيحة ، وتقف عائقاً بينه وبين الحقيقة الخالصة . فإذا نجح الإنسان في مغالبة نفسه استطاع الوصول إلى أعلى مراتب الحقيقة .

بيد أن لهذه القاعدة تطبيقات معاكسة مشتقة منها يجسدها مفهوم الالتزام . فالالتزام هو قبول الباحث بقسط من « اللاموضوعية » في رؤيته لموضوعه ، يبرره موقعه منه أو ضخامة الرهان أو الموقف الأخلاقي أو طموح الفكر واندفاعه نحو المغامرة ، وكل فكر شمولي هو في حد ذاته مغامرة . ويعني الالتزام التعاطف المسبق مع الموضوع وعدم النظر إلى جوانبه السلبية حتى لو كثرت إلا من زاوية السعي إلى تجاوزها وتدعيم الجوانب الإيجابية وتقويتها . ويكون الالتزام تجاه أمور لا يستطيع الناس الاختيار فيها . كالانتفاء إلى أمة أو إلى ثقافة أو إلى عقيدة . فمهما كانت محاسن الأمة أو مثالبها ليس لدى المرء إلا أن ينظر إليها بما يساهم في تقدمها وتحسين حالتها ، لما لذلك من أثر مباشر عليه وعلى صورته عن نفسه . ونظرة التحسين والإصلاح لا تقوم إلا على أساس التعاطف والتفاعل الإيجابي ، إذ ليس هناك أي دافع للبحث عن حلول مشمرة لأمة أو لجماعة نرفضها مسبقاً أو نكرهها أو لا يهمننا أمرها . فالتعاطف ينظر إلى الأمور من زاويتها الإيجابية فيدعم

ثقة المجتمع بنفسه ويقوي لديه الاستعداد على مواجهة الجوانب السلبية . فليس هناك تناقص فعلي بين الموضوعية والالتزام بل إن الالتزام بقدر ما يأخذ بالاعتبار العوامل الذاتية والإنسانية التي لا يستطيع النظر العلمي أن يدركها ، وبقدر وعيه لوصفيته الخاصة هو قمة الموضوعية التي تستوعب كل العوامل ولا تتجاهل أيًا منها

القسم الثاني

زمن النكسة

(في التجاوز الحضاري وأصل الانقسام)

I

الثقافة والمجتمع

حظيت الثقافة في العصور الحديثة بتعريفات متعددة بقدر ما إن الساحة التي تغطيها النشاطات الثقافية تتسع لتشمل كل نواحي الحياة الاجتماعية أو تبطنها . وهكذا من الممكن إذا حصل التأكيد على هذا الجانب أو ذاك الخروج بتعريفات مختلفة متميزة بعضها عن البعض الآخر . وتتردد هذه التعريفات بين مفهوم ضيق للثقافة يجعلها مقتصرة بالدرجة الأولى على النشاطات العقلية العليا أو على الإنتاج الذهني العالي المستوى والمعترف به من قبل المختصين ، وبين مفهوم أقل ضيقاً يدمج في الثقافة كل النشاطات الذهنية الشعبية والرسمية الحية والموروثة . وبين مفهوم ثالث أكثر شمولاً يحاول أن يربط الثقافة بكل النشاطات الذهنية والجسدية التي تخلق لدى جماعة معينة طريقة متميزة في السلوك والحياة .

لكن جميع هذه التعريفات تشترك في نقطة واحدة هي تحويلها الثقافة إلى مجموعة من المعارف والاعتقادات والقيم والأخلاق والعادات التي يكتسبها الفرد من جراء انتمائه إلى جماعة من الجماعات . ويمكن إرجاع كل هذه التعريفات في الحقيقة إلى أدوارد تايلور الذي نشر عام ١٨٧١ أهم كتاب في الموضوع في وقته أصبح فيما بعد المرجع الأساسي للأعمال التالية ، وهو « الثقافة البدائية » . ويعرف تايلور الثقافة بأنها : « هذا الكل المعقد الذي يتضمن المعرفة والاعتقاد والفن والحقوق والأخلاق والعادات وكل قدرات وأعراف أخرى اكتسبها الإنسان كفرد في مجتمع » . ويتج عن ذلك ان أعضاء المجتمع يتبادلون فيما بينهم أكثر مما يتبادلون مع غيرهم من الجماعات .

وهذه التعاريف مفيدة كي تظهر ما يميز مجتمعاً عن مجتمع آخر ويفسر سلوكه المتميز . هكذا فهمت قبل القرن الثامن عشر لدى علماء الثقافة والإنسان . وقد تطور هذا المفهوم منذ عصر الأنوار حتى أصبح لا يعني فقط هذا التمييز في السلوك وإنما أيضاً التمايز بين ما سمي بالشعوب البدائية والشعوب الحديثة المتحضرة . وما زال النقاش قائماً بين من يريد من علماء الثقافة حفظ حد أدنى من الاستمرارية بين الثقافة البدائية والثقافة المعاصرة ، ومن يرى عكس ذلك ، ويؤكد على التمايز الوظيفي بين الثقافتين . ويسعى علماء الإناسة ، بعكس فلاسفة الثقافة ، أن يطوروا دراسة الثقافة الحديثة على ضوء تحليل الثقافات القديمة ذاتها . لكنهم ، هم أيضاً ، لا يطرحون إلا الأسئلة والمسائل التي تسمح لهم بطرحها ثقافتهم . والمسألة ليست قليلة الأهمية ، إذ أن الفصل الكامل بين الثقافة البدائية والثقافة الحديثة يجعل من الثقافة الأخيرة ، وهي الثقافة الغربية ، مقياس كل الثقافات الأخرى . وبالعكس يعني إلغاء التعارض بينهما النظر إلى الاختلاف الثقافي على أنه تمايز عملي في طريقة الاستجابات والحلول التي تقدمها كل ثقافة على مشاكل واحدة . ونقترب عندئذ من فكرة الثقافة باعتبارها تجاوزاً للطبيعة ، وهي الفكرة التي أدخلها صموئيل فون بوندورف منذ القرن السابع عشر . وهنا تصبح الثقافة عملية تهذيب أو تثقيف « الطبيعة » أو الفطرة ، أي ما يسميه العرب بالأدب ، وما أطلق عليه كتاب القرن السادس عشر في أوروبا بتدريب العقل ، ووصفه فولتير بتكوين الروح ، ثم اعتبره كنت وهيجل ونيشه فيما بعد مظهراً للوعي البشري .

وكان هيلدر الألماني أول من استخدم الثقافة بمعنى السمات التي تميز أمة عن غيرها من الأمم فأصبحت تعني الهوية القومية وارتبطت بها .

والواقع أن الثقافة ما زالت تستخدم كإسم عام يطلق على ظواهر وميرونات مختلفة ومتفاوتة بئل ومتناقضة أحياناً ، وذلك حسب طبيعة المتكلم والميدان المستخدمة فيه والهدف . فقد تستعمل لتمييز ميادين ذهنية ومادية مختلفة فيقال ثقافة سياسية وثقافة بدنية ، أو لتمييز أنماط سلوك أو خصوصيات قومية

فيقال مثلاً ثقافة العرب روحية وثقافة الغرب عقلية ، أو لتحديد مكانة اجتماعية فيقال هذا مثقف وذاك أمي ، أو لوصف جزء من النشاط الثقافي فيقال ثقافة عمالية وثقافة فلاحية ، أو لوصف مواقع سياسية فيقال ثقافة تقدمية وثقافة رجعية أو ثقافة اشتراكية وثقافة برجوازية الخ .

كما يمكن للثقافة أن تستعمل كتعبير عن آليات ووظائف اجتماعية ، وعندئذ يتحدث المرء عن أثر الثقافة في سلوك الفرد أو الجماعة ، أو في تطور الإنتاج أو المجتمع . ولهذا تتباين التعريفات المقدمة للثقافة وتختلف حسب الأهمية التي تعطىها للفعل أو للنشاط الثقافي في التأثير على سير النظام الاجتماعي العام ، وحسب إتساع المفهوم الذي تعطيه لها أو ضيقه . فمنهم من يعتبرها بنية فوقية تابعة لبنية تحتية هي التي تحدد لها وظائفها ، وتشكل الماركسية أفضل مثال على ذلك . ومنهم من يعتبرها بنية أساسية تخضع لها جميع البنى الأخرى ، كالأنثروبولوجية الثقافية التي تجعل من النظام الثقافي المنفذ إلى فهم نظام المجتمع العام وتنظر إليه على أنه بطانة هذا النظام ومكمن أسرارها .

ولا شك أن هناك ارتباطاً كبيراً بين توسيع مفهوم الثقافة ودائرة الظواهر التي تغطيها ، وبين تعظيم الدور الذي ينام إليها في حياة المجتمع . ويظهر الفارق مباشرة في تحديد موضوع الثقافة . هل هو نظام القيم والمعايير الذي ينظم حياة الجماعة ويتحكم بسلوك أفرادها وسلوكها الجماعي واستمراريتها ، أم هو الإنتاج الفكري للهيئة المثقفة من علماء وأدباء وفنانين ، والذي يشكل مرآة ، صادقة أو كاذبة ، لحياة المجتمع بكل ما تعنيه كلمة مرآة من سلبية . فالثقافة تعني بالمفهوم الأول القاعدة الأساسية التي تقوم بضبط المجتمع لبيئته وتاريخه وسيطرته عليها ، أي في الواقع تعامله سلباً أو إيجاباً معها . وتصبح بالتالي مصدر المدنية وعلتها . وتعني بالمفهوم الثاني المتعة التي يحصل عليها الإنسان من الثقافة واستهلاك الإنتاج الثقافي . فالنظرة الأولى ترى في الثقافة مجموعة قواعد ، وترى فيها الثانية جملة مستوحات ومواضيع استهلاك . وتقتصر النظرة الأنثروبولوجية أن للنسق الثقافي إذن انسجاماً داخلياً قوياً يجعل من الصعوت تغيير جزء منه دون إثارة رد فعل أو استجابات وتغييرات على صعيد توازن النسق كله ، وأن هذا النسق يكون

ظاماً متكامللاً لا يمكن تجزيته ، وأن أي تغيير عميق في توجهات الجماعة لا بد أن لمقى مقاومة قوية من قبل النسق الثقافى ما لم يترجم نفسه فى مصطلحات وقواعد هذا النسق . وهنا تظهر البنية الثقافية كما لو كانت صيغاً أو أنماطاً أولية ثابتة فى للشعور الجمعى لكل مجتمع لا تتغير ولا تتبدل على مر العصور ، وتعطى للمجتمع هويته أو خصوصيته .

ومن الواضح أن الموقف العربى السائد هو مزيج من النظرتين . فهو يجمع فى الوقت نفسه نظرة الاستهتار بالثقافة والقيم الثقافية كعامل من عوامل وشروط التحول والتغير الاجتماعى ، ولا يرى من هذا التحول إلا جانبہ التقنى أو السياسى - السلطوى ، إلى نظرة ثانية تعتبر الثقافة نظاماً كلياً ونسقاً ثابتاً ، عربياً أو غربياً ، تشتق منه روح التطور أو تستند إليه عوامل النهضة من جهة ، أو تبرز منه روح التخلف من جهة أخرى . وأصل ذلك أن التخلص من ثقافة الماضى وتحقيق القطيعة معه لا تتم إلا بالانتقاص من القيم الثقافية التى يمثلها ، بينما يستدعى الالتحاق بالغرب والتأثر به تقدير ثقافته وتعظيم دورها . وهكذا يتردد هذا الموقف ، وحسب الحاجة ، بين توليد التاريخ كله من الفكرة ومن الثقافة ، وبين رفض الثقافة كقيمة فى ذاتها والاستسلام لموقف العدمية الثقافية .

ويستج قصور هذه التعريفات والمواقف عن خطأين أساسيين ، يقوم الأول على الخلط المتعمد أو التلقائى بين الثقافة والوعى أو الفكر أو العقل ، مما يجعل من الثقافة بنية ذاتية بعيدة عن الموضوعية ، ومن الصعب إدراكها أو الإمساك بها خارج نطاق الحدس أو الإبداعات الشخصية . ويقوم الثانى على الخلط بين الثقافة وبين الواقع أو الوقائع المادية الجغرافية أو المناخية أو العرقية أو البيئية أو التاريخية ، مما يهدد بجعل الثقافة كتلة جامدة من الصفات أو الصبغيات القابعة فى قلب كل تجمع بشرى والمكونة لكيانه اللاتارىخى والأبدى الذى لا يحول ولا يزول .

والبحث فى الثقافة انطلاقاً من النظرة الأولى يجعلها ، وفى أحسن الحالات ، رديفاً لتبدل الوعى الإيديولوجى ، أى تبدل التيارات الكبرى التى

تسيطر على المناخ الثقافي في مجتمع ما وتميز تاريخه ، أو لجزء ديني أو علمي أو فلسفي منه . ورؤيتها بهذه الطريقة ، أي من خلال أنماط الوعي الخاصة ، يتفق مع مطالب الصراع الإيديولوجي الذي يفترض تفتيت هذه الثقافة وتجزئتها .

والبحث في الثقافة انطلاقاً من النظرة الثانية يضيف عليها طابعاً ماهوياً وجوهرياً يمنع الباحث من إدراك تحولاتها ، بل يحرمه من إمكانية فهم تطور المجتمع نفسه . فهي هنا مجرد انعكاسات فورية لمعطيات مادية بيئية أو عرقية لا دخل للوعي ولا مكان له فيها .

النظرة الأولى تلغي كل استقلال ذاتي وقوامية متميزة للثقافة ، أي كل انسجام وتكامل داخليين ، وكل زمانية خاصة ، وتحولها إلى عدد لا متناه من الرؤى والتيارات والأفكار . والنظرة الثانية تلحق زمانيتها بزمانية الواقع المادي ، وتحرمها من كل ديناميكية خاصة وذاتية لتطورها . وكلاهما يعني تقليص الثقافة إلى مظهرها الذاتي المحض ، وعدم رؤية هذا المظهر إلا من زاوية الاهتمام الإيديولوجي ونظراته الخاصة إلى ماهية الوعي . فالمثقف العقلاني لا يرى الوعي إلا كعقل منظم وتنظيمي ، حاذقاً كل ما له علاقة بالمصادر الروحية والفنية ومنظومات القيم الموروثة التي يعتبرها تشويهاً للوعي أو مظهراً من مظاهر انحرافه أو انحطاطه أو التعبير المنقوص عنه . والباحث المعادي للعقلانية يركز بالعكس على منابع الإلهام الروحية والأخلاقية والدينية التي لا تشكل النظم العقلية إلا تجسيدات مؤقتة أو تاريخية لها ، فتكون عنده روح الثقافة أهم من متوجاتها .

بيد أن جميع ما ذكرناه من تعريفات حتى الآن لا يجيب على السؤال الذي يطرحه علم اجتماع الثقافة . أي ما هي الشروط التي تنشأ في نطاق جماعة ما إلى انبثاق نظام قيم معين ينظم ممارسة هذه الجماعة ، ويخلق عندها حقل دلالات خاصة روحية وعقلية تصوغ من خلالها الأسئلة والإجابات التي تسمع لها بالتكيف مع البيئة المحيطة بها وإدارة أو تسيير تاريخها ؟ ولماذا تنشأ ثقافات مختلفة هنا وهناك ومعايير متميزة للوعي والسلوك ؟

لا شك أن الثقافة لا تفهم إلا باعتبارها مظهراً للوعي الذي يستوعب

الإنسان من خلاله ، فرداً وجماعة ، العالم ويفهمه ويجعله شفافاً أي قابلاً للتمثل في الذهن . ولا تفهم أيضاً إلا باعتبارها استجابة لواقع موضوعي ، قائم خارج الذهن يفرض نفسه بصرف النظر عن الفكرة أو الصورة التي يصنعها له الوعي . بيد أن هذا الوعي وذاك الواقع لا يخلقان ثقافة إلا عبر المجتمع والجماعة ، باعتبارهما صيرورة تاريخية ، أي كياناً متبدلاً ومتغيراً ومستقراً في الوقت نفسه . فمن خلال هذا الاجتماع يصبح الوعي الذاتي وعياً جماعياً ، أي مستقلاً عن وعي كل فرد لوحده ، ويصبح الواقع الموضوعي والخارجي واقعاً تاريخياً ، واقعاً ذاتياً أو للذات ، خاصاً بخبرة الجماعة وبما تصنعه منه . فمن هذه العلاقة الاجتماعية والتاريخية بين الوعي والوجود ، بين الذات والموضوع ، يولد واقع جديد ، أو بنية موضوعية خاصة تؤثر في الوقت ذاته في طريقة عمل الوعي كذات فاعلة ، أو كفعل إدراك ، وفي طبيعة الواقع الخارجي ، هي ما نسميه بالثقافة .

ولا يلغي وجود هذه البنية الموضوعية ذاتية الوعي الفاعل ولا خارجية الواقع الموضوعي ، بل تدخل في صراع دائم معها . فهي شرط الانتقال من الفردية إلى الجماعة ومن السكونية إلى الحركة ، أي شرط إنتاج المجتمع كصيرورة مستقلة ومتميزة عن وجود الأفراد كأفراد ووجود الطبيعة كمعطى أجنبي أو خارجي .

ويتج عن ذلك أن اندماج الفرد في ثقافة ما ليس أمراً معطى منذ البدء بل هو ثمرة لعملية صراع بين الوعي الذي يحاول أن ينفذ إلى الواقع مباشرة وخارج أطر الثقافة وما تفرضه من شروط اجتماعية ، وبين الجماعة التي تحاول أن تفرض عليه مجموعة القواعد التي تعتبرها شرطاً لوجودها . وفي هذا الصراع يكمن في الواقع المصدر الأساسي لنمو الثقافة ذاتها وتبدلها ، ونعني به الإبداع العقلي . كما يتج عن ذلك أيضاً أن الثقافة كوعي جماعي موضوعي ومنظم يمكن أن تنفصل عن الواقع ، أو أن تفقد القدرة على التعامل معه ، خاصة عندما تأتي التغيرات الأساسية فيه بدافع خارجي . وعندئذ يتحرر الوعي من شروطه الاجتماعية ، ويكون لتحرره هذا الدور الأول في إعادة بلورة وتنظيم الساحة الثقافية وتجديدها . وهذا يعني أن الثقافة ليست كتلة جامدة ، ولا ماهية ثابتة ،

ولا عقلية متحجرة ، وإنما علاقة توتر مستمرة ، وثمره هذا التوتر الدائم بين الوعي والواقع ، والذات والموضوع ، والحاضر والمستقبل ، والحلم والإمكان . وبقدر ما تنجح ثقافة ما في إعطاء حلول إيجابية لهذا التوتر دون التضحية بطرفيه ، أي دون إغائيه ، وهو مصدر وجودها ، تؤسس للمجتمع كمجتمع مدني ، وتضفي عليه الاستقرار والتقدم . وتموت الثقافة أو تذبل متى ما تعمق الانقسام بين الوعي والواقع ، وزالت إمكانية تجاوز التوتر بينهما أو تحويناها . إذ أن معنى ذلك أن المجتمع قد بدأ يفقد القدرة على التحكم بنفسه وبمحيطه .

لكن من أين تأتي قدرة المجتمع على العثور على حلول إيجابية ومبدعة لهذا التوتر الخلاق ؟ هذه في نظري مسألة تاريخية ومعقدة تلعب فيها الظروف الخاصة والإمكانات والخبرة والحظوظ التاريخية والموقع والانتقاء التاريخي دوراً كبيراً . وتاريخ الجماعات البشرية ليس مكتوباً منذ البدء على كتاب محفوظ ولا محتوماً . لذلك لا يمكن لنشوء ثقافة أن يكون اعتباطياً أو إرادياً . وليس بالإمكان توليد ثقافة أو إبداع نمط ثقافي جديد عندما يرغب فرد في ذلك أو تقرره جماعة من الجماعات . فنشوء ثقافة حية خاضع لعوامل متعددة ومتبدلة تاريخية واجتماعية واقتصادية وسياسية وعسكرية أيضاً ، قد تتوفر لمجتمع ولا تتوفر لآخر ، أو قد تتوفر له في حقبة معينة ويفتقر إليها في حقبة أخرى . لذلك أيضاً لم تنشأ عبر التاريخ إلا ثقافات كبرى محدودة ، وقليل منها أتيح له أن يطور منظوماته الروحية والعقلية والأخلاقية والعلمية ويصل بها إلى مصاف الحضارة العالمية .

فمن خلال إنتاجهم لوجودهم كوجود اجتماعي ، أي مدني ، تخلق الجماعات أنماطاً متميزة من الوعي والسلوك ومنظومات قيم وقواعد اجتماعية وعقلية مرتبطة بالحقبة وبالبيئة وبالظروف العامة لتشكلها . وتصبح هذه الأنماط بذاتها بنية مستقلة داخل البناء الاجتماعي تؤثر فيه وتتأثر به . وقد تصبح هذه البنية التي كانت عاملاً من عوامل النمو والتقدم في حقبة ما عاملاً من عوامل عدم التكيف في حقبة أخرى . ونسمي هذه البنية بالنسق الثقافي ، ونسمي أشكال التفكير والوعي الخاصة بها بالأنماط الثقافية ، والمؤسسات التي تحقق وظائفها العلمية والدينية والأخلاقية والفنية بالمنظومات الثقافية ونسمي

التمفصل الخاص الذي تأخذه في حقبة أو عهد معين هذه الأغاط والمنظومات بالنظام الثقافي .

فالثقافة هي إذن جملة الأغاط (القيم والقواعد والأعراف والتقاليد والخطط .. إلخ) التي تبذل وتنظم لدى جماعة ما حقل الدلالات (العقلية والروحية والحسية) وتحدد بالتالي لدى هذه الجماعة أسلوب استخدامها لإمكاناتها (البشرية والمادية) ونوعية استملاكها لبيئتها . ويكون نجاح الثقافة وتطورها بقدر فاعليتها في تحقيق الاستخدام الأمثل لإمكاناتها (الجماعة) ، وهو ما ينعكس في قدرتها على التحكم بنفسها أي بصراعاتها الذاتية وبيئتها الخارجية ، وفي تمكنها من السيطرة على مصيرها . فإذا انعدمت هذه السيطرة ، وهي أصل المبادرة التاريخية وحرية الإرادة ، فقدت الجماعة تدريجياً ثقافتها وبقاها المتجسدة فيها ، وكان ذلك إعلاناً عن تخليها عنها واندماجها في ثقافات وشعوب أخرى ، أو بداية لتحللها كمجتمع مدني واستسلامها للعنف كمبدأ وحيد ممكن لتنظيم علاقاتها الداخلية . فالثقافة بهذا المعنى مصدر المدنية .

إن للأفكار التي تتداولها المنظومات العقلية وللقيم التي تغذي المنظومات الأخلاقية أو الإيديولوجية جذورها العميقة في حقل الدلالات الواسع الذي هو بمثابة البحر الذي تمتح منه كل النظم الفكرية أدواتها . وما يقوم به العقل العلمي أو الإيديولوجي أو الفني ليس إلا إعادة تنظيم هذه الدلالات أو جزءاً منها من أجل إنتاج المعارف الموضوعية العملية أو الإعلان عن الوجود من حيث هو وجود ، ومن أجل إنتاج المعايير الناظمة للسلوك الاجتماعي أو للمتعة الفنية . وإغناء التجربة الشعرية بالدلالات الجديدة والقيم الجمالية هو ما يكون أساس النظم الفنية والأدبية . ويعطي لكل ثقافة وللحضارة المرتبطة بها معانيها الأولى والقاعدة الرئيسية للهوية الجماعية . وليس التفوق الجمالي والفني إلا عملية المشاركة في هذه الدلالات الشعرية وثمرتها لإغناء التجربة الفردية الناجمة عنها .

إن تنظيم حقل الدلالات معرفياً وأخلاقياً وفنياً لا يعني مع ذلك خلق هذه الدلالات من العدم ولا استفادها ، بل إخضاعها حسب المقصد إلى منظومة قواعدية إضافية ، أي تحديد « قيمتها التداولية » حسب المجال الذي تستخدم

فيه . فالعلم هو أولاً منظومة اصطلاحية من القواعد المفروضة على عملية التفكير والتي تهدف إلى ضبطها في اتجاه يتيح لها كما قلنا إنتاج المعرفة الموضوعية أو العلمية . والأخلاق هي أيضاً منظومة قواعد تُخضع لها الدلالات ، وكذا الأمر بالنسبة لمختلف الفنون والآداب .

ولهذا فإن التجربة العقلية لجماعة ما لا تنحصر في التجربة العلمية أو الأخلاقية أو الفنية ، ولكنها تتجاوزها جميعاً وتصب في حقل أوسع وتعيد بناء هذا الحقل في كل مرة يمر فيها المجتمع بتجربة حضارية جديدة . ورغم تميز هذه النظم المعرفية والأخلاقية والفنية ، فإنها تبقى مرتبطة بنسغ واحد هو الثقافة التي تنتمي إليها ، والتي تستمر في الوجود على مدى تاريخي طويل وتمتد أو تتسع باتساع الثقافات الجزئية أو الكلية التي تهمسها أو تنجح في استيعابها . ومن هنا إن غنى الثقافة وقدرتها على التكيف مع الأوضاع الجديدة الطارئة مرتبطان بسوع مصادرهما الأساسية وثروتهما من الدلالات القائمة والمخزونة أي من تراثها الماضي والراهن .

والنتيجة الثانية لذلك ، أن العقل لا يتكون من ماهية صلبة واحدة وأحادية ، بل هو مكون من نيات مختلفة علمية وإيديولوجية وفنية ، أو معرفية ومعيارية ورمزية متفاوتة في مقاصدها ووظائفها وطريقة عملها وزمانيتها . وتبين أركيولوجية الثقافة أن زمانية المنظومة المعرفية ليست متطابقة بالضرورة مع زمانية المنظومة المعيارية أو الرمزية ، وأن قيم هذه المنظومات يمكن أن تتطور بشكل متباين وتنتمي بالتالي إلى حقب اجتماعية وثقافية مختلفة . فقد تجتمع المفاهيم العلمية الوضعية مع مثل عليا تقليدية أو مع قيم فنية « بدائية » . وهذا التباين هو من صميم التجربة الثقافية والحضارية لكل جماعة ، وهو مصدر التوتر الخلاق الذي يحرك العقل ويدفعه إلى الإبداع . ولا يحصل التطابق المطلق فيما بينها إلا في مراحل جمود الحضارة وذبولها ، وكمؤشر على استفادها لطاقتها الإبداعية . لكن صعود الحضارة في مناطق أخرى وتطورها لن يلبث حتى يدخل التفاوت من جديد في بنية العقل والثقافة الراكدة فيغزوها بدقق لا يتوقف من الدلالات المتجددة العلمية أو الشعرية .

والأصل في هذا التباين أن زمنية الوعي العلمي مرتبطة بتطور المفاهيم العلمية المجردة وغير المرتبطة مباشرة بالصراع الاجتماعي أو بالتجربة الشعورية الفردية . إنها الأكثر اشتراكاً بين العقول الإنسانية بغض النظر عن الخصوصيات والحدود الجغرافية . وهي الإنتاج الحضاري الأكثر قدرة على الحركة والتنقل بين الثقافات دون إثارة مقاومات عنيفة أو هامة . والأمر أصعب من ذلك فيما يتعلق بالمنظومات المعيارية الأخلاقية والإيديولوجية التي ترتبط بزمنية الصراع القومي والاجتماعي ، وتجسد خصوصية كل جماعة ومركز توازناتها الأساسية . وقد أجمع العرب منذ أكثر من قرن على أخذ المعارف العلمية دون تردد عن الغرب ، لكنهم يتنازعون حتى اليوم في نوعية القيم والمعايير التي يمكن لهم أن يستلهموها منه دون تهديد قيم المدنية العربية - الإسلامية . أما البنيان الرمزي - الخيالي ، من لغة وأداب وفنون وأساطير ، فهو الأكثر ارتباطاً بالحياة اليومية والأكثر مقاومة للتحويل والانتقال والتبادل . فلم يكن يخطر لأحد أن من الممكن استبدال اللغة العربية أو تعرضها لخطر الزوال . فتغير البنيان الخيالي - الرمزي يعني في الواقع ويفترض تغير التاريخ نفسه ، والشروط الكبرى لوجود الجماعة ومحيطها وعلاقاتها المادية والمعنوية بغيرها وبالطبيعة . وهو أمر مستحيل بدون القضاء على الجماعة ذاتها واندماجها بجماعة أخرى أو نبثها بحثاً جديداً . فالمنظومة الرمزية الخيالية ، وهي التي ينشأ منها الفن ، هي المنظومة الأكثر رسوخاً في كل مجتمع والأعظم اتساقاً وتجانساً رغم أنها الأكثر انفتاحاً والأقل ضبطاً قاعدياً . وهي رغم تنوعها الشديد وارتباطها المباشر بالتهجيرة الشعورية المعاشة لكل فرد ، المصدر الأول لوحدة مشاعر أفراد الجماعة وأفكارهم .

إن التصورات والمشاعر والعواطف وردود الأفعال والمواقف والتوجهات التي تظهر على سلوك الأفراد والجماعات ليست بالأساس ولا بالضرورة ثمرة لتفكير عقلي متأن ولا لتأمل أخلاقي أو إيديولوجي . بل هي التي تتحكم في أغلب الأحيان ، ولدى الأغلبية ، بأفكار الناس وبالمبادئ التي يعلنون انتماءهم إليها . وغالباً ما تكون هذه الأفكار العقلية والإيديولوجية وسيلة لإضفاء نوع من العقلانية والشرعية على هذه المواقف الأولى الشعورية . ومن هنا يزداد التأكيد في

علوم النفس والمجتمع معاً على هذا اللاوعي سواء أطلقنا عليه اسم اللاشعور أو الروح الجمعية أو روح الجماعات ، لتفسير ظواهر لم يكن من الممكن فهمها من قبل .

لو تأملنا بالموضوع قليلاً اكتشفنا أن هذا اللاوعي هو أصل أو قاعدة كل سلوك . وليست المدنية شيئاً سوى إبداع وبلورة النظم العلمية والإيديولوجية والفنية التي تساعد من خلال إخضاع انفعالاتنا لضوابط وقواعد مقبولة ومعقولة ومدركة على التحكم بها وتجاوزها . أي على توسيع دائرة المدرك ، والوعي . وهو أصل الحرية وتحكم الإنسان بنفسه ومصيره . فإذا وهنت هذه المنظومات والقواعد أو فسدت ، عادت ردود الأفعال اللاواعية لتحتل موقع الصدارة في سلوك الإنسان بدل الأفعال الواعية والمتروية ، ودخل الشعور في دائرة الضرورة العشوائية . والواقع أن ما نسميه لاوعياً ليس هو إلا الطابع الاعتباري وغير المنظم ، أي المنطلق من كل قيد لمشاعرنا . وأول درجات الوعي هو تنظيم هذه المشاعر حسب الموضوعات المطروحة أمامها ، أي تكوين دلالات أو سلاسل دلالية كما يقول الفيلسوف الفرنسي « لاكان » . وبدون تحويل العالم إلى دلالات ليس من الممكن فهمه ولا استيعابه . والرمز أبسط أنواع هذه الدلالات لأنه يربط بين عنصرين متجانسين إما بسبب التشابه أو التجاور^(١) .

(١) يقول علماء الدلالة أو الداليون . أن الدلالة لا تتكون إلا من دال ومدلول ، وهي تنجم عن ترابطهما . وإن هذه العلاقة هي علاقة اصطلاحية وتعسفية أي أن الدال ليس له علاقة شبه بالدلول عليه ، ولكنها ضرورية ، أي لا يحصل المعنى بدونها . أما الرمز فهو يربط بين دالين أو مدلولين ضمن علاقة غير ضرورية ، وإنما مقصودة . بمعنى العلم لا يدرك بدون الرمز بين الكلمة علم (الدال) والعلم للموضوع (أي المدلول عليه) . أما القول أن العلم رمز للوطن ، فهو نواضع ومعنى إضافي لا يزيد في معنى العلم ولا الوطن وهو غير ضروري لصالح معناه . من هنا يمكن القول أن الرمز أو المنظومة الرمزية تحتوي في ذاتها على تاريخ كل ثقافة وظروف نشأتها وتحولاتها المتعددة عبر التاريخ . انظر اوسوالد دوكرو - ترفيتان تودوروف ، القاموس الموسوعي لعلوم اللغة ، (بالفرنسية) باريس ١٩٧٢

الثقافة والنسق الاجتماعي

وعندما نقول أن الثقافة ليست مجرد التاج الفكري ولا النظريات أو الأفكار المتداولة ، فنحن نريد أن نؤكد على السيرورات العميقة التي تنشأ الثقافة بها ومن خلالها ، وهي سيرورات رمزية ومعيارية وعقلية تتجاوز النشاط العقلي الهادف وتفيض عن النشاط العقلي المنظم . وبدون هذا التمييز لا يعود هناك أي فارق بين الثقافة والفكرة ، أي بين الشجرة التي هي كينونة تاريخية حية مبدعة ، وبين الثمرة التي هي منتج جامد وجاهز للاستهلاك ، وإن احتوى في صلبه على إمكانات أكبر .

وعندما نقول إن مطابقة النسق الثقافي مع النسق الاجتماعي واعتبار أحدهما انعكاساً للآخر يقضي على زمانية الثقافة الخاصة ووظيفتها ، فذلك لأن مثل هذه المطابقة تجعل من المستحيل فهم أهم موضوعين في نشاط الثقافة ، وهما أولاً كيفية خضوع الشعور أو السلوك لمعايير وقيم وقواعد ثابتة في كل مجتمع ، أي كيفية نشوء الوعي والمنظومات الروحية والعقلية ، ومن ثم نشوء المدنية ذاتها . وثانياً كيفية حصول الإبداع والتجديد داخل المجتمع ، ولا نعني به مجرد الإبداع العقلي ، بل تجديد المجتمع لعلاقاته ومنظوماته الذهنية والمادية معاً .

لذلك نقول إن الثقافة تشكل ضمن النسق الاجتماعي العام نسقاً فرعياً متميزاً ومستقلاً يتفاعل مع بقية الأنساق الفرعية الأخرى ويتطور معها وبها . ويقوم ، في إطار إعادة إنتاج الاجتماع البشري كاجتماع مدني ، بوظائف خاصة ، أهمها الابتكار الذي يشكل عاملاً أساسياً من عوامل التجديد الاجتماعي . والاتصال الذي تقوم عليه الوحدة العميقة للجماعة . وهو كنسق يتمتع إذن بانسجام داخلي عميق وباستقلال نسبي عن بقية الأنساق ، ولا يمكن النظر إليه كمجموعة مفككة من العناصر المتجاورة أو المتناثرة من مذاهب وتيارات ومدارس أو من قيم ورموز وأساطير لا يربطها رابط . ويعني هذا أن هناك حداً أدنى من الانسجام داخل النسق بين المنظومات الروحية والعقلية والعلمية التي

تكونه ، مما يعطيه إمكانية التصرف كوحدة متميزة في نطاق النسق الكلي الاجتماعي .

فالأصل في المجتمع أنه يكون كلاً واحداً لا تنفصل فيه الثقافة عن السياسة عن الاقتصاد . فهو النتيجة أو الثمرة المشتركة للتفاعل المتبادل بين مختلف هذه النشاطات والفعاليات الروحية والعقلية والانتاجية والسياسية . لكن المرء يدرك بالحنس السليم أن موضوع الثقافة وميدانها يختلف عن موضوع السياسة وميدانها ، كما يختلف عن موضوع الاقتصاد وميدانه أيضاً . بيد أن هذا الاختلاف لا يعني القطيعة بقدر ما يعني تعدد آليات وتنظيم التوازن الاجتماعي مما يسمح للنسق الاجتماعي أن يحتفظ باستقراره ووحدته عندما يتعرض أحد أنساقه الفرعية إلى التخلخل أو الانهيار . ومن وظائف الثقافة الأساسية توحيد هذه الأنساق عن طريق توحيد الأنماط العقلية التي تحكمها . فأنماط الوعي تنطوي في ذاتها وبصورة جنينية على أنماط الحكم ، وأنماط الحكم والوعي تنطوي في ذاتها وبصورة جنينية أيضاً على أنماط الانتاج والاستهلاك لأن الثقافة تغذي الأنساق الاجتماعية كلها بقيم مماثلة فتخلق نسيجاً اجتماعياً واحداً قادراً على إعادة إنتاج نفسه بشكل متكامل في أية نقطة يتعرض فيها للفساد . وبإمكان النسق الاجتماعي الناجز الذي فقد أحد مرتكزاته الاقتصادية أو السياسية أو العلمية أن يستند على المنظومات الباقية حتى يستعيد توازنه وتكامله . فالأمم الغربية التي حطمت الحرب جهاز انتاجها ، أو قضت على دولها ، استطاعت أن تنطلق من الخبرات والمعارف والقيم والمشاعر القومية التي احتفظت بها لتعيد بناء نفسها من جديد بشكل كامل .

وهذا يعني أن للنسق الاجتماعي مرونة كبيرة مصدرها تعدد منابع توازنه وتمايزها بعضها عن البعض الآخر . وهو ما يسمح له في الحقيقة ، حتى عندما لا يكون معرضاً لهزة ، بتحقيق التجديد الضروري لكل مجتمع ، فبسبب تعدد مصادر التوازن هذه يستطيع المجتمع أن يبيع لنفسه دون خوف على مصيره تعديل أو تغيير إحدى البنيات الأساسية فيه مطمئناً إلى البنى الأخرى الثابتة . وهكذا

وبالتناوب يطور مجموع بنياته . وهذا التوازن المركب هو في الواقع شرط بقاء كل كينونة حية .

وليست الثقافة في الحقيقة إلا المجتمع نفسه وقد أصبح مظهراً للوعي أو وعياً . وهذا الوعي هو في الوقت ذاته وعي للذات ، بقدر ما هو وعي لأجزائها ومظاهرها المختلفة السياسية والاقتصادية . فالدولة قبل أن تكون قمعاً وإكراهاً هي مفاهيم وتصورات ، والصناعة قبل أن تكون استغلالاً أو استثماراً للعمل والجهد هي أيضاً نظرية وعلوم وقيم فكرية واجتماعية . فالثقافة موجودة إذن في كل النسق الاجتماعي وليست محصورة في مكان معين فيه .

ولكن الثقافة تواجه في الوقت ذاته مقاومة من الأنساق الأخرى التي تجد في وظيفة الثقافة تحديداً أو تضيقاً عليها . فإرضاء الحاجات المادية بدون تأخير يمنع التفكير بابتكار نظم اقتصادية أكثر إنتاجية أي ظهور نظام اقتصادي ذي بعد ثقافي . والصراع على السيادة داخل المجتمع ، يصطدم بالوحدة العضوية التي تخلفها الثقافة على مستوى الرموز والمشاعر والحساسيات والعقليات . فإذا لم تجد إحدى المنظومات الثقافية أو الاقتصادية أو السياسية مقاومة أمامها من غيرها تدمدت وسيطرت على النسق الاجتماعي بأكمله وفرضت عليه مناخها . وعندئذ ، وإضافة إلى ما تفرزه من تضخم سرطاني في نشاطها ، فإنها تحط من مستوى توازن النسق الاجتماعي ككل وتعلق مصيره على مصدر واحد ، إذا ضعف أو أصابه الفساد انهارت الجماعة واندثرت . وتشبه ذلك الحالة التي تعيشها الكثير من مجتمعات العالم الثالث التي احتلت السياسة - والدولة - كل النسق الاجتماعي وأصبحت مركز توازنه الوحيد مع تفكك أو فساد منظوماته الثقافية والاقتصادية . بل إن ذلك قد انعكس على البنية السياسية نفسها فحولها إلى سياسة قوة ، أو هيمنة بالقوة المحضة ، وساهم بذلك في تكوين سيطرة اجتماعية قائمة على سلطة أقلية ثابتة لا تتبدل حلت محل المجتمع بأكمله واستقطبت وظائفه كلها .

ومن هنا فإن دراسة الثقافة لا تصبح ذات قيمة حقيقية إلا عندما تسعى إلى الكشف عن السيرة المتميزة لتطور أنماط الوعي والسلوك لدى جماعة معينة ،

وعن أثر هذا التطور على تطور المنظومات الاجتماعية السياسية والاقتصادية الأخرى ، أي عن دور الثقافة في التطور الاجتماعي عموماً .

وللثقافة ثلاث وظائف أساسية معرفية ومعيارية ورمزية تنطبق بشكل عام على المنظومات الأساسية الكبرى التي ذكرها القدماء وركزت عليها الفلسفة الكلاسيكية : الحق والخير والجمال . ولكنها لا تتطابق معها في الحقيقة . ففي المعرفة العلمية نشاطات معيارية ورمزية أساسية ، والعكس صحيح أيضاً . لكن يمكن القول أن كل واحدة من هذه المنظومات تنطوي على نشاط رئيسي يتفق مع إحدى الوظائف المذكورة .

فالمنظومة المعرفية تحدد مكانة العلم وسبل الوصول إلى المعارف اليقينية وإنتاجها ، وتقود من ثم إلى ترتيب معين للمفاهيم والدلالات يعكس أولويات هذا الإنتاج وشروطه العامة الروحية أيضاً . لذلك نادراً ما تستقل نظرية التحصيل المعرفي عن الرؤية الفلسفية العامة للكون ، وعن ميتافيزيقا معلنة أو ضمنية تحدد مضمون العقل والعقلانية ودلالاتها ، وتضع المسلمات الأولى أو البديهيات التي لا برهان عليها لعمل العقل .

وتعين المنظومة الأخلاقية معنى الخير ومعنى الشر ، وتخلق شعوراً أخلاقياً أو ضميراً يقوم لدى كل فرد بتنظيم المعايير المقبولة لسلوكه من ذاته . وتحدد هذه المنظومة مختلف المفاهيم التي تدخل في نطاق التمييز بين المحرم والمباح ودرجاتها من مفضل ومستحسن ومطلوب ومكروه وواجب وفرض وسنة وممنوع ومسموح . . إلخ وهي المفاهيم التي تعبر عن تطور هذه المنظومة ونضوجها .

وتحدد المنظومة الرمزية معنى الجميل والقبيح ، أي معنى المتع والمتفر ، وجملة المعايير التي تساهم في إحداث المتعة الفنية أو تقضي عليها . وهذه المعايير ليست فطرية ولا موروثية ولكنها مكتسبة ومقصودة في كل نظام ثقافي . وهي تتغير بتغير القيم الأساسية والاكتشافات العقلية التي تحرك النظام ككل .

وبتحديد هذه الوظائف تقوم الثقافة بتكوين العقل أي جملة الطرائق والمعايير التي تحكم رؤية الإنسان للواقع وتنظيمها ، وتحدد كيفية استيعابه لهذا الواقع . ولذلك كان العقل يبدو للقضاء وكأنه ملكة ، أي قدرة فطرية على الفهم والتحليل والاستيعاب ، بقدر ما كان يبدو واحداً ومشتركا لدى الجميع . وخلق « ملكة » عقلية لدى كل فرد من أفراد الجماعة هو في الواقع الأساس الأعمق لضمان توحيدها وتنظيمها ، وهو شرط التواصل الاجتماعي . وأصل التواصل ليس مشاركة جميع الناس أو اشتراكهم في أفكار واحدة ، وإنما خضوع تفكيرهم إلى طرائق ومعايير مشتركة أساسية ، مما لا ينفي أيضاً الاختلاف في الرأي والانفراد بالأفكار .

فإذا غابت هذه الطرائق والمعايير المكونة للغة التواصل الأساسية زالت إمكانية التفاهم ، وفقدت الجماعة مبرر وجودها . إذ كي يكون هناك بنيات اجتماعية وسياسية واقتصادية ثابتة ، وكي تكون هناك دولة ومؤسسات وقوانين ومحاكم وقضاة ، وكي يكون هناك إنتاج وعرض وطلب ، لا بد أن تكون هناك جماعة موحدة ومستقرة ومستمرة عبر الزمن . لذلك أيضاً ليس هناك ثقافة ولا يمكن أن تنمو الثقافة وتزدهر إلا داخل إطار « قومي » ، أي ضمن دولة وجماعة موحدة . وهذا لا يعني أن الدولة القومية هي وحدها التي تخلق ثقافة ، ولكنه يشير إلى أن الثقافة كعملية تاريخية مستمرة ، هي عملية إنتاج وحدة الجماعة واستمرارها في الوعي ، أي في مستوى آخر غير المستوى الاقتصادي والسياسي . فهي السياسة والاقتصاد معكوسين في الوعي ، أي منظوراً إليهما في إطار تاريخي أشمل وأعمق من إطار الإنتاج اليومي للحاجات المادية ، أو للسلطة التنفيذية أو التشريعية .

ويتطور النسق الثقافي بقدر ما تتطور علاقات الجماعة الداخلية ووحدها وتواصلها ، أي بقدر ما يتيح توازن المصالح الاجتماعية المتعارضة استقراراً نسبياً يسمح بتحسين طرق الإرضاء العام للحاجات وبتهدئتها . وينعكس هذا في تطور وانطلاق الإنتاج المادي والأدبي وفي التنوع المتزايد للحاجات وطرق إشباعها ، وفي الأحاسيس ونماذج التفكير والرؤى والتصورات عامة .

ويكون النسق الثقافي ، حسب القيم الأساسية التي يعتمدها في حقبة معينة ولدى جماعة محددة ، أنماطاً ثقافية تعكس عقليات سائدة وتجسدها في فلسفات أو أصناف أدبية أو أساطير أو فنون . وهذه الأنماط يمكن أن تنتقل من ثقافة إلى أخرى في نفس الحقبة أو في حقبة أخرى وتُشحن بقيم ودلالات جديدة ، وذلك تبعاً للنظام الثقافي - الاجتماعي الذي تدخل فيه .

ونقصد بالنظام الثقافي - الاجتماعي ، النسق الثقافي كما هو قائم في حقبة معينة وضمن علاقات اجتماعية وسياسية معينة أيضاً تحدد طريقة عمل المنظومات الثقافية المعرفية والمعارية والرمزية وعلاقاتها فيما بينها والقيم الأساسية السائدة في كل منها بما يخدم السيطرة الاجتماعية القائمة . وهو ما تجسده وتهدف إليه ، في كل نظام اجتماعي ، السياسة الثقافية . فتغير النظام الاجتماعي ، أو طبيعة السيطرة الطبقية ، يغير من نمط المعايير والقيم الثقافية السائدة أو بعضها ، ويحمل إلى المقدمة هذه المنظومة الثقافية أو هذا الجهاز أو ذاك . فاللغة هي على سبيل المثال عنصر من عناصر النسق الثقافي العام ، لكن القيم الجمالية لاستخدام هذه اللغة في حقبة معينة هي من عناصر النظام الثقافي ، وهي مرتبطة بوضعية اجتماعية - سياسية تاريخية محددة ، وبسياسة ثقافية واعية أو عفوية ، وبالمكانة الخاصة التي تحتل بها الفئة المثقفة أو جزء منها في فترة ما ، وكذلك بالمصالح الاجتماعية السائدة في نظام اجتماعي معين . ويمكن القول أن النظام الثقافي يتجسد بشكل عام في كيفية استخدام العناصر المتعددة التي تنطوي عليها البنية الثقافية وطريقة ترتيبها وجمعها وتركيبها .

فالنظام الثقافي يرتبط إذن بنظام اجتماعي سياسي محدد ، ويستجيب لمطالب استقرار وتبدل هذا النظام . وكل نظام ثقافي لا بد أن يعيد النظر في سبيل نقل المعرفة وتحصيلها وميادين انتشارها وتوزيعها ، فيؤكد على ميادين بحث أو فن ويهمل أخرى ، ويشجع على نوع من النشاط الذهني ويحد من نشاط آخر أو يمنعه . وكل ذلك مرتبط بتغير الوظائف التي يعطيها كل نظام اجتماعي - سياسي للثقافة أو لبعض منظوماتها بقصد تحقيق أهدافه الكبرى الاجتماعية أو القومية أو القومية . ولا شك أن قيام نظام ثقافي بهذا المعنى يفترض وجود سياسة ثقافية ،

أي قدرأ محددأ من التدخل الإرادي للسلطات العامة في سيرة النشاطات
الذهنية . بيد أن هذا التدخل لا يعني بالضرورة ولا يفترض وجود سياسة ثقافية
واعية لنفسها ولا يتعلق بها . إنه يستند إلى استجابات عميقة للأوضاع القائمة ،
ويقوم على توازنات تزداد قوة أو ضعفاً حسب الظروف ، وهي التي تحاول أن
تتحكم بها وتبدلها السياسات الثقافية . وعندما نتحدث عن توازنات فنحن نقصد
أن النظام الثقافي كأي نظام آخر متغير ، لا يلغي التناقض ولا الصراع القائم في
داخله بين تيارات وتوجهات وقيم ورؤى مختلفة ومتباينة ، ولكنه يجسد استقرار
التوازن لصالح أحد الأنماط الثقافية أو التيارات الفكرية . وهو نظام متقلب
بالضرورة وغير ثابت ، خاضع لتغير ميزان القوى الاجتماعي ، ولتوجهات
السلطة عامة ، وخاضع أيضاً لعوامل الضغط الخارجية سواء أكانت قومية أو
حضارية عالمية أو إبداعية . وكل هذه العوامل تؤثر في عمل النظام الثقافي
وتبلوره ، ولا تنجح السلطات السياسية دائماً وبالضرورة في الحد من أثر هذه
العوامل ، بل من الممكن أن تخسر الهيمنة الفكرية والإيديولوجية لفترة طويلة ،
لصالح طبقات خاضعة أو تأثيرات خارجية ، بالرغم من امساكها بالمؤسسات
واحتلالها لها . بهذا المعنى يمثل النظام الثقافي الثقافة على مستوى توازن القوى
الفكرية والروحية ، وهو مستوى التبدل والتغير الأسرع والأكثر تردداً وسهولة ،
وإن لم يكن الأعمق والأكثر ديمومة . إنه يمس إذن نشاطات العقل العليا ومتجاته
أكثر مما يتعلق بالبنية الرمزية - الأسطورية للثقافة .

II

جذل الثقافة والسلطة

يلدرس علم اجتماع الثقافات شروط التحول والتغير الثقافي ومضاعفاته على التوازنات السياسية والاقتصادية للمجتمع . وهو الذي يستطيع أن يبين مضمون المقاومات التي يمكن أن تظهر هنا وهناك ، وطبيعة الرهانات الخاصة بكل فئة اجتماعية ، ومعنى التغير الثقافي وأثره على التراتب الاجتماعي .

إن المنظومات الثقافية المعرفية والاعتقادية والرمزية تخفي إذن مواقع اجتماعية - سياسية وتكرسها في الوقت نفسه بقدر ما هي انعكاس لها . والصراع على الأفكار أو على الرموز ، واحتلال الساحة الثقافية من قبل تيار أو آخر ، يعطي لهذا الفريق الاجتماعي أو ذاك ميزات أساسية في عملية السيطرة التي يدخل فيها . وقد أظهرت الدراسات الاجتماعية إلى أي حد تختلف أذواق الناس باختلاف منبتهم الطبقي أو ظروفهم المعيشية . وتكاد بعض الألوان والرموز والأفكار والأساطير تكون حكراً على فئة اجتماعية دون أخرى في إطار الثقافة الواحدة نفسها .

فبقدر ما يجسد النمط الثقافي طريقة في الحياة يحمل انتشاره أو انحساره قيماً إضافية تتعلق بترتيب المواقع الاجتماعية ، أو إذا شئنا قيماً سياسية بالمعنى الواسع لكلمة السياسة ، فالانتقال مثلاً من صناعة حرفية تقوم على تعاون الصنّاع مع المعلم ، وعلى الروح الأبوية وروح الدفاع المشترك عن المهنة ، إلى صناعة حديثة تقوم على الإنتاج بالجملة والتجريد المطلق للقيم في البضاعة أو في الأجر أو في

الربح ، لا يظهر فقط كتطور للتقنية وكتقدم للمعارف والعلوم والثقافة ، ولكنه يحمل في طياته أيضاً تغيراً في العلاقات الاجتماعية وفي وضعية الأطراف المختلفة المشتركة في عملية الإنتاج . وتتطور الثقافة ، ويتطور الإنتاج الثقافي بقدر ما تتطور علاقات الجماعة الداخلية ووحدةها . أي بقدر ما يتيح توازن المصالح الاجتماعية المتعارضة استقراراً نسبياً يسمح بتحسين طرق الإرضاء العام للحاجات وتهذيبها . وينعكس هذا في تطور الإنتاج الفكري والمادي وتنوع وتمايز الحاجات والأذواق .

ويعكس النمط الثقافي السائد في حقبة محددة ولدى جماعة محددة طبيعة ودرجة الاستقرار الاجتماعي واحتمالات تطوره أيضاً . وهو يجسد إذن آلية . توحيد الجماعة ، ويمثل مستوى تطور التركيبة الاجتماعية . ويمكن للنماذج الثقافية التي تنتقل من نسق ثقافي إلى نسق آخر أن تؤثر سلباً أو إيجاباً على توازن هذا الأخير ، ويمكنها في بعض الحالات أن تمزقه من الأساس . إن دخول مقولة الفرد النابعة من الثقافة الغربية الحديثة في نسق ثقافي تقليدي وجماعي تؤدي إلى تفجير كل النسيج الاجتماعي وتشويهه . وعلى ضوء ذلك نستطيع أن نفهم ردود الفعل التي تنشأ ضد عملية دخول نماذج ثقافية جديدة في مجتمع تقليدي خاصة عندما لا يتمتع المجتمع بقدرات كافية على ضبط تفاعلات السلطة الناشئة عن هذه العملية وآثارها .

والواقع أن الحديث عن ثقافة قومية واحدة يخفي تعدد أشكال الوعي وأنماط التفكير والسلوك الموجودة داخل كل ثقافة قومية حية . لكن النظرة المجهرية لها تظهر مدى التنوع والتوازن التركيبي الذي تنطوي عليه . فحسب اختلاف الحالات والوضعية الاجتماعية وتعدد داخل كل جماعة إنسانية ، تختلف رؤية العناصر أو الفئات المكونة لها للعالم ، وطريقة تحويلها للواقع المحسوس في الذهن ، وترجمتها له إلى أشكال ومنظومات عقلية أو رمزية . ولهذا تختلف أيضاً الوظائف الثقافية الجزئية في كل ثقافة باختلاف المكانة التي يحتلها كل فريق اجتماعي أو يعتقد أنه يحتلها ، كما تختلف باختلاف رؤيته وتحديد له لنفسه . ولهذا

لا تأخذ المعاني القيم الرمزية ذاتها ، ولا تظهر بالصورة ذاتها عند جميع الأطراف داخل ثقافة واحدة . أو داخل منظومات النسق الثقافي .

ويدفعنا هذا التمايز والاختلاف في الرؤى والتصورات الثقافية التي تنطوي عليها كل ثقافة إلى التمييز بين أنواع متعددة من التوتر أو الصراع الثقافي داخل الثقافة القومية ذاتها . فهناك بشكل عام التوتر الدائم بين أنماط الوعي التقليدية وأنماط الوعي الحديثة ، وبين الأنماط الدينية والأنماط القومية ، وبين الأنماط المدرسية والأنماط العائلية ، وبين الأنماط السياسية والأنماط الأخلاقية ، وبين أنماط التسلية وأنماط الإنتاج . . إلخ . ويبدو لنا أن هذه الأنماط لا تتمتع بالذخيرة نفسها ولا بالقيم المعنوية والرمزية والاجتماعية ذاتها . فقد تصطدم ثقافة المدرسة مع ثقافة العائلة وثقافة الاستهلاك مع ثقافة الإنتاج ، والثقافة العاملة ، أو ثقافة المتعلمين ، مع ثقافة الجمهور العام أو الأميين .

وهذه التوترات التي تنجم عن اختلاف الأنماط الثقافية وتصادمها ليست ، مع ذلك ، على درجة واحدة من التفجر والعمق ، كما أنها ليست على مستوى واحد من الأهمية بالنسبة لسير النشاط الثقافي وتوازن النسق بشكل عام . فمن الممكن أن يتم تجاوز بعضها بسهولة ، بينما يستعصي بعضها الآخر على كل تسوية أو حل .

وينبغي أن نقول إن الصراعات الاجتماعية لا يمكن إلا أن تعبر عن نفسها وتعكس ذاتها من خلال هذه الأنماط المتميزة والقيم المختلفة المرتبطة بها . وعلى أساسها يحاول فريق اجتماعي أن يؤكد هيمنته أو يوسعها على حساب الفريق الآخر . فهو يسعى إلى مدّ حقل نفوذه أو تقوية قبضته في النظام الاجتماعي بالعمل على المبالغة في أهمية النمط الأساسي الذي يتماهى معه سياسياً أو دينياً أو أخلاقياً أو علمياً . وهو يضيف على هذا النمط في مواجهة الأنماط الأخرى طابعاً شمولياً إنسانياً أو علمياً ، يجعل منه مركز توازن النسق الثقافي بأكمله . هكذا تؤكد الفئة التكنوقراطية مثلاً موقعها في المجتمع بنشرها نمطاً ثقافياً تكنوقراطياً أي قيمياً تقنياً ، ويتشديد عليها على أهميتها وفاعليتها وأسبقيتها في تحقيق التقدم .

الاجتماعي ، مقابل القيم الأخرى السياسية أو الدينية . وكذلك تفعل الفئة التيقراطية حين تركز على دور النمط الديني ، والاعتقادي عامة . وهذا يعني أن كل نمط ثقافي يترجم نوعاً من الحساسية الاجتماعية التي تزداد فاعلية وتأثيراً بازدياد الدور الذي تلعبه الفئة التي تحملها ، والمكانة التي تحتلها في عموم النظام الاجتماعي .

لكن هذا التحليل الذي ينظر إلى الثقافة كمجموعة من الأنماط والتوترات داخل إطار الرؤية الواحدة ، لا يعكس إلا وجهاً من وجوه الواقع . وهو لا يستقيم إلا إذا كشف في الثقافة عن أنماطها الشعبية وأنماطها العليا . ولا نقصد بالأنماط الشعبية الثقافة ذات المضمون الإيديولوجي المسمى شعبياً ، وإنما أشكال التعبير الخاصة بأوسع جمهور ، مقابل الثقافة العليا المجسدة في العلوم والآداب والفنون التي تقوم بانتاجها ، وإلى حد كبير باستهلاكها ، نخبة مثقفة ومتعلمة أو خضعت للتعليم والتدريب المنظم والمنهجي . فالعلاقة بين هذين النمطين لا تحدد العلاقة بين مختلف الأنماط الأخرى وحسب ، ولكنها هي التي تنظم أيضاً ، وتحدد ، أشكال الهيمنة لكل نمط على الآخر داخل إطار نسق ثقافي هو بالضرورة نسق ثنائي . ومن هنا يظهر نقص التعريف الستاتيكي للثقافة وفقره . فهو إذ يعتبرها عبارة عن سمات مميزة لأمة بالمقارنة مع الأمم الأخرى ، لا يعجز عن فهم الصراعات الذاتية التي تحركها وتكونها فقط ، ويعجز بالتالي عن فهم محتواها الاجتماعي ورهانها التاريخي ، ولكنه يحرم نفسه أيضاً من رؤية أساس الصراع والتفاعل بين الثقافات القومية المختلفة أيضاً . فهو يماهي بين الثقافة والأمة ، من حيث أن عمليات التفاعل الثقافي والتجديد وبعث التراث والثقافات لا تفهم إلا على أساس تكوين مناطق نفوذ ثقافية واسعة تتجاوز الحدود الضيقة للقوم أو الحدود السياسية للأمة القومية .

الثقافة الشعبية والثقافة العليا

ما الذي يميز الثقافة الشعبية ، أو نمط الثقافة الشعبية عن الثقافة العليا ، ثقافة النخبة أو الثقافة العالة ؟

من الواضح أن كل ثقافة تتضمن منظومة قيم أساسية تجعل من الممكن

لكل أبناء الجماعة المشاركة فيها والنفوذ إليها حسب قواعد وأعراف ثابتة ، وتجعلها بالمقابل أيضاً قادرة على تنظيم النشاط الروحي والعقلي لهذه الجماعة وللأفراد المكونين لها . إن مبدأي النفوذ والمشاركة من جهة ، وتنظيم نشاط الجماعة الذهني من جهة أخرى ، أساسيان في كل ثقافة بغض النظر عن مكانتها وأهميتها ودرجة علميتها أو عالميتها .

وما يميز الثقافة الشعبية عن الثقافة العليا ليس في نظرنا وجود أو غياب عنصري المشاركة والتنظيم ، وإنما طبيعة القواعد التي تحددهما ، أي النظام المؤسسي الخاص بكل منهما . فالثقافة العليا تحدد نمط المشاركة فيها على أساس احترام قواعد وضوابط أكثر دقة وتطلباً ، مما يفرض على الراغبين في النفوذ إليها اتباع نوع من التدريب أو التعلم المنهجي . وهو ما لا يمكن توفره بشكل فطري وعند جميع الناس .

فبينما يكفي للدخول إلى دين جديد ، أو التعبير عن المشاركة في الجماعة المنتمية إليه ، ذكر الشهادة أو التصريح بالإيمان ، يتطلب الدخول في النمط الفني أو العلمي ، أي يتطلب اعتبار الفرد فناناً أو عالماً ، التعلم المسبق لمهارات وتقنيات ومصطلحات ونظم وقواعد ومفاهيم خاصة ودقيقة ، وإبراز القدرة على استخدامها والتحكم بها . ويستدعي هذا إعداداً مسبقاً . وتحدد نوعية هذا الإعداد ونجاحه مكانة الفرد في الجماعة الثقافية التي ينتمي إليها . ولا يشكل هذا التكوين شرطاً رئيسياً للمشاركة الفعالة والمبدعة في النمط الثقافي العالي فقط ، وإنما هو شرط من شروط حصول قدرة التدوُّق واستيعاب العلم والاستفادة منه . وهكذا يقتضي تكوين العلامة ، في كل ميادين العلم والمعرفة ، المرور بمدارس وجامعات وأكاديميات متخصصة ، والخضوع إلى أشكال من التربية ومن الضبط والمراقبة المتنوعة . وتفترض الثقافة العليا إذن درجة عالية من الكفاءة والمهارة والتجريد ، وهذا مما يضيق بالضرورة من دائرة الأفراد القادرين على المشاركة فيها ، سلباً أو إيجاباً ، والنفوذ إليها .

ولمست الدرجة العالية من الضبط والتنظيم التي تتسم بها الأنماط العليا

مجرد فريضة يدفعها الداخلون ، ولا وسيلة لتضييق مجال وإمكانية دخول الآخرين ، وإن كانت تقوم عملياً بذلك إنما هدفها الأساسي هو تحصيل معارف أكثر اتساقاً و يقينية ، وهو نابع من أن وظائف الثقافة العليا مختلفة نوعياً عن وظائف الثقافة الشعبية . فقدر ما تتركز هذه الأخيرة على تحقيق التماهي المباشر أو انتهاء الفرد إلى الجماعة ، تعمل الثقافة العليا على تنظيم كل ما له علاقة بدائرة السلطة بالمعنى الواسع للكلمة ، أي وضع نظام ومراقبة تنفيذه وتحقيقه ، وذلك في مجال لمعارف والعلوم أو الإنتاج أو الإدارة أو الدولة أو التجديدات التكنولوجية ، أو البنيات الرمزية - الخيالية ، أو الطفرات الاجتماعية ، وكل ما يتعلق عموماً بمهام التنظيم والتنسيق والتصور الشامل أو الشمولي لعملية تجديد المجتمع لوسائل وجوده وعمله .

بالمقابل ، حتى تنجح الثقافة الشعبية في أن ترفع إمكانية الانتماء والتماهي إلى حد ما الأمثل ، فهي مضطرة لأن تكون ساحة مفتوحة ومنظمة بأقل ما يمكن وأسط ما يمكن من القواعد والعوائق بحيث لا تستبعد أحداً من أفراد الجماعة أو من الذين يزعمون إلى الاندماج فيها ، سواء أكان ذلك على مستوى المشاركة الإيجابية أو التذوق السلبي . إنها بالضرورة ثقافة يغلب عليها الطابع المجازي والرمزي والطقوسي والشعوري ، وهي ترتبط مباشرة بالحاجات الروحية واليومية للإنسان . وتحتمل نماذجها وأنماط تعبيرها تفسيرات وتأويلات مختلفة تساعد على امتصاص التمايزات والاختلافات الفردية والجماعية الذاتية . وهي أيضاً تردادية توحى بالأمن والاستقرار والاستمرارية . ويعكس الثقافة العليا المنتجة للنظم العلمية والتقنية ، لا تهتم الثقافة الشعبية كثيراً بالاتساق المنطقي في داخلها ، بل هي تبيح التناقضات والمفارقات وتستخدمها ، ولا تولي أهمية كبيرة إلى التنظيم الشكلي لنشاطاتها وأنماطها بل تعتمد على مرونة الشكل وقدرته على التكيف مع حالات مختلفة ومتباينة . وتزداد قوتها بقدر قابليتها لجمع التناقضات وتغيير وتبديل النماذج والأنماط الفكرية والتعبيرية والشعورية ، بحيث تتحول إلى منطقة مشاركة كلية ، أو إلى منطقة حرة يجد فيها كل عضو في الجماعة مكانه وتعبيره الذاتي فوظيفتها الأساسية كما ذكرنا هي إتاحة الفرصة للجميع ، وبغض النظر عن

الكفاءات والمهارات العلمية أو المهنية للتماهي مع الجماعة - ومن هنا نفهم ما تتميز به الثقافة الشعبية ، أي أنماطها الروحية والعقلية ، من بساطة في الشكل التنظيمي ، واستمرارية أو امثالية ، وعفوية وتنوع في الزمان والمكان مع الاحتفاظ بنمطية عميقة واحدة ، وطقوسية تردادية تستعيد الصيغ الثابتة

ومن الصعب إذن إزالة التمايز بين الثقافة الشعبية والثقافة العليا ، أو جعل ثقافة الشعب اليومية ، كما يكتب عادة بعض المتحمسين بالعقلانية ، ثقافة علمية أو عقلية خاضعة لنفس القواعد والأطر والمعايير التي تخضع لها الثقافة العليا ومن الصعب أيضاً ونعني هنا المستحيل ، تحويل الثقافة الشعبية ، كما يحلم آخرون ، إلى ثقافة قائدة ، أي ثقافة تنظيم شؤون السلطة ، أو إلى قاعدة لتأسيس علوم « شعبية » . ومن المستحيل أيضاً تحويل الثقافة العليا عن وظيفتها الأساسية كي تكون ثقافة شعبية تحقق إطاراً قماهي للأفراد مع الجماعة ، أي تستجيب لوظيفة تحقيق الهوية . بل إن ديناميّة الثقافة ودرجة تطورها مرتبطة بهذا التمايز الداخلي ، وينشوء سيرورات ومنظومات ذهنية مختلفة تقوم بوظائف متباينة .

بيد أن هذا لا يعني غياب أية علاقة بين الثقافة العليا والثقافة الشعبية ، أو بين الأنماط الثقافية المتعددة التي تعيش داخل كل ثقافة وترتبط بجماعاتها المختلفة . إنما يعني أن الثقافة القومية الحية والمبدعة هي تلك التي تقوم ووجدتها على توتر خلاق ، هو في الواقع مصدر حركتها ونشاطها . وتحليل هذه العلاقة الجدلية التي تميز الوحدات المتعضية هو الذي يسمح لنا بالكشف عن طبيعة الاندماج الثقافي - أو القطيعة داخل الثقافة الواحدة . وكما أن من الممكن أن تكون الثقافة العليا تنوعياً عقلياً منظماً ومعقداً للقيم الأساسية الروحية والمادية القائمة في الثقافة الشعبية ، بإمكانها أيضاً أن تكون حاملة لقيم أجنبية منافية لوحدة الجماعة ومستقلة مباشرة من نظم وثقافات أخرى لا علاقة لها بالثقافة المحلية . وعندئذ تكون هذه الثقافة العليا تعبيراً عن الهيمنة الخارجية ، أو تكريساً لها . أكثر مما تكون ترجمة للاستجابات والحلول العقلية المنظمة التي تقدمها الثقافة الوطنية للإجابة على المشكلات التي يطرحها النظام الاجتماعي . وعندئذ

يستدعي فهم هذه العلاقة الخروج من إطار التحليل الثقافي بالمعنى الحرفي للكلمة إلى إطار تحليل الصراع بين الثقافات وآثاره ومضامينه الحضارية والاجتماعية .

وبالمثل يفيد هذا التحليل الاجتماعي والداخلي للثقافة في إظهار خطأ النظرية التي لا ترى في الثقافة إلا ماهية ثابتة تعبر عن روح الشعب أو عن طبيعة لاصقة به لا تتغير ، أو تربطها بالتراث كشيء جاهز وناجز . وتؤكد الدراسة التحليلية أن الثقافة لا تعيش بمعزل عن السياقات التاريخية والاجتماعي الذي تولد فيه وتتطور وتتبدل في قيمها وفي آليات استجاباتها أيضاً . وإنما تشكل نظاماً تحكمه قواعد محدّدة ، يخضع كغيره من النظم المجتمعية إلى التغير والتطور والموت . وليست المعايير والمنظومات العقلية أو الروحية التي تنشأ عن ثقافة ما عبر التاريخ ، وترتبط بحقب تاريخية معينة ، معطاة مرة واحدة وإلى الأبد ، وليست القيم التي تمثلها عناصر متماثلة وصلدة لا يدخل إليها الشك أو التمايز أو التناقض .

فاعتبار النظام الثقافي جملة من التوازنات المعقدة والمتغيرة يعني بالضرورة أنه ينطوي على تناقضات وتوترات دائمة ، سواء ما تعلق منها بالتنازع بين تيارات فكرية وإيديولوجية ، أو بين منظومات دينية وعلمية أو بين أنماط ثقافية شعبية أو تعليمية أو عليا أو نخبوية أو تقنية ، أو بين ثقافات فرعية تمثل الجماعات المتعددة التي تكوّن الأمة .

ونستطيع أن نميز بشكل أساسي نوعين من هذه التوترات التي هي في أصل الإبداعات والتجديدات الثقافية . أولهما ذاتي يحده مطلب الوصول إلى توازن أفضل واتساق أكمل للنسق الثقافي ذاته ، وثانيهما موضوعي يفرضه التكيف في كل مرة يطرأ فيها تبديل على الواقع الخارجي ، الاجتماعي أو التاريخي ويؤثر على طبيعة حياة الجماعة ومكانتها أو على مكانة بعض أطرافها .

وهناك تفاعل دائم وتنازع مستمر بين الأنماط الثقافية أو الثقافات الفرعية على احتلال موقع السيادة في المجتمع ، والتظاهر من أجل ذلك بالتطابق مع الثقافة الشعبية عامة أو مع الثقافة الرسمية العليا . فاعتبارها ثقافة مفتوحة ومجانية موضوعية تحت تصرف الجميع بدون تمييز وعلى قدر طاقاتهم ، وبوصفها إطار

تحقيق التماهي بين الأفراد والفئات الاجتماعية مع الجماعة ككل ، تشكل الثقافة الشعبية ، أو تشكل السيطرة عليها ، هدفاً أساسياً لكل الأنماط والتيارات الفكرية المتنازعة . فكل واحد منها يسعى إلى أن يجعل من قيم ثقافته الخاصة أو الفرعية التعبير الأمثل عن القيم الشعبية ، ويوحدها بها ليضمن لها أكثر ما يمكن من الانتشار والنفوذ . ويحصل الأمر ذاته تجاه للثقافة العليا ، بحيث أن تقرب النمط الثقافي من هذه أو تلك يعكس في الواقع طموح الفئة المرتبطة به وطبيعة علاقتها بالشعب عامة أو بالنخبة السائدة . فالتيارات النازعة إلى المعارضة الشعبية تحاول دائماً أن تعيد تفسير نفسها وتأويل قيمها ومفاهيمها بما يربطها بالقيم والمفاهيم والاصطلاحات والرموز السائدة وسط الشعب . وفي هذا المجال قد تتنازع تيارات عديدة على احتواء الذخيرة الثقافية الشعبية واحتكار تمثيلها . وتسود هذه الظاهرة في فترات الأزمات الاجتماعية واهتزاز الأوضاع والنظم الاجتماعية . بينما تميل نفس التيارات إلى الظهور بمظهر العلم والعقلانية عندما تكون سلطة النخبة الاجتماعية قوية وراسخة ومستقرة .

ومن هذه التأويلات المتباينة تتولد في قلب كل ثقافة قومية صراعات عميقة قد تدوم لحقب طويلة . والفئة التي تنجح في جعل ثقافتها الخاصة ، أو القيم النابعة منها ، ثقافة قائدة ، أي معترفاً لها بالأولوية والفاعلية ، تنجح أيضاً في تحويل عملية تماهي الفرد مع المجتمع إلى عملية تماهي المجتمع ككل معها ومن ثم مع الدولة . وهكذا تضمن الفئة القائدة لنفسها الهيمنة الثقافية التي تقدم لها الشرعية العقائدية اللازمة لترسيخ سلطتها السياسية وإعادة إنتاجها في الوعي ، ومن ثم الحصول على التزام بقية الفئات أو الطبقات الاجتماعية ببرنامجهما . وهكذا يؤدي ازدياد نفوذ القيم التكنولوجية مثلاً إلى صعود الفئات التكنوقراطية وتقدمها نحو السلطة ، كما يؤدي انتشار القيم الدينية إلى تدعيم السلطة التيوقراطية .

لكن حتى يكون من الممكن حصول هذه الهيمنة ، ينبغي أن لا تتضمن الثقافة الفرعية المهيمنة أو القائدة تقياً عملياً أو رسمياً للثقافة العامة وللثقافات الفرعية أو الأنماط الثقافية الأخرى . فلو حصل ذلك لكان معناه حرمان بقية

الفئات الاجتماعية التي لا تنماهي مع هذه الثقافة الفرعية القائدة ، من كل فرصة أو إمكانية للتنماهي مع الدولة . ولحصل بدل الهيمنة الثقافية الطبيعية ، سيطرة آلية ، مضطرة إلى أن تفرض نفسها دائماً بالعنف ، أي بالتحطيم المنظم لثقافة أو ثقافات الجماعات المخضعة ، وتحويل الثقافة القومية إلى « كاريكاتير » فارغ من المعنى لثقافة الفئة السائدة . ومن هنا يمكن القول أن نوعية الثقافة القائدة ودرجة ارتباطها بالثقافات الأخرى الفرعية تترجم طبيعة العلاقات القائمة بين النخبة الاجتماعية أو الفئات الحاكمة والمجتمع .

إن تعلق النخبة الاجتماعية عموماً بثقافة يفترض في تحقيقها نفي الثقافة الشعبية والثقافات الفرعية الأخرى المرتبطة بها ، يخلق وضعية تظهر فيها الثقافة القائدة كاستعمار للعقل ، وكغزو أجنبي للثقافة . ولا يمكن إلا أن تدفع المجتمع إلى تنظيم رد فعل سلبي يسعى من خلاله إلى طرد هذه الثقافة ، أو الفئة المرتبطة بها في الوقت نفسه ، من الجماعة واعتبارها خارجة عنها . فإذا أخفقت هذه المحاولة لسبب أو لآخر ، كانت النتيجة الحتمية لذلك تحلل الثقافة القومية وتفكك جميع النظم المعيارية والاعتقادية القائمة على أساس وحدة المعاني والمضامين والقواعد والدلالات في المجتمع . وغالباً ما يأخذ هذا الانحلال الثقافي صورة الانكفاء الجماعي عن الثقافة الموحدة إلى الثقافات الماقبل قومية ، حيث تحاول كل فئة أو جماعة ، حسب أصلها ومصالحها أو عقيدتها الأساسية ، أن تجد لنفسها ميدان تواصلها الخاص وحقل تنمائها الذاتي ، أي أساس تعرّفها على نفسها ونيل الاعتراف لها بذاتها ، وتعرّف الآخرين عليها . ويفترض نجاحها في ذلك ضياع كل هوية جماعية - قومية شمولية والانغلاق المتزايد على النفس بالنسبة للجماعات الصغرى ورفضها لأي نوع من أنواع التبادل الروحي أو حتى المادي مع الجماعات الأخرى المحيطة بها . والنتيجة أن المجتمع يفقد وحدته الثقافية ، كـ تفقد الثقافة وظائفها السياسية والعقلية والإبداعية الداعية لصالح هدف واحد وحيد تصب فيه بشكل فرضي كل الأوهام والمخاوف والأحلام والأمال الاجتماعية ، هو التنماهي مع الجماعة الجزئية ، أي تحقيق الذات والاطمئنان إلى الوجود ، والعمل بكل الوسائل للحفاظ عليها وتضخيمها باعتبارها القوقعة

الأخيرة التي يستطيع الفرد من خلالها أن يمارس وجوده كوجود إنساني ، أي كتبادل للعواطف والمشاعر والأفكار والأمال والأحزان ، أي كتضامن أيضاً مع أقران .

ولذلك نلاحظ أنه كلما انكفأ المجتمع على الثقافات الفرعية ، أو الأنماط الثقافية التي تكون أجزائه ، نافياً الثقافة القومية كتنظيم أعلى وموحد لوسائل التبادل والتواصل الروحي - والفكري ، زاد تمسك فئاته وجماعاته الثقافية بهويتهم الخاصة وتشديدتهم على نقاط الاختلاف والمغايرة ، وتركيزهم على الطابع الثابت والجامد لشخصيتهم بالمقارنة مع الجماعات الأخرى . وتحويل الشخصية إلى ماهية ثابتة وما يرتبط بها من استعادة للتاريخ وتوحيد له في لحظة واحدة ومن مطابقة للهوية مع الأرض أو المهنة أو العرق ، ليست في الواقع إلا دليلاً على انهيار الوظائف العليا للثقافة ، وتخفيض هذه الأخيرة إلى مستوى الانعكاس المباشر لحقيقة أو لواقع لا يتبدل ، والتعبير عن وجوده واستمراره . إنها تسم مجتمعات تعيش على مستوى الحفاظ على البقاء لا على مستوى التطور والتقدم التاريخي ، تتحول فيها الثقافة إلى لحمة بدل أن تكون نظام وعي وتفكير وإبداع ، بل تصبح فيها قوة التوحيد واللحم الوحيدة لجماعات مشتة ومشورة في وجه السلطة العاتية ، ووسيلة الاستقلال عنها في الوقت ذاته . وهذا الانحلال الثقافي هو الذي يفسر نجاح الأقليات البيضاء الاستعمارية في التحكم بمجتمعات كبرى وقيادتها من قمة الدولة مباشرة مع التلاعب بتناقضاتها الذاتية بعد أن فقدت آلية وحدتها . وبالمقابل كان نشوء ثقافة قومية تتجاوز هذه التمايزات وتحفظ بها في الوقت نفسه ، مقدمة لتوحيد الجماعة المستعمرة (بالفتح) وتكوين هوية جديدة أو متجددة وإطلاق فعاليات الوعي والعمل الخلاق والمبادرة لطرد قوات الاحتلال وتدمير النظام الاستعماري .

الثقافة التقليدية والثقافة الحديثة

يتقاطع هذا التمييز بين ثقافة شعبية وثقافة عليا ، بكل ما ينطوي عليه من تحديدات داخلية ، مع التمييز الآخر السائد ، في العالم الثالث بشكل خاص ،

بين الثقافة الحديثة والثقافة التقليدية ، أو بين التطيق الحديث والقديم . والواقع أن الفصل الجفري بين تطيق متطين الأول حيث فاعل وعقلاني والثاني فانت وسحري ، يجر عن موقف سلمي وإيديولوجي أكثر مما يؤكد حقيقة عملية . ولكن هذا لا يمنع أن بين التقليدي والشعبي أو العلمي علاقة خاصة اليوم في مختلفنا ، تلك العلاقة الإستثنائية القائمة أيضاً بين الحديث والنخيري أو الخاص (نبة إلى الخاصة من الترس) .

ولا بد أن تشير مع ذلك إلى أن هذه العلاقات الخاصة ، يجب أن لا تزال من أفعالنا تحول الأنماط التقليدية ، حتى لو بقيت مطبوعة بطابع القدم - وهو ما يعطيها قوتها الرمزية أي الإيحائية - إلى جزء من نظام ثقافي - اجتماعي تسيطر فيه الأنماط الحديثة . كما لا ينبغي أن ننفي عنا تحول الأنماط الحديثة نفسها وتبدلها بما يجعلها ثقافة نخبة سائدة بعد أن كانت ثقافة قومية في مجتمعاتها الأصلية . وينبغي كذلك أن لا تنسى ما طرأ على هذه الأنماط التقليدية من انحطاط . فما لا شك فيه أن تولتها العقلانية قد ضعفت كثيراً بسبب استبدالها من دائرة السلطة وتهميشها بقدر ارتباطها بحياة الجمهور الهامشي والشعبي الفقيرة . لكن هذا الفترة على الصعيد العقلائي لا يمنع أن هذه الثقافة التقليدية قد اكتسبت أيضاً رمزية وإيديولوجية جديدة ، هي التي سمحت لها وتسمح لها بالاستمرار في البقاء وتحولها أكثر فأكثر إلى ثقافة شعبية ، أي في متناول اليد ، وأساساً لتحقيق الحرية أو لتنامي الفرد مع المجتمع ، بقدر ما تحولت الثقافة الحديثة المحكرة للخطاب العقلائي إلى ثقافة أقلية اجتماعية ضيقة ومغلقة على نفسها .

ولا بد من القول أن ردود الأفعال الشعبية ضد ثقافة النخبة لا تنجم بالضرورة عن رفض للقيم الحديثة المنصمة فيها أو عن عداء لها ، بقدر ما هي موجهة ضد طابعها الرمزي والإيديولوجي الذي يعكس تعاليز نخبة اجتماعية عن الجماعة واستغلالها عنها وتعليها عليها ، فيقتضي على جزء كبير من القيم العقلانية

المتضمنة فيها . وبمعنى آخر لا يقصد هذا الرفض إلى التخلي عن قيم الحرية والعدالة والمساواة والعقلانية التي تنطوي عليها الثقافة الحديثة ، إنما هو دليل خيبة الأمل بها والانتقام منها لما تحملته أو لما حملته من نقي عملي دائم لهذه القيم الإنسانية التي تنادي بها . وهو ما يظهره في الواقع تحولها من ثقافة بالمعنى الحرفي للكلمة إلى أيديولوجية تعكس طموح النخب الاجتماعية الصاعدة ورغبتها في الانفصال عن الجماعة الشعبية والوقوف في مواجهتها .

ولهذا كثيراً ما يتحول نقد الثقافة التقليدية والتعريض بها إلى وسيلة لإخفاء عملية التفتيت التي تمارسها السلطة الحديثة على الجماعات الشعبية ، وما يرتبط بها من تدمير لقنوات التواصل والتضامن الاجتماعي ، وحرمان هذه الجماعات من كل إمكانية على المقاومة أو تأكيد وجودها بشكل مستقل ومتميز . ومن الشعور بخطر الانحلال وفقدان كل أطر التضامن والتواصل الإنساني ينبع التراجع أو التفوق على أنماط تقليدية تأخذ أكثر فأكثر قياً مثالية توحى بالتواصل والشرعية والطمأنينة والاستقرار والوحدة .

بالتأكيد لا يقدم هذا الانكفاء على الذات أي حل جدي لمشاكل التفتت الاجتماعي ، ولا أية فرصة حقيقية لصد عدوان النخبة ، رغم أنه يشكل نوعاً من التهديد الدائم لها . فهو نوع من الحرب من مواجهة الواقع يفسره العجز عن فهم التقلبات التاريخية العميقة وبالتالي السيطرة على آلياتها والتحكم بها . ولا يمكن لهذا الانكفاء إلا أن يزيد من فقر الأنماط التقليدية ويفرغها أكثر فأكثر من محتواها أو من نواتها العقلية حتى لا يبقى منها إلا طابعها الإيحائي والطقوسي وما يشيره من شعور غامض وعام بالانتماء إلى جماعة صد أخرى . وكلما فقدت هذه الثقافة التقليدية انسجامها الذاتي ولحمتها ، ضعفت قدرتها على القيام باستجابات إيجابية فعالة ، وأصبحت ثقافة الرفض والتمرد والسلبية المطلقة ، وأصبح كل نموها وتطورها مرتبط بنمو وتطور حركات التمرد الشعبية ، وبما تفرضه هذه الحركات من اقتباسات وقيم تغذي المعارضة وتلهبها . ولعل ذلك يصر كيف

تلتقي تيارات إسلامية كثيرة اليوم في العالم العربي وخارجه مع قيم ثورية مستمدة في أغلب الأحيان من الماركسية الدارجة أو مسايرة لها^(١) .

إن القطيعة المتزايدة بين الحديث والقديم لا تؤدي فقط إلى زوال الوحدة الثقافية ، أو الثقافة القومية وتفككها ، ولكنها تدفع أيضاً إلى انحطاط كلا النمطين الثقافيين وتحولهما معاً إلى دلالات رمزية بسيطة تشير إلى هوية جماعية ، وتعمل كمحرضات للشعور العدائي ، فتصبح الثقافة في ذاتها منبعاً إضافياً للنزاع الاجتماعي والحرب . وبهذا تفقد الثقافة وظيفتها كوسيط أو كتوسط ذهني يفيد في تحليل المشكلات وانضاجها وبالتالي في تسهيل إيجاد حلول عملية وواقعية لها ، ويفقد المجتمع في الوقت نفسه أحد أهم الوظائف التي تساعد على الدفاع عن نفسه ضد خطر الانفجار الداخلي والتراجع التقني والتلاشي . وبانعدام هذا الوسيط ، لا يمكن للسياسة إلا أن تتجلى مباشرة كمجابهة مسلحة وحرباً أهلية . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن تلك هي السمة الغالبة اليوم على النزاعات الاجتماعية المتفاقمة في البلاد العربية والعالم الثالث .

ففي معظم هذه البلدان تحاول النخب الاجتماعية أن تدمر كل أساس للمجتمع المدني كي تستطيع أن تحول سلطتها السياسية المجسدة في الدولة والقائمة بشكل رئيسي على الانقلاب والدعم الخارجي ، إلى سلطة مطلقة وشاملة ونهائية لا يمكن تهديدها أو الاعتراض عليها أو إلغاؤها . ومع تفكك الجهاز الاقتصادي أو سيطرة الدولة عليه ، تصبح الثقافة في الواقع الحلقة الممتازة لتعبير المجتمع المدني عن نفسه بل ولاحتفاظه بلحمته وكيانه . وسواء أكان ذلك تحت شعارات التصدي للثقافة الرجعية التقليدية أو بالعكس تحت شعارات القضاء على الثقافة

(١) كان النقد الأساسي الموجه للثقافة الدينية في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي يقوم على الربط بين القيم الدينية المحافظة والسلوك الاتكالي للجماعات المتدينة . وكان الاعتماد السائد أن الدين يعلم الخضوع والخنوع والتسليم بالقدر وبالجزور القائم . أما الآن فإن النقد ينصب على ما تحمله هذه القيم الدينية من روح التمرد والخروج على السلطة والعداء لها ، حتى أن كلمة إسلامي أصبحت مرتبطة اليوم في الغرب وفي العالم العربي أيضاً بكلمة معارض أو مخرب أو إرهابي .

المستوردة اليسارية يعني تحطيم الثقافة إلغاء حرية التفكير والتعبير عن الذات ، واحتكار وسائل الاعلام والنشر ، والحظر على النشاط الذهني بكل أشكاله ، ومصادرة الأفكار والمشاعر . وهدف ذلك هو تحويل المجتمع المدني إلى هشيم يمكن ضبطه والتلاعب به وتوجيهه حيثما شاءت السلطة ، وحرمانه من أية قدرة على القيام برد فعل ناضج وعقلاني .

وفي المرحلة الأولى من بناء النظم السياسية - الاجتماعية الحديثة في العالم الثالث ، وتحت تأثير الإيديولوجية الإنسانية والحضارية التي كانت سائدة منذ القرن الماضي ، كانت سياسة تفكيك المجتمع المدني تستلهم المفاهيم الحضارية والإنسانية الكونية . فكان ينظر إلى القيم والنظم الأخلاقية والعقلية التقليدية على أنها تمثل امتداداً لثقافة القرون الوسطى ، وأن بقاءها يشكل عائقاً أساسياً أمام دخول الحضارة وتطورها . ومن هذه النظرة استمدت الكثير من النخب الحديثة سياساتها الثقافية التحديثية التي حاولت أن تفرس المفاهيم الجديدة ، وأن تعيد صياغة مفاهيم الهوية القديمة على ضوء القيم العصرية ، وتكشف في ماضي الشعوب النامية وتراثها عن العناصر التي تسمح لها بتكوين صورة لنفسها مماثلة للنموذج العصري السائد . وكان من دواعي الاعتزاز والفخر أن يقال أن قيم الحداثة الغربية الأخلاقية والعقلية ليست إلا بعثاً جديداً للقيم الإنسانية التي كانت سائدة في ثقافتنا التقليدية العظيمة .

أما الآن ، وبعد أن تم تفكيك الثقافة القديمة وتهيئتها وفقدت الجماعة الشعبية بالقدر نفسه كل قدرة على التفكير والعمل المستقل ، وتحول المجتمع ، المدني إلى هشيم لا وجه له ، وتحولت الدولة إلى وحش كاسر وتنين بألف ذراع ، يحصل بشكل خجول لكن عميق تحلي النخب الاجتماعية عن النظرة الكونية الأولى . وتبرز مكانها نظرية جديدة في الهوية قائمة على تأكيد الخصائص القومية ، أو بالأحرى على اكتشاف نظام قيم علي من المفترض أنه يختلف جوهرياً عن نظام القيم السائد في بلاد أخرى ، أي في الغرب . والهدف من هذا الانتقال السريع من العالمية إلى الخصوصية ، ومن الإنسانية إلى الشعبوية هو تبرير العنف وفقدان الديمقراطية وتدهور العلاقات الإنسانية بل زاولها في العديد من هذه النظم

الحديثة . فقد كان « التأثير الخارجي » عظيم الفائدة عندما كان ملائماً لتكوين النخبة الحديثة وتحقيق تمايزها عن الجماعة وتأكيد سلطتها ، وأصبح الآن مضرراً ومغرباً لأنه يذكر هذه الجماعة ذاتها ، وفي كل يوم ، بحرمانها من كل الحقوق المدنية والسياسية ، أي بإنسانيتها .

إن تخطيط المجتمع المدني ، أو هذه الوحدة الأولية للجماعة القائمة على الدخول الجماعي في منظومة قيم أولى ، هو إذن أحد شروط تكوين السلطة الراهنة في المجتمعات النامية . وكل أنظمة القمع السياسي تتطلب التدمير المنتظم والدائم للحممة الثقافية التي تشكل نسيج المجتمع المدني وتجعله جسماً متعضياً . فهذا التدمير يعني تخطيط كل قاعدة ومعيار للعمل ، مما يحول الشعب برمته إلى مجموعة من الأفراد المتنابذين الفاقدين لكل أرضية للتفاهم والعمل المشترك . ويصبح الحكم الفردي هو النتيجة الحتمية للتفريد المتعظم للجماعة ولتكسير كل أشكال وحدتها الأولى وتضامنها ذات الأساس الثقافي ، أي بلغة ابن خلدون عصبيتها . إن تخطيط المجتمع المدني يعبر عن نفسه من خلال تعاضل أهمية الدولة ووزنها ، ويظهر في تحول الجماعة المتدهورة إلى مرتبة شتات ولمامة من الناس ، وفي خضوعها إلى الدولة وإلى مؤسساتها التنفيذية .

فليست هناك إمكانية لظهور ديمقراطية سياسية بدون تعضي المجتمع المدني ، وتحلل المجتمع المدني الذي يتجسد في فقدان أي معيار مشترك للتفاهم والتعايش بين الأفراد والجماعات المكونة للمجتمع ، يجد تعويضه في تطور مؤسسة تحتكر كل المعايير والسلطات ، وتصبح بذاتها المعيار الوحيد والقيمة الأولى والملجأ الدائم لكل فرد : أي الدولة . وهذا هو الأساس العميق للحكم الاستبدادي ، ولسيطرة فئة صغيرة على مقدرات الجماعة بأكملها .

وما تقوم به الدولة أو ما تمثله ما هو إذن إلا انعكاس لما يحكم علاقات أفراد وفئات الجماعة الفاقدة لكل معيار قيمي مشترك .

III

جدل الثقافة والحضارة

بعد التأكيد الأول في القرن التاسع عشر على الثقافة كسمة من سمات الشعوب المتحضرة وكرجعة لهذه الحضارة ، مما حول الشعوب القديمة إلى شعوب بدائية ، ساد الاعتقاد في منتصف هذا القرن ، وعلى ضوء حركة تحرر الشعوب المستعمرة ، بأن لكل شعب ثقافته الخاصة المتميزة التي تعكس روح الشعب وتراثه وتاريخه . وهي ثقافة مساوية في قيمتها الإنسانية - لا المعرفية - لما تتضمنه جميع الثقافات الأخرى . وقد ساهمت هذه الرؤية الجديدة في تحرير العقل من عوائق التمحور حول الذات ، وفي تخليص الشعوب النامية من خطأ قياس تاريخها وشخصيتها على تاريخ وشخصية الشعوب الأوروبية التي أصبحت تعتبر تجسيدا في نمط حياتها للحضارة .

لكن هذه التعددية الثقافية التي حمل لواءها اليونسكو لم تخرج عن إطار التباهي اللفظي والشكلي الذي فشل في إزالة نزعة عميقة لدى الشعوب النامية إلى استصغار ثقافتها وتعظيم الثقافة الغربية . وسبب هذا الفشل هو أن التأكيد على التعددية والمساواتية ما كان يستطيع أن يحو الحقيقة المرة والواقع الحزين الذي يؤكد أن الثقافة الغربية هي الوحيدة التي مازالت قادرة على تغذية الحضارة بالاكشافات والإبداعات العملية والنظرية الجديدة ، والوحيدة التي ما زالت تتطور وتنمو وتفتح إمكاناتها وتفتح على حريات وأفلق ومطامح إنسانية جديدة . لذلك بقيت التعددية الثقافية عزاء فقيراً لمواساة النفس بل وخداعها للحصول على الحد الأدنى من الشعور بالرضى وقبول الذات ، ولم تستطع لهذا السبب بالذات أن

تتجاوز نفسها وتخرج إلى إطار الدراسة الموضوعية للعلاقات القائمة بين الثقافات وتأثير بعضها على البعض الآخر . بل لقد ساهمت في إخفاء ما تتضمنه هذه العلاقات من نمو غير متساوٍ للثقافات العالمية ، وفي التغطية على حقيقة أن الثقافة الغربية ، تمارس ، بقدر ما أصبحت مقر ومستودع الحضارة الإنسانية الراهنة ، ومن أفق سيادتها هذه كثافة الحضارة (العالمية) ، تأثيرات عميقة ومعقدة ومتباينة على جميع الثقافات الأخرى . وأن هذه الثقافات لا تستجيب جميعها بنفس الصورة ونفس الدرجة لتحدي الثقافة الغربية ، بل إن بعضها ينهار أمامها ويفقد مصداقيته . وأنه أصبح من المستحيل إذن فهم مسار هذه الثقافات . بمعزل عن تحليل علاقات السيطرة الثقافية على الصعيد الدولي . ونحن نعتقد أنه لا معنى للتأكيد على تساوي الثقافات في القيمة الإنسانية ، إلا إذا وظف هذا التأكيد في البحث عن المشاكل التي تعاني منها هذه الثقافات بقصد إنقاذها ، وإلا لم يبق منه إلا السعي إلى إخفاء عقدة الشعور بالنقص لدى الشعوب النامية تجاه الثقافة الغربية بدل حلها .

ففي عصرنا الراهن ، أكثر من أية حقبة أخرى ، لم تعد الثقافات القومية المختلفة تعيش في زجاجة مغلقة ، وإذا كانت هذه الثقافات ما زالت قائمة ومستقلة نسبياً فهي لا تتمتع بالدرجة نفسها من الانسجام والتكامل والحيوية والقوة الذاتية . وليس لها حظوظ متساوية من التطور والنمو والازدهار والتجدد . وكما أن الأنماط الثقافية المختلفة تتنازع فيما بينها داخل كل ثقافة موقع الهيمنة وتؤكد تقدم فريق اجتماعي على الآخر أو تراجع في النظام الاجتماعي ، فإن الثقافات القومية تتصارع أيضاً فيما بينها للوصول إلى موقع الثقافة العالمية ، أي الثقافة التي تصبح مصدر القيم الإنسانية الأساسية ومرجعها وكفيلها ، وهذا الموقع هو الذي يعطي لقيمها مصداقية راسخة ، ويؤكد بالتالي مصداقية وتفوق الشعوب التي تتماهى معها . وهو الذي يجعلها منبع القيم والمعارف والعلوم التي تنهل منها الثقافات الأخرى الخاضعة وتقيس نفسها عليها .

وكل الثقافات تطمح في الواقع إلى أن تكون عالمية ، إذ حتى تستطيع أن تعمل كمنبع لقيم إنسانية عامة ، لا بد لها أن تنكر طابعها القومي أو المحلي

والشروط الاجتماعية والتاريخية التي ظهرت فيها . فالثقافة الحية هي التي تنظر إلى الإنسان كإنسان ، وتخطبه كمثال ونموذج للإنسانية جمعاء ، قبل أن تنظر إليه كواقع قومي ومحلي ضيق . ومن خصائص الثقافات المتراجعة أنها تبرر قيمها الخاصة من وجهة نظر قومية وتربطها بخصائصها المحلية ولا تؤكد كمنبع لقيم إنسانية عامة وكونية .

وهذه الثقافة الحية أو العالمية هي الثقافة الحاملة للحضارة والمدنية . ونظرتها الإنسانية الشاملة هي التي تسمح لها بالإدعاء والتحقق كمنبع لقيم تتجاوز التأكيد على الهوية في وجه الجماعات الأخرى ، لتكون مصدر تكوين كل اجتماع بشري . فالحرية الفردية ليست اليوم ، ولا ترى كقيمة أساسية لبناء المجتمع الغربي ، بل هي قيمة أساسية في قيام كل مجتمع مدني في العصر الحديث .

والتناقض القائم في كل ثقافة بين واقعها كثمره ونتيجة لسيرورة اجتماعية - تاريخية خاصة ، وبين نزوعها لأن تكون ثقافة عالمية صالحة لكل زمان ومكان ، هو مصدر الصراع والتفاعل والتبادل أيضاً بين الثقافات . والثقافة التي تؤمن بمحليتها تغلق على نفسها ، وهذا التبادل لا يمكن أن يتحقق إلا إذا توفر لدى الجماعة الثقافية الاعتقاد بأن منظومة قيمها هي الأصلح إنسانياً ، وأن على انتشارها يتوقف مصير تقدم البشرية وتطورها . بل إن هذا الاعتقاد هو مبرر وجودها ووجود المجتمع الذي يحملها ، أي قيامه كجماعة متميزة وكمدنية خاصة ترفض الذوبان في المدنيات الأخرى القائمة . وكلما زادت ثقة الثقافة بنفسها ومبادئها الإنسانية ، عظم طموحها إلى السيطرة ، وعكست هذا الطموح في رغبة متزايدة للتوسع المحمول على عقيدة تحرير الإنسانية وإيقادها من العبودية أو البربرية . وهذه هي الأسس الإيديولوجية العميقة التي تقوم عليها الفتوحات وحركات التوسع الكبرى ذات الديمومة . وكل توسع دائم يحمل في طياته صراعاً عنيفاً بين الثقافة الفاتحة والثقافة المحلية ، وينتهي إما بانتصار إحداها على الأخرى وموت الثانية أو بنشوء ثقافة جديدة تؤلف بين الثقافتين . ونستطيع أن نقول بشكل عام إن الثقافات التي لا تتمتع بنظرة إنسانية عالمية ، ولا تتصارع مع غيرها ، لا تتبادل شيئاً ولا تطمح إلى معرفة الثقافات المحيطة بها . إنها تعيش

خارج التاريخ العام ، وتحكم على نفسها بالتقهقر والموت البطيء . إن الثقافات الكبرى التي ما زالت قائمة حتى اليوم هي تلك التي خرجت من صراعات عنيفة اقليمية وعالمية ، وما زالت مستمرة فيها إلى اليوم .

وتستخدم الثقافات في صراعاتها وسائل مختلفة ومتباينة وطرائق سلمية أو عنفية ، كنشر القيم الاستهلاكية وأنماط التفكير والسلوك أو التأثير على قيم ومبادئ الممارسة السياسية لدى الثقافات الأخرى ، أو تبديل منظوماتها العقائدية والروحية . وهذه الوسائل قد تكون أكثر فعالية في تحقيق سيطرة مجتمع على مجتمع آخر من الوسائل العسكرية أو السياسية المباشرة . وقد لعبت الأديان في القرون الماضية دوراً أعمق من الجيوش في نشوء الامبراطوريات الكبرى العالمية وتوحيد مناطق جغرافية كاملة وحفظ كيائها . بل إن حظ السيطرة العسكرية في الدوام مرتبط بقدرتها على تحطيم ثقافة الشعوب المغلوبة أو فرض ثقافتها عليها .

وهناك علاقة جدلية بين السيطرة العسكرية - السياسية والسيطرة الثقافية ، أو تحول الثقافة إلى ثقافة حضارة ومن ثم إلى ثقافة عالمية . فبقدر ما تنجح ثقافة في توسيع رقعتها الجغرافية وتعطي لنفسها إمكانيات استيعاب وهضم الخبرات ، أو التراث العلمي والتقني والروحي ، التي تصادفها تصبح أقدر على احتضان الحضارة والتماهي معها ، وتحوز على قدرات أكبر للظهور بمظهر العالمية واحتلال موقع الثقافة - المرجع . وكل ثقافة مرجع تعيد تفسير التاريخ والعالم من زاوية قيمها ومبادئها ومواقفها الخاصة ، وتفرض هذا التفسير على بقية الثقافات باعتباره الوحيد الممكن والمنطوق . فإذا حصل ذلك زاد حظها في أن تكون مقبولة ومقدمة لدى أعضاء المجتمع الذي تنتمي إليه ، وزادت ثقة هؤلاء بقدراتهم وينظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كما زادت فرص المجتمع في الوحدة والاستقرار والأمن ، وكلها شروط أساسية لنشوء الحضارة وتطورها . وكلما عظمت علاقة ثقافة قومية بالحضارة وصارت مرجعاً ومصدراً رئيسياً للمعاني والقيم والأفكار والمعارف السائدة ، أخذت طابع الثقافة العالمية . أما الثقافات الأخرى فلا بد أن تفقد بالدرجة ذاتها إشعاعها وفعاليتها ومصداقيتها ، ومن ثم قدرتها على دعم الكيان المدني للجماعات التابعة لها .

إن صعود ثقافة ما إلى موقع السيادة ، واحتلالها لحقل العالمية ، لا ينفصل إذن عن صعود الجماعة التي تحملها إلى مصاف الهيمنة الكونية التي تجسد تجسيدها في الأمبرطوريات العالمية . ومن هنا فإن العالمية والخصوصية يتقدمان معاً ويتمفصلان على نفس التاريخ ، تاريخ الحضارة ولا يتعارضان . ولا تحتفظ الثقافة بخصوصيتها ، أي بذاتيتها واستقلالها إلا بقدر ما تفرض نفسها عالمياً . ونجاح ثقافة في أن تكون قطب استقرار اجتماعي هو الذي يمكنها من أن تكون وعاءاً ممكنًا للحضارة ، فهذه الأخيرة ليست في الواقع إلا محصلة تراكم المكتسبات المادية والروحية التي كانت الثقافات الماضية قد أنتجتها في كفاحها الدائم وفي سعيها المتواصل لتقديم أجوبة معقولة للمشاكل التي تعرضت لها المجتمعات التي كانت ترتبط بها في ظروف تاريخية وببيئة خاصة ثم تحولت إلى تراث عام للبشرية .

إن أحد مصادر الفهم الخاطيء للثقافة هو الخلط الدارج بينها وبين الحضارة . ولهذا الخلط عدة أشكال تبدأ بخلط المعنيين بحيث تصبح الثقافة رديفاً للحضارة ، وعندئذ تُستخدم للتمييز بين الشعوب البدائية التي تفتقد إلى الثقافة بمعنى الكلمة وتلتصق بالطبيعة أو الفطرة والغريزة ، والشعوب التاريخية التي تشكل الثقافة بعداً أساسياً من حياتها السياسية والمادية والروحية .

والشكل الثاني لهذا الخلط هو اعتبار الحضارة الترجمة المادية للقيم الأساسية الكامنة في كل ثقافة ، واستخدامها في هذه الحالة كمؤشر على صلاحية هذه الثقافة أو أهليتها .

وفي هذه الحالة الأخيرة لا تكون الحضارة إلا امتداداً للثقافة وتجسيداً تاريخياً لها . والشعوب التي لم تستطع أن تماشى الحضارة الحديثة يجب أن تعترف بعدم صلاحية ثقافتها ، وليس لها إذا أرادت أن تستوعب الحضارة التقنية أو العلمية الراهنة الصادرة عن ثقافة توصف عادة بأنها عقلية أو علمية ، إلا أن تترك ثقافتها وتبنى قيم وأنماط الثقافة الجديدة .

ولم تنجح الدراسات الأنثروبولوجية في تجاوز الخطأ الأول إلا بتوسيع مفهوم

الثقافة ليشمل دراسة النسق الاجتماعي عامة ، من علاقات الإنتاج إلى علاقات القرابة ، فأصبحت الثقافة والحضارة أنظمة مغلقة خاصة ومتميزة لدى كل جماعة ولا شيء يربط فيما بينها . وهكذا انقلبت النظرة التطورية التي قامت عليها النظريات الأنثروبولوجية الأولى إلى نظرة تجزئية وصفية عاجزة عن فهم عمليات التحول الثقافي - الاجتماعي واستيعاب التاريخ الحضاري للإنسانية . وكان من الطبيعي أن تلتقي مع الخطأ الثاني فلا تفهم الحضارة الصناعية الراهنة إلا كأحد نتائج الثقافة والعقل والروح الغريبة وإبداعاتها . وهكذا بطلت الدراسات الحضارية الشمولية التي ميزت القرن التاسع عشر والتي كانت تنظر إلى التطور الحضاري كتطور إنساني شامل للعقل البشري يبدأ من العصر الحجري وفي بقاء مختلفة من العالم ليصب جميعاً في الحضارة التقنية .

في الواقع ، وكما ذكرنا سابقاً تؤسس كل جماعة وجودها المدني على توازنات روحية وعقلية ومادية أولى ، وتترع إلى تكوين كلية ثقافية أصيلة متميزة عن غيرها ولا يمكن خلطها بالثقافات الأخرى . بيد أن هذه الأصالة ليست ، كما قلنا أيضاً من قبل ، ماهوية مرتبطة ببنية عرقية أو بمناخ أو بيئة جغرافية ، بل هي معطى تاريخي ، أي حصيلة سيرورة طويلة من الصراعات الثقافية ومن الاستعارات والتحويلات والتبدلات في كل منطقة من المناطق وفي العالم أجمع . وما يميز ثقافة عن أخرى ليس وظائفها الأساسية إنما طريقة وأسلوب ووسائل تحقيق هذه الوظائف . وكما أن هناك لغات تفرض نفسها على شعوب أوسع من الشعوب التي حملتها في البدء ، فإن هناك ثقافات تتحول إلى ثقافات اقليمية ، وتصبح ثقافات جماعات أخرى ، وتخلق ما يمكن أن نسميه بالإقليم الثقافي حيث تشترك شعوب كثيرة ، وعلى مستويات مختلفة ، بثقافة واحدة ، سواء بنت لغة واحدة أم لا بهذا المعنى الثقافة هي بنت التاريخ أكثر مما هي بنت التربة أو العرق .

وتتغير بنية الثقافة وتوازناتها العميقة وتبديل على مر التاريخ تحت تأثير التبدلات الواقعية الاجتماعية والمادية ، ولا تبقى مجرد بني أنثروبولوجية جامدة مزروعة كالكروموزومات في فزيولوجية المجتمعات المقترضة وإن استمرت فيها مثل هذه البنى الأساسية . وهذا التبدل الذي يخضع لقواعد دقيقة هو الذي يتيح

لها التكيف مع المعطيات الجديدة واستيعاب معطيات ثقافات أخرى وضمها والتحول ، في ظروف معينة ، إلى ثقافة اقليمية تتجاوز القوم الذي ولدت فيه ، أي إلى ثقافة إنسانية وعالمية .

والثقافة العالمية هي الشرط الأول لنشوء الحضارة . فهي التي تقوم بإعادة توزيع المجال أو الفضاء الروحي والمادي على القوى والجماعات البشرية ، وتعمل على توسيع حقل الممارسة الإنسانية وتعميق إمكانيات ووسائل التفاعل والتبادل وانتشار المكتشفات والإبداعات الإيجابية المادية والروحية على نطاق واسع ونقلها من منطقة إلى أخرى . وهذه الحركة الضخمة التي سبقت كل الحضارات البشرية الكبرى ، وقامت من خلالها ثقافة عالمية بتجميع وبلورة وتوحيد الخبرة التاريخية وتعميمها ثم تجاوزها ، تقوم في الواقع بإعادة بناء التوازنات الإقليمية والاجتماعية على أسس جديدة ، وتفرض عن ثم إحداث تطورات كبيرة على المنظومات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية والروحية بما فيها المنظومة الثقافية ذاتها .

لكن وجود الثقافة العالمية ليس الشرط الوحيد لنشوء الحضارة . فتقدم الثقافات كثيراً ما يرتبط هو نفسه بمحصلة الصراعات التاريخية الاقتصادية والعسكرية . ولكن الحضارة لا يمكن أن تخصب بدون هذه الثقافة العالمية ، وقد يكون تقدم هذه الثقافة وتوسعها ثمرة لهزيمة عسكرية أكثر مما هو ثمن النصر . فالثقافة الغربية انتشرت في بلدان العالم الثالث بعد الاستقلال أكثر بكثير مما انتشرت قبله .

نريد أن نصل من ذلك إلى القول بأن الحضارة ، بعكس الثقافة ، ظاهرة عالمية بالضرورة شرطها الأساسي تجاوز الثقافات وامتزاجها وانفتاحها بعضها على البعض الآخر ، وغالباً ما يحصل هذا الانفتاح بالقوة والعنف . وهي بعكس الثقافة أيضاً لا تقوم على توازنات روحية وعقلية ثابتة ، إنما تتطوّر بحصول دينامية تراكمية ومنتجة تنقل هذه التوازنات القلقة التي تعيش عليها الثقافة إلى توازنات ومؤسّسات مادية وموضوعية وإلى نظم متميزة تؤسّس لتحرير الفرد من قيود

التماهي الآلي مع الجماعة وتحرر الجماعة من التماهي مع الطبيعة والخضوع لها . فإذا كانت الثقافة هي الفهم ، فالحضارة هي العلم بما هو تنظيم للمعارف أي وضعها وصياغتها في نظام لا يخضع لحدس الفرد العالم ولا لنفاذ بصيرته ، وإنما لأسس تسمح لكل متعلم أن يدركه ويستفيد منه . وفي العلم تجاوز عظيم للمعرفة من الخاص إلى العام ، ومن الذاتي إلى الموضوعي ، وللجماعة القومية الضيقة إلى الإنسانية الواسعة ، وهذا ما يسهل انتقال المعارف عبر الثقافات وانتشار الخبرة وتعميمها على نطاق المعمورة .

إن انتشار هذه الخبرة البشرية من مكتشفات وتجارب مادية وروحية وتعميمها ، وهو ما يتيح العلم وتنظيم العقل ، ثم إخصابها من جديد في كل ثقافة أخرى تتلقفها وتكون على مستوى من التطور تمكنها من استيعابها ودمجها بخبرتها الذاتية ، هو ما نسميه بالضرورة الحضارية . وهي مستقلة كلياً عن الصيرورة الثقافية لكل جماعة . وكل ثقافة مضطرة ، إذا أرادت البقاء ، إلى مثل نظام الحضارة العلمي والتقني ، وإعادة استنباته في دائرة نشاطها قبل أن تنجح في تجاوزه أو الإضافة إليه . ويمكن القول أن تاريخ الحضارة مرتبط بتاريخ تطور التنظيم الإنساني ، تنظيم المعرفة أو تنظيم النشاطات الأخرى ، وأن هذا التنظيم بقدر ما يتحول إلى منظومة مستقلة عن كل الثقافات ومتميزة عنها ، أي إلى منظومة علمية وقائمة بذاتها وموضوعية يصبح في متناول كل مجتمع بشري . ولا تقوم الثقافات المختلفة التي تحتضن الحضارة بين فترة وأخرى ، إلا بتطوير هذه المنظومة ووضع مساهمتها وتجربتها فيها قبل أن تنتقل إلى منطقة أخرى .

تستقر الحضارة إذن حيث تجدد تربة صالحة لاحتضان هذه المنظومة العقلية الإنسانية وإخصابها . وقد يرتبط صلاح هذه التربة بسبق ثقافي تفرض فيه إحدى الثقافات نفسها كثقافة إقليمية فاعلة ونشيطة ، أو بسبق اقتصادي يفتح إمكانيات تطور جديد ، أو بسبق سياسي يمكن من قيام امبراطورية كبرى . والحضارة تضفي على الثقافة التي تستقبلها طاقات جديدة وتعيد توليدها وتجهيزها بما تجذبه إليها من مصادر الإلهام والابداع الخارجي كما يحصل اليوم في انتقال ما يسمى بالعقول والدمغة النشيطة

وكل إنتاجها القوي من البلاد النامية إلى البلاد الصناعية الكبرى . وينقل ذلك الثقافة المستقبلية من حالة التوازنات الروحية الغامضة - إلى حالة من التوازن العالي المعقد والمركب ، فتصبح ثقافة شمولية علمية وتقنية وأدبية ودينية ، أي شاملة لكل أوجه النشاط والجهد والوعي الإنساني . ويمكن القول أن الحضارة ليست في النهاية إلا ما يقوم به التاريخ من توظيف واستثمار في الثقافة ينجم عنه تراكم متزايد لنظم ومؤسسات مادية وموضوعية مستقلة نسبياً عن وعي وإرادة الأفراد ، وقابلة للاستنبات في شعوب وثقافات أخرى . ولذلك تنزع الجماعات التي تجانبها الحضارة أو تبعد عنها إلى الانكفاء على ثقافتها وتحويلها إلى مصدر إلهام روحي ونفسي وقاعدة توحيد جماعي ينبع من التسليم بمواقف وعادات ويقوم على نسخ وتكرار تقاليد وأنماط وعي وسلوك ، أكثر مما يستند إلى سيرورات عقلانية وموضوعية ومؤسسات مستقلة ومتميزة سياسية وعلمية وتقنية .

إن العلاقة بين الحضارة العالمية وبين الثقافات تختلف إذن حسب قدرة كل ثقافة على إدماجها في بنية مفاهيمها وقيمها الخاصة ، وحسب البيئة التي تعيش فيها هذه الثقافة . وعن هذا الاختلاف تصدر المذنبات وتتميز داخل نطاق كل حضارة ، أي تتحدد درجة تمدن كل مجتمع وأسلوبه . فقد فجرت الحضارة الصناعية مثلاً البنية العائلية في أوروبا وحلت كل التجمعات الإقطاعية التقليدية ، بينما ساهمت في اليابان بتدعيم القيم الجماعية ، وأصبح المصنع ذاته إطاراً جديداً لترسيخ علاقات التبعية الشخصية . ولم يؤثر ذلك سلباً على نمو النظام الصناعي ، بل فتح له آفاق تطور أكبر كما هو معروف ، وذلك على عكس ما تردده بعض النظريات الاجتماعية .

وبالمثل ، ذكر علماء الاجتماع في بداية هذا القرن وأهمهم ماكس فير ، أن الصناعة لا يمكن أن تتطور إلا في إطار منظومة قيم تركز على الفردية وتشجع عليها . بيد أن التطور الصناعي في بلدان الكتلة الشرقية لم يظهر فقط أن من الممكن قيام عملية تصنيعية ناجحة على أساس تعميق القيم الجماعية ، بل إن ترسيخ هذه القيم يمكن أن يشكل قاعدة لنمو صناعي أسرع ، ويساهم في تجاوز العديد من التناقضات الاجتماعية التي تفرزها العملية التصنيعية ، خاصة في

مراحلها الأولى . وبينت تجربة البلاد النامية اليوم أن من الممكن نقل وسائل الحضارة ومنتجاتها ونظمها الصناعية والعلمية دون الحصول على أي تطور حقيقي وذاتي ، أي دون أن تؤدي إلى نشوء المدنية ، بل مع تعميق الاتجاهات نحو التحلل والانحلال الاجتماعي والثقافي . وهذا يعني أن دراسة الصيرورة الحضارية هنا أو هناك تقتضي دراسة شروط التفاعل بين الحضارة والثقافة ، وهي شروط خاصة بكل جماعة تبعاً لتاريخها وبيئتها السياسية والاجتماعية والطبيعية . ويمكن لهذه الدراسة وحدها أن تبين لنا مشكلات النهضة والتخلف ، أي الصراعات والمشكلات والتناقضات التي يتوجب على المجتمع أن يجد لها حلاً كي يحقق توازنه الذاتي ويستكمل تطوره . فلا تستطيع جماعة أن تتطور ، أي أن تحظى بدينامية تراكمية إلا إذا نجحت في التوفيق بين الصيرورة الحضارية العالمية وسيرورتها الثقافية الخاصة .

وينقلنا هذا إلى الصراع بين الثقافات . فمن البديهي أن العالم ينطوي على ثقافات عديدة متنافسة . وأن كل ثقافة تطمح إلى أن تحافظ على موقعها ومكانتها وتحفظ بالتالي بوحدتها واستمرارها ، أي بأصالتها . بل إن بعضها يطمح إلى أن يصبح مقراً للحضارة ووعاءً لها تنضج منه . بيد أن كل ثقافة ليست مؤهلة ذاتياً وموضوعياً كي تكون ثقافة الحضارة ، أي الثقافة التي تستقطب الإبداعات والمكتشفات العقلية والتقنية للبشرية وتوطئها . والثقافات التي نجحت في حقبة أو كان بإمكانها أن تنجح في الماضي لا تنجح بالضرورة في الحاضر أو المستقبل . ولا تعتمد الفتوح الثقافية على وسائل واحدة أيضاً . فقد انتشرت الثقافة السامية العربية عبر إبداعاتها الروحية التي جسدتها هذه المنظومات الكبرى التي نطلق عليها اسم الأديان السماوية أو التوحيدية . بينما تنتشر الثقافة الغربية عبر المنظومات التكنولوجية الهائلة والأفاق التي تفتحها وتهز الأسس العميقة للمدنيات السابقة . وأسباب هذا الانتشار تتجاوز في نظرنا مسألة صراع الجماعات البشرية على مصالح وموارد محلية أو إقليمية وترتبط بالحاجة إلى إعادة تنظيم التجربة والممارسة الإنسانية في كل مرة تهتز فيها أسس الثقافات القائمة وتذبل جذوتها وتفقد قدرتها على إلهام الجماعات وإعطائها اتجاهات وغاية لوجودها وعملها .

وحياتها . وهكذا تولد مدنيات جديدة في كل حقبة كالمدينة الإسلامية أو المدينة الغربية ، تستوعب عدة ثقافات وتربطها بالثقافة الحضارية التي تغذيها جميعاً ولا تعيش هذه الثقافات ولا تتحرك بدونها . ويستمر الصراع داخل هذه المدينة بين الثقافات ، خاصة إذا وجدت بينها ثقافة قوية منافسة للثقافة السائدة ، بينهما تنحو الثقافات الصغيرة ضعيفة التطور إلى الزوال .

والتنافس الثقافي عامل أساسي في تقرير مستقبل الأمم والشعوب والجماعات ومصيرها . ولا تتخلى جماعة عن ثقافتها أو تمايزها الثقافي مهما كانت درجة هذه الثقافة من الضعف ، إلا إذا قررت الانتحار الذاتي والاندماج في غيرها من الجماعات . بيد أن الطاقات والقابليات التمديدية التي تتمتع بها كل ثقافة هي التي تحدد في النهاية مصيرها في هذا التنافس ، وإلى حد كبير مصير الشعوب المرتبطة بها . فبقدر ما تستند إلى تراث روحي وعقلي وعلمي غني ، وبقدر رسوخ أسسها الإنسانية والعالمية وتعدد وتنوع الجماعات التي تنتمي إليها وتتفاعل داخلها مع كل ما تنطوي عليه من تنوع في ظروف الحياة والبيئة والتأثيرات الخارجية ، تزداد فرص الثقافة في مقاومة الاتجاه الحضاري العام نحو التسوية أو « السمهلة » الثقافية وحل جميع الثقافات وإدماجها في ثقافة عالمية واحدة ، مما يعني قتل إمكانية إخصاب الحضارة في المستقبل . إن مقاومة الثقافات الخاضعة للانحلال وسعيها إلى تمثل الإبداعات الحضارية بعزلها عن إطارها الاعتقادي والرمزي هو الذي يساعد على البقاء ويوفر فرصاً دائمة لتجديد الحضارة واستمرارها .

IV

صراع الثقافات أو حدود المحنية الغربية

إن الحدث الأكثر أهمية على الصعيد الثقافي العالمي هو دون شك ، ومنذ قرن على الأقل بالنسبة لأغلبية أمم الأرض ، صعود الثقافة الغربية ، بكل ما تنطوي عليه من قيم روحية ومادية ومنظومات علمية وأسطورية ورمزية ، إلى مصاف الثقافة السائدة التي تشكل مصدراً للحضارة ، والحضارة تمر هي نفسها بحقبة توسع سريع وتفرض نماذجها على البشرية جمعاء ، بصرف النظر عما إذا كان من الممكن تحقيق هذه النماذج كاملة ، أم لا .

ولا نغني بالصعود إلى مصاف السيادة العالمية إنتشار الثقافة الغربية في كل أصقاع العالم ولا هيمنتها على كل العقول والنفوس وتحكمها بكل ما يظهر من الإنتاج الثقافي والنشاط الروحي في كل مكان . فالمقصود هو الإشارة إلى تحولها إلى ثقافة تعطي للقيم الإنسانية ، ومن خلال الحضارة التي تغذيها ، تجسيدات الجديدة أو الراهنة ، وأطرها المادية والعقلية ، فتصبح بذلك مقياساً لغيرها ولإنجازات بقية الثقافات ، ويصبح انجازها لذلك أيضاً الأكثر تعبيراً والأوفر معنى والأكثر عالمية . إن عالميتها وسيادتها تابعة إذن من تماميها مع الحضارة بقدر ما تبدو الحضارة الراهنة ثمرتها وحصيلة إبداعاتها في الوقت ذاته . وهكذا تصبح المشاركة في الحضارة ، أو النفوذ إليها مرتبطة بالقدرة على استيعاب النظم العقلية والمعرفة العليا التي هي في أصل نشوتها .

ومن الطبيعي إذن أن يدخل صعود الثقافة الغربية إلى هذا الموقع أنماطاً

فكرية وسلوكية جديدة لم تزل اثارها مستمرة حتى اليوم في كل مناحي الحياة في البلاد الأخرى التابعة . ويشكل دخول هذه الأنماط من كل الوجوه ثورة حقيقية في الرؤية والمفاهيم والمبادئ والأهداف الكبرى للجماعة الشريفة .

ومن الطبيعي كذلك أن تواكب نشوء ثقافة حضارية حركة تحليل واسعة النطاق للثقافات الأخرى التي تجد نفسها في مواجهة ثقافة مبدعة في أوج ازدهارها وفتحها . وبقدر ما تنجح هذه الثقافة الصاعدة في دحر وتفكيك الثقافات الأخرى وإفقادها استقلالها الذاتي وانسجامها الداخلي ، تفرغها من قوة الإلهام الكامنة فيها لشعوبها ، وتفرض عليها هيمنتها ، وتستحوذ على لبها . وبقدر ما تسلم هذه الثقافات للثقافة السائدة وتسعى إلى تقليدها واستمداد البور والقيمة بها ، تتحول أيضاً إلى مناجم ومواد أولية تمتع منها دون خوف الثقافة المهيمنة ، يحولها إلى مصادر قوة ونمو جديدة . وتصبح هذه الثقافة الوحيدة القادرة على التمثل والتجدد ، وعلى التحول إلى منهل ثابت للقيم الإنسانية بالنسبة للثقافات الأخرى . وبقدر ما تصبح الثقافة الحضارية ثقافة عضوية - عالمية متكاملة ومتفاعلة بحيوية مع الواقع ومؤثرة فيه ، تجعل الثقافات الأخرى قومية محلية مفككة وبطيئة الحركة وعقيمة الخيال والإبداع .

إن طموح كل ثقافة صاعدة أو نازعة إلى الهيمنة العالمية هو أن لا تظهر إلا كثقافة إنسانية ، وكدين للإنسانية ، يتجاوز المجتمعات التي انجبتة والحقب التي ظهر بها . وهذا من خصائص السيطرة ذاتها ، إذ هي تطمح بالتعريف إلى أن تكون عامة وشاملة . ومتى ما نجحت الثقافة في إظهار نفسها كثقافة كونية إنسانية ، ألغت كل ما عداها من الثقافات أو جتبها وقضت عليها بالهامشية واللافاعلية . والصراع على الظهور بهذا المظهر الكوني هو الرهان الأساس للثقافة لأنه يؤكد صلاحيتها في نظر الجماعة التي تحملها والجماعات الأخرى .

ونستطيع أن نقول أن كل تبدل في العلاقات بين الثقافات القائمة في حقبة معينة يحمل في طياته تهديداً للبعض ومكاسب للبعض الآخر . وبقدر ما تنجح ثقافة في احتلال حقل العالمية تزيج الثقافات الأخرى عن مواقع تأثيرها حتى داخل حدودها القومية وتعرضها لأزمة عميقة تمس كل الوظائف الحيوية فيها : المطابقة

الذاتية أو الهوية ، وما يتعلق بها من تحديد مستقر للعلاقة مع التراث والماضي والآخر ، والإنتاج العقلي معاً ، وقد تؤدي بها تماماً .

فبقدر ما يزداد انتشار الحضارة الغربية بالمعنى الموضوعي والتقني للكلمة عبر أنماط الحياة والإنتاج العلمي والمادي ، وبقدر ما تفرض نفسها كحضارة عالمية أو كقائدة لعملية تجديد إنتاج البشرية ، تعيد تشكيل الواقع الاجتماعي والفكري لدى الشعوب الأخرى على شاكلتها . وفي هذه العملية ومن خلالها ، تجبر الثقافات القومية على التراجع والانكماش ، ثم على الفصل أو على القطيعة النهائية مع الواقع المحلي . إذ أن الواقع الجديد يتطور من خارج القيم الثقافية المحلية ، ولا يمكن للثقافة القومية إلا أن تظهر كثقافة مفوّته أو قديمة بالمقارنة مع هذا الواقع . فإذا حصل ذلك ، فقدت هذه الثقافة تدريجياً سيطرتها في المجتمع ، وظهرت أزمته في عجزها عن تلبية حاجات الجماعة ، وفي افتقادها لتكاملها ووحدة رؤيتها . وعندئذ تدخل الثقافة العالمية لسد الفراغ والحلول محلها في تحقيق الوظائف التي كانت تقوم بها .

وإذا نجحت هذه الثقافة الحضارية في استقطاب الجهود المبدعة والنشاطات الروحية أو العلمية في المجتمع الجديد ، أخذت تنافس جدياً الثقافة المحلية ، وظهرت بمظهر الثقافة الوحيدة الحية والفعالية . وهذا ما يدفع الجماعة المحلية إلى النظر بسلبية إلى ثقافتها الخاصة ، والاعتقاد بأنها خاوية وجامدة لا حياة فيها ، مفتقدة إلى كل القيم الانسانية الحية العقلية والروحية والابداعية . فكل تجاوز حضاري يؤدي إلى تقييم أكبر للثقافة المرتبطة به ، وإلى انتقاص مقابل من قيمة الثقافات التي لم تلعب دوراً ، أو لعبت دوراً ضئيلاً في هذا التجاوز الحضاري . وهذا الانتقاص هو في أصل تحلي أصحابها عنها . وهكذا يتحقق انتشار الحضارة الصاعدة خارج وطنها الأصلي ، وترتقي ثقافتها لتصبح ثقافة الشعوب الأخرى المتبناة بعد أن كانت وسيلة لغزوها وإخضاعها . عندئذ لن تستطيع هذه الشعوب أن تفكر بذاتها ولا بوضعها إلا من خلال المفاهيم التي تفرضها الثقافة السائدة :

والرؤية العامة الروحية والتاريخية التي تعممها ، فيكون وعيها لذاتها هو أولاً وعي
بغيرها ، ولا يقوم إلا به ^(١) .

ومتى ما انتشرت الحضارة المادية وعمت الثقافة المرتبطة بها أو التي تشكل
مرجعها ومستودع أسرارها ، نشأت مدنية جديدة ، أي غمطاً متشابهاً للحياة
والانتاج والتفكير والرؤية ، تتسع رقعتها باتساع قوة انتشارها . ولا تكون هذه
المدنية بالضرورة على نفس الصورة من التكامل والنجاح لكنها تعبر عن خضوع
الشعوب والمجتمعات إلى مفاهيم وقيم ونماذج واحدة سواء تحققت هذه النماذج
تحققاً كاملاً أم ناقصاً .

وليس من الضروري أن تؤدي الهيمنة الثقافية إلى إزالة الثقافات المحلية
كلية من الوجود ، بل يمكن أن يعني ذلك احتواءها واستيعابها . ومن المعروف
تاريخياً أن كل هزيمة تتكبدتها مجموعة بشرية ، تنعكس مباشرة على ايدولوجيتها أو
اعتقاداتها ، فتدفعها إلى التشكيك في صلاحية هذه الاعتقادات ونجاعة القيم
التي تنبع منها . وهذا ما عبر عنه ابن خلدون عندما قال إن المغلوب مولع دائماً
بمحاكاة الغالب والإقتداء به ، لأنه يعتقد أن انتصاره راجع إلى صحة مذهب
وعوائده ^(٢) . وليست الغلبة دائماً غلبة عسكرية . إذ من المحتمل أن لا تؤدي
هزيمة عسكرية إلى شكوك عميقة بالذات . أما إذا ترددت وتكررت ، فإنها
تكون دلالة على غلبة حضارية ليست مؤقتة ولا جزئية .

(١) لاحظ عبد الله العروي بحق أن وعي الآخر هو أساس وعي الذات في الفكر العربي . لكنه وهو
بخوض معركة سجالية ، اعتبر ذلك من المعطيات الطبيعية ، ولم يبحث عما يكمن وراءه من
استلاب عميق منها كان نموذج هذا الآخر ، مرتكز الوهي بالذات (انظر الإيديولوجية العربية
المتغيرة . بيروت ١٩٧٠) وليس هو في الواقع إلا غيبة الوعي .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، فصل في أن المغلوب مولع دائماً بالإقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته
وسائر أحواله وعوائده . والأصل في ذلك هو كما يقول ابن خلدون المغالطة الذاتية : « فالنفس تعتقد
أبدأ الكمال فمن غلبها وانفادت إليه ، إما لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط
به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنما هو لكمال الغالب . فإذا غالطت بذلك واتصل لها
حاصل اعتقاداً فاتصلت جميع مذاهب الغالب وتبطلت به . وذلك هو الاقتداء » . أول الفصل

وتشكل الحضارة الغربية والسيطرة الغربية اليوم أيضاً تحدياً مستمراً وشاملاً لكل الشعوب الأخرى ، علمياً وعسكرياً وسياسياً وتقنياً وصناعياً واجتماعياً وروحياً معاً . ومع استمرار هذه الغلبة وتوسع دائرتها وتعمق الشعور بضخامتها ، يزداد إيمان الشعوب الضعيفة بعجزها وفقير ثقافتها ، ويترسخ لديها النزوع إلى الاقتداء وتقليد الغالب في « شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده » ، وذلك لدى الخاصة والعامة معاً لا فرق في ذلك .

بل إن فقدان هذه الشعوب لثقافتها بثقافتها يتجاوز الاقتداء إلى الشك في القدرة الذاتية على تحقيق هذا الاقتداء ، ويؤدي إلى الاستسلام لفكرة القبول بحتمية التخلف التاريخي والعنف والبربرية . وكثيراً ما تتردد على ألسنة مثقفينا عبارات مثل عجز اللغة العربية عن مسايرة العلم المعاصر ، أو عجز العقل العربي وسحريته أو فقر الثقافة العربية وافتقادها للعناصر العقلانية والعلمية .

والواقع ان فقدان الثقة بالثقافة القومية ، وابتعاد الناس عنها واستلهاهم للثقافة السائدة في طلب العلوم وفي السلوك وفي المبادئ الموجهة ، بحيث يرتبط تمدن الفرد وتحضره بدرجة تمثله للقيم وأنماط السلوك الغربية ، لا صلة له بنقص مفترض في هذه الثقافة ، سواء وجد هذا النقص أم لم يوجد . فقبل حصول الغلبة لم يكن لهذا الشعور بالنقص وجود . ثم إن سعة انتشار هذه الظاهرة وشمولها كل الثقافات غير الأوروبية يدلان على أن وراء ذلك غلبة حضارية .

وأن العجز المفترض الذي تعاني منه هذه الثقافات يرجع في جوهره إلى أن المجتمعات التي كانت تستلهمها قد فقدت مكانتها العالمية وتأثيرها في تقرير مصير البشرية ، وأنها بدأت تدخل في فلك حضارة جديدة لا تملك أية وسيلة للسيطرة عليها ، وهي تستقي قيمها من ثقافة أخرى لا صلة لها بها . فالعقل لا يستطيع أن يرد إلا على متطلبات واقع يسيطر عليه ويتحكم به ويكون هو نفسه جزءاً منه . وإلا فهو بالضرورة وعي العجز وإدراك القصور . وهذا يعني أن من الذاتية يخلق الوقائع والتاريخ هو الذي يفرض القيم المرتبطة بسلطته . والغرب الذي أتاحت له حضارته أن يعيد تركيب الواقع الجغرافي والاجتماعي والتاريخي على

هواه ، بدأ يفرض ثقافته كنموذج لكل ثقافة ممكنة .

ولا نريد أن نتوسع هنا أكثر في مفهوم الهيمنة الثقافية . وإنما يكفي أن نقول أن ازدهار ونمو الثقافة الغربية وتحولها إلى ثقافة عالمية ، أي حاضنة لأهم وأغلب الابتداعات والتجديدات العلمية والروحية والفنية ، ليس هو علة نشوء الحضارة الغربية بل نتيجة لها . وبالمثل إن تراجع حضارة العرب وغيرهم من الشعوب الهندية والصينية والأفريقية ، لم يكن بسبب تأخر أو لاصلاحية ثقافتهم القومية ، بقدر ما ان تأخر هذه الثقافات وضعفها الراهن والحقيقي هو ثمرة الانكماش والعزلة التي أصابتها بسبب تدهور دورها في الحضارة وزوال الغلبة لديها . وقد كانت هذه الثقافات ، ولعصور طويلة ، منهلاً مائلاً لحضارات كبرى وأساساً لتكوين مجتمعات مدنية وسياسية لا تقل في ابتداعاتها وكشوفها الروحية أو الانسانية أو العلمية عما تشهده الثقافة الحديثة اليوم . ومثلها أيضاً كانت تصارع لتحتل مركز الثقافة العالمية ، أو ثقافة الحضارة السائدة .

وفي سعيها للاحتفاظ بهذه المكانة حاولت هذه الثقافات وما تزال تحاول استنبات قيم الثقافة الصاعدة . وإعادة انتاجها ضمن منظوماتها الرمزية . وكانت هذه المحاولة تغطي أيضاً سعي المجتمعات المهددة بالتحول إلى مجتمعات هامشية إلى استدراك الوضع والاندرج في حركة التاريخ الجديد وعدم البقاء بمعزل عن التغييرات والابتداعات الكبرى التي تشهدها الحضارة . وقد تأثرت ايديولوجيات النخب المختلفة بالنزعة العالمية التي تتماشى مع إدعاءات الثقافة المهيمنة . وقد مارست أفكار ومبادئ الثورة الفرنسية بشكل خاص تأثيراً كبيراً على الثقافات غير الاوربية ، وذلك رغم ما أنجبته من توترات ونزاعات داخل هذه الثقافات .

لكن ما يميز الهيمنة الثقافية الراهنة عن هيمنة الثقافات القديمة الكبرى التي كانت تطابق نفسها أيضاً مع الحضارة وتعتبر نفسها مصدراً وحيداً للقيم الانسانية الحقّة ، هو أن الثقافة الغربية لا تكتفي كالثقافات الكلاسيكية بالحاق ثقافات متعددة بها والسماح لها بالحياة داخل مدنية واحدة تسيطر عليها ، وتتحكم فيها بالقيم العليا . إنها تطلب بالعكس حل جميع الثقافات الأخرى واستبدالها بثقافة واحدة شكلاً ومضموناً . ومن هنا إخفاق هذه الحضارة في تكوين امبراطوريات عالمية

وتسميها للنزاعات القومية بشكل لا سابق له . فهي وإن وصفت نفسها بأنها ثقافة الحرية ، ترفض كل استقلالية للآخر ، وتتحول إلى ثقافة تشهريه لا تعترف من بين العلاقات الاجتماعية العديدة المعقولة والممكنة التي تؤسس للشخص الشري إلا بعلاقة الفرد بالدولة . ونعكس تناقضاتها تاريخ نشأتها كثقافة عالمية ومناقضة في الوقت ذاته للثقافات الأخرى . وهكذا فهي تركز بقوة على الخصوصية القومية وتؤسس للقوميات ، وتدعو معاً للاممية والعالمية . ويقدر ما نردد نمسكها بالنظرة الإنسانية تخلق وتبرر كل صنوف التمييز العنصري ، وتضاعف أشكال النفي والاستبعاد . وبهذا ترفض فكرة الامبراطورية العالمية التي بلورتها الحضارات القديمة كدولة لا قومية تتعايش فيها كل الجماعات وتخضع لمعايير إنسانية أو دينية ، فهي تقبل بحماس فكرة الامبراطورية الاستعمارية حيث لا يبقى للشعوب الخاضعة إلا الاختيار بين الفناء الكامل أو الاندماج والإنحلال في الأمة السائدة من موقع اللامساواة والدونية . وهكذا لأول مرة في التاريخ تصحح العنصرية عقيدة دولة أو دول . فمن المؤكد انه لم يكن من الممكن لنظام التفرقة العنصرية أن يستمر لو لم يكن امتداداً فكرياً ومادياً للنظام الاستعماري . فمدطق النزعة العالمية المدعومة بالقوة القومية والتماهية معها ، يمكن بسهولة أن يقود ، بمساعدة أسطورة صفاء العرق والدم وتغزو الجنس ، إلى تبرير كل أنواع العنف ضد الشعوب الأخرى . والتماهي المبالغ فيه مع التقدم والحضارة يمكن أن يبرر استملاك الأرض واستعمارها مع تفرينها من سكانها كما حصل ويحصل في أكثر من بقعة من بقاع العالم الحديث^(١).

لذلك أخذ تعميم الحضارة الحديثة شكل تعميم مشاعر الإحباط والحرمان في كل المناطق الجديدة . ويقدر ما أصبح الفصل بين الثقافة الغربية والحضارة الراهنة صعباً ، ارتبطت هذه الثقافة بالهيمنة والتسلط والعنف وأصبحت تثير ردود أفعال معادية في أكثر مناطق العالم غير الغربي . ولعل هذا مما زاد في صعوبة الربط

(١) ليس تاريخ الاستيطان الاسرائيلي في فلسطين بهذا المعنى إلا تردداً لتاريخ الاستيطان الأبيض في أمريكا وتبريراً لاحقاً له . والعلاقة إذن بين الولايات المتحدة واسرائيل تتجاوز المصالح المادية لتصل إلى مستوى الشعارات كل طرف يجد في الأمر مبرراً لنفسه وتاريخه وتأكيداً لقوله .

بين الثقافات المهمشة ، مصدر المقاومة والمعارضة منذ الآن ، والحضارة الحديثة ، وجعل الحوار مستحيلاً بين الشعوب الشمالية والجنوبية .

إن تحكم الغرب اليوم بالقسط الأعظم من التجديدات الفكرية والتقنية يزيد من قدراته على السيطرة ، ويجعل من ثقافته أكثر فأكثر مصهراً لكل الابداعات البشرية الأخرى . وتكتسب هذه الثقافة على صعيد بنيتها الرمزية والشعورية والعلمية والروحية ، طاقات تكيف متزايدة مع الواقع المتغير ، وتفتني بكل أصناف العلوم والبيان .

وبالمقابل ما من ثقافة غير اوروبية لا تستمد قوتها من التأثر بالثقافة الغربية أو محاكاتها . وقسم كبير منها يواجه عملياً خطر الانحلال ، ومعه زوال المدنية وضياح فرص التنمية المستقلة والسيطرة على البيئة الخاصة والتحكم بالذات . وما من ثقافة محلية قادرة اليوم على مواكبة الثقافة الغربية في إنتاجها العلمي والفني والأدبي . أي في تكوين العقل والمخيلة الانسانية . وما يؤكد هذا الاتجاه أن الثقافة تتحول نفسها إلى صناعة ، تتركز ومائلها في المراكز الكبرى ، التي تتجمع فيها التقنيات العليا ويتراكم فيها رأس المال . بل إن ثقافات فرعية كثيرة داخل الثقافة الغربية أصبحت مهددة بالزوال أمام صعود الثقافة الأمريكية .

أما الثقافات المحلية لبلاد الجنوب فلإنها لا تنفذ إلى ثقافة المركز ، إذا نجحت في ذلك ، إلا كاستجابات سلبية وصوراً مشوهة لنماذج طوائفية تستخدمها بعض الجماعات الهامشية لتعبر عن سلبيتها وانسحابها من العالم . فهي لا تدخل إلى الغرب إلا لتؤكد طابعها كثقافات هامشية ، مفرغة من محتواها العقلاني ، أو كبقايا ثقافية وعناصر أولية وتزينية مستوعبة في الثقافة المائدة . وهي لا تلعب أي دور هام في تنظيم الحياة الاجتماعية العامة وتجديد أسسها المعنوية والسياسية والإنتاجية ، أي في بناء الحضارة . هكذا تقوم الهيمنة الثقافية بإبعاد الثقافات المحلية عن ميادين العمل والإنتاج والممارسة العمومية المبدعة ، فتحولها إلى ثقافات عامية ، وظيفتها الأساسية تأكيد هوية مفقرة أو الإشارة إليها .

لا تنبع إذن مشاكل الثقافات التابعة اليوم كما هو شائع في أدبيات العالم

الثالث عموماً ، وفي الغرب أيضاً ، من كونها ما زالت ثقافات تقليدية تفتقد إلى النواة العقلانية وتمسك بقيم الماضي اللاهوتية والميتافيزيقية . فهذه نظرة سطحية جامدة ولا تاريخية تحذف المشكلة بدل أن تطرحها وتزيلها من الوجود لأنها تعجز عن الإجابة عنها . بل إن هذا الطابع التقليدي الذي يميزها ليس في الواقع إلا ثمرة مصادرة التطور لديها وحرمانها من مكانتها ودورها في المجتمع ، وفرض التراجع والتفوق عليها . والعلاقات الممتازة التي تربط اليوم الثقافة الغربية بالحضارة تعني بحد ذاتها التهميش المتزايد والإفقار المتسارع لهذه الثقافات. وإن تدفق المعارف والصور والرموز والمعاني والأفكار الحديثة الذي تتجه شبكات اتصال ووسائل إعلام ومعرفة واسعة الانتشار ومرتبطة بالمركز ، يشكل تحدياً من الصعب مواجهته من قبل الثقافات الصغيرة محدودة الامكانيات . وهو لا يكف عن الضغط عليها وخنقها . وليس هناك ثقافة قادرة على رد هذا التحدي ما لم تكن ثقافة جماعة كبرى لديها امكانيات إعادة انتاج الحضارة في حجرها ، والتحول إلى مركز أو قطب حضاري مستقل .

أما الطريقة التي تتحقق من خلالها الهيمنة الثقافية وحل الثقافات الأخرى المحلية ، فهي تعميق التناقضات والتراعات المستحيلة الحل في داخلها . وأول هذه التناقضات وأهمها ، تلك الناشئة بين الثقافة العليا المحلية والثقافة الشعبية ، بين الثقافة - السلطة ، والثقافة - الهوية . فالنخب المحلية الحاكمة تجعل من الثقافة الغربية والقيم المرتبطة بها مصدر التفكير والتصور الشامل والتنظيم الإداري والعمل والسياسي . واستلهاهم هذه الثقافة واستيعابها بشكل دون شك أساس التقدم ومنبعه . ولكنه يتضمن في الوقت ذاته تطور القطيعة بين ثقافتين محليتين لا صلة رمزية أو عقلية بينهما . وتفقد الثقافة القومية جدلية تفاعلها الداخلي ونموها الذاتي ، وتضطر أكثر فأكثر إلى الاعتماد على الخارج في تأمين ما تحتاجه من معارف وتقنيات ضرورية لتسيير المجتمع والدولة والانتاج .

وبقدر ما تصبح الثقافة العليا أجنبية وتحتل مجالات النشاط المبدع تندهور الثقافة الشعبية وتنحط قيمها الروحية والمعنوية . ويحل محل التفاعل الخلاق بين

الثقافة العليا ، ثقافة النخبة المنظمة والعقلانية ، والثقافة الشعبية رفض متبادل . وهكذا تتحول كلتاها إلى منظومات مغلقة تحيل إلى جماعة متميزة وتؤكد وجودها تجاه الأخرى وتغذي مشاعر العداة لها بقدر ما تخفي عجز الثقافة القومية ككل عن تأمين الحلول الملائمة والإجابات الفعالة على المشكلات التي يطرحها الواقع المتغير . أي باختصار تزول الثقافة القومية بما هي إنتاج موحد لصورة الجماعة ودورها . ولا تعود الجماعة قادرة على التعرف في هذه الثقافات الجزئية على نفسها ، ولا على تعريف الآخرين عليها . وتصبح مرجعية النخبة مختلفة كلياً عن مرجعية الجماعة الشعبية .

ففي كل البلاد النامية توحد النخبة الاجتماعية نفسها مع ايدولوجيات التغير والتقدم والتحديث المستقاة من ثقافة العصر السائدة ، وتجعل من هذه الايدولوجيات ديناً خاصاً بها ولحمة لسلطتها كمجموعة متميزة . وتبقى الجماعة الشعبية تنظر إلى هذه الايدولوجية كغطاء لتحالف عميق وتفاهم متزايد بين النخبة المحلية والهيمنة الأجنبية . ومن هنا يولد التناقض الدائم بين الرغبة العارمة في إحداث تغييرات بنوية وجذرية تتطلع إليها في الواقع كل فئات المجتمع ، وبين إرادة الحفاظ على الوحدة أو الهوية الجماعية ، كمصدر للمساواة والتضامن . وعندما يتضارب مطلب التغير ، أي المشاركة في الحضارة وتمثلها ، مع مطلب الهوية ، أو الاحتفاظ بذاتية مستقلة ، لا بد أن تفقد الجماعة كل إمكانية على الحركة والمبادرة وتغرق في النزاعات الداخلية والدائرية .

وليست الثقافة الشعبية هي الوحيدة التي تجد نفسها في هذا النزاع مفقرة ومستبعدة عن النشاط المبدع والمنتج . بل إن الثقافة العليا تضطر هي أيضاً ، وبقدر تحولها إلى مرجعية ايدولوجية للجماعة التي تحملها ، إلى توظيف نفسها في المعركة السياسية - الايدولوجية ، على حساب وظائفها العقلية والعلمية المبدعة وهذا ما يفسر بقاءها رهينة للابداع الخارجي ، وعجزها عن الاستقلال بمصادر إبداعها . إنها تتحول إلى دعوة إلى العلم والعقل والحداثة أكثر مما تصبح هي بذاتها ثقافة العلم والعقل والحداثة ^(١) .

(١) كتب محمد كرد علي منذ أكثر من ستين عاماً يقول . ها قد أصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين =

وفي الواقع ، بقدر ما يصبح علم الهيئة العالمية مرتبطاً بالاشكاليات والمسائل الخاصة التي يطرحها المجتمع السائد المركزي ، ينفصل عن الواقع المحلي ، ويفقد سيطرته عليه . ولا يبقى له إلا أن يبحث عن شرعية وجوده في مكان آخر غير الإبداع والإنتاج العلمي . وهذا المكان هو الإنتهاء إلى مجموعة أو إلى تصور ايديولوجي . ويلتقي بذلك استلاب النخبة مع استلاب الجمهور . الأول ينبع من فقدان العلاقة مع الواقع المحلي نتيجة لاستلهاام إشكاليات المجتمع السائد ومشكلاته النظرية ، والثاني من إنعدام الرؤية الشاملة والتصورات العقلية الفلسفية والتاريخية التي تسمح وحدها بالتدخل في الواقع وتغييره

هكذا يفقد المجتمع التابع استقلاله الفكري ، أي قدرته على فهم نشاطه التاريخي والتحكم به . فالثقافة التابعة ، نتيجة للشقاق العميق الذي يميزها ويباعد بين عناصرها المعرفية والاعتقادية والرمزية ، لا يمكن أن تنشيء أي وعي فعال ومبدع . إنها تعيش في الانفعال وله ، وتلهث وراء الحدث دون أن تمسك به ، وتخلط بين الجزئي والكلي دون أن تنجح في تحقيق نظرة شاملة ومتسقة ، وتفرق في الثانويات ، وتختلق المشاكل والإشكاليات التي لا أساس لها في الواقع ، وتعيش عليها . وهي الإطار الذي يتطور فيه وينمو الوعي المستلب ، أو بالأحرى الوعي كاستلاب محض : فهو وعي مكبل بإشكاليات لا تجد مصداقيتها إلا بنفي الواقع المحلي وتغييبه من الذهن ، ولذلك تبدو المفاهيم التي يستخدمها عمومية وغير محددة ، وأحكامه عشوائية ومتقلبة ، يتعامل بها من منطلق الرفض المطلق أو الخضوع المطلق ، ويحوّلها إلى ثنائيات وأحراز . فهو بكل معنى الكلمة وعي مفكك وشقي . ويظهر هذا التفكك على مستوى إنتاج المنظومة الرمزية ، وأهم عناصرها اللغة ، كما يظهر على مستوى تكوين الدلالات وإنتاج المعارف المنظمة والعلوم . ففي ثقافة متدهورة ومتراجعة ، تضعف قدرة اللغة على التعبير الدقيق وتنمية المصطلحات بصورة مواكبة لتطور المعاني والمفاهيم المستقاة من ثقافة

= علوم الدنيا والأمة شطرين : شطر هو إلى البلاءة والغباءة ، وشرط إلى الحق والفضرة . وبعبارة أخرى نسبنا القديم ولم تعلم الجديد . القديم والحديث ، الطبعة الرحمانية بمصر ١٩٢٥ ، ص

أخرى مهيمنة . كما تضعف القدرة على ضبط المعاني وتنظيم المفاهيم بقدر ما تنفصل هذه المعاني والمفاهيم عن سيرورة مستقلة وذاتية للبحث والإنتاج العلمي . فعندما يرتبط وجود هذه المفاهيم بمصدر خارجي ، وتعجز النظم اللغوية والعلمية عن استيعابها وضبطها من ذاتها ، يحصل شرح في اللغة وفي النظم العلمية ذاتها ، وتبطل فاعليتها الإبداعية . عندئذ تضطر الثقافة التابعة إلى « استيراد » المفاهيم والمصطلحات معاً ، وفي فترة لاحقة ، المعارف العلمية الجاهزة التي يعجز عن إنجابها النظام المعرفي . وهذا ما نلاحظه اليوم في ثقافتنا حيث تدخل المصطلحات الأجنبية دون ضابط ، وتثير مشكلة كبيرة في توحيدها وضبطها مما يفقد اللغة دقتها ومرونتها ويدفعها إلى التفكك والركاكة . وتبدو إجراءات التعريب قاصرة عن استيعاب هذه العملية ، وترك للصحافة اليومية الحرية الكاملة في إدخال ما تشاء من المفردات الأجنبية أو المنحوتة .

وأكثر ما يميز الثقافة التابعة ، الاستخدام الاعتيادي للمفاهيم ، وغياب الروح المنهجية والعلمية . فاستيعاب المعاني الجديدة وتوطينها لا يمكن أن يتم إلا في إطار توسيع قاعدة البحث المحلي ، ونشوء علوم وإشكاليات مستقاة من الواقع القائم ومستجيبة لما يطرحه من مشكلات . إن الثقافة التابعة تطرح على نفسها باستمرار مشكلات ليست مطروحة على المجتمع ، ولكنها مستوحاة مما تطرحه على نفسها الثقافة السائدة ، ونجيب على هذه المشكلات من أفق مماثلة الشرق والغرب ، فتظل على هامش المسألة ، ليست بالضرورة كاذبة ، وليست صادقة ولكن خارجة عن الموضوع ، وهذا هو مصدر لا فاعلية الثقافة التابعة وتخبطها ، واجترارها الدائم وخلال عقود طويلة لنفس المسائل والموضوعات ، دون قدرة على بلورة حلول أو مراكمة المكتسبات العلمية . وهذا هو أيضاً أساس غياب الإبداع والتقدم الفكري ، أي تطور الوعي الجماعي . وهو يتجاوز في الواقع مشكلة سيطرة الأيديولوجيات المادية أو المثالية ، والعقائد الوضعيّة العلمانية أو الدينية اللاهوتية . فالإبداع مرتبط بآليات عمل الثقافة ككل ، وعلاقتها بالمجتمع والبيئة التي تعيش فيها . وضعفها وتفككها ليسا في الحقيقة إلا مظهرًا لتعثر الجماعة في بناء أداة تواصلها ووسائل تفكيرها وفهمها الخاصة والمستقلة نتيجة لما أصابها من

تهميش واستبعاد عن مصادر الحضارة والغلبة .

ونستطيع القول بشكل عام ان الشعوب المخضعة تفقد ثقافتها كصعيد مؤثر وفعال في تنظيم حياتها الاجتماعية وتوازنها بقدر ما تكتسب الحضارة الاستهلاكية ، أي تستوعبها كنتاج جاهز وكامل . وتجذ المجتمعات التابعة نفسها ممزقة بين الرغبة في مسايرة هذا الاستهلاك بما يرمز إليه من مشاركة في العالمية والمعاصرة ، وبين الوقوف ضده لما يشكله من تهديد لوجود القيم الثقافية ذاتها . ومن هذا التمزق تصدر ردود الأفعال المتناقضة والعنيفة في اتجاه المعاصرة والمحافظة معاً .

ومما يعمق من شدة ردود الأفعال هذه ان الثقافة الحديثة التي كثيراً ما توصف بأنها مستوردة لا تشير إلى عالم مسيطر ومحبط تستمد منه سحرها فحسب ، وإنما تخفي أيضاً الاندماج المتزايد للنخب المحلية بهذا العالم وإعلان انتمائها له . وهكذا تبدو القيم الحديثة للأغلبية الاجتماعية وكأنها الشرك الذي ينصبه لوحدة الجماعة وانسجامها عدوً أجنبي وتاريخي غاشم . ومن هنا يكتسب التراث هو ذاته قيمة رمزية إضافية ، هي في الواقع أهم من قيمته المعرفية ، فيصبح رمزاً للوجود القومي والاجتماعي المستمر والتاريخي ، وللاستقلالية للجماعة ووحدتها ضد خطر الاستبعاد من التاريخ والتفتت القومي . وينظر إليه وكأنه اللحمية الوحيدة التي تسمح للجماعة أن تقف في وجه الأجنبي ، وللمجتمع أن يقاوم دولة الأقلية الشمولية وتجاوزاتها . ويمكن القول أن التراث يتحول في ذهن الجماعة الشعبية إلى رمز يحيل إلى الأخلاق وقيم التضامن المحلي المهددة ، بقدر ما تتحول الأنماط الثقافية الحديثة إلى سوق لقيم الترقى الاجتماعي والسيادة وبناء الطبقة المسيطرة التي تفترض جميعاً كسر اللحمية الجماعية وتفتيتها^(١) .

فباستثناء « الاستنارة » التي تحدث عنها « كوندراسيه » لتبرير التعليم ، خلق التعليم الحديث ، وخلق الحداثة نخبة من الناس « الأحرار من كل قيد » و « المنعفين من كل سلطة ومن كل عادة قديمة » ، استخدمت علمها ومعارفها

(١) إن تحول الدين إلى أيديولوجية معاصرة ، ما هو في الواقع إلا الوجه الثاني لتحول المعاصرة إلى أيديولوجية دسية ، أي أيضاً تقليدية ومحافظة بكل معنى الكلمة .

لتحقيق صعودها الاجتماعي وتميزها المتزايد عن الشعب وضمان امتيازاتها ، فأصبحت الوحيدة المألوفة للعلم والحرية والسلطة . وأصبحت القطيعة في المجتمع بين انتمائين محلي وعالمي ، قاعدة للقطيعة في الوعي ذاته ، وتكوين أمتين لا جامع بينهما سوى « عبقرية المكان » . لكل منها تصور لها لذاتها ولعلاقتها بالعالم والتاريخ والسلطة والدولة والدين ، ولكل منها مكانها في السياسة والعمل والفكر والإنتاج ، ولكل منها آمالها وطموحاتها وأحلامها وآلامها التي لا شريك لها فيها .

وقد استطاعت الحقبة الأولى للاستقلال أن تغطي على هذه القطيعة بقدر ما كانت تغذي أحلام الازدهار والتنمية والنهضة . ولكن ما إن تبين فراغ هذه الأحلام حتى ظهر الواقع على حقيقته . وأدركت الأغلبية الاجتماعية أن النظام الحديث الذي نشأ على إثر الاستقلال لم يكن شديد الاختلاف عن من سبقه ، وأن النخب الاجتماعية المحلية التي ورثت موقع ودور المعمرين البيض ، أخذت شيئاً فشيئاً تسلك مسلكهم وتترى بزيمهم . واكتشفت تدريجياً أن علاقات التبادل بين هذه النخب وبين المركز الأم أصبحت على كل الأصعدة المادية والانسانية ، أقوى من علاقات التبادل بين أبناء البلد الواحد . ولما بدأت التناقضات التي كانت تنخر هذا النظام الحديث بالتفاقم ثبتت إجراءات القمع العنيفة واللاإنسانية في أذهان الشعب حقيقة هذه القطيعة وعمقها . وأمام واقع احتلال الأطر الاجتماعية الحديثة من دولة وحزب وجيش من قبل النخبة وسيطرتها المطلقة عليها ، وجدت الجماعة الشعبية ، وهي تتلمس طريقها ، وتبحث عن موطئ قدم لها في مقاومتها للعنف ، أو بالأحرى اكتشفت وأعادت اكتشاف الهياكل المجتمعية التقليدية المهجورة أو الخالية من اختراق السلطة ، فجعلتها مكن أسرارها وقاعدة استقلالها ومصدر تجديدها لوحدتها وحياتها . ولم تكن هذه الأطر كلها دينية ولا قبلية ، ولا جهوية فقط ، بل جميعها معاً . ولو حصل واخترقت السلطة أحدها ثانية ، هُجر لصالح غيره . هكذا أصبحت الأطر التقليدية مصدر الشفاعة ومقر المشاعر الجماعية والانسانية التي تنفيها الدولة والسياسة السوقية .

وفي الواقع لم تستأ النخب الحديثة كثيراً من هذا التقسيم الثقافي والسياسي.

للعمل . فعدا عن أنه يعترف لها بالسيادة على الدولة والأجهزة العامة الأكثر تأثيراً وفعالية من وجهة نظر النشاط الاجتماعي المادي والفكري ومن وجهة نظر النظام الدولي ، فهو يؤكد لها في الوقت ذاته ، أمام نفسها وأمام العالم المتحضر ، انها تخوض حرب الحضارة ضد البربرية ، وحرب العقل العقلاني ضد « عودة المكبوت » المخيف والمدمر^(١) .

وهكذا لم يعد الرأي العام « المتحضر » في الجنوب والشمال معاً ، يرى في الانتفاضات المفرقة بالدم للجماهير المدممة المدفوعة نحو الانتحار المادي والمعنوي إلا مرآة للتنعصب وانبعاثاً لأشباح القرون الوسطى الرهيبة . وتسود اليوم قناعة متزايدة في الغرب والشرق بأنه ليس هناك من حل لمشاكل العالم الثالث . وأن على الشعوب المتحضرة أن تتعلم التعايش مع هذا العالم الثالث المنذور لكل أعمال العنف والبؤس كما هو .

(١) انظر مثلاً كتاب د . محمد عابد الجابري : تكوين العقل العربي ، والذي يسمى فيه ، بعكسنا ، إلى تفسير أزمة « العقل » العربي من خلال تحليل الملابس التي أحاطت بالقرن الهجري الثاني ، أو عصر التدوين ، وصيغته بطابع الدفاع عن النفس ضد الشعوبية ، ومن خلال تحليل « بنية العقل العربي » كماهية ثابتة ودائمة . انظر الى الانتقادات النيرة التي ظهرت في مجلة الوحدة . ١٤ عام ١٩٨٤ « مساءلات حول تكوين العقل العربي » لجورج طرابيشي ، وفي مجلة أنوال ٢٨ فبراير ١٩٨٥ « نقد العقل لم عقلانية النقد » لعبد السلام المودن .

نقد السلفية : من الهوية الى الذاتية

ما ذكرناه عن الثقافة والأبعاد التي تتضمنها المسألة الثقافية لا يهدف في الواقع إلى تحليل الثقافة نفسها ، وإنما يفيدنا في تحديد المشكلة الأساسية التي نحن بصدد حلها اليوم . هل هي مشكلة ايديولوجية يعبر عنها الصراع بين الأفكار المحافظة والأفكار التقدمية ، أم هي مشكلة الازدواجية في الثقافة العربية ^(١) ، أم مشكلة تحديث الفكر العربي أو تجديد العقل العربي ؟ أم هي مشكلة اجتماعية تلعب فيها الثقافة دوراً معيناً سلبياً أم إيجابياً ، وتدعم هذا الفريق الاجتماعي أم ذاك ؟ أم هي مسألة اقتصادية تتظاهر من خلال الصراع بين قيم متجذرة أو محبذة للنتاج وقيم استهلاكية ؟ أم هي مشكلة سياسية تتجسد في التزاغ بين الثقافة الغربية والثقافة العربية وتهدف إلى تحقيق التبعية أو صد الغزو الفكري والثقافي وتدخل فيها مشاكل الهوية والعالية ، وغير ذلك من المشكلات المطروحة بشدة اليوم ؟

لا شك أن كل هذه المسائل واردة في الصراع بين القديم والحديث . ولكنها ليست هي المسألة الرئيسية ، بل هي وجوه متعددة لها . وهذه المسألة هي في نظرنا مسألة المدنية . ونقصد بالمدنية ما يطرأ على العلاقات الاجتماعية داخل مجتمع محدد من تطور ينقلها من علاقات مبنية أساساً على القهر والعنف والقوة إلى علاقات قائمة على استلها مبادئ وقيم وقواعد إنسانية مشتركة وجميع عليها . وهذا أصل الاستقرار الاجتماعي وازدهار الحضارة .

(١) سمير أمين ، أصول الازدواجية في الثقافة المصرية . . . ، للسبيل العربي ٧٢٤ ، آذار ١٩٨٥

فإذا كانت الحضارة هي النمو المطرد في المنظومات المادية والعقلية والروحية التي تنقل المجتمع من البدائية إلى التحضر ، وتجعله يتجاوز ، كما ذكر ابن خلدون انتاج الحاجيات إلى الكماليات ، أو تطوير نوعية إرضاء الحاجات ، فإن المدنية هي المبادئ التي تقوم عليها هذه المنظومات أو التي تشكل نواتها الأولى . وإذا كانت الحضارة مرتبطة أساساً بتنظيم علاقة الإنسان بالطبيعة ودرجة سيطرته عليها وأنماط إنتاجه المادي والروحي فالمدنية هي التي ترتبط بتنظيم علاقات الانسان الاجتماعية أو في المجتمع ، وبدرجة تحول هذه العلاقات إلى علاقات مبنية على التواصل والتبادل السلمي لا على العنف والاكراه ، وعكسها البربرية .

فالحضارة مستمرة وعالية كما قلنا ، وهي اليوم حضارة صناعية وتقنية بعد أن كانت حضارة زراعية أو من قبل رعوية أو صيدية . وكل الشعوب ، بغض النظر عن ثقافتها مندرجة أو سائرة نحو الإندراج في دائرة هذه الحضارة . وكلها مضطرة إذا أرادت البقاء ، إلى تبني أنماط الإنتاج والعمل الصناعية .

أما المدنية فهي ليست مرتبطة مباشرة بالحضارة . إذ من الممكن لمجتمع أن يستوعب أو يحدث بنيات عمله وتفكيره ، وهو ما نشاهده اليوم في كل أصقاع المعمورة ، دون أن يكون مجتمعاً مدنياً أي متمدناً . بل يمكن لهذا التحديث أن يكون هو ذاته سبب انهيار المدنية كما سوف نرى ، ومصدراً لنشوء بربرية اجتماعية جديدة .

ذلك أن الحضارة تنتقل وتعمم انطلاقاً من مراكز متغيرة دائماً ، أما المدنية فهي ثمرة تطور تاريخي طويل ترسخ فيه القيم الاجتماعية وتبلور فيه التوازنات الروحية والمادية ، وتستقر فيه الأوضاع الاجتماعية . والمدنية تتجاوز إذن الحضارة وتفيض عنها . أي أن الحضارة يمكن أن تتطور بمعزل عن المدنية . وهي لا تخلقها بالضرورة .

فالمدنية ثمرة الثقافة ، ولكنها ليست نتيجة تلقائية لها . ولا تنجح كل الثقافات في إرساء مدنية ثابتة ومستقرة . ولكنها ، بقدر ما تنجح في أن تكون ثقافة حضارة ، أو منشئة لحضارة ، تؤسس نفسها كثقافة المدنية ، وتفتح إمكانية

مصالحة المجتمع مع نفسه ومع عصره . فللمدينة بعد ذاتي هو الثقافة الراسخة والمستمرة المعبرة عن هوية الجماعة ، أي عن مطابقة صورتها لنفسها مع واقعها ، وبعد موضوعي هو مسايرة نظم الجماعة القائمة مع نظم الحضارة المجسدة للتاريخية وللراهنية . فهي إذن نتيجة التفاعل والتطابق بين الثقافة المحلية والحضارة العالمية ، بين الهوية الذاتية والمعاصرة الموضوعية . فكلما حصل تباعد بين الثقافة المحلية والحضارة العالمية تحللت المدينة حتى لو بقيت الثقافة ونجح المجتمع في استيعاب بعض النظم الحضارية .

ومن خصائص المجتمعات التي فقدت مدنيتهما أن تتفاوت فيها الثقافة مع الحضارة ، وأن يتعارض فيها مطلب الهوية أو الذاتية مع مطلب المعاصرة أو الحداثة . أي أن تعجز عن التوفيق بين قيم الثقافة المحلية وقيم الحضارة الصاعدة .

وهذا هو في الواقع أصل النزاع بين رؤيتين متعارضتين شهدتهما العالم غير الغربي بعد صعود الحضارة الأوروبية ، أو بالأحرى بعد تحول الغرب إلى مركز جديد للحضارة . تعتقد الرؤية الأولى أن العودة إلى الأصول الثقافية المحلية وإحياءها هو المصدر الوحيد الممكن لإحداث مطابقة جديدة بين الثقافة المحلية وبين الحضارة . وتعتقد الرؤية الثانية أن تبني قيم الحضارة السائدة واستيعاب ثقافتها هو المصدر الأساسي لثل هذه المطابقة المطلوبة ، وأساس إحياء المدينة المهددة .

في الواقع ، إن أهم ما أدى إليه تحول الغرب إلى مركز للحضارة ، وما أدى إليه بالتالي نشوء الحضارة الصناعية ، هو إحداث نوعين من القطيعة في حياة الشعوب الأخرى : قطيعة مع الماضي أي مع الثقافة المحلية وقيمها ، ومنه نشأت مشكلة الهوية والذاتية ، وقطيعة ثانية مع الحاضر ، أي مع الحضارة . وتتجسد القطيعة الأولى في محو الشخصية المحلية وزرع البلبلة والتناقض في رؤية الجماعة لنفسها واستمرارية وجودها . وتتجسد الثانية في تهميش الجماعة بالنسبة للعصر وتحويلها إلى مناطق ثانوية لا قدرة لها على التحكم بمصيرها المادي أو السياسي أو الإنساني .

وتلتقي الحركتان في الحقيقة في مسألة واحدة هي نزع هذه الجماعات من التاريخ . وإبطالها وافقادهما راهنتها ، أي جعلها جماعات لا تاريخية ، بمعنى القدامة والبعد عن معطيات العصر ، وبمعنى انعدام الفاعلية أيضاً في هذا العصر .

هذا الانتزاع المتواصل من التاريخ ، الذي هو جوهر عملية الصعود الغربي وفرض الهيمنة العالمية الجديدة ، ما زال حتى اليوم مصدر الانحلال الدائم للإطر الاجتماعية في هذه المجتمعات، وسبب الأزمة العميقة التي تعيشها على جميع المستويات . ونتيجته الطبيعية هي دفعها إلى البربرية بسبب ما يشره لديها من شك متزايد في صلاحية نظمها ومصادقية وجودها . وذلك ما لم تنجح هذه المجتمعات في امتصاص صدمة الحضارة ، واستيعابها والتحكم بها .

فالبربرية لا تختلف عن المدنية في نوعية القيم والمفاهيم والنظم الإنتاجية التي تسود فيها . ولا في درجة تطور القوى المنتجة والتكنولوجية . فهذه النظم الإنتاجية والفكرية والدينية كانت واحدة تقريباً في القرون الوسطى في الشرق وفي الغرب رغم أن هذه القرون قد سميت بعصور الظلام في أوروبا وعصور النور في الشرق . بل لقد كانت بعض النظم التقنية أكثر تطوراً في الغرب الاقطاعي مما هي عليه في الشرق . وكانت المفاهيم الدينية والفلسفية والعلمية كما كانت أنماط الانتاج من طبيعة واحدة . ويقال الأمر نفسه اليوم عن طبيعة النظم المادية والفكرية السائدة هنا وهناك . ومع ذلك فإن ما ينتج عنها في الغرب وما ينتج عنها في الشرق من منتجات وإبداعات وسلوك ومشاعر وتصورات وعلاقات اجتماعية وأفكار ، لا رابط بينها أبداً . فهنا الحرية الفردية والديمقراطية وحقوق الإنسان والتنمية المنتجة والمطرودة والإبداع الروحي والفني ، وهنا العنف والارهاب والقتل الجماعي واحتقار الإنسان والاستهتار بحياته وكرامته والمجاعة والفاقة والتبذير والصراع العنيف بين الطبقات والفئات والعشائر والطوائف والمحلات . أي هنا المدنية وهنا البربرية .

إن الفرق بين هذا وذاك يكمن في أن المجتمع المتمدن يستمد قوته من وجود

مقاييس أي قيم اجتماعية وقواعد وأعراف راسخة ومشاركة يؤمن بها ويدافع عنها ويتعلق بها ويجعلها معياراً لسلوكه وتفكيره . وأن هذه القيم والقواعد الثابتة التي وصل إليها بالخبرة التاريخية ، ودفع ثمنها ضحايا وصراعات لا حد لها ، مغروزة معاً في الواقع الموضوعي والممارسة وفي العقل وفي العقيدة وفي الخيال والشعور . وأنها أصبحت رديفاً للعدل ، أي لاحترام كل طرف حقوق الطرف الآخر ، والخضوع للحق . وهي لم تصبح كذلك إلا لأنها أظهرت فاعليتها في تمكين المجتمع من السيطرة على الحضارة المادية والتحكم بالبيئة المحيطة وبالواقع ، ومن أن يكون في التاريخ وفاعلاً فيه . ولم تستطع أن تكون كل ذلك إلا لأنها كانت في أصل هذه الحضارة وملهمتها ، ولأن الثقافة التي تستند إليها ما زالت ثقافة عضوية فاعلة وقادرة على استيعاب الواقع والرد عليه وإيجاد الحلول الملائمة لما يطرحه عليها ، ولما يتفجر عنه في كل يوم تاريخ الحضارة . فإذا حصل وأخفقت هذه الثقافة في التفاعل مع الواقع والتاريخ ، والرد عليهما ، حكمت على المدنية التي أنشأتها بالفناء .

بالمقابل يعيش المجتمع البربري بدون مقاييس ، أي بدون قواعد معقولة ومنظمة ومقبولة عموماً ، سواء أكانت مقاييس روحية أو عقلية أو مادية . ومقاييسه الوحيد هو القوة المجردة ، أي البطش ، الذي ينظم في الأسرة والمدرسة والدولة والمجتمع علاقات الأفراد والجماعات فيما بينهم . وتحركه غريزة التسلط أو الخوف أو العدوان بديلاً للمباراة في الإبداع والإنجاز والمواهب العقلية . وتتحكم به ، نفسياً وواقعياً ، قوى لا يستطيع ولا يعرف السيطرة عليها ، فيخرجها في صورة مؤامرات فردية أو عشائرية أو طائفية أو سياسية .

باختصار ، إن ما يميز المجتمع البربري ليس فقدانه لتراث ثقافي ، ولا للدين ولا للعلم ولا لوسائل الانتاج ، وإنما تحلل هذه النظم وتفككها وفقدانها لمصادقيتها الجماعية وفاعليتها وتحولها بالضبط إلى أشياء ، إلى موضوعات تستخدم هي نفسها كأدوات ووسائل في تجديد النزاع والعنف وتعميقهما . فلا يفتقد العرب اليوم مثلاً إلى القيم والمبادئ والمصادر الفكرية والمادية والروحية ، القديمة أو

الحديثة . بل يمكن القول أنهم لم يكونوا في أية حقبة أخرى من تاريخهم أعلم بتراثهم العربي والإسلامي . وأكثر انفتاحاً على تراث الغرب والشرق بما هم عليه الآن . ولم يكونوا أقدر على فهم تعاليم دينهم ولا أعلم بمشكلات عصرهم ، ولا أوفر في وسائل عيشهم من الآن . لكن بربريتهم ناشئة من انعدام المقاييس ، ولا فاعلية القيم والمبادئ التي تعطي لسلوك الناس وتفكيرهم وجهة واضحة وأهدافاً مقبولة وفرواعداً منطقيين ومحترمة ، وإجماعاً متجانساً .

هكذا ليس خطاب الهوية إلا دليلاً على القطيعة المستمرة في التاريخ الذاتي ، وليس خطاب الحداثة أيضاً إلا دليلاً على القطيعة الدائمة في التاريخ الموضوعي . وهما يشكلان مظهرين واحداً لفصام الوعي ، بأكثر مما يقدمان حلاً للهوية أو للحداثة . فالأصوليون يرون الحضارة كامة بالقوة في الثقافة المحلية أو في التراث ولا تحتاج إلا إلى فرصة لظهورها . والمحدثون يرون المدنية كامة في الحضارة ذاتها ، ويكفي استيرادها أو توطينها حتى تتحقق العودة إلى التاريخ وإلى الفاعلية .

ونستطيع أن نقول أن هناك قانوناً أساسياً يحكم هذه القطيعة بين التراث والحضارة ، ومضمونه أنه كلما زادت قوة الحداثة وآثارها زادت قوة الدفع المعاكسة نحو التأصيل والوصل مع التراث . وذلك بقدر ما أن المشاركة في الحضارة تبقى استهلاكية وتعني تفكيك الثقافة المحلية ، وإن العودة إلى الأصول تعني القطيعة عن الابتداعات والتجديدات التاريخية . لذلك تزداد مطالب الهوية أكثر مع تقدم التحديث وقصور الثقافة المحلية عن التحكم فعلياً بسلوك الناس والتأثير على أفكارهم .

وتتصاعد مطالب الحداثة مع تقدم التحديث وما يحمله من تفتيت للعلاقات المدنية .

وهكذا فإن الصراع ، بعد أن يكون صراعاً بين القديم والحديث والماضي والحاضر ، والذات والموضوع والحضارة والتراث ، يتحول إلى صراع داخل الوعي الجمعي ذاته . ومن الرغبة في الخروج من هذا الصراع وعدم القدرة عليه

ينبع موقفان أساسيان : رفض الذات وإنكار الآخر . وأصلهما توحيد الذات مع الماصي والقدامة واللافاعلية وتوحيد الآخر مع الحضارة والعدوان والمدنية .

.....

من كل ذلك نستطيع أن نبلور عدة نتائج أساسية :

١ - أن الحضارة ، أو التطلع إلى تقليد الغرب ، ليست . كما يقول الترائيون . والنظرية الأصولية ، ثمرة للغزو المادي أو الفكري الغربي ، أو لتامر بعض المثقفين المحليين مع الأجنبي ، إنما هي النتيجة المباشرة لفقدان الثقافة العربية تدريجياً تحكمها بالواقع وبسلوك الناس والجماعات وأفعالهم ، وذلك بقدر ما أصبح هذا الواقع يحد من قبل ثقافة أخرى ، هي ثقافة الحضارة التي تخلقه .

والشعور المتزايد لدى شعوب العالم الثالث بفقدان ثقافتها القومية للقيم الحية والابحائية ليس هو إلا نتيجة لما حصل للحضارات السابقة من تدهور ، وما أصاب ثقافتهم من حرمان من السلطة المرجعية والمصادقية ، حتى فقدت قيمتها التاريخية ، ولم يعد بينها وبين الواقع الجديد صلة كبيرة ، وهو ما يمكن أن نسميه بالتفويت الثقافي أو بالانتقاص الثقافي الناجم عن التبدل أو التجاوز الحضاري .

ومن الطبيعي أن تظهر هذه الثقافة عندئذ في ذهن حاملها من الشعوب المتفجرة ، كسبب من أسباب هذا التفقر ورمز له .

فنبات التفوق المادي العسكري والإنتاجي والتكنولوجي لجماعة ما ، يجر معه لا محالة ويؤكد شرعية ثقافة هذه الجماعة التي حضته .

٢ - إن نزوع الجماعات التي بقيت بمعزل عن التجديدات الحضارية الكبرى لفترة ما ، إلى مطابقة نماذج حياتها المادية والروحية ، مع النموذج الحضاري السائد ، هو نزوع أساسي وجوهري تبرره رغبته في البقاء على مستوى الحضارة والاندراج في التاريخ والحفاظ على المدنية . وهو في الواقع في أصل التقدم وانتشار الابداعات الحضارية من منطقة إلى أخرى .

وليس لهذا النزوع كما يعتقد الأصوليون علاقة مباشرة أي حتمية بالتدخل العسكري أو الإستعماري الأجنبي . بل ربما كان أقوى عند الشعوب المغلوبة إذا لم يحصل هذا التدخل . والتجربة العربية غنيّة في هذا المجال ، إذ أن مظاهر الحداثة والتحديث الأساسية قد حصلت جميعاً بعد الاستقلال ، وكان التحديث والنهضة والتقدم على طريق الصناعة والحضارة الراهنة ، من المبررات الشرعية الأساسية للمقاومة الاستقلالية ولطرد الحكم الأجنبي المتهم بتشجيع المحافظة والركود والتخلف .

فالنزوع إلى مجارة الحضارة هو نزوع حتمي يفسره شعور الشعوب الضعيفة بخطر تهيمشها التاريخي ، ويعمقه إيمانها المتزايد بمعجز ثقافتها عن إدراك واستيعاب ما يجري من حولها . ولعل خطأ التيار التراثي الرئيسي يكمن في التهرب من الاعتراف بهذه الحقيقة الكاوية ، ومحاولة إخفائها بإطلاق الاتهامات التي يمكن أن تكون صحيحة ذاتياً عن تعامل أصحاب الحداثة وضلووعهم في « الغزو الفكري » الغربي ، لكن التي لا معنى لها على الإطلاق من وجهة نظر التحليل التاريخي .

فأصل المشكلة ليس تأمر المثقفين أو بعضهم على ثقافة المجتمع أو نموذج حياته المادية والفكرية ، بل هو إزاحة هذه النماذج إزاحة موضوعية إلى الهامش ، وخارج القطاعات الحيّة في الممارسة الاجتماعية من قبل الثقافة الصاعدة . هذا ما يحصل عملياً على صعيد التعليم والصناعة والتربية والسياسة . بل إن إفراط بعض المثقفين المحليين في نقد ثقافتهم ، وتجرّيع ذاتهم ، ليس هو نفسه إلا مظهراً من مظاهر تحلل هذه الثقافة من قوة تأثيرها المعنوية وتهيمشها عن قطاعات الابداع الفكري الأساسية ، وتحولها في الكثير من الأحيان إلى إحالة للماضي وحجاباً لعدم رؤية الحاضر .

بل إن المؤمنين بها أنفسهم من التراثيين غالباً ما تتناقض أقوالهم التي يملّونها عليهم التزامهم الايديولوجي وإيمانهم مع أفعالهم التي يندفعون فيها وراء تلبية رغباتهم ومطامعهم ونزوعاتهم الفعلية إلى مجارة الحضارة والمشاركة

فيها، وهم كثيراً ما يعيشون لذلك في ازدواجية حقيقية رغم موقفهم المعادي للحديث .

وليس من المؤكد أنه كان من الممكن المحافظة على التراث العربي المادي والروحي بدون الاستفادة من منجزات ومعطيات الحضارة الحديثة . وأغلب الظن أن تراث الشرق كان سيفنى لو لم يحصل تجدد الحضارة خارج الشرق ، وتوفيرها للامكانيات اللازمة لصيانتها .

٣- إن الاستمرار في المباهاة بقوة الثقافة العربية القديمة وعظمتها ، وعدم الاعتراف بالأزمة الحقيقية والعميقة التي تمر بها ، لا يعني النجاح في تأكيد موقعها وتثبيت أقدامها أمام الغزو الفكري الأجنبي . بل هو الطريق الرئيسي لتوسيع مجال هذا الغزو والتمكين له . فهو يشكل تجاهلاً للدوافع العميقة نحو الحضارة ، ومطابقة آلية بين الحضارة والاستلاب .

ومن الخطأ الاعتقاد بأن الانكفاء على الذات ومنع التبادل الثقافي بالقوة من أجل صيانة الثقافة القومية يمكن أن يحل المشكلة أي ان يعرض عن الرغبة في الاندماج في الحضارة ويخلق إرادة تكوين حضارة جديدة . فهذا خطأ ، لأن الحضارة واحدة وعالمية ، بينها الثقافات كثيرة وقومية ، لذلك يطرح صعود ثقافة أو تحولها إلى ثقافة الحضارة مشاكل كبيرة ومعقدة على الثقافات الأخرى إذا أخفقت في حلها قضي عليها لا محالة . فهو يشكل إعادة تركيب لوحدة الواقع الحضاري انطلاقاً من مركز جديد ، ويفرض على الثقافات الأخرى التي يهملها أن تقوم بعملية مراجعة عميقة وذاتية لبنياتها وطرق تعاملها مع الواقع وأشكال وأساليب استجاباتها . والمشكلة ، أو جوهر المشكلة المطروحة ، والتي يتوقف على حلها في نظرنا بقاء الثقافة المحلية هي التالية :

هل تنجح هذه الثقافة في السيطرة على الحضارة واستيعاب نظمها الجديدة مع الاحتفاظ بوحدتها ، وقدرتها على استخدام هذه النظم وتوظيفها لتحقيق غاياتها الأساسية أي تحقيق الأهداف الكبرى للجماعة ، أم أنها تنهار وتفترق نتيجة لدخول هذه المنظومات الجديدة ، وتفقد توازنها ، وتكف عن القيام بوظائفها التطابقية (الهوية) والابداعية ؟

٤ - لكن القول أو الاعتراف بضعف الثقافة وتقهرها لا يعني أن المشكلة نابعة من نقص فطري كامن ، أو من ضعف في القيم الروحية والعقلية والإنسانية التي تحملها هذه الثقافة ، وهو ما يميل أصحاب الثقافة المهمشة إلى الأخذ به عادة . فليس العمار العربي الإسلامي مثلاً أقل جمالاً أو ملاءمة للبيئة المحلية من علب الصفيح والأبنية الكرتونية لأن أصحابه هجروه . وليس طراز اللباس ولا القيم الفنية والذوقية والأدبية المجسدة في أنماط حياة العرب والهنود والصينيين وآدابهم ، أقل قيمة أو جمالاً من الأنماط العصرية السائدة . ولا شك أن العرب وغيرهم سوف يشعرون في المستقبل بندم كبير لتخليهم عن قيمهم الفنية والجمالية والروحية بعد أن تكون قد اندثرت تماماً ، واستوعبها الغرب كمصادر تموين واستلهم لتجديدات قادمة وأعاد تصديرها لهم .

لكن الجمالية والقيم الثقافية والروحية جميعها خاضعة لقانون الغلبة هذا . فما أثبت تفوقاً جذب إليه القيمة والأنظار ، وأضفى على كل ما يتعلق به قيمة إضافية وجاذبية أيضاً .

إن الاعتراف بأزمة الثقافة هو الشرط الأول من أجل فهمها ومعالجتها . فطالما بقيت الثقافة القومية حية ، أي فعالة ومؤثرة في المجتمع ومتحركة بسلوك الناس وملهمة للمبلديء والمثل التي تستقر بسببها نظمهم ومؤسستهم ، لا تكون هناك مشكلة ، ولا تظهر مسألة الاستلاب ولا مسألة الهوية . لكن مع تواتر تراجع الثقافة المحلية أو استبعادها من ميدان الفعالية وفك ارتباطها بالواقع الحاضر ، تفقد أسباب غمورها وتطورها ، وتتحول في ذهن أصحابها أنفسهم إلى تراث . والتراث يعني شيئاً ناجزاً ومتهاً ومتشياً ومن الماضي ، سواء كان ذلك الشيء مجموعة من المؤلفات أو من القيم والتصورات التي ما زالت حاضرة جزئياً في حياة الناس وسلوكهم . وليس من قبيل الصدفة كما قلنا ، أننا أصبحنا نتحدث ، نحن أيضاً ، وبشكل لا سابق له ، عن التراث ونقصد به ثقافتنا العربية عامة .

- إن الميل إلى الحداثة والتحديث لا ينبع إذن من ذلك الثقافة المحلية أو هجر

التراث أو علم إحيائه ، ولا من التخلي عن الهوية . بل إن تحويل الثقافة المحلية ، وإذن أيضاً الهوية التي هي ثمرتها ، إلى تراث هو مصدر تقاوم الميل إلى الحداثة ، وزيادة التطلع إلى الاندراج في الثقافة العالمية الصاعدة كمنبع للقيم الفعلية وإطار لتحقيق إنسانية الإنسان .

ومن هنا خطر تعليق الهوية بالتراث أو إظهارها كدليف للعودة إلى التقاليد والتشبث بها . وهو ما يقع فيه الترائيون عادة ، وما لا يمكن أن يشكل في أية حال طريقاً فعالاً لحل مشكلة الاستلاب واسترجاع الذاتية .

إن النظر إلى التراث كمصدر للاحتفاظ بالهوية ، ما هو في الواقع إلا حلاً شكلياً ، هروياً لمسألة الذاتية . ولا بد أن ندرك أن الحفاظ على الهوية ، هو أكثر من استرجاع الماضي ، وإنه وإن اضطر إلى الانكفاء على التراث ، لا يتحقق إلا بتأكيد الفعالية الذاتية وقيمة الأنا الجمعية . وهذا أمر لا يتوفر إلا بقدر ما تنجح الذات في أن تكون مشاركة إيجابياً في الحضارة القائمة ومبدعة فيها .

وبعكس ما يتصوره الترائيون يزداد الشعور بأهمية التراث ، وتزداد العودة إليه ودراسة وتدقيقه وإحيائه مع ازدياد الشعور بالذاتية الفاعلة والثقة بها وتوطد قدمها في الحضارة ولا يتنافى مع الإبداعية ومع التجديد . بل إن الثقافة الغربية الحديثة ، بقدر مشاركتها الفعالة في الحضارة ، هي أكثر من كل الثقافات الأخرى ارتباطاً بالتراث وإحياء وتمثلاً موضوعياً وخلاقاً له ، وليس في حجبها من يطرح مسألة التراث والمعاصرة (١) .

إن الصراع والتناقض بين الذاتية والعالمية بين الأنا والآخر ، وبين الحديث والقديم لا يتغلق إلا بقدر ما يزداد التطابق بين الهوية والماضوية من

(١) في الواقع ليس ما تقوم به من إحياء التراث في شيء ، إنه استغلال للتراث واستخدام له لوظيف لبعض جرائه في معاركنا الإيديولوجية والسياسية نتيجة هي قتل التراث وتخريبه . لذلك لم يصبح البحث في التراث معنا إغناء للذات ، بل نكأ لها وتخريباً وتشويهاً . ولا يصبح التراث حياً إلا عندما يصبح فيه وتخبر معناه فلية في قلبها .

جهة ، وبين الحضارة والأجنبية من جهة ثانية .

عندئذ لا تعود المشكلة هي : كيف نحمي أنفسنا من الثقافة الأجنبية ، إنما كيف نستوعب الحضارة من أفق ثقافتنا وانطلاقاً من أطرها ومنطلقاتها الذاتية . أي كيف نعزل الحضارة العالمية عن مسبقاتها المرجعية الخاصة بالمنطقة التي دفعتها في مرحلتها الأخيرة ، وكيف نتمثلها في أطر ثقافتنا الذاتية ^(١) . أي كيف نصبح نحن مركز حضارة .

وعملية الفصل بين الثقافة الغربية والحضارة ليست عملية سهلة ، ولا سريعة . فهي تفرض الإبداع ، أي التفوق الحضاري واستعادة زمام المبادرة التاريخية ، والشغل المستمر على الذات حتى تنجح في التغلب على تناقضاتها الداخلية وفي السيطرة على بيئتها الخارجية . وعندما نتحدث عن الذات فنحن نقصد الثقافة ، إذ لا ذات جماعية خارج الثقافة .

وليس سبب الاستلاب وفقدان الهوية إلا أن تمثل الحضارة يترافق هنا بانحيار الثقافة المحلية ، أي القيم المشتركة والفاعلة والتاريخية والمتسقة التي تستطيع أن تقدم للجماعة مبادئ تلهمها في عملها وقواعد تضبط سلوك أفرادها ونشاطاتهم .

فمن السهل استيراد الآلات والأجهزة والمنتجات المادية وغير المادية ، لكن ليس من السهل ولا من الممكن استيراد الفاعلية الثقافية . لأن الثقافة هي التعبير الأساسي عن وجود الجماعة كجماعة موحدة والشرط الرئيسي لتحقيق استمراريتها وتميزها وتاريخيتها ، أي لإعطائها ذاتية مستقلة . ولا تستطيع أمة أن تتمتع بإرادة ذاتية ، وقوة معنوية ، ورؤية نظرية وقاعدة معيارية فعالة إلا بقدر ما تنجح في تأسيس مرجعية ثابتة عميقة الجذور مرتبطة بتاريخها أو بتجربتها التاريخية . ولا تستطيع جماعة أن تبني نشاطها أو تؤسس

(١) يقول عبد القادر المغربي ملخصاً إشكالية المصلحين الإسلاميين والسلفية الأولى « إذا لم تنته بان دينا يؤاخي المادية ، ويلتم المصالح الشرية ، كنا ميثين إليه وإلى أنفسنا ، فتلاشى قومينا وسهارة بناء عزما » الإصلاح الإسلامي ، القاهرة ١٩٠٩ . ص ١٤ .

وجودها على مرجعية خارجية مستمدة من تاريخ آخر ومستقاة من ثقافة أخرى . أي لا تستطيع أن تجعل من رمز استبعادها وتهميشها مرجعاً لنهضتها الجديدة وتغلبها .

وإن السعي إلى ربط الحضارة أو المكتسبات الحضارية العالمية بالثقافة المحلية ، أي استملاكها من جديد وإخضاعها لمتطلبات تحقيق الذاتية وتأكيداتها ، ناجم من النزوع الانساني الدائم والمشروع عند كل جماعة إلى حفظ مدنيّتها . والمدنية تعني كما ذكرنا إمكانية خضوع النشاطات البشرية في إطار مجتمع محدد إلى معايير ومقاييس ثابتة ومشتركة ومقبولة .

٦ - والنتيجة الأخيرة ، أن هناك صراعاً دائماً داخل كل جماعة بين النزوع إلى الحداثة ، بما تعنيه من مطابقة كاملة بين بنياتها الخاصة وبنيات المجتمعات المركزية المبدعة في الحضارة ، وبالتالي من رغبة في التماهي معها . وبين النزوع إلى المدنية بما تتطلبه من الاحتفاظ بالذاتية وتطوير للثقافة المحلية وتمايز في الهوية .

وليس لمقاومة الحداثة في المجتمعات التابعة من مصدر سوى الخوف مما يحمله التحديث من تهديد لكيانها وخطر على ثقافتها الحاضنة لبذور المدنية فيها . وما المهدف من هذه المقاومة إلا التعلق بالحضارة والحرص على توفير شروط توطئتها وازدهارها . إنها بالأساس مقاومة للتقليد الأعمى والاقتداء المدمر للذاتية . فالأقتداء هو مصدر الخضوع للآخر والاعتراف له بالأولوية والسيادة . وهو يعكس موضوعياً توسع النظام الذي يضمن غلبة المجتمعات السابقة في الحضارة ، ويؤكد هيمنتها على المجتمعات الأخرى . ومضمونه العملي ليس هو في الواقع إلا تكيف الأنظمة التابعة مع منطق الغلبة وقبولها به . وهذا يعني إعادة تركيب الواقع العالمي كافة بما يخدم أهداف هذه الغلبة بعد تحليله وتفتيته . ومن هنا تفقد المجتمعات التابعة كل فعالية أو مبادرة إبداعية وتتعمق هامشيتها حتى تصبح عالة على غيرها تتغذى تياراتها الفكرية وأنظمتها الثقافية من الثقافة السائدة وتعيش على فئات ما تستطيع أن تأخذه

عنها ، وتستمد مؤسساتها القومية ودولها وأحزابها قوتها ودورها ووظيفتها مما تعطيه لها السيادة الأجنبية ، وتدين ببقائها إلى صلتها بالمراكز الحضارية .

لكن رفض الاقتداء لا يعني الحفاظ على الهوية أو البنيات الذاتية وعلى المدينة المحلية . فهي مهددة جميعاً بالتحلل ، كما تحللت وماتت الحرف التقليدية أمام صعود انماط الإنتاج الصناعية والتقنية . فسنه التاريخ أن من لا يتقدم يتأخر وأن من يتوقف عن المسير يخرج من القافلة .

ولعل أهم ما حملته التيارات التراثية للفكر العربي هو إشارتها إلى نقائص العملية التحديثية ، وكشفها ولو بصورة عشوائية ، عن التناقضات الكامنة فيها والأخطار المرتبطة بها ، أكثر مما كانت تحمل بديلاً لها . فهي رد فعل مشروع عليها ، وهي تشكل بذاتها تحدياً ، أو تقف كسؤال جدي أمام أصحاب الفعل والفاعلية مضمونه : لماذا كان هناك تحديث ولم تكن هناك حضارة ومدنية ، أي نهضة ؟

ولماذا كانت هناك حداثة ولم تكن هناك معاصرة ، أي مشاركة إيجابية ومتجزة في الحضارة وتقدم حقيقي ؟ ولماذا بقيت مطالب الهوية منافية لمطالب الحضارة والعالية ؟ فأصبح الحفاظ على الذات يعني الانسحاب من العالم . وأصبح الانخراط في الحضارة يستدعي رفض الذات ؟

هذا ما ينبغي أن يوجب عليه تحليل الحداثة العربية والكشف عن مأزقها . ذلك أن مشكلة الهوية لا تتعلق أساساً ، وكما رأينا ، بالتراث ، إنما بالفاعلية الحضارية . أو بالأصح بدرجة فعاليتها في المشاركة فيها ، أي بعلاقتها الذاتية مع العصر ، أو بالمعاصرة .

القسم الثالث

زمن الضربة

**في انحلال المدنية العربية
واشكاليات العودة إلى الأصول**

I

سبل التمدن الغربي ...

كما أصبح الدين رمزاً للهوية ، ومحور الصراع من أجل تأكيد الذاتية القومية في المجتمع العربي ، أصبح العقل رمزاً للمشاركة العالمية والاندماج في الحضارة والتاريخ . لكن بقدر ما طابق المثقفون بين العقل والعلم ، وردوا العقل إلى جزء منه وقلصوا معناه ونشاطه ، حولوه أيضاً إلى ميدان معركة جديدة ، فأصبح في بنيتها ذاتها غير قابل لاستيعاب الهوية ولا لحل مشكلة الذاتية . وخلق هوة لا تعبر بين التقدم التقني والتقدم الاجتماعي والروحي تتناقى مع نمو الحضارة وازدهار المدنية .

ومن المؤكد أن العقل ليس اكتشافاً جديداً في الثقافة العربية ، ولا هو ثمرة للحضارة الحديثة الصاعدة . بل هو أكثر المفاهيم رواجاً في هذه الثقافة ، ومحور محاجة القرآن والفقهاء المسلمين لخصومهم المتهمين بالتخلي عن استخدام العقل ، وهو النور الذي وضعه الله فيهم ليسترشدوا به ، فتركوه وتبعوا التقاليد وما رأوا عليه أجدادهم .

والمسألة هي في الواقع تتعلق بإعادة تحديد مفهوم العقل ، أو بالأحرى النظام العقلي باعتباره النظام الأساسي الذي يقوم بعقل العالم أو عقلته ، وتحديد القيم الاجتماعية التي تساهم في تحقيق الأهداف الجماعية ، والقيم الفنية والجمالية التي تنظم الخبرة الشعورية للجماعة وتبلورها على ضوء المعطيات الجديدة المادية والذهنية التي أدخلتها الحضارة .

— وليس المقصود بالعقل إذن ، كما هو شائع ، ربما في ذلك عند مفكرين متخصصين ، ملكة التفكير المجرد ، ولا المنهج العقلاني الفلسفي أو العلمي ، ولا الأيديولوجية العقلانية التي ما هي إلا نتيجة لتحويل العقل إلى تيمة ثابتة واستخدامها في المجال الفكري . وإنما هو جملة المفاهيم الراسخة والترابطة ، أو بالأحرى تنظيم هذه المفاهيم وترتيبها حسب أولويات ومراتب ، يحاول المجمع من خلالها وبها ، وتحاول كل ثقافة أيضاً ، استيعاب الواقع الموضوعي وتمثله ، أي في الوقت نفسه تنظيمه . ويقدر ما تنجح في هذا التنظيم ، وتتحقق من فاعليته في تبديل الواقع وتكييفه مع حاجات الجماعة ، وتحويله إلى واقع للذات . تؤكد قوة النظام العقلي أو نظام العقل واتساقه ومصداقيته .

ويعني النظام أن المفاهيم المكونة للعقل مترابطة فيما بينها ، ومتفاعلة لا تفهم ، أو لا تأخذ قيمتها ومعناها ، إلا من خلال شبكة العلاقات العامة التي تجمع فيما بينها ، والتبادل الذي يقيمه داخل الكلية التي توحيدها . وتعني المفاهيم ، أنها أدوات وعناصر ثابتة نسبياً ، تتمتع بدرجة معينة من الضبط والمصداقية ، وهذا ما يميزها عن الأفكار العامة المتبدلة حسب الفرد المتكلم وحسب الظرف . ونظام العقل بهذا المعنى هو خلاصة تجربة اجتماعية ، وإنسانية شاملة في الوقت نفسه ، يقدر ما يجسد كل مجتمع في تاريخ تمدنه ويكرر جزئياً أو كلياً تجربة المجتمعات كافة

وبهذا المعنى ، العقل نظام مركب ومكتسب ، وهو مرتبط بثقافة تعكس الشروط الاجتماعية والتاريخية التي أنتجتها والإشكاليات التي صاغتها ، ومطل بالضرورة على ما يمكن أن نسميه بمبادئ التفكير العقلي الواحدة أو المشتركة في كل الحضارات . ومن الطبيعي عندئذ أن ظهور حضارة جديدة ، أو بالأحرى تطور الحضارة يقود إلى تبدل في مفهوم العقلانية ، أي في الارتباط بين مبادئ عمل العقل الإنسانية ، والخبرة الثقافية الخاصة بالجماعة التي كانت وراء هذا التطور . ومن الطبيعي أيضاً ، ويقدر ما تتجسّد هذه الحضارة في أن تكون سائدة ، أن تظهر العقلانية التي تحملها كنموذج للعقلانية الحقة ، وأن تضفي على

مفهوم العقل أو نظامه السابق صورة العقل الضعيف أو البدائي أو المتأخر .
مديم الاتساق .

وعندما نتحدث عن شروط اجتماعية وتاريخية لتكون نظام العقل ، فهذا يعني أن العقلانية ليست مطلقة ولا حيادية . فهي تعكس تنظيم الجماعة لواقعها في الزمن ، أي إعادة تركيبه في مسائل كبرى وإشكاليات قابلة للحل من أفق الشروط التاريخية القائمة . وهذا يفترض أن العقلية لا يمكن أن تكون مستقلة عن الوضعية الخاصة بكل جماعة ومكانتها في الحضارة ، ولا عن القيم الأساسية التي تدافع عنها

وبهذا فإن نظام العقل هو تأسيس أيضاً للعقلية وللمعقول في كل مجتمع : للمنظور ، للمشروع وللمقبول ، أي للحق . وهذه العقلية هي شرط نشوء الفكر وتحقيقه كوظيفة للوعي ، نابعة من إمكانية المشاركة في مفاهيم واحدة والخضوع لقواعد مضبوطة وثابتة . وهي أيضاً مصدر الترابطات الممكنة بين الأفكار وبالتالي ، مصدر تكوين النظريات والتيارات الإيديولوجية المختلفة التي تسمح للجماعة بتوجيه حركتها وضبط نشاطها وإعطائه أهدافاً واضحة ، أي مصدر تحقيقها كجماعة فاعلة . ولذلك فإن جميع التيارات الفكرية ، ومهما كان اختلافها وتناقضها تشارك مجتمعة في مفاهيم أساسية وتنطلق منها . فالعقل هو أفق كل تفكير بالنسبة لكل حضارة وحدوده . وهو يمثل في الوقت ذاته حدود هذه الحضارة ويرمز إليها .

إن وظيفة نظام العقل أو العقلية أن يكشف الاتساق في الواقع باعتباره شرط استيعابه والتعامل معه . وهو ما نسميه العقلانية . وللعقل من أجل ذلك استراتيجية الخاصة التي لا بد أن تختلف باختلاف الواقع الذي يسعى إلى تنظيمه أو بث الانسجام فيه . فإذا كان هناك مبدأ كوني للعقل ، أي لاشتغال العقل ، فليس هناك عقلية خارج الحضارات والمجتمعات . وعندما يتبدل الواقع جزئياً ، وفي سياق المدنية نفسها ، يستطيع نظام العقل أن يعيد ، من نفس المنطلقات الاستراتيجية ، ترتيب مفاهيمه أو محورها حتى يحتفظ بالمطابقة بين

محتواه والواقع الفعلي . أما إذا كان تبدل هذه الحقيقة عنيفاً وشاملاً ، أي تبدلاً في الحضارة ، دون أن تكون عناصر هذا التبدل موجودة بالأساس في النظام العقلي ، فإن هذه المطابقة تصبح مستحيلة دون إجراء تعديلات جوهرية في العقلانية ، أي في تنظيم مفاهيم العقل وطرائق عمله .

وإذا أصبحت المطابقة مستحيلة ، فقد الواقع في نظر الوعي عقلانيته ، وأصبح نموذجاً للفوضى واللامعقولية ، لأن الوعي يفقد عندئذ الوسيلة الملائمة لايجاد الاتساق فيه . بالمقابل يصبح نظام العقل هذا بالنسبة للعقلانية السائدة بائداً وباطلاً لا قيمة له ، ولا قدرة له على استيعاب الواقع والتأثير فيه .

وحقاً ينجح الوعي في إعادة المطابقة بين نظام العقل ونظام الواقع ، أي في عقلنة هذا الواقع من جديد ، يضطر أولاً إلى إعادة ترتيب مفاهيمه نفسها ، أو بالأحرى يتحرر من كل نظام ، ويعود إلى نقطة الصفر : أي بناء نظام العقل من الخبرة الذاتية والتجربة . لذلك فإن التجريبية والبراغماتية هي في أساس كل تغيير عقلي جديد . وفيها يكون الوعي عارياً أمام واقع عارٍ أيضاً . وتصبح للممارسة الأهمية الأولى في عملية تنظيم عناصر العقل وتأسيس العقلانية الجديدة .

وهذه ليست عملية بسيطة ، وإنما هي سيرورة معقدة ، تدخل فيها عناصر عقلية واجتماعية متعددة . وينفتح خلالها الوعي على كل المنظومات الثقافية التي تحيط به ، ويخضع فيها إلى ضغوطات اجتماعية وتاريخية مختلفة . فعليه يتوقف أيضاً تحديد طبيعة الواقع المقصود إدراكه وأولوياته ، والقيم المعطاة إلى أجزائه العديدة . وهي مشروطة بالضرورة بنزاع القيم والأمال الاجتماعية والمطامع الجماعية . إذ كل عقلنة للواقع تنطوي في الوقت ذاته على تكريس لأحد جوانبه أو تأكيد على أحد اتجاهاته وتجاهل أو إخفاء لاتجاهات أخرى . فبناء نظام العقل هو بناء للمشروع الاجتماعي ذاته واستثمار في الثقافة والحضارة له حدوده وأبعاده وأهدافه . ولذلك ارتبط الصراع في الفكر العربي الحديث من أجل إعادة بناء النظام العقلي ، أي جملة المفاهيم الأساسية المحركة للوعي والموجهة له ،

بالصراع بين الحديث والقديم . وما زالت هذه المعركة مستمرة إلى اليوم ،
ورهانها وهدفها تحديد مفاهيم التاريخ والسياسة والمجتمع ، بل إعادة بنائها .
وحول هذه المعركة وفي داخلها تجري في الوقت نفسه معركة تحديد مفهوم العقل
ذاته . ولذلك فإن مسألة العقلانية تزداد حدة مع الوقت ، وبقدر تطور الصراع
الفكري والاجتماعي ، ولا تضعف مع التحديث .

وقبل أن نحاول تبيان كيف حاول الوعي العربي الحديث أن يعيد تركيب
الواقع في الذهن ، أي أن يعقله ، لا بد لنا من أن نتحدث بسرعة عن هذا
الواقع الذي يسميه البعض الحضارة والبعض الآخر التقدم والبعض الثالث
الحداثة . والأمر يتعلق بموضوع واحد هو ما حملته المرحلة التاريخية الماضية من
تعديلات في نظرتنا للوجود والعالم وأنفسنا معاً ، وما أصبح يشكل اليوم مقياس
المدنية والتقدم .

.....

غزت الحداثة ، كمظهر للحضارة الجديدة الواقع والعقل العربي معاً . كما
غزت كل مجتمعات البشرية . وتبدلت رؤية مجتمعاتنا للعالم في القرن الماضي بدلاً
جذرياً بقدر ما تبدل العالم المحيط بنا . ولم يعد لمفاهيمها ولا لطبيعة أهدافها ولا
للمطالب التي تحركها أية علاقة تذكر بما كانت عليه في الماضي البعيد ، وذلك
سواء أدرك بعضنا ذلك أو لم يدركه .

ويكفي كي ندرك ذلك أن نقارن عالمنا الراهن ومفاهيمنا عنه مع عالم
الحضارة التقليدية الذي صاغته إلى حد كبير مفاهيم ثقافية دينية .

يبدو العالم الأول محدوداً ومتناهِياً معاً يتحرك بين الخالق ، « المحرك الأول »
وبين الكون المخلوق المنظور إليه كطبيعة وحيوات مختلفة معدودة في النهاية .
التاريخ الطبيعي يبدأ مع بداية خلق الله للكون ، وهذا لا يطرح أية مشكلة
معقدة ومشيرة للذهن ، غير تلك التي شغلت دون شك كل فترة القرون الوسطى
الاسلامية والمسيحية : مسألة قدم العالم ، والتي لا تخرج في طرحها عن
المفهوم العام : هل تم الخلق من العدم أم كانت المادة موجودة وبث فيها الله

الروح ، أي الصورة في الهيولي . وكان من المفروض ان تنصرف فكرة خلق العالم دون شك من العدم ، لأن الفكرة المناقضة (ضمن إطار التصور ذاته لعالم من جهة ، وإله من جهة أخرى) وهي فكرة قدم العالم ، تعني ايضاً ان هناك شيئاً آخر قديماً قدم الاله ، هو المادة . وكما رد فلاسفة الاسلام ، هذا يعني ان هناك إلهين وهذا مرفوض . ومن هذه الفكرة التقيضة ، فكرة قدم العالم ستظهر المادية العصرية والثقافة الجديدة المعاصرة ايضاً .

فقد خلق ذلك نظرة جديدة للكون وللطبيعة استندت اليها التطلعات اللاحقة الى الغوص الى أعمق ما يمكن ، وأبعد ما يمكن ، في البحث عن سيرة المادة ونشوتها ونشوء الأرض ، وبقية الاجرام السماوية . وفجأة تحولت الأرض التي كانت مركز العالم ، لأنها المخلوق المباشر المظور والدائم الذي يجسد في ذهن المؤمنين خلق الله وعظمته ، ويشكل دليلاً على هذا الخلق ، الى جرم صغير بين سلسلة من الاحرام اللامتناهية في الكبر والبعد . وهكذا توسع العالم الطبيعي الذي نعيشه اليوم من عالم محدود مثاله الأرض ، الى عالم لا محدود لا أول له ولا آخر ، لا بداية ولا نهاية ، لا منطلق ولا غاية ، واشتد البحث فيه عن قوانين توازناته الذاتية الداخلية . قوانين الجاذبية ، وتحول المادة ، والطاقة الخ . . . ومنه ايضاً الوصول الى تقسيم المادة ، وفكرة الذرة ، التي نجمت عن محاولة البحث في المادة ذاتها عن قوانين حركتها وتحولها وتوازنها . ولم تتغير بالتالي صورة الكون والطبيعة فقط وانما ايضاً مفهوم المادة ذاتها ، ومفهوم الحياة والعضوية ، وأصبح من الممكن ظهور فلسفة الصدفة والضرورة (مونود) ، حيث تكونت العضويات والحياة بالصدفة ، كإحدى الامكانيات البعيدة والبادرة جداً وحتى حين بقيت فكرة الخلق سائدة .

لم يعد التاريخ الطبيعي تاريخاً للخلق ، ولكن تاريخاً للقدم المحض وللضرورة الدائمة . وتوسع العالم بشكل لا نهائي نعجز عن ادراكه بعد أن كانت السماء تشكل حدوده العليا . واستبدلنا مفاهيم بأخرى فدخلت كلمة الفضاء اللامحدود واللامتناهي في حياتنا اليومية . فإذا كانت السماء تفصلنا عن

الله . فالفضاء يربطنا بالأجرام والمجرات الأخرى التي لا نحصى . ويفتح عالمنا في اتجاه الهوة المظلمة التي لا يستطيع عقل إدراكها .

وتحطم مفهوم الزمن المعاش ، والزمن التاريخي معاً . وأصبحنا نفكر في تاريخ الكون الذي يرجع إلى مليارات السنين ، وهو ما لا يمكن تصوّره إنسانياً ، فتوسع أفقنا التاريخي كما توسع معه أفقنا الفضائي . وأصبحنا نفكر بتكون المادة والإنسان منذ البدء . فتحوّلت قصة آدم البسيطة والسريعة الفهم عن أصل الإنسان ومعنى وجوده في الكون ، إلى دراسات لا حصر لها في نشأة الحياة والإنسان والحياة . وظهرت نظريات جديدة متناقضة ومتضخمة . واحتل مفهوم الصراع من أجل البقاء والحياة للأصلح محل مفاهيم العناية والشفقة والرحمة والمحبة التي كان يقوم عليها المجتمع الإنساني والتضامن بين أفراد النوع .

وتغيّرت دلالة الزمن ونظرتنا إلى وتيرة الحركة الكونية وقياسها مع تطور تقنيات العمل والمراقبة والصناعة . وفقدت السرعة مفهومها السكوي . فإذا بها تتحول إلى حركة نسبية مرتبطة بحركة الجرم الذي نعيش فيه ، وإذا بنا نحقق سرعة الصوت ونفكر بسرعة الضوء بعد سرعة الشمس وسرعة الباشق والفارس . وأصبح لدينا سرعات لا يمكن حصرها ، تتطور مع تطور التقنيات ، وليس لها حدود سوى تحول المادة إلى ضوء لتأخذ سرعة الضوء . وقد حطم ذلك كل مفهوم السرعة والزمن التقليديين المرتبطين بوتيرة المواسم الزراعية والتقلبات الكونية . وأصبحنا نحسب وقتنا بالدقيقة والثانية ونصف الثانية والثالثة والرابعة إلخ .

وفقدت المسافة كذلك دلالتها القديمة السكونية كامتداد لتظهر كحركة وكعلاقة لا محدودة تقاس بالسنوات الضوئية بين الكواكب . وأرسلنا آلاتنا ورسلنا إلى هذه الكواكب لفقدت أسرارها ورموزها وتحولت إلى كتل غازية ملتهبة أو ممتدة أو في عهد النشأة والتكوين .

باختصار انقلبت صورة الكون وتغير توزيع المكان والزمان : ونشأت طبيعة

جديدة مذهلة في اتساعها ولا محدوديتها ، ونشأ تاريخ جديد أيضاً لا بداية له ولا نهاية ولا نعرف منه إلا جزءاً يسيراً لا يتجاوز عدة آلاف من السنين .

ولم يمسّ التغيير رؤيتنا العامة للكون والطبيعة فقط ، ولكن مَسَّ أيضاً مفهومنا عن أنفسنا ونظرتنا إلى دورنا ومكانتنا كبشر ، وكجماعات متميزة ، في الطبيعة والتاريخ . فتشأت مفاهيم الفردية والسيادة رغم أن العبودية الاجتماعية قد صارت مضاعفة وأخذت أشكالاً لا تستطيع مفاهيم الفقر والغنى ، والعدل والظلم القديمة أن تستنفدها . فدخلت إلى عقلنا دلالات اجتماعية جديدة تشير إلى هذا التغير ومضاعفاته مثل الطبقة والدولة القومية والسلطة والديمقراطية والقانون والدستور والتنظيمات الدولية والمؤسسات والأحزاب والصراعات المحلية والدولية . . إلخ .

وبعد أن ظل الوعي البشري يرتاح إلى فكرة أنه خلق على صورة خالقه ، وأنه خير مخلوقاته ، بدأ البحث عن الأصل المادي والحيواني للإنسان ، وعن تطور جنسه فأصبح تاريخه الخاص جزءاً من تاريخ تطور الطبيعة والمادة اللامحدود . فإذا بالإنسان يطالب بأصله الطبيعي ، ويفتح عقله المقدس ويجعل نواته الدماغ . ويبحث في آلية عمله من خلال فعاليات التكيف والاستجابة والفعل ورد الفعل والتحولات الكيميائية والنظم الإشارية . فمن زوال المعاني التقليدية والمقدسة لكلمات الإنسان والروح والعقل سوف تنطلق الأبحاث التجريبية عن تكوين الذكاء والنفس والعقل ، التي تتحدد ضمن شروط اجتماعية ومادية وبيولوجية موضوعية يمكن دراستها . وتطورت لذلك معاني العلم والمعرفة ، فأصبح إنتاج الأفكار الجديدة والكشف والإبداع والاختراع هو هدف كل بحث وغاية كل معرفة . وفقدت بالمقابل كتب التجميع الموسوعي للمعارف والمعلومات قيمتها وبريقها .

ولم تعد النفس روحاً مقدسة ولا غريزة مدنسة ، بل مجموعة من العلاقات المعقدة والتوازنات التي يمكن أن تنهار ، وأن يعاد إصلاحها كآلة أخرى . وتركت مكانها للوعي وللشعور واللاشعور والأنا والهو ، والسلوك وللذهان

والعصاب والفصام والعظمة والرمز واللغة والتخيل وأعاد الانسان تفسير الأحلام والكوابيس والقلق والسهاد والسوداوية ، وأعطاهما تأويلات جديدة عقلية أو مادية أو فزيولوجية وحاولنا أن نفكك إلى أبعد ما نستطيع بنية الوعي والعقل والشعور ، وأن نجد لها « قوانين » حركتها وإمكانيات شفافها ، بعد أن كانت ملكة أو ملكات موهوبة يؤدي افتقادها إلى أمر واحد هو الجنون .

باختصار نزعنا الروح من محيطها القدسي القديم وربطناها بالتربية وبالمجتمع وفتح هذا أمام الانسان وفي الانسان إمكانات جديدة للتحكم بالذات ، أو للتحكم بالآخرين ، من عمليات الطب النفسي إلى عمليات غسيل الأدمغة والتأثير على الأفراد والشعوب

وظهرت أيضاً صورة جديدة للعقلانية ، ليست هي نفسها إلا أحد مظاهر تطور الوعي الدهري الانساني والفردى وتكونت العقلانية الجديدة في معارضتها للعقلانية القديمة التي تبدأ من فرضية الوجود الماورائي أو الميتافيزيقي وتتمحور حول مفهوم الله ، الأول والآخر والظاهر والباطن ، وبنيت نفسها على إعطاء قيمة أكبر للفكرة الوضعية والتجريبية التي تفترض إمكانات وضرورة البحث عن الأسباب والعلل داخل الظواهر الطبيعية والاجتماعية ذاتها لا خارجها وكان من نتيجة هذا الإنعطاف المعرفي ظهور طريقة جديدة للبحث وإنتاج المعارف ، وبالتالي ظهور مفهوم جديد للعلم ، وصياغة إشكاليات ومسائل لم يكن عالم المعرفة التقليدي يعرفها أو يطرحها على نفسه . وارتبطت العقلانية الجديدة بايديولوجيات مادية ووضعية تعكس تطور مفهوم الاجتماع الانساني نفسه ونحوه إلى ثمرة لمواضعة إنسانية ولعقد اجتماعي - وأعلنت بذلك استقلال المجتمع المدني عن المجتمع الديني ، (وعن الإنتاج الطبيعي) أي عن السماء

وتطور مفهوم العلم الذي يستند في استخراج موضوعاته ومعارفه على تقنيات تجريبية أساسها الكشف عن العلاقات والقوانين وليس على الرجوع إلى العلة الأولى وهو يفسر من خلال هذا الكشف عن العلاقات آليات التطور واتجاهاته لا غاياته وينطلق لذلك من الجزئي إلى العام وانقلبت حكمة أرسطو

القائلة لا علم إلا بالكليات إلى نقيضها فأصبحت لا علم إلا بالجزئيات ، لأنها الوحيدة الواقعية والقابلة للوصف والعقل العلمي لا يقبل إلا الوقائع التي يمكن البرهنة عليها تجريبياً وكمياً والتي لا تقبل التناقض

إن إكتشاف طرائق علمية وتقنيات بحث جديدة لا يغير فقط من موضوع المعرفة المستخرجة ولكنه يغير أيضاً من وظيفتها الأساسية فيبقى العقل التقليدي متعلقاً بالتعريفات ، يتجه العقل الحديث نحو الكشف عن السيرورات . إذ أن هدف التعريف هو تكوين مفهوم واضح يساهم في إغناء الموضوع الكلي وتحليله وينحو إلى الاستقرار وتكريس هذا الموضوع . لذلك كانت الفلسفة هي ذروة المعرفة وغايتها . أما الكشف عن السيرورات فإنه يفجر دينامية الواقع ويشير إلى إمكانيات التحول والتغير . وتبرز نتائج هذه المواقف العقلانية والدمرية في تطور مفهوم التاريخ ذاته ، وفي فكرة التقدم ومنظومة القيم المرتبطة بها .

في الوعي التقليدي ، طموح العقلانية هو أن تظهر إنتاج المعارف العملية كعرض لإنتاج المعارف الكلية ، وأن تربط المعرفة الأرضية والخبرة البشرية بمعرفة عقلية أعلى هي المعرفة الألهية التي هي قمة العلم . وحتى العلوم البحتة كانت تبحث عن أسسها المعرفية في المعرفة المقدسة ، ومثالها الرياضيات التي هي المعرفة موضوعاً ، والموضوع وقد تحول إلى معرفة . وتنبع أولوية المعرفة النظرية والتأملية التي تتقدم هنا بالضرورة على كل المعارف الأخرى من أنها تتيح وحدها تجاوز المعارف الجزئية ودمجها في المعرفة الكلية الذي يشكل الله موضوعها الأول . وتتولد المفاهيم في هذه النظرة من المفهوم الأول والاكمل كما يتولد المخلوق عن إرادة الخالق والمصنوع عن الصانع . وتظهر المعرفة في الكشف عن سلسلة هذا التولد أو إسناده ، وتقوم بربط الجزئي بالكل ، والخاص بالعام ، والمخصص بالمجرد وتعتمد على التجريد والتعميم والتركيب . ويعكس العقلانية الحديثة التي تطمح دائماً إلى أن تخفي مسبقاتها النظرية والايديولوجية والأسطورية حتى لا تظهر معارفها إلا كترجمة مباشرة للواقع ، تعلن العقلانية القديمة منذ البدء مسبقاتها وتبدأ منها كبدهيات . وبينما تؤكد العقلانية الحديثة على جانبها المنهجي كمحرك ومركز ثقل وقوة ، تركز العقلانية الكلاسيكية على المضمون الفكري وتربط

الأفكار وانسجامها وتوافقها مع الحكمة أو النص ، كما هي حال كل معرفة استدلالية . وهذا التأكيد على المنهج هو في أصل تحرير العلم من 'أسر العقيدة والإيديولوجية ، وتمييزه عنهما ، لا كمجموعة من المعارف المتسقة ، ولكن بالأساس كنظام لانتاج المعارف ينطوي على طريقة ومقاصد خاصة ، ويهتم بالبحث عن القوانين لا بتحليل المعاني . وهذا ما أعطى دفعة كبيرة لتطور العلم .

وتغيرت أيضاً مفاهيمنا عن الحياة والموت . يبدو الموت في المفهوم القديم كاستسلام لله وتسليم للروح إلى خالقها . وهو خلاص وتحرير للنفس وانتقال إلى عالم أفضل ، عالم الخلود والأبدية ، يجري على يد ملاك مرسل . وهو أمر منتظر وفي بعض الأحيان محبب ، يعيش مع الناس كما تعيش المدافن على أطراف البيوت والأحياء ، مما يبقّي العلاقة حيّة بين الأحياء والأموات الذين يشكلون معاً في الواقع جماعة واحدة مادية وتاريخية . وهو مناسبة لتحقيق التضامن والتعاون والمودة بين أبناء الجماعة ، وفرصة لإظهار الشجاعة والمروءة والصبر وقوة الإيمان والعزيمة .

وبشكل عام يستوعب العقل التقليدي الموت ، ويمتصه ويبرره ويفسره بقدر ما يجابهه بفكرة الخلود والوقفة الجماعية . وهكذا يتغل من الاعتراض على الموت لأجل الوجود إلى تبرير الوجود في الحياة الدنيا بالموت . فبدون الموت ومهودة المروءة إلى خالقها ، وبداية حياة الخلود في الجنة تصبح الحياة الدنيا لا معنى لها بقدر ما هي حياة فانية ، حياة صراع وعمل وجهد ونزاع ومرض وقلق ومادة . كما أن الروح (الله) هي المفهوم المفتاح للعالم القديم والمادة (الطبيعة) هي المفهوم المفتاح للعالم الحديث فإن الموت هو سبيل تحرير الروح وخلّاصها ، وقدسيّة من قدسية الروح .

وقبول الموت وهضمه وتبريره واستقباله يؤثر على كل سلوك الفرد ، على موقفه من المجتمع ومن الطبيعة ، ومن « المادة » . المادة محترمة بطبيعتها ، لأنها القيد الذي يمنع الروح من الانطلاق . ويقدّر تركّز هذا الشعور في العقل ، وضع وجود الغرائز التي تدفع دائماً بالإنسان للبحث عن إشباعها ، كصنّج الغريزة ذاتها .

محاولة لاختضاع الذات وتقوية الإرادة والبحث عن التقشف والسيطرة على النفس وإظهار قوة الشكيمة .

انه أحد اسس ومبادئ الحياة ذاتها ينال الإنسان ويعيش معه ، وهو أحد مبادئ تنظيم هذه الحياة : الموت يساوي بين البشر أي يظهر ان لا أحد أفضل وأقوى من الآخر ، ولا تفيد ثروة أحد في وقف موته ومثوله بين يدي خالقه . وما دام كل انسان فإن فكل شيء مادي دنيوي يفقد قيمته المطلقة ، يصبح ذا قيمة نسبية فقط . ويصبح على الإنسان أن يعمل لدينه ودينه معاً . يصبح الموت إذن باختصار عامل تنظيم للأخلاق الاجتماعية ، وكي يصبح كذلك لا بد من قبوله وتبريره واستيعابه بدون غضاضة .

حيث يبدو الموت في المفهوم القديم خلاصاً من قيد الجسد والمادة ، يصبح في المجتمع الحديث حداً وقيداً أمام تحقيق الإنسان لطاقاته وانعتاقه الكامل . فهو نقص مطلق وعطب للمادة وقتل لقدرة لا تعوض وإعدام للحياة وحد للذاتية والحرية . وهو هاجس يومي يجاربه الإنسان الحديث في كل يوم وساعة ، حتى أصبح الطب والتأمينات على الحياة شغل المجتمع الشاغل . وأصبح الخوف من الموت مصدر القلق الدائم وتطور الاضطرابات النفسية عند فرد يواجه مصيره وحيداً ، أو يفتخر بهذه المواجهة الوجدانية . وكل الحضارة الحديثة تسعى إلى أن تجعل من تحدي الموت وإخضاعه حافزها إلى التفوق العسكري والمادي .

فلماذا لم يكن هناك أول ولا آخر للإنسان ، أصبح الموت هو اللامعقول المطلق ، الذي تدور حوله وتصب فيه كل المخاوف والأوهام . ومن الصعب فهم الفلسفة الغربية الحديثة بدون فهم فكرة الموت هذه وما ينتج عنها من تحديات ميتافيزيقية وروحية ونفسية . وأفكارها وموضوعاتها الكبرى لا تحيد عن مسائل الوجود والعدم والزمان والكيونة والتاريخية والقلق والعدوانية والحرب . فلماذا كان الموت فناً وليس نهاية رحلة طويلة ، لا يمكن للحياة أن تبحث عن معناها إلا في ذاتها . وهنا يكمن الموضوع الأكبر لكل فلسفة حديثة .

وليس السعي لتأكيد الذات وتحقيق السيطرة والتفوق بما هي قيم سائدة في

المجتمع الحديث إلا لمقاومة الشعور بخطر الموت وبالخوف منه . فكلما حصل الترقى في سلم القوة ، ضعف الشعور بخطر الموت . ودفع الموت لا يكون إلا بالحصول على قوة دمارية تعطي لصاحبها الشعور بأنه قهر الموت ، أو أحبط من يده إمكانية إحداثه . والعالم يعيش كافة في قبضة الموت منذ أن أصبح تحت رحمة توازن الرعب النووي ، وصار لدى كل معسكر من قوى الدمار ما يكفيه لإفناء العالم عدة مرات . فالموت هو الآخر والآخر هو الجحيم وهو العدوان .

أخضع الإنسان القديم الموت بأن أدخله في حياته اليومية ، وجعله جزءاً منها ، ومناسبة لتقديس الحياة واستذكارها ، وفرصة للتعاون والمساواة والرحمة والتقارب . أما الإنسان الحديث فإنه يريد أن يقهره باستبعاده وتغيبه والمهرب منه والتفوق عليه في القدرة على الإفناء وتعقبه في الجسم والمجتمع والطبيعة : في القضاء على الجرثومة ومواجهة قوانين الطبيعة وكوارثها ، ودحر الأمم « المتوحشة » التي تسكن مخيلة الفرد المتحضر حتى اليوم في صورة شعوب متخلفة أو حركات ارهابية .

وقد كان لذلك كله نتائج كبيرة ومذهلة على صعيد تغير الديمغرافية البشرية بشكل لا مثيل له من قبل ، مع كل ما سوف ينتجه هذا التغير النوعي من مشكلات وآفاق تطور مستقبلية ، كما كان له نتائج كبيرة أيضاً على صعيد الأخلاقية الاجتماعية . فمن فكرة الموت المطلق نبتت فكرة الحياة كقيمة في ذاتها ولذاتها ، وكل ما ينجم عنها من تقديس للفرد وتعميق للصراع والمنافسة في الوقت ذاته .

وإضافة إلى تغير عالم الإنسان الروحي والنفسي ، تغير عالم الإنسان الاجتماعي أيضاً ورؤيته لطبيعة هذا الاجتماع ومعناه وأهدافه . فإذا بالجماعة الإنسانية تتجاوز كل الحدود التقليدية الماضية وتدخل في شبكة اتصال واحدة . وما يحدث على آلاف الكيلومترات في منطقة تعرف به في اليوم نفسه المنطقة الأخرى وتأثر به . فنشأت ثقافة عالمية وإعلام عالمي وسياسة عالمية . وأصبحت الكرة الأرضية كلها رقعة شطرنج واحدة تلعب عليها الدول الكبرى ، وتحاول

الدول الصغرى ما وسعها أن تقاوم لتحفظ لنفسها بالحد الأدنى من الإرادة والاستقلالية . ولا تستطيع أمة أن تتجاهل اليوم ما يجري حولها دون أن تقضي على نفسها بالزوال من الساحة الكونية . والدولة التي لا تستطيع أن تتقن اللعبة تندرج في غيرها وتنهار .

وفقدت الجغرافية السياسية الكثير من قوتها ، ولم يعد لمفاهيم البعد والقرب قيمة كبيرة ، فالتهديد يمكن أن يأتي من أي مكان ، والتحالفات السياسية يمكن أن تحدث بين بلدان لم تعرف بعضها البعض من قبل ، وليس بينها أية حدود مشتركة . وتغيرت مفاهيم الأمن ، والحدود الآمنة ، وارتبط الأمن أكثر فأكثر بالمفهوم السياسي ، وبالتحالفات السياسية ، وبالتوازنات الإقليمية لا بالقوة العسكرية الساكنة .

وظهرت داخل كل دولة ، فكرة الولاء القومي كبديل للولاء الديني أو العشائري أو القبلي في تغذية الشعور الوطني وتكوين الجماعة الوطنية . وارتبط بالولاء القومي تطور مفهوم العلمانية أو استقلال الدين عن الدولة ، كفلسفة سياسية ، أو كإيديولوجية وعقيدة للدولة . وعمّ مفهوم السلطة بسلطة شرعية منبثقة عن الإرادة العامة ، واغتنى هذا المفهوم بمبادئ الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، ومراقبة السلطة ، والسيادة الشعبية كمصدر للسلطة . وارتبط بذلك كله أو نشأ عنه مفهوم المواطن وحقوقه وواجباته كعلاقة في عقد ضمني بين رجال أحرار . وتميزت السياسة كحقل جديد ، أو كقارة جديدة ، لتحقيق ماهية الفرد وإنسانيته واجتماعيته ، عن طريق ممارسته لحقوقه الانتخاب والتنظيم والتعبير ، ومشاركته في القرار ، بعد أن كانت السياسة في القرون الماضية حكراً على أسرة أو طبقة أو قبيلة حاكمة .

وبعد أن كان المجتمع يشكل في نظر أعضائه جماعة صلبة واحدة متماثلة ومتضامنة تنفر من كل غريب وينفر منها ، أصبح المجتمع مكوناً من مصالح مادية وسياسية واجتماعية مميزة ، ومن طبقات أو من جماعات جزئية وفئات وأفراد تجمعهم المصالح المشتركة ، وإذا كفت مصالح بعضهم عن أن تتفق مع الآخرين

تخطمت وحدة المجتمع رغم الثقافة والدين والتاريخ وطلت هذه الطبقة والفئة أو تلك دعم الاجنبي ، وبحثت عنه وعملت بالاتفاق معه

وظهرت الديمقراطية والأشكال المختلفة للتمثيل السياسي كتعبير عن سيطرة المصالح المادية الاقتصادية ، وتكوين وحدة نسبية ضد تدخل المجتمعات الأخرى فإذا لم يتم التفاهم وتسوية المصالح الاقتصادية بين الفئات والطبقات لن يبقى أي أساس لوحدة الأمة . والديمقراطية تعمل على تحقيق هذه التسوية وضمان وحدة الجماعه . ولم يبق هناك أي شيء مقدس في المجتمع يدفع الى الحفاظ عليه إذا غابت بعض أطرافه فكل شيء مباح ، بما في ذلك الانفصال والالتحاق بأمم أخرى ، ولا قيمة للغة أو للثقافة أو للتاريخ المشترك ، فقد نشأ تاريخ جديد لا علاقة له بالتاريخ القديم ، تاريخ كوني عام ، وقيم كونية ومطالب كونية ، وثقافة جديدة سائدة ، وأصبح من السهل تغيير اللغة وتغيير الأخلاق وتغيير الولاءات والالتزامات مع تبدل المصالح . وبدأت الأمم القديمة بالتمزق والتدهور . وفقدت الوحدة القومية كل قدسيتها الثقافية أيضاً كي تستند الى قدسية المصالح المادية . ولم تعد ترى هذه الفئة أو تلك ، أو هذا الفرد أو ذاك ، أي حرج في التعامل مع فريق أجنبي لضمان المصالح المادية . وفقدت الحياة القديمة معناها . وأصبح من الممكن إتهام المسؤولين بالخيانة من قبل المحكومين . وتغيرت بالتالي مفاهيم السيادة والوحدة والسياسة الداخلية ، فظهرت مفاهيم حقوق الإنسان وسيادة الفرد والشخص الإنساني وحل النزاعات الداخلية بالديمقراطية أي ظهرت مفاهيم الحقوق السياسية . وأعيد الاعتبار لمفهوم الثورة التي يبررها فقدان الحقوق السياسية أو المدنية لهذه الفئة الاجتماعية أو تلك . ولم نعد نرى في الثورة جرمًا رهيبًا واعتداء على حقوق الأمة بأكملها ومهدداً لسيادتها وقوتها ولكننا نرى فيها نشاطاً مقدساً لفرص العدالة والمساواة بين مختلف المواطنين .

وتغيرت مفاهيمنا الحقوقية والقانونية والأخلاقية . كان الخوف من العقوبة في الآخرة هو القانون وهو الشرطة الحقيقية في المجتمع . أما اليوم فقد أصبحت

العقوبة خارجية وأرضية معاً تستند إلى قانون وصحي يمكن تغييره بالاجماع وهو مصدر الحلال والحرام . فما كان ممنوعاً منذ سنوات يمكن أن يصبح مباحاً وهكذا تخلت الأخلاق للقوانين الوضعية عن وظائف التنظيم الاجتماعي وتحديد علاقات الأفراد فيما بينهم . فإذا زال تأثير الأخلاقية القديمة في مجتمع ، وانتشرت قيم المصلحة الفردية والذاتية وقيم المنافسة الحرة والصراع على الأولوية ، ولم يظهر في المقابل نظام قانوني فعال ومحترم يضمن تنظيم العلاقات بعدل بين الأفراد والجماعات ، فإن القوضى وسيطرة فئة على أخرى سوف تصبح القانون الوحيد الفاعل . وعندئذ ، ومع انهيار هبة القانون ، وزوال كل رادع داخلي (أخلاقي) يصبح كل شيء مباحاً عملياً .

فإذا فقد القانون هيئته ، لن تستطيع شرطة العالم كله أن توقف الرغبة في الاعتداء والظلم والأنانية أو تحول دونها . وليس للقانون الوضعي من هبة واحترام سوى الهبة والاحترام الناجمين عن مشاركة جميع أفراد الأمة في صياغته ، وشعورهم أنه يعبر عن تطلعاتهم . ولا استقرار لمجتمع حديث بدون ذلك ، وهذا بغض النظر عن شكل هذا القانون ومضمونه بالمقارنة مع القوانين الأخرى السائدة في هذا البلد أو ذاك . فالقانون يجب أن يعكس إرادة الأغلبية ، ويتطور مع الأغلبية واراقتها . وهو ليس نصاً مقدساً إلا عندما يتم الاجماع عليه . وإذا فرض من قبل أقلية فقد كل فاعليته واحترامه وقيمه ، وظهر كما لو أن المجتمع يعيش فعلاً بدون قانون . أي أن كل شيء مبرر فيه . ولا يمكن فرض قانون حديث أو متقدم على مجتمع « متاخر » (حسب الاستعمالات الشائعة) دون تحطيم كل أساس وضعي للقانون وقيمه وفعالته وتأثيره . أي دون إفقاد القانون معناه . عندئذ لا بد لفرض القانون من قوة قهر عظمى أو ربطه « باله » مقدس جديد ، بمعبود من شاكلة حمورابي . ومعظم الدول التابعة تخلق مع القانون المفروض الشخص الذي هو ضمانته لكل قانون : الزعيم المعصوم والمؤمن . وهي تخلق أيضاً بالضرورة إذن عبادة الشخصية .

تغيرت مفاهيمنا أيضاً عن المرأة والطفل والرجل أصبحنا ندرك أن عالمنا

الاجتماعي يشمل كل فرد . وبدلاً من أن يعطي لكل ذي حق حقه . عليه أن يعطي الحقوق ذاتها لكل فرد : للطفل والمراهق والمرأة والرجل . أعيد تنظيم المسؤوليات والرعاية ودخلت المرأة في المجتمع السياسي والاقتصادي وليس فقط في المجتمع الأسري ، ودخل الطفل أيضاً في المجتمع كراشد قبل له حق التدريب والتكوين كعضو عامل . والدولة تضمن هذه الحقوق للجميع بعد أن كان ورع الوالد وتمسك الزوج بدقائق الشريعة والايان والخوف من الله هو الشيء الوحيد الذي يضمن عدم قهر الطفل والجور عليه أو اضطهاد المرأة . وإذا وهنت مشاعر الخوف والايان والأخلاق مع تطور الحضارة التقنية التي نعيشها أصبح كل شيء ممكناً : كل اضطهاد ، للمرأة والطفل والرجل الآخر . ولهذا فإن هذا الاضطهاد لم يكن في يوم من الأيام أقسى في العالم الثالث مما هو عليه اليوم مع انهيار منهزمة القيم القديمة وتفكك وهشاشة النظم القانونية الجديدة . ومهما كانت الحقوق المعطاة للطفل والمرأة في قانون مفروض بالقوة من قبل أقلية فإنها لن تعمل شيئاً أمام نمو الاضطهاد . فلا يعمل القانون الوضعي إلا إذا كان قانوناً محترماً يخضع له الفرد طواعية لأنه يدرك أنه يعبر جزئياً عن مصالحه ، إن لم يعبر عنها كلياً . أما إذا لم يكن يعبر عن أي من مصالحه فيرفضه بكلية وبعنف .

هذا لا يعني أن سلطة الشعب ، أو الديمقراطية ، تعكس دائماً الحق أو الحقيقة ، أي أن ما تسنه من قوانين هو حقائق موضوعية ، بل بالعكس ، إنها تسن مواضع اجتماعية ، أي اتفاقات واعتبارات وأوامر ومساائل قابلة للتغيير لا قدسية لها . وتفتح بذلك إمكانية تغييرها في المستقبل . أي تفتح للمجتمع الحديث أيضاً وللحضارة الحديثة إمكانات نحو لم تكن موجودة في المجتمع القديم . يخلق المجتمع الجديد إذن تصوراً جديداً للعالم وللكون وللطبيعة وللجمتمع وللسياسة وللإقتصاد وللإنسان ولل فرد وللحزن ولللمة ، ويخلق بالتالي قيماً فنية وسياسية وتقنية جديدة . والانتاج العلمي والأدبي والصناعي هو ثمرة هذه العلاقات كلها .

ولا يمكن تصور نشوء الصناعة الحديثة بدون فهم الانفجار العميق البلي

أصاب الكون التقليدي ، في جانبه الواقعي الموضوعي . وفي جانبه الذاتي والعقلي . فكسر الحدود الطبيعية التقليدية لعالم يحده الغيب من جميع أطرافه ، ويخضع له ولارادته ، أعطى للكون إرادة جديدة خاصة به : الطاقة والقوة الذاتية والسبب الذاتي ، وكسر الحدود التقليدية للسياسة والسلطة وللعقل . كل ذلك خلق شروط نشوء وتطور ممارسات جديدة : إمكانيات جديدة لتحويل الطبيعة ، وللعمل ولتحويل المجتمع ولتحويل العقل معاً . أعطى لتطور الآلة إمكانيات هائلة جعلها تقفز في طفرة كبرى من الأداة البسيطة إلى التقنية العالية التي تعكس وتيرة جديدة للحياة والعمل والنشاط . وخلق تطور الآلة مضاعفات جديدة على تطور المجتمع وتطور العقل والثقافة . وليس من الممكن فهم تطور العلم اليوم بدون تطور الصناعة . فهو مرتبط بها ، وليس من الممكن فهم تطور الصناعة دون فهم تطور كشوف الطبيعة وكسر سقفها المغلق القديم ومحطيم حدودها وإخضاعها الأعظم ، وليس من الممكن فهم تطور المجتمع الحديث الصناعي بدون فهم تطوره السياسي وتطور الفرد كسيد وموضوع وذات مستقلة متساوية مع غيرها .

فالمجتمع الحديث . يطمح إلى أن يتجاوز كل أخلاق متعالية ، أي تأتي من خارج المجتمع البشري لتنظمه . يطمح إلى أن يجد في المجتمع ذاته وسائل ومبادئ تنظيمه واستقراره وإصلاحه الذاتي . وهو ما سمي بالعقل وجعل من مبدأ فهم وتنظيم الخبرة الإنسانية الجديدة . وفكرة الانسجام العفوي في الاقتصاد ، تستند أيضاً إلى فكرة الانسجام الطبيعي للمجتمع المكون من أفراد أحرار . أما الأزمة وتدخّل الدولة أو السلطة فهي مجرد أعراض تاريخية يستطيع نظام الانسجام الكوني ، أي أيضاً الانسجام الاجتماعي ، أن يحلّها . فالطلب والعرض يتوازنان بشكل طبيعي والمجتمع متوازن أيضاً بشكل طبيعي لو أن كل فرد بحث ، كما في فلسفة بنتهام عن لذته القصوى ، حتى أن « بنتهام » استطاع أن يخلق من فلسفة اللذة ، أي الفلسفة الحسية المحضة أساساً لأخلاق جديدة ، فإذا بحث الفرد عن أقصى اللذة وأقل ما يمكن من الألم وصل إلى توازن لسلوكه يؤدي إلى توازن كل المجتمع وانسجامه . فاللذة القصوى لمجد حدّها في الألم الذي ينجم عنها . فإذا ضربت انساناً لأرضي رغبتي في الانتقام وفكرت أنني

يمكن من أجل ذلك أن أذهب إلى السجن عرفت أن تحقيق هذه الرغبة يوفر لي لذة أقل قيمة من الألم الذي يصيبني من جراء المكوث في السجن . هذه النظرة التناغمية للكون وللوجود ، هي الأساس الفكري أيضاً لفكرة الحرية والمجتمع الحر المكوّن من أفراد متساوين ، أي أساس المجتمع القائم على الحرية الفردية ورغم أن هذه النظرة لا تنسجم كلياً مع الواقع ، إذ أن الدولة تتدخل دائماً في الاقتصاد وتنظيم عمليات السوق ، كما أن القانون يتدخل دائماً في سلوك الأفراد ويماقب المسيء ، إلا أنها تبقى القاعدة الفكرية للبناء الاقتصادي والاجتماعي : القاعدة التي تعكس التيار السائد والعامل الغالب .

لقد أدخلت الحداثة إلى الفضاء العربي مفاهيم واصطلاحات وأسماء وأشياء وصوراً ورموزاً وآلات ونظماً صناعية وعسكرية ومدنية وعلومياً لا حدها . فماذا كان مصير هذه المفاهيم والرموز والنظم المادية والذهنية ؟ هل استطاع العقل باعتباره محرك الثقافة أن يضمها ويدمجها في الثقافة العربية ، أم لا ؟ هل استطاعت اللغة مثلاً أن تستوعب المصطلحات الجديدة وتعربها ، أي تجعلها جزءاً لا يتجزأ منها ، أم أنها هي التي انهارت أمام هذا الدفق السريع والمتواصل من المصطلحات ، وغرقت فيها ، فعجزت عن ضبط معانيها وأسس استخدامها ، وطريقة التعامل بها ، بحيث تحفظ للعقل انسجام مفاهيمه وللتفكير اتساقه ودقته ؟

وهل استطاعت النظم السياسية أن تستوعب القوة الجديدة التي أدخلتها التكنولوجيا العسكرية والمدنية ، فتحفظ للجماعة توازنها ، وتضبط استخدام هذه القوة ، وتحفظ بها في نطاق الوظيفة التي هي وظيفتها والمهمة التي جاءت من أجلها ، أم أن هذه القوة هي التي فرطت التوازن الاجتماعي وهزته ، وأعدت صياغته حسب مشيئتها وبما يخدم زيادة نموها وتفوقها ، فقضت على المجتمع السياسي والحقته بالسلطة العسكرية ؟ وهل استطاعت النظم الاجتماعية أن تستوعب نظام الدولة الحديثة القومية ، وتستخدمه لتعميق لحياتها الوطنية وزيادة قوتها السياسية ، وتحرير مبادرات أعضائها وحركتهم الحرة وإطلاق طاقاتهم المادية والفكرية ، أم أن هذه الدولة هي التي تسلطت على الجماعة ، وأعدت تقسيمها

ومزيجها بما يخدم زيادة دورها ومكانتها ، ووحدت نفسها بفئات أو طبقات أو عشائر أو طوائف محلية فأصبحت عبئاً على الجماعة وسيئاً لازدياد استلابها وتبعيتها وعبوديتها ؟

وهل نجحت المنظومة العلمية والتربوية في الاندراج ضمن النظام الثقافي للجماعة ، وتقديم الحلول والابداعات والتجديدات التي كانت ترقى منها لدفع عجلة التقدم الاجتماعي والمادي ، أم أنها عملت بالعكس على خلق مشكلات لا حل لها ، وأصبح العلم أداة ووسيلة ومرتعاً لتكوين نخبة متميزة تسعى لتحسين مواقعها واستغلال سلطتها أكثر مما تعمل على تطوير البحث العلمي والتفكير في مشاكل المجتمع عامة وإيجاد الحلول الملائمة لها ؟

سوف نحاول أن نبين في هذا الجزء كيف حاول الفكر العربي أن يجيب على هذا التحدي التاريخي الذي اسمه الحداثة : كيف فهمه وما هي الوسائل النظرية التي سعى من خلالها إلى استيعابه . ومن الواضح أننا لسنا هنا بصدد تقديم نظرية في الرد على هذا التحدي ، إنما نحن نحاول أن نفحص هنا دور الوعي العربي ، الوعي المثقف أي المنظم ، ونعني العقل العربي الحديث فيه . ولا شك أن مسألة اخفاق المجتمع في استيعاب هذه الحداثة وتحويلها من مشاركة سلبية استهلاكية في الحضارة الى مشاركة ايجابية وفعالة تخلق الرضى عن الذات بقدر ما تضمن استقلالها ولموها ، لا ترجع إلى الوعي ، وإنما إلى الغلبة الفعلية للنظم الاقتصادية والعقلية للرأسمالية كنظام اجتماعي . ولكن الخروج من هذه الغلبة يتوقف على الوعي الصحيح بها ولهمها . وقد يلعب الوعي دوراً فعالاً في تفكيكها ، كما يمكن أن يكون سبباً في ترسيخها وتعميق جذورها .

II

تأهيل التمدن : النمضة المستحيلة

لأن علة مراجعة العقل العربي لنفسه وللمفاهيم الكبرى التي تكونه كانت هذا التغيير ، أو هذا الحدث الكبير الذي اسمه الحداثة والحضارة ، كان سؤاله الأول الذي حكم كل الأجوبة الأخرى التي حاول أن يقدمها لفهم الواقع الجديد هو عن مصدر هذه الحداثة وأصلها وجوهرها . فكان سؤالاً في التاريخ أجاب عليه كما سوف نرى من خارج التاريخ وبصورة لا تاريخية أيضاً .

ولا شك أن فهم التاريخ هو الشرط الأول لفهم عملية إعادة الانخراط فيه والعودة إليه بالنسبة لجماعة شعرت بأنها مستبعدة منه ومطرودة من جنانه . والباعث عليه هو تفسير ما جرى ، واستنتاج العبرة من هذا الانقلاب الكوني ، والكشف عن قوانينه ، ورؤية النقائص الذاتية التي دفعت إلى نجاح هذا الانقلاب : « إن التمدن الاورباوي تدفق سيله في الأرض فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع ، فيخشي على الممالك المجاورة لاوريا من ذلك التيار إلا إذا حذوا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية فيمكن نجاتهم من الغرق »^(١) .

وعلى هذه الصرخة التحذيرية لخير الدين ، لم يكن هناك في الواقع إلا استجابة واحدة في صورة سؤال : ما هي أسباب هذا التمدن وما هي قوانينه ، أي كيف نستطيع أيضاً أن نعرف منه وندخل في دائرته ؟ وبدون استثناء ،

(١) خير الدين التونسي ، أقوم المسالك ... ص ٥٠ .

اكتشف العقل العربي مفهوم التقدم التاريخي ، وما زال حتى اليوم يسعى إلى سبر غوره والسيطرة عليه . وبهذا المفهوم أصبح التاريخ معقولاً ، أي أصبح من الممكن تفسير هذا الانقلاب الذي دفع أوروبا إلى القمة وأهبط العرب والمسلمين إلى القاع .

يقول عبد الرحمن الكواكبي : الترقى هو الحركة الحيوية ، أي حركة الشخص ، ويقابله الهبوط ، وهو الحركة إلى الموت أو الانحلال ، أو الاستحالة أو الانقلاب . فإذا رأينا في أمة آثار حركة الترقى (الشخص) هي الغالبة على أفرادها ، حكمنا لها بالحياة . ومتى رأينا عكس ذلك قضينا عليها بالموت^(١) . وقد وجد الطهطاوي لهذه الحركة نفسها قانونها عندما ربط بينها وبين الزمن فأعطى للتقدم مضمونه الخطي التعاقبي الذي صيغ كل تفكير النهضة العربية فيما بعد ، عندما كتب يقول : « كلما تقدم الزمن في الصعود رأيت تأخر الناس في الصنائع الشريفة والعلوم المدنية وكلما نزلت ونظرت إلى الزمن في الهبوط ، رأيت في الغالب ترقهم وتقدمهم في ذلك » . وحسب البعد عن الحالة الأصلية انقسم البشر إلى عدة مراتب : مرتبة الحمل المتوحش ومرتبة السرايرة الحشنيين ، ومرتبة أهل الأدب والطرافة والتحضر والتمدن المتطرفين^(٢) . ولم يبق للعرب سوى اختيار مكانهم على هذه الخريطة الكونية للتاريخ .

وقد عبر محمد فرياد وجدي عن حتمية هذا التقدم مسائراً فكر عصره ، مؤكداً إذن أنه لا محيد للعرب والمسلمين عن الانخراط فيه ، فقال : إن الناموس الأعظم للمدنية الحديثة هو ناموس التقدم والارتقاء ، أي جهاد الإنسان وكفاحه المتحمل من أجل التقدم بالإنسانية نحو الأمام ، توسلاً بمبدأ الحرية . ذلك أن العالم رغم المحن والكوارث يخضع لقانون التقدم^(٣) . هكذا وجد التاريخ اتجاهه ، وأصبح له قوام وجوهر هو الحركة إلى الأمام والتقدم الذي يحمل في

(١) طبائع الاستعداد ومصارح الاستعداد ، انظر الفصل السابع

(٢) تلخيص الأبرير في تلخيص باريس . ص ٧ .

(٣) المدنية والاسلام ، ص ١٢٤

طياته الترقى والمدنية . وأصبح بإمكان العرب أن يقرأوا على ضوء هذه الحركة الكونية ويفهموا ويصيفوا كلامهم ، وينسجوا على منوالها كيانهم فتحددت الأهداف وتحدت الوسائل وصارت الممارسة أو المبادرة التاريخية ممكنة منذ اللحظة التي أصبح فيها التقدم فكرة عامة وسائدة ، وأصبحت أهدافه وغاياته أهدافاً مقبولة بل مطلوبة .

وقد التقت في تأييد فكرة التقدم والأخذ بها تيارات التراث والحداثة وقلها السلفيون والعصريون ، والاسلاميون والعثمانيون . فلم يعد الاسلام مناقضاً أو منافياً للتقدم ، بل « إن كل ترق يحصل في العالم ، وكل خطوة تخطوها العقول في سبيل الكمال ليس إلا تقرباً إلى الاسلام »^(١) فالاسلام متقدم وتقدمي واحوال المدنية ماثلة فيه . والمقصود هنا بالطبع الاسلام الصحيح أو كما كانت تنظر إليه السلفية على أنه جوهر الاسلام وحقيقته المبرهنة عن ما أصابه من شوائب لاحقة . وقد أصبح الرهان على عدم التعارض بين الاسلام كتراث عربي ودين ، وبين التقدم كقانون للحضارة . ونموذج عربي ، هو في الواقع محور عمل رجال النهضة من الاسلاميين . فمهم من سعى إلى أن يبين كيف كان الاسلام بحث على التصحية والعمل والجهد . ومهم من سعى إلى الأخذ بالعقل ونيل التقليد والأعراف السيئة والحدائق . مهم من سعى إلى تعلقه بالحضرة . والسياسة المدنية غير الدينية ، ومنهم من أراد إصلاح المجتمعات ، إلى آخر ما هنالك من قيم إيجابية أو اعتبرت إيجابية لأرسناتها . وما يظهر من نماذج في العباد^(٢)

(١) المدنية والاسلام ، ص ١٢٩

(٢) مثلاً شكيب ارسلان لماذا تأخر الترميز . سبيل الاسلام في ميادين شريفة . الأخذ عن الغرب ما لم يكن يعرفه الإسلام نفسه . سبيل عبده مستشهد بقول ابن قيم الجوزية في الأحذ بأشكال الحكم العادل عند أهل الكتاب . إشارات العادل إذا غلبت سائر طريق كان فذاك شرع الله ودينه . والله تعالى أحكم من أي طريق اعتد بهنوه بنفي ما هو أظهر منه وأمين . رشيد رضا ، تاريخ الاستدلال . ص ١٨ . وفي عبده أن يكون الإسلام « أتواك أتاك » وقال « فالأمة ونائب الأمة » . ص ١٨ . والأمة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه ، وهي التي تلعبه متى . ص ١٨ . فهو حاكم ملهى من جميع الوجوه . الاسلام والتعصبات مع العلم . ص ١٨ . ص ١٨ . مصطفى السباعي

واعتبر العلمانيون . اليساريون والليبراليون ، أن التقدم هو هدف المجتمع الإنساني عامة ، والمجتمع العربي . فأصبحت التقدمية دين النخبة الحديثة المتعلمة ، لا يخلو كتاب من ذكرها أو الإشارة إليها .

وأصبح التقدم مطلباً عاماً . تقوم من أجله الثورات وتبرر به الحكومات إجراءاتها السياسية والاقتصادية . وصار مصدر مشروعية الكلام والعمل معاً ، لا ينتظم عقل بدونه ، ولا ممارسة خارج دائرته وهدف تحقيقه .

فباسمه وفي سبيله يهاجم أصحاب الحداثة خصومهم من التراثيين ، وباسمه أيضاً يتصدى التراثيون إلى خصومهم ويؤكدون بطلان دعوتهم وضعف حجاجهم . ولعل أفضل تعبير عن هذا ما ذكره محمد حسين هيكل الذي كان من دعاة التغريب والأخذ دون حدود عن الغرب ، فتحول إلى داعية للإسلام ومدافع عنه ، عندما كتب : « حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لتتخذها جميعاً هدى ونبراساً ، لكنني أدركت بعد لاي أنني أضع البذر في غير منبته فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تنبت الحياة فيه . وانقلبت الشمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعين موثلاً لوحى هذا العصر ينشئ فيه شاة جديدة ، فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعاً ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة .

وروات فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويشمر (. . .) لذلك لم يكن لنا مفر من العود إلى تاريخنا نلتهمس فيه مقومات الحياة المعنوية لتتقي الخطر الذي دفعت الفكرة القومية الغرب إليه » (١) .

هكذا أصبح الأخذ بالثقافة الغربية أو بالتراث وسيلة لإحراز التقدم أو

= المرشد العام للأخوان المسلمين في سورية كتابه اشتراكية الاسلام (١٩٥٩) وقال إن أهدافها هي نفس أهداف الإسلام ، واستند في ذلك إلى سيد قطب ونقده العنيف للرأسمالية وكذلك فعل الكواكبي بالنسبة للحرية . ومعنى عن الإسلام شهة تأييد الاستبداد . وما زال هذا الجهد لتفسير الإسلام أو كشف مسأيرته لقيم المدنية قائماً حتى الآن .

(١) أنور الجدي ، بقطة الفكر العربي ، ص ٢٩١ - ٢٩٦ .

النهضة ، وأصبحت قيمة كل منها كامنة في قدرتها على بعث هذا التقدم والحث عليه لا في ما تعبر عنه من قيم اجتماعية أو إنسانية مستقلة أو مكاسب علمية أو معرفية .

ولا شك أن أهم عنصر في هذه الرؤية الجديدة هو ربط التاريخ بالحضارة ، وتحرير الوعي التاريخي العربي من إشكالياته الماضية التي كانت تدفعه إلى الإكتفاء بما هو عليه ، وإلى الشعور بصلاحيته أنظمتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية . ففقد المجتمع العربي شعوره بأنه محور العالم ، وحامل مشعل الحضارة والمدنية . فأخذ يدرك محدوديته وينظر إلى نفسه في إطار الحركة الكونية العامة ، ويكتشف ما أطلق عليه انحطاطه ، بل يفهم تاريخه الماضي على أنه انحطاط وتراجع وتقهقر ليس بالمقارنة مع تاريخ الغرب فقط ، وإنما بالمقارنة مع تاريخ السلف الصالح أيضاً . وأصبح تقدمه ورائه وأمامه ، وبقي هو في منزلة الباحث عن نفسه والفاقد لقدرته ، والمعلق بين قطبي تاريخ يسعى إلى الولوج إليه .

وقد مس مفهوم التقدم الحضاري هذا أحد التوجهات الكبرى للجماعة العربية التي كان التاريخ يظهر لها كتجسيد لجهاد مستمر ومتواصل ومتشابه في أن معاً ، أكان جهاداً خارجياً ينشر الرسالة ويحقق ويؤكد عظمة الدين الحق وتفوقه وظهوره على الدين كله ، أو جهاداً داخلياً لمغالبة النفس والسيطرة عليها . وهكذا انتقل من تاريخ الجهاد لنشر العقيدة والمضائل المتعلقة به إلى تاريخ العمل لاقتناء وسائل الحضارة النامية عند خصومه وتحقيق أسبابها .

وقد ساهم اكتشاف فكر ابن خلدون منذ القرن التاسع عشر في تركيز هذا التوجه التاريخي وترسيخه كتوجه لا يتعارض مع المعقولة الإسلامية ، مما يفسر أيضاً السهولة التي انتشر بها فكر التقدم والقبول الواسع الذي حظي به ، فأصبح المفهوم الأول الذي بنى حوله الوعي العربي الحديث نظام عقله أو نظامه العقلي الجديد^(١) . ففي إطار هذا المفهوم ما زالت تدور المعارك الفكرية وبه تتحدد

(١) في الواقع ما لست فكر النهضة الذي أغرته معاني ابن خلدون عن المدنية وال عمران ، حتى اكتشف العارق الكبير بين مفهوم ابن خلدون التاريخي الوسطوي ، ومفهوم التقدم الحديث . وكتب رفيع

الأهداف الاجتماعية ، المادية منها والروحية ، وعليه تقوم النظريات الفلسفية والعملية ، ومنه تستمد الاشتراكية والليبرالية والتنمية والقومية والعلمانية والديمقراطية والوطنية قوتها ومعناها . وليس الخلاف فيما بينها إلا خلافاً حول أفضل الوسائل لتحقيق هذا التقدم وإحرازه .

وخضعت لهذا المفهوم القيم العقلية والأخلاقية والفنية . فأصبح الموضوعي والحسن والجميل هو ما يساهم في النهضة ويخرج الجماعة من الانحطاط والتأخر ، ويقوي إمكانية النفاذ إلى الحضارة . فصار التقدم معيار العقل والمعقولة في كل شيء .

النهضة

إذا كان التقدم حتمياً ، وكان هدف كل اجتماع بشري ، فالسؤال الذي يطرح نفسه عندئذ هو : لماذا تأخر العرب أو المسلمون ، ولماذا تقدم غيرهم ؟ أي كيف يمكن للعرب أن ينجحوا في الانخراط من جديد في دائرة التقدم والانتظام في سياقه ؟ لكن ما هو التقدم وما هو معياره ؟ وكيف يصبح مجتمع متقدماً وآخر متأخراً ؟ بالتأكيد إن بساطة هذا السؤال تحفي صعوبة الجواب عليه وإشكالية هذا الجواب . حتى أنه يبدو بديهياً للوعي العربي ومن الناقل طرحه . بل هو لم يطرح أبداً ، وإنما أجيب عليه في كل حقبة ، ولدى كل طرف حسب الظروف والمعطيات القائمة . لكن خير الدين التونسي لم يتجاهله وأظهر مضمونه الفعلي . إنه بالضرورة الآخر ، أي في الواقع الحضارة المعاصرة أو الدرجة الأخيرة التي وصلت إليها . فهو يقول : « هل يمكننا اليوم الحصول على الاستعداد الحربي اللازم لدفع خطر أوربا المشار إليه بدون تقدم في المعارف وأسباب العمران المشاهدة عند غيرنا . وهل يتيسر ذلك التقدم بدون إجراء تنظيمات سياسية تناسب التنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا . وهو يتابع مؤكداً على أن هذا لا

= المعظم (١٨٦٥ - ١٩٢٥) كتابه البيان في التمدن وأسباب العمران (١٨٨٧) ليصبح نظرية في أسباب تقدم المجتمع وانحطاطه يناقض فيها ابن خلدون ويظهر عدم حتمية الانحطاط نمشياً مع فكرة التقدم الحديثة .

يتنافى مع الشريعة : « في التأسيس على دعائمي العدل والحرية اللذين هما أصلان في شريعتنا ، ولا يخفى أنهما ملاك القوة والاستقامة في جميع الممالك » (١) .

ليس المهم هنا أن تكون مشروعية التقدم قائمة على ما يحمله للجماعة وللمملكة من قوة تفيدهما في درء الخطر الخارجي ، رغم أن هذا يعطي توجيهاً اجتماعياً محدداً للتقدم . ولكن المهم أن التقدم هنا يعني « إجراء تنظيمات سياسية تناسب التنظيمات التي نشاهدها عند غيرنا » . وهو ما يقال أيضاً عن التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية . إن معيار التقدم تحدده بالضرورة المجتمعات القائدة له ، بل هو يتحدد بها ومن خلالها سواء كان تقدماً اجتماعياً أم مادياً . إن التقدم هو في الواقع مسايرة العصر والمشاركة في نفس التنظيمات الحضارية وتمثلها ، أو هكذا يظهر على الأقل بالنسبة للجماعات التي وجدت نفسها بمعزل عن التجديدات الكبرى الروحية والمادية التي أدت إلى الحضارة ودفعتها إلى الأمام . ومشكلة التقدم ليست في هذا المنظور إلا تحقيق الارتفاع من درجة المدنية الدنيا إلى الدرجة العليا . وهذا الارتفاع العام للمجتمع ، وتحوله من حالة متأخرة إلى حالة متقدمة ، هو ما أطلق عليه الوعي العربي اسم النهضة . فالنهضة هي إذن نظرية الصعود من درجة إلى درجة أعلى ، أو هي إيصال العرب إلى مستوى الحضارة الكونية . ولا بد لها إذن أن تظهر العوامل الأساسية في بناء هذه الحضارة أي في اقتنائها . فإذا استطعنا أن نستخلص بالتحليل جوهر هذه الحضارة ، أي مصادرها الأساسية وأسبابها الأولى ، وأمکن لنا أن نتعلمها ونتمثلها حصلت القفزة ونلنا ما نريد .

والذي يميز النهضة عن الحداثة ، هو أن الحداثة تجري بشكل تلقائي ويومي ، وتتجسد في انتقال أنماط الحياة والسلوك والإنتاج الغربية دون تمييز إلى

(١) أقوم المسالك ، ص ٨ - ٩ . ويقول حس صعب في نفس السياق : « الإنماء هو قبل كل شيء علم بالتقدم وإعلام به لاستغزاز الاقتداء به ، أي إرادة التقدم أو إرادة التعبير لدى كل إنسان . فكل إنسان يرى صورة ذاته الأفضل في الإنسان المتقدم عليه ، كما يرى المجتمع - كما ذكر ماركس - صورة غده في المجتمع المتقدم عليه » . تحديث العقل العربي ، ص ٢٠٩ .

المجتمع العربي . وليست جميع هذه الأنماط دلائل حقيقية على الحضارة ، أو ليست جميعها من جوهر الحضارة وأسسها . فالنهضة كمنظريّة في الولوج إلى الحضارة تحدّد أولويات وتصيغ إذا صحّ التعبير استراتيجية للعمل الجماعي ، وتشير إلى معايير للاختيار بين الجوهر والعرض في هذه الحداثة وبين الصالح والطالح منها ، فتعزل بذلك الحضارة أو ما هو حقيقي فيها ، عن الثقافة الغربية ذاتها ، أو عما بقي من الثقافة الغربية القديمة فيها ، وما لا يتماشى مع الثقافة العربية أو مع جوهر هذه الثقافة .

وبمعنى آخر ، فإن النهضة كمنظريّة ، ما هي إلا محاولة لعقلنة هذه الحداثة العامة والداخلية حتّى إلى الحياة العربية . ومن الطبيعي أن تعني هذه العقلنة إخضاع الحداثة ، إضافة إلى المعايير العقلية ، إلى معايير اجتماعية (وحدة الجماعة) وأخلاقية (نجاعة القيم الإنسانية) .

وهذا لا يمنع من أن يكون لاستيعاب التجديدات الحضارية ، وبشكل أساسي ، التقنية ، الأسبقية على الاعتبارات الأخلاقية والاجتماعية ، إذ أن نداء التقدم نابع من الحاجة إلى تعظيم الفاعلية وزيادتها أكثر مما هو نابع من الحاجة إلى دعم الروح الجماعية أو الأخلاقية المتجذرة في الثقافة والتراث على كل حال . بل إن أول مهام النهضة كانت إعادة تأويل هذا التراث وتنظيمه بما يتيح إفراح المجال أمام دخول التجديدات الحضارية المادية والعقلية . وهذا ما قامت به الحركة السلفية بشكل رئيسي .

وأسبقية التجديدات التقنية المؤدية إلى زيادة الفاعلية في مفهوم النهضة العربية الحديثة ، هي التي تفسر التركيز المتزايد فيه على منظومة العقل والإيديولوجية كما سوف نرى ، على حساب مسائل الاعتقاد والأخلاق والإبداع الفني . ذلك أن منظومات القيم التي تشتق منها معايير الخير والشر أو المعايير الجمالية ترد على طلبات أخرى ولا تدرك من أفق التقدم المادي ، أي اللحاق بالحضارة واستيعاب أدواتها وتقنياتها . وهذه الطلبات هي بالضبط تلك التي تنبع من الرغبة في السيطرة على هذا التقدم وإخضاعه لوتائر وشروط تضمن الحفاظ

على ذاتية الجماعة وقدرتها على تحقيق التماهي بين أعضائها ، مما يفترض الاستمرارية الثقافية والتاريخية والوحدة والتجانس . وكلها شروط لا تلائم إرادة التغيير الجذري والانقلاب الذي لا يتم إلا بالقطعية : مع الماضي ، وداخل المجتمع ذاته أي يكسر التوازنات العميقة التي تبني استقراره وتعمل على إعادة إنتاجه كما هو .

هكذا تحدد النهضة كمفهوم أولوية التغيير والتحول ، أي التغلب على الانحطاط ، وتمثل الإبداعات الجديدة . ويفترض التغيير الثورة على الوعي القائم وعلى منظومة القيم التقليدية السائدة . وسواء تعلق الأمر بالمصلحين الإسلاميين من أمثال محمد عبده أو رشيد رضا ، أو بالمحدثين ، فإن تغيير هذا الوعي من وعي تقليدي وخرافي إلى وعي عقلي وعلمي هو طريق التطور ، وهو بمثابة إعداد التربة الصالحة لكل تغيير إيجابي مقبل . وه إن بقاء هذا التغيير العقلي المنهجي هو المسؤول الأول عن بقاء التقدم في العالم العربي وفي سائر أنحاء العالم الثالث . فالشرط الأول للتقدم هو في عقل الإنسان . والإنسان الواعي لتخلفه وتقدم غيره هو الذي يندفع في طريق التقدم (١) . وكل ما يطمح إليه أنصار التغيير ، ونقصد بذلك ، كل حجتهم العقلية في دفع الوعي العربي إلى تبني مبدأ التغيير والارتقاء في بحر الحضارة ، هي إبراز التفاوت المتزايد بين تخلف العرب وتقدم الغرب ، وهذا منذ القرن الماضي إلى اليوم . فكيف يصبح الوعي العربي وعاء قابلاً وصالحاً للتغيير ، أي أيضاً ما هي طريق النهضة ووسائلها ؟

وماذا يعني الوصول إلى وعي حضاري ، أي مماثل للوعي الغربي الحديث الذي هو في هذا المنظور وبالضرورة مولد الحضارة ؟

وماذا يعني أيضاً تحديث العقل ، أو تجديده أو إصلاحه ؟

لعل أفضل من لخص إشكالية النهضة من وجهة نظر الإصلاحية أو الحداثية الإسلامية ، وحاول أن يجيب على هذه الأسئلة ، هو الحلبي عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨ - ١٩٠٢) في كتابه أم القرى .

(١) حسن صعب ، تحديث العقل العربي ، ص ١٩

تؤكد التجربة التاريخية ، كما يقول متحدثه الأول في الاجتماع الوهمي الذي نظمه للعلماء المسلمين في مكة ، أن أمماً كالأمة الرومانية واليونانية والأمريكية والإيطالية واليابانية استطاعت رغم الانحطاط أن تتجاوز ضعفها وتنهض من جديد . وليس بيتنا نحن العرب وعرب الجزيرة خاصة ، وبين الأمم الأخرى الحية والمعاصرة ، أي اختلاف سوى في العلوم والأخلاق . ويحتاج تعلم العلوم إلى عقدين من الزمان ، أما الأخلاق فلا تثمر قبل ٤٠ عاماً .

إن الانحطاط الأخلاقي أمر طبيعي سبه سيطرة المذاهب الجبرية المرتبطة بأخلاق النقشف وغياب الطموح المادي واندثار المشاعر الكبرى كطلب المجد والقوة والعزة . أما تشويه الدين وفساده فيرجع إلى خضوع العلماء للسلطة التي عيّنهم في المناصب ، فمن أجل المحافظة على مصالحهم لا يترددون في مسaire السلطة الفاسدة . لكن إذا كان العلماء قد سقطوا إلى هذا الدرك فلأنهم تجاهلوا العلوم الطبيعية بينما لم يكف الغرب عن تشجيعها والتشبع منها . ولا يمكن للعلم إلا أن يدعم الاسلام لأن الخرافة لا يمكن أن تتعايش في نفس الدماغ مع العقل .

إن سبب التأخر الأساسي كما يقول عالم نجد هو الاسلام نفسه . لأن اسلام اليوم لا علاقة له إطلاقاً بإسلام الماضي . وتشويه الدين ذو نتائج خطيرة إذ هو الدستور الذي لا حياة لجماعة بدون . وقد أدت التفسيرات السيئة للشريعة إلى إفساد الدين ، ودفعت الأمة إلى البربرية . لكن كيف يمكن تجديد الاسلام ؟ ليس هناك إلا نشر العلم وقيم النهضة ، من تحرر عقلي وإدانة للروح الجبرية والإتكالية ورفض للزهد الصوفي الذي يعكس الرغبة في الانسحاب من العالم بدل الانخراط فيه وبذل الجهد ، وكل هذا يؤدي إلى الانقسامات المذهبية والتعصب وغياب التسامح .

فالإنحطاط يترافق ، ويعرف نفسه ، بكل المفاسد السياسية كالاستبداد والشقاق والنزاعات المستمرة واحتقار رجال العلم وتسليم أمور الدين إلى الجهلة والمنافقين . وليس الإنحطاط ذاته إلا ثمرة لليأس والقنوط والجمود والانانية

والتحلل الأخلاقي وانحلال الروابط الدينية والقومية ، وفساد التعليم والتربية ، والاستهتار بالحقوق العامة ، وسيادة الروح العسكرية وغياب روح الحوار والمناقشة في إدارة الشؤون العمومية ، والضعف أمام الالحاد وآثاره الخبيثة .

وليس من المهم أن نركز على هذا التفاؤل المفرط في سهولة حصول الإصلاح والنهضة الذي يعكس مناخ الحقة وسذاجة إدراكها لعمق التغييرات الحضارية والدولية الحاصلة . وإنما المهم إدراك كيف أصبح العقل هو جوهر الحضارة ، وأن عليه يتوقف معاً تجديد الدين وتجديد المعرفة الإنسانية .

أما حول مضمون هذا العقل وطبيعته بالمقارنة مع ما كان له في الماضي من معاني ، فإن الأفغاني لا يتردد في تعيينه وتسميته . ففي مقاله « شرح الشارح »^(١) يقول : إن جهل الشرقيين أدى إلى انحطاطهم بقدر ما أن العلم ساعد الغربيين على السيطرة عليهم . وما كان بمقدرة الغرب أن يقوم بالفتوحات التي قام بها بدون معارفه . إن ملك العالم ليس ما نراه من ملوك ، إنما هو العلم فلم تقم بدونه ولا يمكن أن تقوم أية مملكة . وإذا تمعنا في أسباب نجاح فتوحات الكلدانيين وإنجازات قادة فتوحهم الذين وصلوا بلاد التار والهند ، فسوف ندرك أن الفاتحين الحقيقيين لم يكونوا الكلدانيين ولكن العلم والمعرفة .

فمن المؤكد أن السيادة لم تترك مملكة العلم أبداً . إذ أن كل ما حصل هو أن الملك (العلم) قد غير عاصمته من وقت لآخر . وقد انتقلت هذه العاصمة بالتأوب من الشرق إلى الغرب . ومن الغرب إلى الشرق . ومن هنا لو نظرنا إلى ما في العالم من كنوز وثروات متراكمة فسوف نرى أنها ليست جميعها إلا ثمرة التجارة والصناعة والزراعة ، وهي نفسها من منتجات العلم .

ويتابع الأفغاني هذا النشيد الملحمي لمجد العلم ، فيستقد علماء عصره ، ويصف جهلهم مؤكداً أن العلم لا يعرف الحدود الجغرافية والزمنية والقومية

(١) هو مأخوذ من ، جمال الدين أحمد أبدي الملقب بالأفغاني ، (بالفرنسية) باريس ١٩٦٩ . والنص مكتوب بالأصل بالفارسية .

فهو هذه الفاعلية النبيلة التي لا تتبدل مع تبدل الشعوب، والتي لا يمكن أن تعرف إلا بذاتها . ولذلك إن على الإنسان أن يكرس نفسه للعلم وليس على العلم أن يخضع للإنسان أو يكرس له . ومن هنا يستتج أن الإصلاح مستحيل في بلاد المسلمين ما دام علماء الدين لم يصلحوا عقولهم ويستفيدوا من العلوم والثقافات .

ثم إن هذا العلم ، لا فضل لأحد معين فيه ، بل هو ملك الإنسانية وثمرة نشاطاتها الجماعية . وبالتالي فإن الأخذ منه لا يعني أبداً الأخذ بعادات وقيم ومعارف أجنبية أو غريبة . وكان الأفغاني يكمل هنا الطهطاوي في تبريره وتشريعه للاقتباس من الغرب حين ذكر أن الاختراع ليس كفرةً وإنما هو علم ، والعلم اكتشاف الأسرار التي طواها الله في خزائن الأسرار ليشفّل الإنسان عقله . وميز بذلك بين الاختراع النافع والبدعة الفاسدة التي تؤدي إلى الضلالة ، والضلالة تؤدي إلى النار^(١) .

والنتيجة أن الأفغاني حدد العقل بالتطابق مع العلم والمعرفة البشرية كما هي مجسدة في الواقع وفي التاريخ . وأصبحت العقلانية هي الاستقاء من هذا العلم والاستزادة منه والتكون على مثاله أو بما يوافق تمثله . وقد تابعه خلفه في هذه النظرة إلى العلم . فكتب رفيق العظم أن « من أهم ما يتوقف عليه تقدم الإنسان ويطرق به إلى درجات الفضل والعرفان ، العلم الذي هو أس الكمالات البشرية ، وعنصر التقدم بالهيئة الاجتماعية »^(٢) . وذكر قاسم أمين (١٨٦٥ - ١٩٠٨) ، « أن نتيجة التمدن هي سوق الإنسانية في طريق واجدة ، وإن التباين الذي يشاهد بين الأمم المتوحشة ، أو التي لم تصل إلى درجة معلومة من التمدن منشؤه أن أولئك الأمم لم تهتد إلى وضع حالتها الاجتماعية على أصول علمية »^(٣) .

وكانت هذه النظرة إلى العلم كميدان محايد للمشاركة الإنسانية ، وكنموذج

(١) ر . رافع الطهطاوي ، مناهج الألباب ص ٤٤١ - ٤٤٣

(٢) م . مذكور . ص ٤ - ٦

(٣) تحرير المرأة (١٨٩٩) - القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٨٦

لعقلانية كسونية أو عالمية مستقلة عن المجتمعات والشعوب والثقافات الخاصة وقائمة فوقها ، قد أزال المخاوف من أن يتعارض العلم مع الدين ، ودفعت إلى الإنكباب عليه ، وأضعفت مقاومة التيارات المحافظة التي كانت تنظر إليه كدخيل يهدد العقائد والثقافة المحلية .

وقد طبعت هذه المبالغة في تقدير دور العلم ومكانته فكر تلك الحقبة كله بطابعها ، لا فرق في ذلك بين الإسلاميين السلفيين أو المحدثين العلمانيين . حتى كتب صلاح الدين القاسمي « إن زعماء الإصلاح اليوم أحد رجلين : رجل لا يالو جهداً في الدعوة إلى العلم لاعتقاده أن الأمم لا تستب لها عوامل النهوض ولا يمكن أن تقوى في معترك الحياة بإزاء الأمم المتقدمة وقوى مدنياتها الحاضرة ، إلا إذا عم بين طبقاتها العلم ، ورجل لا يفتر عن جذب أفئدة الأمة إلى الميل إلى العلوم الاجتماعية وأخذ النفوس البشرية بأهدائها » (١) . « فقد أجمع العقلاء من العلماء قديماً وحديثاً ، كما يقول ، على أن نهضة الأمم تتوقف كل التوقف على إشاعة العلم الصحيح بين أبنائها » (٢) .

ولعل الإشارة إلى الفئة الداعية إلى العلوم الاجتماعية تعني رجالاً من أمثال شبلي شميل الذي أثارت ترجمته وتبنيه للفلسفة الاجتماعية التطورية لبوخنر ، والمشتقة من الداروينية ، ضجة كبيرة في وقتها . ولا يقول شميل في الواقع شيئاً مختلفاً جوهرياً عما يقوله الأفغاني بخصوص بناء التقدم والنهضة على العلم ، والعلوم الطبيعي بشكل خاص . لكن اختلافه نابع من أنه يجعل من النهضة ومن العلم الذي يجسدها مفهوماً ضيقاً منافياً لكل اعتقاد ديني أو فلسفي . فهو يصع العلم بديلاً للدين ، لا أداة للتقدم المادي والاجتماعي والعقلي ، بما فيه تقدم الوعي الديني . فبينما كان الأفغاني يحلم بلوثر عربي أو إسلامي يعيد تطهير الدين ويقوم بإصلاحه حتى يلائم معطيات العصر ، كان شبلي شميل يدعو إلى التخلي

(١) صفحات من تاريخ النهضة العربية في أوائل القرن العشرين ، لتحقيق محب الدين الخطيب .

دمشق ١٩٠٩ . ص ٢٤ .

(٢) ج . م . ص ٧٦ .

كلية عن الدين ، بل عن كل فكر مختلف عن العلم الطبيعي . حتى أصبح من المشروع أن نقول إن فلسفته الاجتماعية هي إنكار العلوم الاجتماعية ومن ورائها المجتمع ذاته ، رغم أن هذه العلوم هي موضوعه الأساسي .

يؤكد شبلي أن العلوم الطبيعية (وليس العلوم عامة) هي السبب الوحيد في التطور الاجتماعي . وأن تطور هذه العلوم غير ممكن مع بقاء الدين ، ولا يحصل إلا بالقضاء على كل المعرفة اللاهوتية والفلسفية والميتافيزيقية ، بل وعلى العلوم الأدبية واللغوية والتاريخية المليئة في نظره بالأساطير . ورغم ما يبدو على هذه النظرة من مغالاة وتطرف ، إلا أنها سوف تساهم كثيراً في تحديد وتضييق مفهوم العلم في الفكر العربي الحديث وتحوله إلى منظومة مغلقة ومعرفة يقينية ثابتة وتفقد ديناميته . وسوف تجد في الماركسية العربية في فترة متأخرة تربة خصبة لتجديد شبابها وتصوير المجتمع كحتمية طبيعية عمالة في تطورها وقوانين حركتها لتطور الطبيعة . إن كل تيارات نقد الدين والثقافة المحلية ، سوف تجد في هذه المطابقة لعلوم المجتمع على علوم الطبيعة أداتها الرئيسية لدفع ايدولوجية التقدم إلى نهايتها . فما دام العلم هو مصدر التطور وما دامت العلوم الطبيعية هي النموذج الأعلى للعلم ، فإن كل ما لا يتفق مع هذه العلوم لا بد أن يعيق حركة التقدم ويقف عثرة في وجهها . يقول ش . شميل : إن التفاوت بين الأمم والممالك والشعوب من حيث التقدم يعود إلى تفاوت هذه الأمم في امتلاك العلوم الطبيعية . « ونجد أنه حيثما كانت علوم الكلام والنظريات المترتبة عليها منتشرة أكثر كانت العلوم الطبيعية منحطة وكان الإنسان متقهراً وحالته الاجتماعية سيئة كذلك . والضد بالضد » ^(١) . بل إنه يشتق نظاماً أخلاقياً اجتماعياً من هذه النظرية ، فيؤكد أن العلوم تعلم الحرية والمساواة وتقود إلى القبول بتغيير القوانين وتعديلها حسب تغير الزمن والمجتمعات . بينما تعلم الشرائع الدينية الخضوع وتدفع إلى القبول بالاستبداد وعدم المساواة والتمييز الاجتماعي . فالهدف الاجتماعي للعلم الذي يجب أن يكون « دين الحقيقي للإنسانية » هو تحقيق

(١) « نشوء والإرتقاء » ، ١٨٨٥ ، ص ٣٤٥

الأخوة بين جميع الناس بغض النظر عن الحدود الوطنية . وهو يستتج من ذلك أن الاشتراكية هي النظام الاجتماعي النابع من العلم . ولا بد للتقدم العلمي من أن يقود إلى زوال جميع الدول المشادة على الدين .

إن التأكيد على عالمية العلم وعلى إنسانيته كانت وما زالت في إيديولوجية التقدم العربي عنصراً أساسياً في مقاومة النزعة القومية ، وبشكل خاص نزعة الخصوصية والتأكيد على استقلالية الذات العربية وتميزها . وعلى كل حال فإن هذه الخصوصيات مقضي عليها بالزوال لأنها نابعة من عصر آخر غير العصر العلمي ، وهي توحى بطريقة أو أخرى بالدين وبما يمثل في نظر هذه الإيديولوجية من قيم تقليدية قديمة ومحافطة . يقول سلامة موسى « لم تكن النهضة في الماضي وهي لا تعني الآن سوى « البشرية » ، أي أن البشر أو الإنسان يجب أن يشتغل ويعتمد على نفسه في هذا العالم ويعمل لحضارته وسعادته في جراءة وفهم . إذ ليس له في هذا الكون كله ما يعتمد عليه سوى عقله . وليس له خلاف هذا العالم عالم آخر يمكنه أن يطمح في تحقيق سعادته فيه . وإن الإنحطاط لم يكن في القرون الوسطى ، وهو لا يعني الآن في الشرق أو الغرب سوى قصر الذهن البشري على خدمة ما وراء الطبيعة ، ونشدان السعادة والهناء في غير هذه الأرض والاقتصار في الفنون والعلوم على خدمة الآراء بل العقائد الدينية » (١) .

ولم يكن الانزلاق من تقدير العلم إلى رفض التراث باعتباره مرادفاً للتقدم والتأخر ، وتوحيده مع الدين ، أمراً صعباً أو غير متوقع . بل يمكن القول أن نظرية النهضة قد انتقلت تدريجياً وعفوية من فكرة تأكيد العلم كمصدر للحضارة ، إلى فكرة أن التراث والدين والتقاليد هي مصدر الإنحطاط . وصار الاجتهاد لإدخال العلم إلى المجتمع العربي يتوقف هو ذاته على النجاح في تحطيم هذه البنى القديمة . وبذلك تكون معركة النهوض قد تحولت من ترجمة العلوم وإفساح المجال لها في صلب الدين والتقاليد والتراث ، إلى العمل على إزالة هذه التقاليد وتصفيتها . لذلك يستتج س . موسى « أن أعظم العقبات التي تؤخرنا

(١) مقالات ممنوعة ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢١

في مصر كما تؤخر كثيراً من أمم آسيا وأوروبا ، بعد الاستعمار ، هي هذه الرواسب من الثقافات والتقاليد والغيبيات الفرعونية والبابلية وأمثالها التي انحدرت إلينا . وهي تتخذ ألواناً من الصيغ والأساليب ، وتعرض عجلة التاريخ وتعوق التطور . وليس لذلك من دواء إلا العلم « وهو نار كاوية تحرق جميع الرواسب وتبدد عفنها هباء » (١) .

وبين هذا الموقف المعادي للتراث ، وموقف رفض الذات والتماهي مع الآخر ، لم تبق إلا خطوة واحدة ، وقد قطعها طه حسين ففتح في إيديولوجية التقدم العربي باباً لن يغلق بعده أبداً ، رغم أن طريقة التعبير عنه ، والجرأة عليه لن تكون واحدة ، لكن المضمون لن يتغير : نحن لا شيء وأوروبا أو الغرب هما كل شيء . يقول طه حسين إن مستقبل مصر مرهون بأخذها مثل الحضارة الإنسانية وبالفصائل المدنية والديمقراطية كما مثلها الغرب . وعلى مصر أن تصبح جزءاً من أوروبا ، وأن تسير سيرتهم في الحكم والإدارة والتشريع : « علينا أن نصبح أوروبيين في كل شيء » . قابلين ما في ذلك من حسنات وسيئات . فبين الشرق الروحي والغرب العلمي ، لا يمكن لمصر إلا أن تختار الغرب ذلك أن ما يربطها بالشرق سطحي وعابر . والوحدة الدينية تظل قاصرة عن أن تكون أساساً لأسرة اجتماعية سياسية . إن تاريخ مصر قد تحقق دوماً مع اليونان من خلال الصلات العضوية الجوهريّة بالمدينيات الغربية ، وإن مصر قد استعادت منذ ابن طولون شخصيتها القديمة (٢) .

ولعل الضجة التي أعقبت صدور الكتاب بهذه الآراء ، والردود العنيفة التي لقيها ، تدل إلى أي حد كان لهذه الأفكار صدى لدى النخبة الاجتماعية في ذلك الوقت . فهي ترد في الواقع أو تستجيب لرغبة جامعة وعميقة في حرق المراحل والدخول أخيراً في الحضارة . وبدلاً من الحث على بذل الجهد وتجديد التراث وخوض المعارك المستمرة مع أنصاره والمدافعين عنه ، يقدم طه حسين في الحقيقة

(١) تربية سلامة موسى ، القاهرة ، ص ٢٧٥

(٢) مستقبل الثقافة في مصر ، ١٩٢٨ ، ص ٤١ - ٤٢ - ٤٥ - ٦٥ .

حلاً سحرياً عظيماً . إذ يكفي الانتهاء إلى الغرب وحضارته عناء الصراع الدائم من أجل معرفة ماذا نأخذ وماذا نترك ، وما هو الصالح وما هو الطالح في الفكر الاوربي .

إن موضوعات الإشادة بالعلم كأصل التقدم والنهضة والمدنية ، ونقد الفكر الخرافي والسحري والاسطوري والغيبى الدينى ، ونقد الشرق باعتباره هوية أو كيئناً متأخراً من كل النواحي ، والتأكيد على القومية كلحمة وطنية تقود إلى العالمية ، ونقد التراث والخصوصية ، والإشادة بالآلة والتقنية وقوى الإنتاج والصناعة كمصدر لانتاج عقلية علمية منافضة للعقلية الاسطورية التي تخلقها الزراعة ، وتأكيد العلمانية ضد خطر السلطة الدينية ، قد أصبحت موضوعات شائعة ويومية في أغلب الصحف والكتب والمجلات العربية .

يقول زكي نجيب محمود : « التحول في عصرنا هو نحو أن يكون الناس ذوي علم وصناعة » . والتقدم أينما حدث في عالمنا المعاصر خطواته المحتومة هي : علوم فتصنيع فتهديب للتقنيات يترك للآلة أن تسيّر الآلة (١) . « وسريد اليوم من ينهض ليقتل قابيل الزراعة ، حتى يخلي المكان لمرحلة ثالثة هي مرحلة الصناعة الآلية ، الصناعة التي لا تحتاج من الإنسان إلى عضلات ذراعه أو ساقه ، وكل ما تحتاج إليه أزرار تضغط عليها أضعف الأنامل ، فتأودر العجلات وتؤدي الآلة سائر الشوط كله » . « ولو تحقق التحول على هذا الوجه ، انتقل الإنسان من فكر إلى فكر ، من حياة إلى حياة ، من أخلاق ومعايير إلى أخلاق ومعايير ، إنه ينتقل من ثقافة « الكلمة » إلى ثقافة « التشكيل » الذي يغير بها وجه الأرض ، ويحاول بعدها أن يبدل وجه السماء وأجرامها ، على الأقل بأن يزيغ عنها السحر ويرفع النقاب (٢) » .

(١) (٢) تجديد الفكر العربي ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٥

الحدث

إن الجماعات ، على حسب عطالتها وحمودها يكون ولعها بالخوارق والمعجزات . وقد نظر الوعي العربي الحديث إلى العلم وإلى التقنية فوجد فيهما السحر الشافي لجميع الأدواء . وزاد من قوة هذه الصورة تواتر الاختراعات العلمية والالكترونية والفضائية التي توحى بإمكانية الحصول على كل شيء دون جهد سوى الضغط على الأزرار . ولما لم تتحقق هذه الصورة ، وبقي العالم العربي كما هو رغم زيادة عدد المدارس والعلماء ، لم يجد الوعي الحديث تفسيراً لهذا القصور إلا في التراث . فأصبح هذا الأخير ، كما ذكرنا ، هو القيد الذي يحرم الوعي من الإنطلاق نحو العصرية ويغلق عليه أبواب الجنة . فأصبحت النهضة ثورة على التراث ، وأصبح إقصاء التراث عن التاريخ ، وإبعاده عن مناحي النشاط الاجتماعية والفردية ، هو أساس التقدم وشرطه معاً . وهذا الإقصاء هو الذي أخذ اسم الحدث التي حلت محل تعبير النهضة . فقد كانت النهضة تعني استيعاب الحضارة ضمن التراث ، أي نهضة للذات التراثية نفسها ، أما الحدث فهي تفترض بالأساس أن هذه الذات تخفي خطر الخصوصية المبعدة عن الحضارة والمبررة للحفاظ على التقاليد . فالحدث ليست مشروعاً تاريخياً اجتماعياً كالنهضة وإنما هي سياسة وممارسة يومية ، هي تغيير في كل الاتجاهات لبنى الواقع والفكر العربيين . إنها اندراج دون أوهام في العالمية والحضارة المادية ، وأولوياتها هي إنهاء هذه الخصوصية وذاك التراث . يقول زكي نجيب محمود : « هذا التراث كله بالنسبة إلى عصرنا قد فقد مكانته ، لأنه يدور أساساً على محور العلاقة بين الإنسان والله ، على حين أن ما نلتزمه اليوم في لفظة مؤرقة هو محور تدور عليه العلاقة بين الإنسان والإنسان »^(١) . فالوصول إلى ثقافة علمية وتقنية صناعية « لن يكون بالرجوع إلى تراث قديم ، وأن مصدره الوحيد هو أن نتجه إلى أوروبا وأمريكا نستقي من منابعهم ما تطوعوا بالعطاء وما استطعنا من القبول وتمثل ما قبلناه »^(٢) .

(١) (٢) المرجع المذكور ، ص ١١٠ - ٨٢ .

هذا هو الحل الأخير الذي يراه « مفكر الجيل » لمسألة النهضة والحداثة والتقدم العربي . لكن هناك من هو أكثر استعجالاً منه للخلاص من التراث ووصول الهدف حتى لو احتاج الأمر ، ولماذا لا ، إلى العنف . « فما دام التحديث ضرورة للتقدم ، والتقدم يجري بالسرعة الحارقة التي نشهدها ، فإن التمهّل في إزالة عوائقه باسم التدرج أو التطور هو إيغال في التخلف بسوعي وبدون وعي »^(١) .

ولأنه لا يفرّق في التراث بين الصالح والپالاح ، فالتحديث ، لا يقبل كانهضة نظرية الاصلاح ، ولا التوفيق أو المساومة . « إن التحديث طريق ثوري للتقدم . إنه يتطلب تغيرات نوعية وكمية سريعة في الفكر والسلوك ، وليس هناك من يماري اليوم في ثورية التحديث أو ثورية الانتقال من التخلف إلى التقدم . ولكن التساؤل هو حول العلاقة بين الثورة والعنف (كذا) وليس النضال في سبيل التقدم ، أي في سبيل التحديث أقل خطراً من النضال في سبيل التحرر السياسي . ولذلك يبدو العنف فيه حقاً للانسان المناضل أو الثائر في سبيله إذا تعذر عليه سبيل الاقناع السلمي »^(٢) . ونستطيع أن نقول أن هذه الفتوى قد وجدت أكثر من اذن صاغية لدى أكثر من نصير للتقدم العربي بالمعنى المذكور . بل إن هناك من فسّر هذا النداء كدعوة إلى الرقابة على الضمير وتشريع تغير وتبديل اعتقادات الناس قسراً كما في القرون الوسطى . لأن « المجتمع العربي ما يزال في بنيته الايديولوجية الغالبة ، مجتمعاً تقليدياً ، غير أنه ، مع ذلك ، يتحرك ايديولوجياً (بحق !) بقيادة أقلية طليعية في اتجاه الحداثة »^(٣) . ومن المنطقي إذن أن يحتاج التحديث إلى طليعة أقلية ، بل إن عكس ذلك مستحيل ، ما دام المجتمع العربي ، « والثقافة السائدة فيه ، أي ثقافة الجماهير ، ثقافة تقليدية متخلفة »^(٤) . لذلك « يحتاج المجتمع العربي إلى تغير جذري وشامل ، لا يتم إلا بالثورة (. . .) وهذا لا يتم بمجرد تغير نظام الحياة حوله ، بل يجب أن يرافقه تغير لنظام الفكر »^(٥) ثورة وعنف تقودهما أقلية طليعية ضد الأكثرية المتخلفة من

(١) (٢) حسن صعب ، م . م . ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٣) (٤) (٥) أدونيس ، الثابت والتحول ، صدمة الحداثة ١٩٧٩ ، ص ٢٤٠

الجماهير ، هي صورة متقدمة للحدائث ، صورة عملية تقتضي بتر ما يعيق التماهي مع الحضارة وتدميره . فكما أن التخلي عن الذات هو شرط التقدم فإن تدمير هذه الأغلبية المتأخرة المعبرة عن الذات واللاصقة بها ، هو شرط الترفي للمتقدم .

ومن نفس المنطلق التقدمي والتحديثي « يصفق » نديم البيطار « لهزيمة حزيران - يونيو ١٩٦٧ » التي لا بد أن تقضي على كل البنى التقليدية في المجتمع العربي . إذ سيصبح العرب أكثر من أي وقت مضى أمام اختيار لا مهرب منه فلما التخلص من التقاليد أو الإبقاء على الاحتلال الصهيوني ، لأن التخلص من التقاليد هو شرط التخلص من الاحتلال^(١) . هذه هي الفعالية الثورية للنكبة .

وقد قادت الحدائث والثورة التي تتضمنها الفكر العربي الحديث عموماً إلى الماركسية . بل إننا نعتقد أنها كانت الدافع الرئيسي إلى تبني الماركسية من قبل أوساط واسعة من الحجة العربية ، وما زالت المحرك الأساسي لها أيضاً . لذلك أيضاً بقيت الماركسية العربية تعيش في مناخ الثورة على التقاليد ، والدين خصوصاً . وائس هناك أوضح مما كتبه ياسين الحافظ في سيرته الذاتية واصفاً تسيه للماركسية بعد أن كان من القوميين ، والارنساط في دمه بين الثورة على القديم وتحقيق العدل والاسانية . يقول الحافظ « قدمت لي الماركسية مشروعاً ثورياً شمولياً ينقض بلا هرادة النيان المحرّب المفقوت الذي للمجتمع العربي ويعوضه بمجتمع حديث وعادل وعقلاني »^(٢) .

ولا شك أن الماركسية قد أنقذت ايدولوجية الحدائث من طابعها السوقي

(١) الفعالية الثورية في النكبة ، ص ١٢٥ وللكاتب نظرية طريفة في التقدم والتأخر ، فهو يرى أن الأمم المتخلفة هي التي ما زالت تسيطر عليها الإيدولوجية الدينية كالسعودية والحشة (ربما لم تعد الآن) وتبيلد أم الأمم المقدمه فهو التي وصلت إلى الطور الرابع من التطور الإيدولوجي وهي رومانية والصين وكوريا . ولا شك أن عليه أن يصيف إليها الآن الحشة واليمن الحسوبي وكمبودية إلخ

(٢) المرحلة والإيدولوجية المهزومة ، بيروت ١٩٧٩ ، ص ٢٤ - ٢٥ .

الفج المعادي بشكل ظاهر للمجتمع وللجماعة من خلال عدائه للتقاليد التي أصبحت رمزاً لها ، ووضعتها في سياق ايديولوجية عالمية وإنسانية ، فأصبحت الثورة على المجتمع ، ثورة للمجتمع . فلم يعد الدين كمحور التراث والتقاليد يشكل مثلاً للجهل والتخلف ، وإنما أصبح يشكل أيضاً أساس استلاب الطبقات الفقيرة ، وأصبح العمل لازالة هذا التراث هو معركة تحرير للجماهير ذاتها . فأصبحت الطليعة الأقلية ممثلة لحقيقة الجماعة وروحها ، ولم تعد نخبة متميزة معادية لها . وبذلك أصبح أيضاً للعنف معنى تاريخي جديد وشرعية اجتماعية . ولا بأس لو استخدم ضد هذه الجماهير ذاتها ، فمن الممكن أن يكون أصحاب المصلحة في التغيير أكبر عائق أمامه^(١) .

لقد قلبت الماركسية العربية المعادلة النظرية أو الايديولوجية التقليدية في الفكر العربي ، فأصبح الدين ، بما هو نموذج للفكر المحافظ ، ايديولوجية الخاصة والطبقات العليا المدافعة عن مصالحها ، وأصبحت الحداثة ، دين العامة المطالبة بالتغيير والثورة . وبعد أن كانت الشكوى في مطلع النهضة تدور حول محافظة الشعب وتمسكه بالتقاليد صارت موجهة نحو محافظة الطبقات العليا ورجعيتها لكن هذه المعادلة سوف تتعرض من جديد للاهتزاز مع صعود التيارات الإسلامية الجهادية والمطالبة بالتغيير ، فيصبح الدين ايديولوجية شعبية وثورية مآ ، وقرند ايديولوجية الحداثة الى دائرة النخبة وتتخذ مواقف محافظة . وهذا الاهتزاز سوف يؤثر أيضاً على مصير الماركسية التي فقدت بذلك أهم وظيفة ايديولوجية . لها ، وهي توير الحداثة ، ليعزلها في أضيق دائرة .

لكن قبل ذلك ، بلغت ايديولوجية الحداثة مع الماركسية كقماط لها ، ذروة طمحت معها إلى أن تكون فلسفة للتقدم معتدة بنفسها وقابلة لما يتجم عن

(١) « وليس من باب المبالغة في شيء أن نقرر أن ذوي المصلحة في التغيير ، في الخروج من هوة التخلف يشكلون في مرحلة ما إحدى العقبات الأساسية أمام هذا التغيير بعدما تعرضوا له من استلاب لانسانيته » . مصطفى حجازي . التخلف الاجتماعي ونفسية الإنسان المفقور ،

مقدماتها من نتائج . ولعل أفضل من عبّر عن هذا الطموح عبد الله العروبي الذي انتقد أفكار المحدثين ، ولم يجد فيها إلا محاولات جزئية وشكلية لتقرير حداثة سطحية تغطي التعلق بالماضي ولا تجرؤ على الذهاب إلى ما وراء السطح إلى الجوهر ، أي إلى الفلسفة ذاتها . وقال إن العرب لا يعيدون تفسير الغرب وتأويله ، ولا يقرأونه إلا من أجل انقاذ الدين والتراث . ومن هنا فإن برنامج الحداثة المنهجية التي يدعو إليه هو تغيير الأسس الفلسفية للفكر العربي الحديث ، أو بالأحرى إعطاؤه أسساً فلسفية ما زال يفتقد إليها . وهذه الأسس ليست إلا الماركسية التاريخية التي تتناقى مع الماركسية الوضعية العربية المسؤولة عن وضع الجدل النظري في مازقه التاريخي . وهكذا يكشف العروبي ، أنه إذا لم يستطع العرب الخروج من تأخرهم ، فذلك لأنهم ما زالوا يرفضون القيام « بهذه الثورة الثقافية التي قامت بها ألمانيا في القرن التاسع عشر ، وروسية لينين وصين ماوتسي تونغ : أي إدراك وحدة التاريخ ووجهته وما يستلزمه ذلك من الارتقاء في بحر هذه الحركة العامة التي تسمى العقلنة والتحديث »^(١) .

ومن هنا يصل العروبي إلى ما وصل إليه أنصار الحداثة من السابقين فيقول « لا خلاص دون الاستسلام للروح التاريخية ؛ ولا بد من التضحية بالجوهر [أي بالذات] لانقاذ الوجود »^(٢) . ولم يخطئ هشام حبيب عندما كتب متقدماً العروبي : « هذا يعني إعلان موت الثقافة العربية الكلاسيكية ، كما يعني في الوقت ذاته زوال تمامي العرب مع الاسلام التاريخي » . وبذلك « فإن عالمية العروبي وماركسيته المقروئتين من منظور التاريخية تسمح له بتجنب الوقوع في موقع تغريبي سوقي »^(٣) هو جوهر فلسفته .

وبخلاف العروبي ، لا يعلن محمد عابد الجابري استقالة المثقفين المحدثين أمام الثقافة العربية من أجل « الارتقاء في بحر الحركة التاريخية » ، ولكنه يفضل الصراع ضدها وإظهار نهايتها من الداخل ، أي نهايتها أسسها المعرفية . وهو من

(١) (٢) الأيديولوجية العربية المعاصرة ، والعرب والفكر التاريخي .

(٣) هشام حبيب ، أوروبا والاسلام ، بالفرنسية ، ص ١٥١ .

أجل النجاح في ذلك يقلص العقلانية ومفهومها إلى صورة أرسطية غمطية ومفقرة ، تعكس في فقرها البؤس التاريخي والنظري الذي تعيشه الحداثة وايدولوجيتها كفلسفة للنهضة العربية^(١) .

وقد ارتبط بمفهوم التقدم والحداثة نقيضه ، أي مفهوم التخلف ، وأخذ أبعاداً كبيرة جعلته يصبح المفهوم الأساسي في التفكير بكل ما يتعلق بنواحي الحياة والنشاط الاقتصادي والثقافي والسياسي . وتحول في الواقع إلى ما يشبه الجوهر الثابت الذي يفسر الكتاب والصحفيون والسياسيون به كل ما يعيشه المجتمع العربي من مظاهر سلبية ، وأحياناً إيجابية ، حسبما تكون قناعة المتكلم . وأصبحت الدعوة إلى الحداثة تغذي نفسها من إظهار ضخامة هذا التخلف وعمقه ، وتستقي قوتها من الشعور المتزايد لدى الجماعة والطبقات الوسطى بشكل خاص بالدونية تجاه الغرب أو الآخر المتقدم ، ومن الخجل الذي يولده هذا الشعور بالدونية . وهو ما يغذي في الوقت ذاته نزعة العدا للنفس والحق على الآخر والغيرة منه وحب التماهي معه في آن .

هكذا أصبح التقدم كغاية للاجتماع العربي ، هو مصدر مشروعية هذا الاجتماع ومحور نشاطه . وقد سار العالم العربي في هذا الاتجاه ، وتبناه بصرف النظر عن دعوة المثقفين . وتكوّن نظام عربي حديث أزاح إلى الهامش تدريجياً ، وبالثورة العنيفة ، جزءاً كبيراً من بنيات ومفاهيم المجتمع التقليدي . ولم يكن فيه لا للتراث ولا للقيم التقليدية ولا للفئات التقليدية أيضاً أي دور يذكر . وبينما كان جيل النهضة الأول مضطراً إلى أن يعيد تأويل التراث لتبرير استقبال عناصر الحداثة ، أصبحت الدولة هي التي تسن الشرائع والقوانين ولا تحتاج إلى فتاوى المتدينين .

(١) عنوان كتابه هو برنامج كامل : نقد العقل العربي . ١ - تكوين العقل العربي . فهو يفترض أن للعربي ماهية عقلية ثابتة تحكم تفكيره وسلوكه وتلاحقه عبر الزمان والمكان . فهو لا ينقد العقل النظري أو العلمي أو الإيديولوجي ، ولكنه يريد أن ينقض الذات العربية نفسها حتى يعيد بناءها !!

وحصل هذا في مختلف الميادين . فتكونت الدولة الحديثة القومية على أنقاض السلطنة التقليدية ، وتم إنشاء المجالس النيابية الحديثة أو المصطنعة ، وكرست شرعية رؤساء الدول والحكومات بالتصويت أو الاقتراع العام ، سواء جاء هؤلاء بالقوة أو بغيرها . وسنت السلطات القوانين الوضعية وأقرت الدساتير ونظمت القضاء والتشريع على أسس حديثة وأكدت رسمياً المساواة بين المواطنين بغض النظر عن الدين والعرق بناء على مبدأ الدين لله والوطن للجميع . ودخلت في ميدان التنظيمات الحزبية والمعارضات الايديولوجية الاشتراكية والقومية والماركسية ، ولم تعد العصية السياسية المعتمدة هي عصية القبيلة ولا التعصب الديني .

والى جانب المدارس الحديثة التي استوعبت القسم الأكبر من الأطفال والشباب وأخضعتهم لثقافة لا علاقة لها لا من حيث السعة ولا المضمون بثقافة الكتابات القرآنية والزوايا ، بنت الحكومات الجامعات وأنشأت المعاهد الفنية والتقنية ، ووسّعت الكليات الحربية وأرسلت البعثات والمنح إلى الخارج ، وأصبحت المكتبات العربية مؤسسات ضخمة حديثة لا يقتصر مخزونها على كتب الشريعة والدين ، بل يتضمن على الأكثر مراجع علمية واجتماعية في مختلف ميادين المعرفة . وقامت الى جانب كل هذا البنيان العلمي الجديد حياة اقتصادية جديدة صناعية وزراعية تستخدم الآلات والمصانع العصرية المستوردة وتنتج أيضاً البضائع ومواد الاستهلاك التي تنتجها كل البلاد الأخرى من أدوات منزلية ومصنعة وأجهزة . وامتدت الطرقات والمواصلات إلى كل مكان وقضت على العزلة التاريخية للمناطق والأحياء . ودخلت أجهزة الاتصال ، من إذاعة وتلفزة وصحافة ، في الحياة العامة فكسرت احتكار المعرفة والمعلومات وتخطت الحدود والقوميات ، فنصار العربي يرى أفلام الصين والهند والولايات المتحدة وفرنسا أكثر مما يشاهد أفلاماً عربية ، وأصبح يتابع النشاطات الكونية السياسية والاجتماعية والثقافية أكثر مما يساهم في النشاطات المحلية . ودخل في حقل الثقافة العالمية عن طريق الترجمة والتأليف (وأكثر الكتب مترجمة) والمشاركة والرحلات والكتب المدرسية والأدبية

صحيح أن العالم القديم لم يلفظ أنفاسه جميعاً ، فقد استمرت بعض العادات والتقاليد والمواقف والتطلعات القديمة حيّة ، ومن أهمها الشعور بالانتماء لحضارة وثقافة ودين كان لهم مكانة عالمية ، والأمل باستعادة جزء من هذه المكانة عن طريق الوحدة العربية ، كما استمرت بعض البنيات والعصبيات المحلية القبلية أو الجهوية أو العائلية ، واحتفظت النخبة الدينية القديمة ، القيّمة على التراث الاسلامي واللغة العربية ، بوجودها من خلال إدارتها للدور العبادة والمؤسسات الشرعية ومساهماتها في تطوير قوانين الأحوال الشخصية ، واضطلاعها بدور النوعية الدينية والخلقية على الصعيد غير الرسمي بيد أن هذه البنيات والوظائف بقيت ثانوية بالنسبة لعمل النظام عامة ، وكانت على جميع الأحوال تابعة له في المستوى الثقافي والسياسي والاقتصادي وليس لها أية استقلالية فعلية فقد بقي وجودها كما بقيت مكانتها وهامش ممارستها لوظائفها رهينة بمشيئة النظام الحديث الذي كان بإمكانه أن يضيق عليها أو يوسع لها حسب ما تمليه عليه مصالحه العامة ، وما تتطلبه مستلزمات بقائه وتوسعه .

وكان من المتوقع والحالة هذه أن يؤدي استمرار تيار التحديث هذا إلى إلغاء هذه السيات والعصبيات والقيم التقليدية ، باعتبارها من « مخلفات الماضي » كما تعود الناس أن يطلق عليها . وأن ينهي بذلك ، وفي الوقت نفسه هذا الصراع التاريخي بين أنصار الحديث وأنصار القديم الذي شغل الفكر العربي الاجتماعي والسياسي والأدبي لأكثر من قرن . وقد ساد هذا الاعتقاد بقوة لبعض الوقت وما زال سائداً في بعض البلاد العربية ، التي تتمتع بمصادر مالية كبيرة تؤهلها لمتابعة مسيرة التحديث . ولم يكن أحد في السلطة أو المعارضة يفكر أن مثل هذه المسيرة معرضة ، للتقهقر أو يمكن أن يفكر إنسان بالتراجع عنها . لقد ظهر التحديث للجميع كمطلب تاريخي تلتف حوله وتتطلع إليه العامة قبل الخاصة . وأنه يكفي للسلطة ، أية سلطة أن تبرز قائمة المصانع والمرافق العامة الحديثة التي أنشأتها . كما يكفي للمعارضة أن ترفع قوائم أخرى مماثلة أو مزايدة ، حتى تكسب تأييد الجماهير وتعطي لنفسها ولنضالها ولقضيتهما الشرعية السياسية التي هي بحاجة إليها . لقد ظهرت الحداثة عن وعي ظاهر أو باطن ، كمحور إجماع

قومي ، أي كقاعدة لهذا الاجماع وهدف له في الوقت ذاته . وكان انتقاد السلطات أو مديحها يقترون باظهار عجزها أو قدرتها على تحقيق هذا التحديث ، في صورته الثقافية (مظاهر الحياة والسلوك والاستهلاك) أو السياسية (الدولة القومية) أو الاقتصادية (الانتاج الآلي - الصناعة) .

وبهذا المعنى ، كان التحديث يشكل معياراً مشتركاً بين مختلف تيارات الرأي ، وبدونه لم يكن من الممكن أن توجد لغة بين السلطة والمعارضة أو أن يحصل حوار مهما كان نوعه . بهذا المعنى أيضاً ، كانت الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية محكومة بهذا الوعي الحديث أو الحداثة وخاضعة له ، بوحدتها وتناقضها . وكانت الحداثة هي الأرض المشتركة لكل صاحب سلطة اجتماعية أو جاء ، مثقفاً كان أم رجل أعمال ، معارضاً أم رجل حكم . ولم تكن الثقافة التقليدية ولا التراث قادرين على وقف تيار التحديث ، والحد من النزوع العام الى الحداثة ، حتى ليتساءل المرء ما إذا كان المحدثون لا يبحثون عن شيء آخر . لقد كان انتصار الحديث على القديم من البدايات الاولى ، حتى وصلت ثقة بعض الزعماء القوميين بشعبيتهم درجة جعلتهم لا يهابون التصدي المكشوف للحركات الدينية وإعادة تنظيم المؤسسات الشرعية والجامعات التابعة لها بما يتفق وسياساتهم . بل إن بعضهم لم يتورع عن القيام بما يعتبره الرأي العام في أي مكان خرقاً للمقدسات وتحدياً للمشاعر الجماعية^(١) .

وفجأة تغير الوضع . والمشكلة التي بدت محسومة خلال أكثر من نصف قرن ، برزت من جديد أقوى من أية حقبة أخرى حتى كادت تتحول اليوم ، بل لقد تحولت في العديد من البلاد العربية إلى موضوع الجدل الأول في الحياة العامة الثقافية والسياسية . وتكفي نظرة سريعة إلى ما ينشر من كتب ومقالات جديدة حتى يدرك المرء أن مشاكل التراث والاسلام والعلمانية وتحديث الفكر ، ونقد

(١) بلغت الاستثمارات العربية في التنمية والتحديث أرقماً خيالية في السنوات العشر الأخيرة . وقد انفقت السعودية لوحدها ٥٥٤ مليار دولار على المشاريع الاقتصادية في السنوات الخمس عشرة الأخيرة .

العقل ، وفهم الغرب ونقد الاستشراق إلخ . هي السائدة ، وهي التي تمس الرأي العام وتؤثر فيه . بل إن العديد من المثقفين قد انتبهوا إلى أننا عدنا نطرح اليوم نفس المشكلات التي كان يطرحها قبل أكثر من قرن جيل النهضة الأولى . فماذا حصل بين اليوم والامس حتى انقلب مجرى التاريخ ، فغيّرت العقول إلهامها ، وبدأ العرب رحله النكوص كما يسميها المحدثون ، أو رحلة اكتشاف الذات والصحوة الإسلامية عند غيرهم ؟ ولماذا أخفق النظام الاجتماعي وبعبارة أبسط ، لماذا فشل المجتمع في استيعاب هذه الحداثة وما أدخلته من أفكار ونظم ، وفي السيطرة عليها والتحكم بها ؟ أو لماذا فقد توازناته النفسية والعقلية والمادية نتيجة لها ، وكيف حصل ذلك ؟ ثم الأهم من هذا وذاك ، ما هو دور المثقفين في هذه العملية ، أي ما هي الأيديولوجية التي غطت هذا الاخفاق في استيعاب الحداثة ، ومن ثم عملت وما زالت تعمل على إعادة انتاج هذا الاخفاق واستمراره ؟ وكيف منعت الوعي من الكشف عنه وتفكيك آلياته ؟ باختصار ما قيمة وعي الحداثة وجدارته ؟

وعندما نتحدث عن إخفاق في استيعاب الحداثة ، فليس ذلك لعدم الأخذ بها ، وإنما بالعكس للقول إن النظم الحديثة العلمية والمادية التي أخذها العالم العربي واستتبها في تربته ، لا تنتج نفس القيم ولا تؤدي نفس الوظائف التي خلقت من أجلها وكانت متظرة منها . والمشكلة ليست إذن في الدفاع عن التقاليد ، ولكن في تبيان لماذا كانت الحداثة العربية ، وهي نسخة عن الحداثة عامة وفرعها ، عقيمة . فلماذا على سبيل المثال لا يقدم الجيش الحديث ، المسلح بنفس المعدات ووسائل الدمار ، انتصارات ، ولا يحصل على نتائج مماثلة لما يحصل عليها من استخدام نفس المعدات جيش غربي^(١) . ولماذا كانت الجامعة الحديثة العربية التي تدرس مناهج علمية حديثة، وتتضمن كل الفروع لا تقدم

(١) ارتفعت نفقات التسلح العربي من ١٣ مليار دولار عام ١٩٧٣ إلى ٧٥ مليار دولار ، وارتفع عدد القوات من ١٠٢ مليون جندي إلى ستة ملايين جندي عام ١٩٨٥ . ولم تقم بالمقابل في هذه الفترة أية حرب رسمية مع إسرائيل بينما انتبكت أكثر من عشرة دول عربية في نزاعات داخلية عربية .

للمجتمع نفس الابداعات العلمية والبحوث والتجديدات التي تقدمها في الغرب ، وإن الدولة الحديثة التي طبقت نفس الصيغ الادارية والقانونية ، واستلهمت نفس القيم القومية والعقلانية والبيروقراطية السارية المفعول في الغرب ، لم تنتج لحمة وطنية ، ولا إرادة قومية ، ولا حريات اجتماعية مدنية وسياسية كان من المنتظر أن تنتجها الدولة الحديثة ، بقدر ما تحولت إلى سلطنة قهرية ، وقوة غاشمة عدوانية ، وإن القيم والايديولوجيات والعقائديات الحديثة الليبرالية والماركسية والوجودية والمثالية والمادية التي حلت محل القيم التقليدية أو دفعتها إلى الخلف ، لم تنج عن مواقف وسلوك وتواصل فردي واجتماعي ، ثقافي وسياسي ، يختلف كثيراً عما كانت تؤسس له القيم « السلفية » في أكثر صورها تأخراً وانحطاطاً ، أي القيم القبلية والعشائرية والطائفية .

ترجع ايديولوجية التقدم والحداثة هذه العودة إلى علل متعددة تشترك جميعاً في خاصية واحدة هي سعيها إلى إخفاء العلة الحقيقية وقطع الطريق على طرح مسألة الحداثة ، أي ماهيتها ومضمونها واستراتيجياتها . ترى الماركسية فيها دليلاً على عمق جذور الاستلاب الديني في الشعوب ، وتستنتج منها ضرورة التسليم مؤقتاً بالاختفاق في تحطيم هذه الصخرة الصلدة . ولا ترى الفكرة القومية فيها إلا نجاحاً تكتيكياً وتنظيماً للأحزاب الدينية التي أسعفتها نكسة القومية العربية فعادت إلى تحريك المشاعر الشعبية . وقد تعلن بعض تياراتها ندمها على عدم « تصفيتيها » منذ البدء ، وبعضها الآخر يعترف بقصور القيادات القومية عن قيادات مسيرة النهضة والتقدم والتنمية . لكنها جميعاً تخاف أن تطرح للنقاش مضمون هذه النهضة أو تتساءل عما إذا لم يكن في مفهوم هذه النهضة ذاته ما يستدعي هذا القصور ، بل الاختفاق . ولأنها تريد أن تحافظ على هذا المفهوم بعيداً عن كل نقاش فهي مضطرة إلى تغيير موقفها الايديولوجي إما في اتجاه القبول بالأمر الواقع وتقرير ضرورة التنازل التكتيكي أمام الدين والتراث ، أو بالعكس التضحية بالايديولوجية القومية والحرب إلى موقف ماركسوي شمولي يفسر الاختفاق بعدم جذرية القيادة وتساهلها أمام الرجعية والتقاليد .

ومن الملفت للنظر أن جميع التيارات الفكرية التي تتصدى للمشكلة

أصبحت تطابق كلياً ، بوعي لو بشكل مضمّر ، بين التراث والدين ، وتنظر إلى « الصحوة » الإسلامية على أنها التعبير عن عودة التراث أو العودة إليه . وتقبل أن تعتبر ذلك تظاهراً للهوية وللذاتية . وهكذا تصبح المسألة الرئيسية هي كيف يمكن التصدي لهذه الحركة ، واستيعاب الدين في اللعبة السياسية الخاصة لكل طرف ، أو الالتفاف عليه إذا لم ينجح الاحتواء . بمعنى آخر لا تطرح القضية إلا على صعيد السياسة ومن وجهة نظر سياسية

ولا يسيء هذا الطرح التيارات السياسية الدينية بل إنه يثلج صدرها . فهي أيضاً لا ترى من الدين والتراث إلا ما يمكن أن يقدمه كسلاح في المعركة السياسية . ولا يمكن لهذا الربط بين الصحوة الإسلامية والمسألة السياسية إلا أن يدعم شرعية التيارات الإسلامية السياسية ويجعلها للمثلة الفعلية المفترضة للجماعة الشعبية برمتها . وبذلك تصبح مطالبها باقتسام السلطة أو إقامة الدولة الإسلامية نابعة من تمثيليتها السياسية . وهكذا يتم نقل الصراع من دائرة الحوار الفكري إلى دائرة الصراع على السلطة . وتذوب نتيجة ذلك أو تختفي كل القضايا الأساسية التاريخية والاجتماعية والثقافية المتعلقة بهذا النقاش والذي لا تشكل الصحوة الدينية إلا واسطة بلورتها .

حجاب العقل

يعني التحديث إذن جعل مظاهر الحياة الاجتماعية ووظائفها مماثلة ، في البلاد العربية لمعايير الحياة الاجتماعية العالمية ، وبالتالي لانمائها السائدة في الغرب باعتباره ، وحتى إشعار آخر ، مصدر التجديدات العلمية والتقنية والأدبية ، ومقياسها أيضاً .

وقد تطور مفهوم التقدم العربي الذي يغطي هذه العملية بقدر ما انجلى مع الزمن مضمونه العميق ، فتحول من مفهوم النهضة الحضارية الى مفهوم الحداثة البسيط والمباشر ، أي المماثلة أو المشابهة بدل المعاصرة ، أي جعل البنيات الذاتية نفسها على درجة واحدة من الفعالية والتطور مع البنيات الخاصة للثقافة الغربية السائدة .

ويكاد هذا المفهوم أن يقضي على كل المفاهيم الأخرى التي لجأ إليها الفكر العربي في العقود السابقة بقصد استيعاب ظاهرة هي دون شك من أبرز وأهم ما يعيشه ، أعني تنظيم وعيه بموقعه الجديد ودوره وأهدافه وحركته بعدما تحول عالم العرب من عالم مستقل وسائد وقائم بنفسه الى عالم خاضع وتابع .

ولا شك أن هذا المفهوم يشكل على المستوى المعرفي تراجعاً كبيراً عن المفاهيم الحضارية المتعددة الأبعاد التي كانت تنطوي عليها إشكالية النهضة والثورة القومية في العقود الماضية . فقد كان التقدم يعني لأجدادنا بعث الحضارة العربية وإحياءها كذاتية متميزة ومستقلة في وجه مدنية أخرى قوية وصاعدة . وكان التقدم

الاجتماعي والثورة القومية يعنيان التحرر السياسي والوحدة . حرية والعدالة الاجتماعية وحسن توزيع الثروة ، وكلها مسائل جوهرية وملموسة تستدعي البحث عن حلول وصيغ أصيلة لتجاوز قضية التأخر ، ولا تقتصر على مقارنة هذا التأخر بمظاهره السطحية والشكلية المباشرة . وبذلك فإن مفهوم الحداثة يحذف من التقدم أبعاده التاريخية (الصراع بين الثقافات والأمم والمدنيات) والاجتماعية (إخضاع التحديث لمبادئ العدالة والمساواة والوحدة) ليرده إلى مجرد مفهوم تقني : صيغ أنماط الحياة والعمل والسلوك بالصيغة العصرية .

ولعل سبب هذا الانحطاط في مفهوم التقدم العربي راجع هو نفسه إلى الأزمة التي يعيشها مشروع هذا التقدم كما تبلور في القرن الماضي ، أي كبناء لمجتمع عربي موحد ديمقراطي عقلاني وعادل . ونتج عن هذه الأزمة نوعان من مواقف الهروب إلى الأمام ، أحدهما يقول بالتغريب الكامل بمثالبه وحسناته والثاني يقول بالانسحاب الكامل و « الأسلمة » أو العودة الكاملة للأصول .

وتمثل ايديولوجية الحداثة على الصعيد الايديولوجي نقطة التقاء وتحالف تباري النخبة العربية الحديثة المتنازعين اليساري واليميني . وهو التحالف الذي جعله صعود الاسلاميين وتطور دعوتهم ملحقاً أكثر من أية حقبة مضت .

فمن خصائص هذا المفهوم أنه يرد مسألة التغيير الاجتماعي إلى أبعادها التقنية ، أي كما قلنا إلى مسامرة الحضارة ، ويؤجل النقاش إن لم يحذفه في مسائل تحديد الأهداف الاجتماعية والنظم الاقتصادية والايديولوجية التي تثير النزاع بين طرفي المجتمع الحديث .

أما على المستوى الاجتماعي فإن لانتشار مفهوم الحداثة وتوسع دائرة نفوذه علاقة وثيقة بازدهار الطبقات الوسطى ، وبشكل خاص الريفية أو الصاعدة من أصول ريفية أو بدوية ، والتي أعطاهما تعاظم الريع النفطي دفعة قوية ، ومكنها من استيراد الحداثة كموضوعات استهلاك جاهزة ، منعزلة عن التاريخ وعن كل ثقافة ، عالمية كانت أم محلية . فهي بهذا المعنى التعبير البسيط عن التقدم الاستهلاكي ، وعن انحطاط مفهوم التقدم والنهضة حتى يصبح على مستوى .

طموحات هذه الطبقة الجديدة نصف « البربرية » ونصف المتحضرة والتي يقف تاريخها وأفقها الاجتماعي عند تحسين مستوى المعيشة والاستزادة من الأجهزة الالكترونية والكهربائية ، غير عابثة بالمشاريع القومية وخالية من الأوهام الشورية والاشتراكية . إنه تحول مشروع النهضة القومية الى مشروعات نجاح فردية وإثراء يستهلك على مستوى الطبقة والأفراد معاً في شراء التكنولوجيا المتقدمة وبناء الطرق والقصور . وهو يتمشى تماماً مع تحلي النظم العربية عن مشاريع التنمية المخططة والتصنيع ، ويشكل تبريراً نظرياً غير مباشر لنظم تصحيح المسار وسياساتها الضيقة الأفق وغير الشعبية . وللمفارقة ، إن الشكوى من انعدام التحديث والعصرية تتطور اليوم وتزداد قوة ، في الوقت الذي تشهد فيه العواصم العربية « ثورة » تحديثية حقيقية بالمعنى الذي يطالب به أصحاب الحداثة ، أي نقلاً لا سابق له للتقنية المتطورة ، العسكرية منها والمدنية . بل إن المجتمع العربي أو بعض أجزائه على الأقل تكاد تغرق في هذه الحداثة وتسقط صريعة تحت أجهزتها كما سقط الجاحظ صريع كته . فإذا تعلقت الحداثة بالموضوع وحولت الانسان نفسه إلى موضوع ، فقدت هي وفقد الانسان كل قدرة على السيطرة عليها . ولا ضابط للحداثة إلا من داخل الذات المحدثنة ، أي من داخل الوعي ، مصدر كل معيار وقاعدة .

تسعى دعوة الحداثة الراهنة إلى أن تطرح الحداثة كمصدر لثقافة جديدة أو لمعقولة تشمل إعادة تكوين العقل في منظوماته الأساسية الثلاث : منظومة العقل النظري ، وهي التي تحدد ، داخل مجتمع محدد ، أسس المعرفة الحقة أو الحقيقية ، أي أصل المعلومات الصحيحة ، وتؤسس إذن للعلم ؛ ومنظومة العقل العملي ، التي تحدد معيار السلوك الصحيح أي الواجب ، وتضم كل ما يتعلق بالأخلاقية الاجتماعية والفردية ، ومنظومة العقل الرمزي أو الخيال ، التي تعين معيار الجميل وأصل الجمالية . وفي جميع هذه الحالات سوف نرى كيف نقضي الحداثة كمنطلق لتكوين العقل العربي الحديث إلى عكس ما تدعي هي نفسها تحقيقه أو الوصول إليه ، أي إلى تدمير أسس الواقع المنظور والتجربة العلمية باسم ايدولوجية علموية ، وإلغاء كل نظام أخلاقي باسم تحررية متمحورة حول

إرضاء الرغبات الفردية تنفي كل مكانة لمفهوم الواجب ولمفهوم الحق المرتبط به .
وتدفن ابداعية المخيلة في ممارسة اقتدائية استساخية فاقدة كل عوامل الاتساق
والانسجام

ولذلك ، وبقدر ما تقضي إلى تدمير أسس العقل العربي ، تضع نفسها
وتضع المجتمع في ظروف تجعله غير قادر فيها على فهم المشكلات الكبرى
المطروحة عليه وإيجاد حلول لها . وسوف نرى كيف أنها في جميع هذه المشكلات ،
كمشكلة النهضة أو العلم أو الحرية مثلاً ، لا تقوم الحداثة إلا بالمصادرة على
المطلوب ، أي لا تحل المشكلة إلا بطمسها واستبعادها كمشكلة .

السؤال الأول المطروح على كل وعي هو : ما هو مصدر معلوماتنا
الصحيحة ، أي ما معيار التمييز بين الحق والباطل ، ومن ثم ما الذي يكفل
صحة معارفنا وأحكامنا العقلية وصلاحياتها ؟ ونستطيع أن نطرح الموضوع بطريقة
أبسط فنقول كيف يكون الواقع ما هو ، أي مطابقاً لذاته ، أي متسقاً ومن ثم
معقولاً ومقبولاً ؟ فليس هناك مجتمع يمكن أن ينشأ أو يعيش دون أن يحدد لنفسه
أسس المعرفة اليقينية ، وشروط نمو هذه المعرفة التي هي أساس نشوء العلم
وتطوره ، وسبب ومبرر وجوده . ومن هذه الأسئلة يصدر السؤال الأعم الذي
يتعلق بنا مباشرة ، وهو لماذا لم يتطور العلم الحديث في المجتمعات العربية
المعاصرة وكيف يمكن تجاوز العقبات التي تقف أمام هذا التطور ؟

تفترض ايدولوجية الحداثة مسبقاً أن الواقع المطابق لذاته ، هو الواقع
الحديث أو المسير للحداثة ، وأن كل مظاهر الحياة التقليدية وأنماطها ليست إلا
واقعاً مفقوتاً ، لا انسجام فيه ، أي ليس له أي قوام حقيقي ولا مبرر . إن وجوده
هو مظهر من مظاهر اللاعقلانية والانحطاط ، أي هو شلوث . فالحداثة هي معيار
العقلانية والصحة ، ولا يمكن للمعرفة أن تكون صحيحة ويقينية إلا عندما يكون
نموذجها هو الواقع المطابق لذاته ، والمتسق في ذاته : أي الواقع الحديث
والمعاصر . والعلم بوصفه أحد منتجات هذه المعاصرة الكبرى ، يشكل إذن

بالضرورة معيار صحة أفكارنا عن الواقع الذي نعيش فيه فبقدر ما تكون هذه الأفكار مطابقة للعلم تكون يقينية

في المعرفة العلمية

لذلك نجعل العقلانية العريية هدفها ومطلبها نقل العلم والنظرة العلمية إلى ثقافة تعتبرها من الأساس فاقدة له ، وغير قادرة على إنتاجه مطابقة أفكارنا للعلم هي إذن قاعدة الموضوعية والعلم كما هو مجسد في نظم معرفية جاهزة ، هو ضامن صحة هذه الأفكار ويقينيتها .

ونلاحظ هنا كيف تصادر هذه المحاكمة على المسألة الأساسية التي ما كان من الممكن للعلم أن ينشأ بدونها وهي التساؤل عن مصدر يقينية المعرفة العلمية نفسها . وهو التساؤل الذي قاد إلى تطور العلم كثمرة لفلسفة ما قبل علمية مؤسّسة للعلم ذاته كمفهوم . إن هذه المحاكمة تقول عملياً إن أصل المعرفة اليقينية (العلم) هو العلم نفسه ، وبذلك فهي لا تحرم نفسها فقط من التفكير في هذا العلم والتحقق من المسعى العلمي في كل مرة يسمى فيها الباحث إلى إدراك الواقع وتحليله ، وإنما تضيي أيضاً على المعرفة العلمية صفة الحقيقة المطلقة والمنزلة التي تشكل في ذاتها المبتدأ والنتهى . وهي لذلك عاجزة عن أن تفسر نشأة العلم وأقل من ذلك عن تطوير التجربة العلمية . وتضع نفسها في وضع المترجم الدائم والناقل للعلوم ، أي تخرج من المسعى العلمي في الوقت الذي تقدس فيه العلم كثمرة وكانتاج جاهز للعقل . إنها تجعل من العلم معرفة لاهوتية مقدسة مفصولة عن الواقع الذي استمدت منه وعن المجتمع الذي ظهرت فيه وعن الذات التي انشأته وعن المطلب الذي وضع له .

فقد نشأ العلم في الغرب ، أي العلم كنظام للمعرفة ، المقبولة اجتماعياً ، عندما بدأ الباحثون يشككون في صحة المعارف اليقينية والنظرية الجاهزة .

ثم عندما ألغوا مفهوم المعرفة اليقينية المطلقة واستبدلوه بمفهوم المعرفة الموضوعية ، أي التي تأخذ بالاعتبار مجموع الشروط المكونة للفعل المعرفي ، مع السعي إلى استبعاد البعد الذاتي والفردى أكثر ما يمكن . وما كان للعلم الحديث

أن ينشأ لو استمر الغريبيون في اسناد معلوماتهم الى النظم المعرفية التي ورثوها
عمر سبقهم بل إن الأصل في نشوء العلم هو هذه الفكرة البسيطة التي تقول
إن الكافل لصحة معلوماتنا ومعارفنا عن الواقع لا يمكن أن يوجد في هذه
المعلومات والمعارف ، قديمة كانت أم حديثة ، وإنما في التجربة ، والتجربة هي
مقياس صحة المعارف التي لدينا ، ولا يمكن أن يكون هناك مقياس آخر يفوقها أو
يحل محلها وهذا يعني أنه يجب أن يعاد النظر في كل معارفنا على ضوء التجربة ،
وأن ليس هناك معارف مقدسة مسبقاً وكان هذا الموقف النظري الجوهرى هو
الذي فتح آفاقاً لا تنتهي أمام العقل ، أمام المراجعة وإعادة النظر ، ولتحسير
التركيب النظرية وزيادة ضبطها حتى تصل إلى ما وصلت إليه اليوم وما نسميه
بالعلم ، والذي من خصائصه ، قدرته الدائمة على تغيير نظمه الذاتية بالاستناد
الى التجربة المستمرة .

وبالتأكيد لا يعني ذلك أن التجربة تتم دون أحكام مسبقة إذ لا يرى
الانسان في الواقع إلا ما يسمى هو نفسه إلى الكشف عنه فيه وكذلك لا تعني
أن المعرفة المستمدة من التجربة هي معرفة مطلقة وبقينية . إذ في معنى التجربة
نفسها تكمن الأبعاد النسبية لهذه المعرفة طالما أن التجربة تفترض تعددية الواقع
وتجده كما تفترض تغير الذات الناضرة وموقعها . إن التجربة ليست إلا تأكيداً
لأولية الواقع على المفهوم وضرورة امتحان النظرية بشكل مستمر على ضوء هذا
الواقع .

هذه التجربة النظرية العظيمة هي التي تصادرها العقلانية العربية عندما
تجعل من العلم أساساً لصحة معارفنا ، بدل أن تجعل من الانخراط في التجربة ،
أي من معاينة الواقع القائم وسيلة لمراجعة النظم المعرفية والتحقق منها وتثويرها
أي أنها اكتفت بالاستهلاك العلمي بدل أن تمارس الفعل العلمي الحقيقي . وما
كان يمكنها أن تفعل العكس طالما أنها حددت منذ البدء موقفها من الواقع الذي
تعيشه ، باعتباره واقعاً وهمياً لا معقولاً ولا مقبولاً ورفضت التفكير فيه والانطلاق
منه وهكذا حددت طريقة نظرنا وتعاملنا معه ، أي إلغاء المسبق من الذهن قبل
إلغاءه من الوجود

وبهذا المعنى نحن نقول إن العقلانية العربية التي تحولت إلى علموية ، أي
ايدولوجية تبشير بالعلم وامتداح دائم له لا إلى منهج لمقاربة الواقع ، كانت
منطلقاً نظرياً لتدمير الواقع نفسه بهدف إعادة صياغته بما يتلاءم مع المفهوم الذي
تملكه عن الواقع « الحقيقي » : واقع الحداثة . وبذلك أصبح المفهوم هو الذي
يتحكم بالواقع ويخضع له بدل أن يخضع له ويتطور على ضوئه . وهذا هو مصدر
الاستلاب النظري ، وفقدان التجربة العلمية والنظر العلمي . بمعنى آخر
أصبحت العلموية أو « الاستقواء » بالعلم هي قاعدة تحطيم المسمى العلمي
الحقيقي واستبعاده . وأصبح الموقف السائد هو : العلم موجود ، إنه قائم هناك
وجاهز ومتطور ، وليس علينا إلا أن نأتي به ، أن ندخله عندنا ، أن نقسح له
المجال ونرعاه . وبذلك حرمانا أنفسنا من كل قدرة على مناقشته أو الإضافة إليه .

في الواقع ، أصبح معيار المعرفة اليقينية عندنا هو قرب هذه المعرفة من
معرفة الآخر . فقدر ما تكون مكتوبة بلغة الآخر ، ومستمدة من أقواله ومناهجه
ومعاييره ، ومرتبطة باسمه ومعاهده وكتبه وشهاداته ، فهي معرفة حقة وحقيقية .
وأصبح الصراع على الشهادة الأجنبية ، ومظاهر المعرفة الأجنبية ، هو أساس
التنافس بين الباحثين والمفكرين على المكانة والمركز في اكتساب السلطة المعرفية أو
الثقافية . أي أصبح التقليد أيضاً أكثر فائدة في هذا الصراع من الابداع الذي
يفترض الخروج عن القواعد وتحطيم الشعارات والأحكام المسبقة المكرورة . إن
نجاح المثقفين في العالم العربي يتمشى أكثر فأكثر مع انسجام افكارهم وأحكامهم
وأسلوب كتابتهم ولغتهم واهتماماتهم وتطابقها مع المستشرقين أو المتكلمين
الغربيين عن المجتمع العربي .

تعني الحداثة العربية على صعيد منظومة العقل النظري إذن ، ويقدر ما
تلغي التجربة لصالح الحفظ عن ظهر قلب واستيعاب العلوم الجاهزة ، صبغ
المسبقات الايدولوجية السائدة لدى هذا المفكر أو ذاك بالطرائق الحديثة ، وربطها
بمصدر يقيني يعطيها المشروعية العلمية التي تفتقر إليها . أي هي لا تعني في
الواقع إلا إخفاء لاموضوعية المعرفة العربية وذاتيتها وافتقادها لأي معيار خاص
مقبول ومشترك للمعرفة اليقينية أو للتمييز بين الخطأ والصواب .

فكل شيء يكرر أو يصبح صحيحاً أو خاطئاً في العقل النظري العربي حسب ما يسجح في إظهار نفسه بثوب حديث أو قديم إن أكثر الأفكار والمواقف النظرية رجعية ومحافضة ، كالأستبداد المطلق على سبيل المثال ، يمكن أن تبدو كلية الصواب إذا اكتست ثوباً يسارياً ، وخاطئة مطلقاً إذا اكتست ثوباً اسلامياً . ومن الطبيعي أن يقود هذا المآزق النظري العميق الى تحليلات وتفسيرات جزئية ومتناقضة بل معادية كل العداء لأبسط قواعد التفكير العلمي رغم حصولها باسم العلم والعلمية وفي سبيلهما . فعندما يسمى بعض الباحثين المهتمين بالموضوع إلى إيجاد تفسير لغياب الانتاج العلمي والمعرفة الموضوعية في العالم العربي ، يرتدون إلى موقف لاهوتي محض مفاده البحث عن غياب العقلية العلمية في المجتمع العربي أو في الخطاب العربي ، أي يرجعون مسألة العلم إلى وجود ملكة خاصة عند الانسان كما كان يفعل الأوائل عندما يتحدثون عن الشر أو العقل ذاته . ويبدأون في البحث عن هذه العقلية بعد رسم ملامحها العامة كما يعتقدون أنها موجودة عليه اليوم في المجتمع الغربي .

فلماذا لم ينجحوا في الكشف عن أسباب غياب هذه العقلية في حاضر المجتمع ، بحثوا عنها في ماضيه وفي ثقافته كلها ، وأكدوا أن هذا الغياب هو من خصائص العقل العربي أو الشرقي أو البدوي . وعندئذ فإن المنطق العلمي لا بد أن يؤدي إلى نتيجة واحدة ، هي أن شرط اكتسابنا للعلوم وللعقل هو التخلي عن تاريخنا وثقافتنا أصل الفساد والخطأ ، والنهل ما أمكننا من العلم الغربي ، دون إدراك أن هذا النهل هو بطبيعته مخالف للعلم وللمسعى العلمي الصحيح ولو كان خطوة أولى ضرورية .

ومن الطبيعي أن لا يجد هؤلاء الباحثون في واقع الثقافة العربية إلا الغياب الذي افترضوه مسبقاً ، ولو افترضوا غيره ، كما فعل آخرون ، لوجدوه أيضاً . ذلك أن مسعاهم العلمي ليس كما قلنا إلا صبغ مسبقاتهم الايديولوجية بالصبغة الحديثة .

فأصل هذا البحث ومطلبه هو في الواقع الدفاع الايديولوجي : أي تأكيد

الموقف التقدمي أو الرجعي ، وليس البحث العلمي ، أي مطلب الفهم والاستيعاب والتحليل العقلاني . فكل دفاع ايدئولوجي يقوم على الخلط بين مسمى البحث فيما هو كائن وفيما يجب أن يكون ، متنقلاً حسب الحاجة من مجال التقرير الى مجال التفسير والعكس . لذلك أيضاً ، وبقدر ما تبقى المناقشة العربية في جوهرها مناقشة ايدئولوجية ، تبقى الموضوعات التي تثيرها وتتحدث فيها واحدة ، والذي يطرأ عليه التغيير هو الحجج التي تنمو على ضوء نمو العلوم العصرية . فازدهار علوم الاجتماع يقدم فرص تطوير حجج اجتماعية اقتصادية ، وازدهار علوم اللسانيات يقدم صوراً أخرى وأفكاراً أخرى ، وازدهار علوم المعرفة أو الابستمولوجية يسمح بإعادة تنظيم الحجج القديمة في ثياب جديدة . وتبديل الجهاز الحجاجي العربي لألبسته اللغوية - العلمية من فترة إلى أخرى هو زمانية النقاش العربي الوحيدة ، أي هو محور ومعيار تطوره وتبدله . لذلك فإن المسأليات والاشكاليات تبقى كما هي . وأدوات المحاجة هي التي تتغير .

إن لمفهوم العقلية العلمية الذي هو نسخة أخرى لمفهوم العقلانية في الفكر العربي السائد الذي يخلط كلياً بين العقل والعلم ، والعقل والمنطق ، فائدة أساسية وهي أنه يخفي ، أمام أولئك الذين تقع عليهم مهمة البحث العلمي وأمام المجتمع معاً ، الشروط الأساسية لنشوء وعي علمي وممارسة علمية حقيقية .

إذ أنه يلقي المسؤولية في الواقع على المجتمع ككل ، أو على التاريخ والمواقف الذين كانوا ، بافتراضه ، معادين للعقل . وهو يخلط من أجل ذلك بالضرورة بين مسائل تطور البحث العلمي ومسائل التراث والدين ونظام القيم الاجتماعية والأخلاقية والأدبية . ويربط الواحد أو وجوده بالآخر ، فيجعل بقاء الفكر اللاهوتي سبباً لغياب الفكر العلمي ، وينسى ما قاله ابن خلدون منذ أكثر من خمسة قرون من أن انقطاع حبل العلم راجع لاندثار العمران وهجر الناس لهذه الصناعة . وينسى أن في القرون الوسطى الأوروبية أو على هامشها ولدت أعظم الكشوف العلمية التي غيرت فيما بعد وجه المعرفة الانسانية ، ولم تكن أوربة

والمجتمع الاوربي عامة مجتمعا علمي التفكير وعلماني السياسة وتكنولوجي الحضارة بل كان العلماء يخضعون في معظم الوقت لضغوط الكنيسة الشديدة والرأي العام الشعبي والرسمي وقد لقي بعضهم ، كما هو معروف ، حتفه بسبب آرائه العلمية

ولا نقول هذا على سبيل المفاضلة فقد استشهد كثير من المفكرين العرب والمسلمين أيضاً في القرون الوسطى لتبنيهم آراء دينية أو تصوفية مخالفة للآراء السائدة في عصرهم ، رغم أن التاريخ العربي - الاسلامي لم يذكر خبر مقتل أحدهم لأرائه العلمية والمهدف هو أن نؤكد أن احسار الفكر العلمي عن العالم العربي يستدعي دراسة الشروط التاريخية والاجتماعية والفكرية والمادية الراهنة التي تحدد إطار الحياة العربية الروحية والمادية ومن هذه الشروط كما ذكرنا ، تنامي المسمى العلمي مع عملية النقل المباشر عن الآخر ، واعتباره العلمية في كل ما هو حديث

إذن هناك أزمة علمية دون شك في العالم العربي وهي متعددة الجوانب ، تمس مقام المعرفة العلمية ذاتها ومفهومها وطرق تحقيقها في التفكير العربي الحديث ، وترتبط بالطبع بسياسات التعليم ومناهجه وأهدافه ولا يستطيع أحد أن يدعي أن للعرب اليوم مساهمة تذكر في الانتاج العلمي الحديث ، سواء أكان ذلك في ميادين العلوم الطبيعية أو الانسانية ، رغم أن مساهمات العديد من الباحثين الذين اضطروا إلى ترك بلادهم وعاشوا في كنف مراكز البحث والجامعات الاوربية لا تنكر ، بل تكاد تصبح للأسف المساهمات الجدية الرئيسية للعلم العربي نفسه ولهذا فإن السعي الى تفسير ذلك بانهم « العقل العربي » باللاعقلانية أو السحرية أو البيانية لاستمرار تعلقه بالتراث واستلابه له ، ليس إلا من قبيل إلقاء التهم السوقية ، ولا قيمة له في فهم هذه الظاهرة وتفسيرها .

ويقال الأمر نفسه عن ما يوجه للثقافة العربية الكلاسيكية ، من اتهامات وعن تحويلها إلى جوهر ثابت لا يتغير بالأشخاص لا يتغير ، أي عن تصنيفها ، وبحو ديناميتها وتاريخيتها ثقافة اليوم العلمية التي تقدم للأجيال العربية لا

إن الأغلبية الساحقة ، إن لم نقل جميع الدارسين للعلوم تلقوا تعليمهم في مدارس حديثة وفي كليات لا تختلف من حيث المبدأ عن مثيلاتها في الغرب . بل إن النخبة منهم تتلقى تعليمها مباشرة في المعاهد والجامعات الغربية ، ولا يختلف تكوينها العلمي عن مثيلتها الغربية . وليس من الناقل القول أن معظم هؤلاء مقطوعو الصلة عملياً بترائهم أو بالثقافة العربية الكلاسيكية ، وتأثيرها عليهم يكاد لا يذكر في هذا الميدان . أما معرفتهم للعلوم الدينية والفقهية التي يفتحص البعض أنهم يستقون منها عقليتهم اللاهوتية والسحرية ، فهي ، ما عدا استثناءات المختصين ، معدومة نهائياً ، وليس لهم منها إلا الانتشاء الرمزي في أفضل الأحيان .

ولعل البحث الجدي في أسباب انعدام الروح العلمية والإبداعية يظهر أن هذه القطيعة مع التراث ومع الثقافة المحلية هي مصدر غياب الحافر للبحث والتجديد ، وأصل التسليم بأخذ العلوم كما هي ، وكما وردت في النصوص . ولا يفيد القول بأن الثقافة العربية الكلاسيكية قد ضحت بالتيار العقلاني لصالح التيار اللاهوتي والفقهية إلا في خلق فكرة الخطيئة الأصلية ، والحرب ثانية من مواجهة الواقع الراهن . فليس لعلوم ومناهج السلف العقلاني المغدور به ، هذا إذا سلمنا بالأمر ، علاقة من قريب أو من بعيد بعلوم عصرنا ومناهجها . بل إن القطيعة مع العقلية العلمية الكلاسيكية هي شرط بناء العقلانية الحديثة وسببها . ولا ندري لماذا كان العلماء العرب المعاصرون سيتفجعون بشكل خاص بهذه العقلانية الكلاسيكية لو استمرت حية ، ويتركون العقلية السحرية ، إذا كانوا قد عجزوا ، كما يقال ، عن الانتفاع بالعقلانية والروح العلمية الراحنة والسائدة في علوم عصرنا ، وهي التي أصبحت ترجاتها ومراجعها تفوق آلاف المرات كتب الأوتل ، وتتطرق إلى ميادين وفروع لم يعرفها السلف ولم تدخل في حسابهم

ولعل بعضهم لا يريد أن يستخدم هلوانية تفسير التراث عقلياً من أجل تفسير هجر العرب للمناهج العلمية اليوم بل ليعبر لنا لماذا تخلف العرب في

الماضي عن مسيرة ركب الحضارة والعلم . وإذا صح ذلك ، يكون تخلف العرب نتيجة لتخليهم عن الفلسفة العقلانية التي أخذها عنهم الغرب وسار بها . ولا يستطيع أن مهم عندئذ لماد سيصبح العقلانيون المعاصرون في إعادة إدخال العقلانية العلمية إلى عقل عربي وصموه سلعاً بالعقلانية وباللاهوتية في جوهره . ولا يستطيع أن مهم أيضاً ما هي الأسباب الكامنة وراء تبني الغرب لهذه العقلانية إلا إذا افترضنا أنه ينطوي بالأساس على جوهر عقلائي .

فمن المؤكد أن العلم بالمعنى الحديث للكلمة ، لم ينشأ إلا عندما قام بقطيعة جذرية مع الفلسفة التأملية ، عقلانية كانت أم لاهوتية . وعندما تجاوز اشكالياتها ، وبنى اشكاليات جديدة تجريبية في سياق سيرورة ثقافية واجتماعية طويلة ومعقدة وزاخرة بالتناقضات والصراعات . ولا نريد أن ندخل هنا في موضوع واسع مثل أصل ومصدر نشو العلم الحديث ، فليس هنا مكانه

كل هذا لا يفسر إذن شيئاً . إنه نغضية ايديولوجية كما قلنا على مسألة جوهرية هي نشأة العلم وتقدمه باعتباره نوعاً خاصاً من المعرفة الإنسانية المبنية على أسس تجريبية وعلى طرائق بحث ، ومعايير قياس وضبط ذاتي يميزه عن بقية ميادين المعرفة العقلية والدينية والأدبية الأخرى . ودون أن نغامر هنا بنظرية عن العلم ، نقول إن العلم هو أحد مظاهر الحضارة ومنتجاتها ، وإن لكل حضارة منظومتها من العلوم والمعارف العلمية التي لا يمكن لمجتمع أن يقوم ببلونها فلا نستطيع أن نتصور بناء المياكل والمعابد والجسور والطرق والأسلحة والزراعة والصناعة ، على أساس « أوهام » ايديولوجية . بيد أن ما يميز العلم الغربي ويفسر تطوره الكبير بالمقارنة مع علوم العرب والصينيين والهنود هو وضعه اجتماعية وتاريخية خاصة ، وليس ملكة فطرية كامنة في الثقافة أو العقل الغربي ، جعلت من تطور التقنية وتطويرها القاعدة الأساسية لتجاوز الصراعات الاجتماعية وحلها . فانطلاقة العلم اليوم لا يمكن فصلها عن انطلاقة الصناعة والتقنية والاستثمارات الكبرى في البحث العلمي أيضاً . ولو قارنا نسبة هذه الاستثمارات في البلاد العربية وفي البلاد الصناعية لوجدنا سبباً أكبر وأهم لاتعدام الإنتاج

العلمي في هذه البلاد من ما يقال عن استمرار ضغط الثقافة التقليدية ولا شك أن لانعدام هذه الاستثمارات علاقة وثيقة بطبيعة الطبقة الاجتماعية السائدة ، وبينيتها الطفيلية السمسارية والاستهلاكية والتابعة

هكذا يشكل الخلط بين العلم والثقافة وسيلة لحجب مسألة ليس لدى ايدولوجية العقل الحديث العربي أي جواب عليها وهذا لا يعني أن استمرار ضغط الثقافة التقليدية لا يشكل بحد ذاته مشكلة ثقافية ولكن يعني أن مشكلة العلم لا تحمل بخلق عداء مطلق بين وجود العقلية العلمية والعقلية الدينية أو التقليدية ، وإلا لأصبح علينا أن نتظر القضاء الكامل على الثقافة التقليدية حتى نصل إلى اكتساب العقلية العلمية ، وهذا ليس مستحيلاً فقط ، بل هو منافٍ للواقع نفسه ، واقع العلم والثقافة في الغرب ذاته . فليس هناك ما يمنع تعايش الثقافة العلمية والثقافة الدينية أو الأدبية في كل المجتمعات القديمة والحديثة على حد سواء . ويكفي إلقاء نظرة على الحركات الدينية المتجددة في أمريكا ، مصدر التجديدات العلمية والتقنية اليوم حتى نترك ذلك . هكذا لا تظهر العلموية ، كدعوة للعلم لا كممارسة له . باعتبارها ثمرة لعجز مطلق عن فهم الإشكالية العلمية وتطويرها فقط ، ولكن أيضاً كنفي وهي للدين

العلم والإيدولوجية

ينجم العطب الأساسي في مفهوم العقلانية العربية الحديثة من المطابقة التي نقيمها بين العقل والعلم . وليس العلم إلا فاعلية جزئية من فاعليات العقل ، وصناعة ، لا تنمو وتزدهر إلا في سياق تطور عقلي متكامل يتاح فيه لكل الفاعليات الذهنية الأخرى الإيدولوجية والاعتقادية والرمزية أن تتطور وتنمو في الوقت ذاته . ولذلك لا يمكن لهذه العقلانية إلا أن تعجز عن استيعاب الإشكاليات الأخرى غير العلمية ، وأن تنفيها ، وتلغي شرعيتها . وعندئذ لا بد لها أن تحمل هي نفسها محلها ، فتصبح في آن معاً علماً وإيدولوجية واعتقاداً وفناً وأسطورة ، وتفقد لهذا السبب مصداقيتها وعقلها ومن هنا فلانها لا تستطيع أن تعمل إلا برد جميع المواضيع المعرفية إلى موضوع واحد ، هو العلم ، أو فكرة

العلم بالأحرى ، وتقيسها عليه وتقلص جميع الطرائق ومناهج النظر والبحث إلى منهج واحد ، هو ما تعتقد أنه المنهج العلمي . وما هو في الواقع إلا المنهج الإيديولوجي الذي يتعارض مع الاعتراف بالثراء والغنى العظيم والتجديد الدائم لوسائل التفكير والوعي ، أو مع فهم هذا الثراء . ويقدر ما تحول العلم إلى ايدولوجية والإيديولوجية إلى علم ، تحرم نفسها من إدراك حقيقة هذا وذاك . ومثالها الحقيقي أو نموذجها ليس هو في الواقع إلا نموذج الإيديولوجية العلمية التي مع اعترافها بنفسها كإيديولوجية تلغي شرعية كل ايدولوجية أخرى . وتصبح بذلك تبريراً للقضاء على كل تعددية ممكنة في الفكر ، مكرسة إلغاء كل تعددية في الواقع الاجتماعي والسياسي .

إن مفهوم الإيديولوجية العلمية يشكل بحد ذاته برنامجاً نظرياً أو سياسياً في ميدان المعرفة . فبناء على مخالفة هذه الإيديولوجية لتلك للعلم ، أي لها ، تستنتج العلمية تهافت عقل الجماعة أو الطبقة التي تحملها ، وتقرر الا شرعية قضيتها ، ومن ثم وجودها السياسي والاجتماعي . وهذا هو مصدر كل محنة عقلية في الماضي والحاضر .

وفي الواقع إن مشروعية العلم نابعة بالضبط من أنه يرفض أن يكون ايدولوجية ، أي أنه يحدد ميدانه خارجها . ولكنه وهو يفعل ذلك لا يلغي ميدانها ولا شرعيتها وإنما يستقل بنفسه في إطار الدراسة التجريبية والمقصد المعرفي ، ويترك لها ميدانها الاجتماعي والسياسي . إنه لا يرفض شرعية أن تشكل الإيديولوجية جزءاً من نظام عقل الواقع ولكنه لا يعتبر أن هذا العقل يفيد في تحصيل مطلبه .

وتنبع شرعية الإيديولوجية من استجابة العقل إلى حاجات أخرى غير الحاجات العلمية والتقنية . أي من الرد على مطالب لا تجد مكانها في الساحة العلمية ، وإنما في الساحة الاجتماعية - السياسية - الثقافية العامة . فلكل جماعة ، مجتمعاً كانت أم طبقة ، رؤية شمولية تدمج فيها جملة إشكاليات نظرية وأخلاقية ورمزية متباينة ، أو من عصور وأحقاب وطبائع مختلفة ، بهدف تحديد

مواقف كبرى من الوجود والعالم لا يستطيع العلم وليس من مهامه أن يقدم لها أجوبة خاصة فالإيديولوجية القومية تربط بين مشاكل متعددة كالتحرر والعدالة الاجتماعية والتنمية ، وتشكل منها تراكيباً نظرياً تاريخياً تدخل فيه عناصر علمية إلى جانب العناصر الأخلاقية والرموز الثقافية ، والأساطير والحوافز القومية والمحلية يخدم أهداف الجماعة ويوجه حركتها وممارستها . ولا تكمن قيمة هذه الإيديولوجية في علميتها ، ولا تنبع عقلانيتها من مماثلة منطقها لمنطق العلم التجريبي ، بل من قدرتها على التعبئة الاجتماعية أو الطبقية ، ومساهمتها في تغيير الواقع ضمن إطار صراع عالمي واجتماعي متحول . إنها لا تهدف إلى تقرير حقائق بقدر ما تقصد إلى تبديل وقائع وهي إذن بالأساس رؤية غير علمية ، ومسمى متميز ، دون أن يعني ذلك أنها لا عقلانية أو لا عقلية . وهذه الرؤية العامة الموجهة تفترض بالضرورة المزج بين عناصر متناقضة ، أو التفاضل عن التناقضات بين العناصر المختلفة وبالضرورة المتباينة التي تجمع بينها . ولا تهتم كثيراً بالانسجام العام للرؤية وبتناقضاتها الداخلية . وما يبرر وجودها هو أن لها وظيفة أساسية في خلق فكرة موجهة وتحقيق إجماع عام يحدد للمجتمع في حقبة معينة منحى ممارسته ، كما ذكرنا ، ويعطيه هدفاً محدداً ونظرة معقولة لما يستطيع أن ينجزه وما لا يستطيع أن ينجزه . إنها تقدم مفاهيم مقبولة ومنطقية نسبياً لفهم الواقع الشامل وضبط الممارسة العامة وقياس درجة التقدم من إنجاز المشكلات المطروحة . فالإيديولوجية العربية ، حتى وهي تثبت « علمياً » وجود الأمة العربية ، كانت تعرف أن هناك عوامل انقسام وتنافر وتناقضات بين العرب سواء على مستوى الدول والأقطار أو على مستوى الطبقات . ولكنها قصداً ، وبصورة « غير علمية » إذا شئنا ، تحاول أن تخفف من أهمية عوامل التفور ، لتعطي فرصة أكبر لتحقيق ما تعتقد أنه يشكل أهدافاً ممكنة ومشروعة للجماعة العربية ككل . وقد ساهمت هذه الفكرة في توجيه الممارسة العربية لحقبة طويلة ورسمت للعرب أهدافاً معقولة ، سواء تحققت أم لم تتحقق . وعلى أساسها قامت الوحدة الأولى وأصبح التضامن السياسي ممكناً تجاه إسرائيل أو تجاه بعض المسائل الأخرى ، ونشأ وعي عميق بالتمييز والهوية لدى أبناء العالم العربي . يعطيهم شعوراً

بالاستقلال والتميز تجاه العالم الخارجي الآخر ويقرب فيما بينهم شعوريا وثقافيا وماديا .

ولا شك أن أسبابا اجتماعية وسياسية عديدة قد دفعت لنشوء هذه الفكرة أولا وأهمها التضامن ضد الهيمنة الأجنبية المهددة للكيان العربي ، وبشكل خاص فيما بعد ، الحركة التوسعية الصهيونية وثانيها الحاجة إلى هوية مميزة ومقبولة لا تشكل قطيعة مطلقة مع الماضي ولا تكون بعيدة عن العصر ، هوية تسمح للعرب أن يحتفظوا بتاريخهم وأن يرتبطوا بالتاريخ الحديث .

وقد نكون ضد هذه الإيديولوجية أو من مؤيديها ، لكننا لا نستطيع أن ننكر شرعيتها باسم منطق العلم^(١) . وهذا لا يعني أننا لا نستطيع أن نتقدها عقليا ونظهر عدم اتساق أهدافها ، أو تعارض مقدماتها مع استنتاجاتها النظرية ، ونجاهلها المفرط لهذا العنصر الواقعي أو ذاك . وهذا الانتقاد أمر ضروري ولا بد منه في عملية المراجعة وتجديد المجتمع لا يديولوجياته . لكن هذا ليس نقدا علميا ، وإنما هو نقد عقلي . فالإيديولوجيات تخلق لخدمة أهداف محددة لا تبقى مدى الدهر ، ومتى ما حققت أهدافها تركت المجال لغيرها . إنها تدمج بين معارف علمية وواقعية وبين قيم وآمال إنسانية محدودة بحدود الزمان والمكان ، أي بالمجتمع الذي انتجها . وهي عندما تريد أن تحقق هذه الأهداف تتخذ موقفا قيميا من الواقع ، أو تجعل من بعض أجزاء الواقع قيا إيجابية (مثلا الوحدة) على حساب أجزاء أخرى تتجاهلها أو تعتبرها سلبية . وهذا المنطق القيمي والتعبوي لا يدرك في نطاق البحث التجريبي وإنما في نطاق الصراع بين الأمم أو الطبقات ، وبمفاهيم السياسة والمجتمع .

فلا يستطيع أحد أن ينكر مثلا أن القومية العربية ، وإن لم تحقق كل

(١) هذا ما قام به « العلماء السوفيت » الذين أعطوا رأيهم في مشكلة الخلاف الذي شب في بداية السبعينات بين جناحي الحزب الشيوعي السوري ، وكانت المسألة القومية إحدى نقاطه الساخنة وقد أثبت « العلماء » بالحجة العلمية ، أن ليس للقومية السرية حدود ولا نصيب من التحقق كان العلم هنا سلاحا يديولوجيا أيضا . انظر قضايا الخلاف في الحزب الشيوعي السوري تقرير الساسة والعلماء السوفيت

أهدافها ، قد كونت شعوراً أو طبقة من طبقات الوعي العربي رسخت فيه الإيمان بضرورة التضامن العربي بل والوحدة في المستقبل وعمقت الشعور بالهوية القومية في عصر يجثم عليه خطر الاستلاب والتفكك والانحلال في المجتمعات الاستهلاكية السائدة . وهي ليست منجزات سلبية ، حتى لو لم تكن قد امتدت إلى منطق علمي ، أو حتى لو لم يؤكدنها ويبرهن عليها « كيف ؟ » العلم .

ولا شك أن هذه الإيديولوجية كانت تحمل في صلبها تناقضات كبيرة ونقائص نظرية وسياسية أيضاً . ولا بد لنا أن نفحصها من جديد ونتجاوزها أيضاً إذا أردنا أن نحفظ الأهداف الجماعية التي أرادت هي نفسها أن تحققها . لكن هذا لا يمكن أن يحصل بالقول : كفانا إيديولوجيات فلن نتحدث منذ الآن إلا علماً يقيناً أو نصمت . فهذا هراء محض . فالعلم لا يكون ، كما ذكرنا ، إلا بالجزئيات . أما الكليات فهي ميدان الفلسفة والاجتماع والنظريات الكبرى التي تتدخل فيها بالضرورة منظومات القيم الاجتماعية والأهداف الجماعية والمؤثرات التاريخية الثقافية . أي أن العلم لا يستطيع أن يقوم بوظيفة الإيديولوجية يستطيع العلم السياسي مثلاً أن يقول لي لماذا ليس هناك ديمقراطية في العالم العربي ، ولكنه لا يستطيع أن يقول لي لماذا يجب أن يكون هناك ديمقراطية أو لا يكون ، هذا ميدان القيم الاجتماعية ، ميدان الإيديولوجية . فقد تظهر الإيديولوجية الاجتماعية لحقبة من الحقب (وهي رؤية موجهة ذات طابع تاريخي وذات فعالية خاصة متعلقة بالربط بين حلول ممكنة لمشاكل اجتماعية متعددة وبالموازنة بينها وتحقيق وسيلة للخروج منها) إيديولوجية مغالية في أهدافها أو في مراهنتها ، لأنها تجاهلت عوامل معينة أو قللت من أهميتها ، كما هو الحال بالنسبة للقومية العربية التي قللت في نظرنا من أهمية العامل السياسي الدولي ، أي وجود دول متميزة ذات بيرقراطية مستقلة ومصالح اجتماعية مرتبطة بها ، وتزيد ارتباطاً بها مع تطور دور الدولة الاجتماعي والاقتصادي . لذلك أيضاً زادت القطرية مع تحقيق الإجراءات ذات الطابع الحكومي (أو الاشتراكي كما تسمى) ولم تنقص . وكذلك من قدرة الدول الأجنبية الكبرى في التأثير على الحركة الداخلية للسياسة العربية عامة وسياسة كل

دولة على حدة أو أنها لم تفهم معنى الإمبريالية . واعتبرتها مجرد مواقع تعود وقواعد عسكرية وشركات احتكارية ولم تر قاعدة مودها الأساسية التي هي في نظرنا ثقافية ، مع اعتبار الثقافة تنضم القيم المحركة لسلوك الطبقات السائدة . مثل قيم الاستهلاك والتماهي والتماثل مع الطبقات السائدة في المركز الإمبريالي .

نقول قد تظهر الإيديولوجية قصورا في تحقيق كل أهدافها أو جزء منها . ولكن هذا لا يعني أن هذا العجز كان بالضرورة نتيجة خطأ في تحديد الأهداف وانسجام الإيديولوجية المنطقي أو عقلانياتها الاجتماعية . بل يمكن أن يكون ذلك نتيجة لظروف الممارسة ، أو نتيجة لعامل خارجي مثل القوة العسكرية المحضنة . ولا يقال لنا أن النصر هو دليل على الحق . إن انتصار إسرائيل على العرب ليس دليلاً على صحة إيديولوجيتها من حيث الأهداف ، ولا اتساقها من حيث المنطق ولا علميتها . ولا نقصد بذلك أن الإيديولوجية لا منطق لها . ولكن أن الهزيمة ليست بالضرورة دليلاً على خطأ الفكرة أو « لا علميتها » . وعدم النجاح في تحقيق الوحدة العربية مثلاً لا يعني أن فكرة القومية العربية لا أساس لها من الواقع والمنطق . وكذلك ، إن انتصار ملوك الطوائف وأمرائها لا يعني بالضرورة أن الطائفية هي الإيديولوجية الصحيحة أو الصائبة أو العلمية ، ولا تستدعي كما شاع في السنوات العشر الماضية التخلص من الفكرة العربية والإعتراف بأن واقع العرب ، أي حقيقتهم ، مجسدة في التنازع القبلي والعشائري ، وأن من غير المنطقي وغير العلمي السعي لتكوين أمة بالمعنى الصحيح للكلمة ، أي مجعماً سياسياً يكون فيه الفرد مواطناً قبل أن يكون ابن طائفة أو أسرة أو عشيرة ، وتكون فيه المسؤولية فردية والقوانين واحدة والقضاء مساوياً بين الجميع . فليس هناك أي علم يستطيع أن يقنع العرب بذلك .

فكما أنه لا يمكن إدراك الحقيقة العلمية من منطق حكم القيمة ، لا يمكن أيضاً إدراك الحقيقة الإيديولوجية من منطق حكم الوجود . ومبرر الإيديولوجية هو بالضبط أنها ، في واقع يتضمن التناقض والتغير في عدة اتجاهات ، تقدم المعايير والمبادئ التي تسمح للجماعة بالتركيز على جانب هو أنه آخر لدفع التغير في اتجاه من هذه الاتجاهات

ومن نفس المنطلق ، يجب التمييز داخل كل ثقافة قومية بين الإيديولوجيات المتعددة التي تضمها ، والأدوار المختلفة التي تقوم بها كل منها . فقد تحقق إحدى هذه الإيديولوجيات أو تكون عاجزة عن إدراك الواقع الذي تريد أن تغيره ، دون أن يعني ذلك أن كل الإيديولوجيات تسايرها في الخطأ . وعندئذ يجب الامتناع عن مطابقة إحدى هذه الإيديولوجيات مع ما يسميه البعض العقل العربي أي في الحقيقة الثقافة العربية ، والتسرع في الاستنتاج بأن سبب إخفاق هذه الإيديولوجية وقصورها العقلي هو قصور العقل العربي برمته أو فساد الثقافة العربية وهشاشة أسسها . فالثقافة أكبر من العقل ، والعقل أكبر من الإيديولوجية ، والإيديولوجية أكبر من المنطق ، والمنطق أكبر من المنهج . ولا فائدة في الانتقال المباشر من الحكم على المنهج أو المنطق أو الإيديولوجية إلى الحكم على العقل والثقافة . وإذا كنا نذكر بهذه الحقائق البسيطة فلأن استخدام كلمة العقل والعلم في الكتابات العربية المعاصرة قد فسد إلى درجة أصبح يساوي فيها بين كل مستويات المعرفة وينتقل بدون رادع من انتقاد أمر جزئي إلى انتقاد الوجود العربي بكامله ، ومن الحكم على إيديولوجية إلى الحكم على الثقافة .

فلا يوجد مجتمع في التاريخ ، لا تتعايش فيه رؤى وإيديولوجيات متباينة ، ذلك لأنه ينطوي بالضرورة على مصالح متباينة ويواجه احتمال اختيارات مختلفة . وهناك إيديولوجيات سائدة تكون مسؤولة عن توجه حقبة ما ، وأخرى مبعدة عن الحكم والسلطة والمسؤولية . وكثيراً ما تقوم هذه الأخيرة باحتضان عناصر الوعي النقيض ، وتظهر ، من وراء قضبان الزنزانة أحياناً ، نقائص الأولى وأخطاءها . وعلى النقد أن يميز بينها إذا لم يرد أن يكون تهجياً على يحمل الثقافة القومية بهدف إزاحة هذه الثقافة عن موقعها بدل مساعدتها على تجاوز تناقضاتها . أما رد جميع النقائص والإخفاقات التي تعاني منها هذه الإيديولوجية أو تلك ، وتفسيرها من خلال الكشف عن تهافت العقل العربي أو الثقافة العربية ، واختلاق ماهية ثابتة لهذا العقل يبحث عنها الناقد ويكشف عنها في كل خطاب وإيديولوجية ، فهو من نوع الحلول السحرية المماثل لما تقوم به بعض الجماعات الأحيائية التي تخلق أرواحاً شريرة وتطاردها وتقاوم مفعولها الخبيث بالحجب والتمايم وهي حلول

يدفع إليها ويبررها غياب معرفة الأسباب الفعلية واستيعابها .

إن تقليص العقلانية إذن إلى علموية سطحية ، هو الذي يفسح المجال أمام تقليص هذه العلموية نفسها إلى منطقانية مبتسرة ، ويخلق عقلاً مقياساً ، يقيس عليه الحقيقة العلمية والإيديولوجية والاعتقادية والدينية والفنية في الوقت ذاته . فيحاسب العلم من منطلق الدين ويحاسب الدين بمنطق العلم ، ويحقق بالضرورة في فهم حقيقة العلم والدين .

في العقلانية وجذورها ، أو مقام العقل

ليس العقل إذن فكرة تمثالية ، وإنما هو تركيب اجتماعي يتضمن توازنات بين مجالات الحقيقة ومستوياتها المختلفة ويحدد مراتبها ويسهر على قيامها بوظائفها المتباينة . فما يسمى إليه العقل العلمي من كشف عن قوانين الظاهرة لا يكفي لتكوين هذه الحقيقة الاجتماعية . والإيديولوجية هي التي تحدد كيفية الاستفادة من المعارف العلمية وتقوم بتوظيفها لتحقيق أهداف اجتماعية معينة يشارك في بلورتها النظام القيمي والنظام الرمزي الذي يميز كل جماعة . ولا يغني الواحد عن الآخر .

فكل مجتمع يحقق هذه التوازنات داخل بنيان العقل ، أي يحدد عقلانيته ، انطلاقاً من المعارف العلمية التي اكتسبها وحسب شروطه الثقافية الخاصة . وإدراك هذه الحقيقة التاريخية والاجتماعية للعقل هي وحدها التي تسمح لنا برؤية إمكانيات التعبير الفكري واحتمالاته وطرق تحقيقه . فليس هناك إذن عقلانية بالمجرد وإن كانت جميع العقول تعمل بمنطق واحد . إن مبادئ التفكير العقلي وإن كانت واحدة ، لا تعلمنا كثيراً عن التركيبات المتميزة التي ينتجها العقل في الظروف الخاصة بكل حضارة ، بل بكل جماعة ، وهي الظروف التي تختلف باختلاف الثقافات والسياقات التاريخية . لذلك تطوّر بعض الحضارات وبعض المجتمعات فروعاً علمية أو فنية أو اعتقادية ليست موجودة عند جماعات أخرى أو ثانوية الدور في منظومتها العقلية . فقد كانت الفلسفة يونانية ، والحق رومانياً ، والحكمة مشرقية ، دون أن يعني ذلك احتكار العقلانية من قبل ثقافة أو حضارة من

قبل أخرى . ويلعب التراث الثقافي دوراً أساسياً في تكوين سلسلة الاحالات الرمزية لهذه العقلانية ، وبلورة لباسها أو شكلها العام . وتطور العلم الانساني لا يحو هذه الأشكال ولا يلغيتها . فلكون العرب مسلمين دلالة وأثر في فهم عقلهم وتطور مفهوم العقلانية عندهم ، كذلك الأثر وتلك الدلالة التي تلعب في تكوين مفهوم العقلانية الغربية وفي تحديد أشكال تطورها . وقد ولدت الحداثة الفكرية في اوروبا إلى حد كبير على قاعدة القيم والمفاهيم والمخيلة والأهداف والمطالب الروحية والاجتماعية التي حددتها من قبل الثقافة المسيحية والغربية عامة ، حتى أن بعض المحللين قد وصفوا فلسفة هيجل بأنها إعادة صياغة وتحرير في ثوب حديث وعلماني للمسيحية . وهذا يعني أخيراً أن للثقافة تاريخاً لدى كل مجتمع ، وأن من غير الممكن حذف هذا التاريخ بجرة قلم باسم عقلانية كونية قياسية وأن العقلانية هي مسألة ثقافة لا مسألة علم . بل إن عقلانية كل جماعة أو بالأحرى كل حضارة هي التي تحدد للعلم مقامه ودوره وحدود عمله وآفاق تطوره . فالعلمانية وهي شكل أساسي من اشكال العقلانية السياسية في الغرب . تمجد تاريخها في الصراع بين الكنيسة والمجتمع . وهو صراع ناجم عن سياق تكون المسيحية التاريخية ، وطبيعة تركيبها الإيديولوجي والمؤسسي . فلماذا انعدمت الكنيسة ، أي الوصاية الإيديولوجية والشرعية على الروح والمجتمع ، في دين ما ، ضعفت بالضرورة مكانة الهيئة الدينية وطموحها إلى الحلول محل السلطة الزمنية . وتاريخ الاسلام السياسي لم يكن في الواقع تاريخ صراع السلطة الزمنية ضد محاولات « الكنيسة » للسيطرة عليها وإخضاعها بقدر ما كان ، على العكس ، تاريخ كفاح الجماعة ، المجسدة في وجودها أو المثلة لبقاء الدين وانتشاره ، للاستقلال في وجه سلطة زمنية كانت تولد باستمرار في القتال ، وعلى قاعدة ميزان القوة^(١) . ولذلك ، ولأن الدين ارتبط بشكل متزايد بالمجتمع المدني وبطموحه الدائم للعدالة والمساواة الفردية والعرقية ، كانت جهود السلطة الزمنية

(١) هذا هو مغزى حملة الإمبراطور فيليب أغسطس الشهيرة « ما أسعد صلاح الدين ، ليس عنده ناياب المؤلفات (بالفرنسية) ج ٣ ، ابن رشد والرشدية ، ص ٢٢٣

موجهة دائماً إلى ترسيم هذا الدين وإخضاعه من خلال تكوين هيئة دينية رسمية موثوقة بألف وثاق إلى السلطة القائمة . ومن خلال هذه الهيئة كان من الممكن لسلطة القوة أن تخلق صلة وصل مع المجتمع المدني ، وأن تصمم لنفسها قاعدة الشرعية التي تحتاجها أو تفتقد إليها بما هي ثمرة للقوة . ولم يكن هناك إذن سلطة دينية مستقلة وطامحة للحلول محل السلطة الزمنية ، بل كان هناك دائماً العكس . ولم تأت فكرة تكوين الدولة الدينية في العصر الحديث من داخل الهيئة الدينية الإسلامية ، وإنما جاءت من داخل الحركات السياسية المستلهمة للشرعية الإسلامية كقانون في الحكم ، والتي كانت وما تزال مستقلة عن الهيئة الدينية ، إن لم تكن في صراع دائم معها ومع المجتمع الإسلامي في الوقت نفسه كأبي تيار أو حزب سياسي .

وإذا تأملنا بعمق في طبيعة العلمانية الغربية ، لوجدنا أن استقلال السلطة الزمنية ، أي تحريرها من وطأة الكنيسة التي كانت تسعى إلى إخضاعها وربطها بعجلتها ومصالحها الدنيوية كمؤسسة اجتماعية سائدة ، لم يكن ، وما كان له أن يعني استبدال القيم والتصورات السائدة في المجتمع المسيحي بقيم ومفاهيم ورموز مخالفة كلياً ومناقضة للدين السائد . إذ أن لها أن تأتي بقيم لا تعرفها ولا يعرفها المجتمع الذي نبعت منه ؟ لقد جعلت من القيم السائدة قيماً علمانية ، أي سحبتها من يد الكنيسة ومن وصايتها ، وجعلتها قيماً اجتماعية مدنية خاضعة للعقل ومستمدة منه ، سواء ما تعلق منها بالأحوال الشخصية أو بالأسماء أو بالتقاليد أو برؤية العالم الشاملة ، أو بالأخلاقيات . وأضافت إليها قيماً جديدة حقوقية أو ابيولوجية مستمدة من الثقافة الغربية غير الدينية ، حيث لم تجد مماثلاً لها في المسيحية . فلم يكن أساس هذه العملية العلمانية إذن نفي القيم الثقافية الموجودة في الجماعة واستبدالها بأخرى ، إنما كان تبديل سجلها ، أي إسنادها على العقل بدل إحالتها إلى الوحي أي في الواقع عقلتها . ولذلك ، لم تمنع هذه العقلنة الغربيين من التأكيد الدائم ، واليوم أكثر من أية حقبة أخرى ، على أن الثقافة الغربية الحديثة هي ثقافة يهودية - مسيحية ، وهم يجدون في هذا التأكيد مصداقاً تميزهم الثقافي واستقلاليتهم بالمقارنة مع الجماعات البشرية الأخرى ولا داعي

هنا لذكر الكتب العديدة التي كتبت عن فلسفة هذه الثقافة اليهودية - المسيحية في الغرب .

لكن هذا التبديل في السجل الثقافي ، أي تغيير السند الرمزي لهذه القيم لا يعني أن العقلانية (العلمانية) لم تحدث أي تغيير داخل منظومة القيم الاجتماعية فقد عملت في الواقع على تقديم بعضها على البعض الآخر ، وولدت قيماً جديدة لم تكن مقبولة أو معروفة من قبل ، وفتحت بذلك آفاقاً جديدة أيضاً لتطور القيم الروحية والعلمية والسياسية معاً . ولكن ما أردنا قوله هو أن هذا التغيير لم يتحقق باعتباره ممارسة لسياسة الأرض المحروقة في ساحة الثقافة القومية أو المحلية ، ولا في انكار أصالة كل من النشاطات والمطالب الروحية والأخلاقية والميتافيزيقية للإنسان . ولكنه تم من خلال تبديل علاقات « السلطة » داخل العناصر المكونة لهذه الثقافة ، وبإعادة تقويم وبعث القيم الانسانية التي ضاعت في الصراع بين الدولة والكنيسة ، وفي الصراع أيضاً لتكوين الدين أو القيم الدينية ، ككنيسة ومؤسسة اجتماعية طامحة الى تكوين المؤسسة السائدة في الدنيا أكثر مما هي مؤسسة عاملة لنشر الدين .

لقد نشأت الدعوة العقلانية ، وجوهرها تحرير الروح من وصاية السلطة وتحرير المجتمع من وصاية الكنيسة ، ومنذ نهاية القرون الوسطى ، كثرة للنزعة الانسانية التي أعادت الاعتبار للإنسان كمركز للعالم ومحور له . وقد كان مضمونها الحقيقي ومحركها النضال ضد كل سلطة تسلب الإنسان حقه في أن يكون سيد أفعاله ، فتقضي على ذاتيته وتقضي على حريته الاجتماعية في الوقت ذاته . وكان تحرر الفرد من تسلط الكنيسة على الأرواح أي على الإيمان ، هو شرط لتحرر المجتمع من تسلط الدولة المطلقة التي كانت تبررها الكنيسة وتشرع بشكل علني أو ضمني لها . وقد وجدت حركة التحرر المزدوج هذا في العقل وما يمثله من حرية في مقاومة ما يتعرض له الإنسان فرداً وجماعة من أنواع القهر واغتصاب الإرادة والاستلاب ، رمزاً لها وترجمة مستقلة تستطيع أن تبني عليها دون كوابح فلسفة المستقبل المنشود . فأصبح بذلك الإيمان الحقيقي هو القائم على العقل ، والسياسة والدولة العاقلة المرتبطة بها ، هي سياسة العقل ، أو السياسة المبنية على

العقل . وأصبحت حرية العقل ضد احتكار مشروعية الكلام المفيد من قبل فئة اجتماعية ما ، والحرية عامة ، قيمة جوهرية لا تنفصل عن وجود المجتمع الحديث . وأصبحت الكنيسة ، وأصبحت الدولة المطلقة المرتبطة بها ، في الوقت نفسه رمزاً للاستلاب والاضطهاد والجمود والتقليد . وارتبطت الحرية بالتقدم التاريخي ، بقدر ما أصبحت التسلطية مظهراً لموت التاريخ وانحطاطه .

وليس من قبيل الصدفة أن الإصلاح الديني المسيحي ، وهو أول تعبير عن هذه الحركة الانسانية ، قد بدأ بإعادة تنظيم الثالوث المقدس لصالح الناسوت ، وأعادت بلورة المشاعر الدينية حول المسيح المخلص والمحرر ، فانتزعت من الكنيسة الكاثوليكية الرمز الأساسي للإيمان . وربطها المؤمن مباشرة بربه المجسد في المسيح ، حررت الإيمان نفسه وأطلقت من جديد طاقات الروح التي كانت الكنيسة قد خنقتها عندما صادرت العقيدة وأعلنت وصايتها على الدين^(١) . وشكل هذا كما قلنا خطوة أولى على طريق تحرير الجسد من وصاية الدولة ، أي تحرير السياسة من الدين وربطها بالسيادة الشعبية ، والانتقال من مفهوم مدينة الله ، إلى مفهوم مدينة الانسان ، أي أيضاً إلى المدنية .

وقد ترافق نمو النزعة العقلانية والانسانية الاوربية بتطور غط الانتاج الرأسمالي والصناعي الذي أتاح لها إمكانية الثبات والتحقق والتطور ، بعكس ما كان يحصل في الحضارات السابقة . فبقدر ما كانت الطبقة الصناعية تنمو وتجعل من الاقتصاد الريفي المشت الذي ارتبطت به الكنيسة هامشياً ، كانت السلطة السياسية تتحول واقعياً الى صفوف مالكي وسائل الانتاج ورأس المال وتضيّق من سلطة الكنيسة ووصايتها على الجسد والروح . وكان النمو الصناعي ، والمدنية المرتبطة به ، ضماناً لتوسع النزعة العقلانية بقدر ما أصبحت العقلانية سلاحاً في

(١) بالمقابل أخفقت حركة الإصلاح الديني العربية في أن تتحول إلى ثورة روحية بقدر ما أعطت الأولوية في التجديد إلى تأويل النص ، وقوّت بذلك موقع الفئة المولوة ، أي العلماء . بل إنها ميّلت إلى فكرت بتكوين خلافة دينية مماثلة للسلطة الكنسية وتوحيد المذاهب الفقهيّة ، وهي مصدر موروثة وتعددية مثرية في الاسلام . لقد مَتَّ عقل العلماء لكنها لم تَمَس روح الشعب

يد هذا النمو وأداة لاستبعاد الكنيسة وتهميشها . ولذلك ترافق هذا التهميش بنمو منقطع النظير للفلسفة وللميتافيزيقا كتفكير في الوجود خارج مفاهيم اللاهوت . وأصبحت الفلسفة عقلية بقدر ما بقي اللاهوت عقلياً . وتأسست العقلانية بذلك على هذه القطيعة بين الفلسفة والدين الرسمي ، وارتبط تحرر المجتمع من الكنيسة بتحرر الفكر من هيمنة المفاهيم اللاهوتية وتأكيد سلطة العقل كسلطة ماقضة للنقل . وفي غمر الفلسفة ، وضدها ، سيجد العلم الحديث إطاره ونبع تحدياته المعرفية ، والايديولوجية التي يبني على معارضة منطقها منطقها الأصيل ومعاييرها . وكما أن الفلسفة لم تلغ الدين ولكنها كانت تتجاوزاً له ، أي بناء لساحة عقلية جديدة في الثقافة الغربية ، فإن العلم لم يلغ الفلسفة ولكنه فتح في المعرفة الانسانية قارة جديدة أضافها الى التراث الانساني .

هكذا ظهر الانتقال من الوعي التقليدي إلى الوعي الحديث كانتقال من المرجعية اللاهوتية في الفكر إلى المرجعية الانسانية ، أي إلى العقلانية الدهرية . وإذا كانت معقولة العالم القديم تابعة من أسبقية الوعي على الواقع ، والروح على المادة ، وكان انتاج المعارف العلمية يخضع فيها بالضرورة لانتاج المفاهيم الاولى الكونية والدينية ، فإن معقولة العالم الحديث تابعة من أسبقية الواقع على الوعي والتجربة على التأمل والاستقراء على الاستدلال والتحليل على التركيب . وفيها تستقل سيرورة انتاج المعارف العملية عن سيرورة تكوين الاعتقادات والرموز النظرية . وطموحها الأعلى هو أن يتحول كل تفكير إلى معرفة علمية ، أي نزول العلاقات الرمزية والوسيطية ، ولا يظهر الوعي الاجتماعي إلا بما هو وعي موضوعي ، بل رياضي . وهنا تكمن أيضاً حدودها ، أو يكمن بالأحرى مقتلها . إذ أن العلم الذي يطمح إلى أن يكون مثال كل معرفة عقلية ، وأن يحل محلها أيضاً ، يغامر بأن يتحول إلى دين أو إلى أسطورة ، ويصبح قيمة مطلقة وهدفاً لذاته . حتى أن فيلسوف الوضعية كونت ، وهي التعبير الفلسفي عن هذا التحول ، جعل من المجتمع موضوع تقديس حقيقي ، وأحلّه كموضوع للعبادة محل الله

في الواقع ، ليس التحديد الملحي للوعي إلا وعياً محدداً بمادية النظام الاجتماعي الحديث ، أي بقيامه أساساً على دينامية الانتاج المادي واشتراطه به . وهذا ما عبرت عنه الماركسية أفضل تعبير وحاولت أن تتجاوز به في ماديتها الجدلية فهذه الجدلية هي التي ستسمح لماركس أن يؤكد ثانية ، خارقاً سقف الوضعية العلموية ، حتمية الاشتراكية التي بقيت مستندة إلى حجة أخلاقية وإنسانية وايدىولوجية لا تثبت تجاه العلم وكانت مسأله الأساسية هي في الواقع ، وكما ذكر هو نفسه ، إثبات الطابع العلمي ، أي الحتمي للاشتراكية ، ضد الطابع الطوباوي الذي كان يحيط بها . وما كان يستطيع أن يفعل ذلك لو بقي حيس المفاهيم الوضعية السائدة التي تلغي إمكانية وجود الايدىولوجية أو الأخلاق . لقد أراد إذن أن يبين نوعاً من الأخلاق العلمية ، أو الايدىولوجية العلمية ، حتى يتزعزع الثوره الاجتماعيه من برائن الوعي الديني والاشكالية الاخلاقية ، ويجعلها ممكنة في الوقت نفسه . ولا نستطيع أن نقول أنه نجح تماماً ، على ضوء التجربة الحديثة التي تبرهن على استعادة الايدىولوجية ، والدينية منها بشكل خاص ، في أكثر من منطقة ، لحيرتها في احتضان بذور الثورة ، بينما تنحو الوضعية ، والمادية - المبسطة دون شك - إلى التشجيع على المحافظة وتدعيم الوضع القائم .

والمهم أن ماركس ، في برهته على الطابع العلمي للاشتراكية ، اضطر الى أن يبرز « الجوهر المثالي » للوضعية كي يحتفظ للاشتراكية وحدها بشرف احتكار المفهوم المادي السليم . وهكذا قام باستبدال الثنائية دينية / عقلانية بالثنائية مادية / مثالية . وبدت الفكرة البرجوازية ، كما أظهر ذلك ماركس وانجلز في « الايدىولوجية الألمانية » . ثم لينين في « المادية ومذهب النقد التجريبي » ، امتداداً للفكر الديني التقليدي . أي أن الوضعية ، سواء كانت مثالية أم مادية تبقى لاهوتية ولا عقلانية طالما أنها تفتقد إلى الجدلية . والواقع أن الثنائية مادية / مثالية ليست في هذا المعنى إلا صياغة محدثة للثنائية ديني / عقلي :- « وأن الماركسية نفسها تصبح ثورية بقدر ما تقرب من المثالية والترعة الانسانية الكاملة فيها ، وتنحو إلى المحافظة بقدر ما تدار في اتجاه الوضعية العلمية . ويجب القول أنهما

أطلق عليه مؤلفات ماركس الشاب هي دور شك الأكثر اثراً في التعبئة الثورية من مؤلفات الرشد التي لا تثير إلا خيال المتخصصين والعلماء

لقد بين ماركس أن دين الليبرالية لم يكن أكثر تحريراً للانسان من الدين التقليدي ولا أقل شمولية منه رغم التعددية التي يسمح بها . لقد استبدل في نظره الاستلاب الروحي بالاستلاب السياسي . وكان في الواقع وفي نظرنا ، المصدر الايديولوجي لشرعية طبقة اكتسبت سلطتها من موقعها في الانتاج ، أي من الحق الوضعي ، وليس من موقعها الايديولوجي ومن الحق الالهي .

تسمى الماركسية إذن الى تجاوز الفكر الوضعي انطلاقاً من تأكيد العقلانية ، أي التأسيس الدنيوي والمادي لوعي الانسان ، وتتهم الوضعية بالاحتفاظ بالبذرة اللاهوتية ، أي باللاعلمية . فهي تطمح الى أن تكون علماً كلياً تاريخياً واجتماعياً . لا يستقيم العلم الجزئي إلا به .

إن انطلاق الجدال ، من حقبة لأخرى حول فيما إذا كانت الماركسية علماً أم ايديولوجية لطبقة وايديولوجية علمية ، يجد هنا أعرق دلالاته ويعبر عن هذا الصراع داخل الماركسية ذاتها . والمشكلة الرئيسية التي تبقى هي : إلى أي حد يمكن لعلم التاريخ أن يكون علماً ، أي ترسيماً لحتمية رياضية ، ويسمح في الوقت نفسه أن يكون لوعي الانسان وإرادته ، سواء أكان فرداً أم جماعة ، دور في هذا التاريخ ؟ هذا نوع من المشكلات المطروحة داخل العقلانية الحديثة نفسها ، داخل الوضعية والمادية التاريخية التي حاولت أن تكسر الجمود الذي تقود إليه ، وداخل فلسفة العلوم والعلاقات القائمة بين مختلف ميادين المعرفة الانسانية ليست العقلانية مفصلة إذن عن الصراعات والثورات الاجتماعية والمعرفية التي عاشها الغرب أو عرفها ، وهي ما زالت تحمل إلى اليوم إشكالياتها . ونقصد بذلك أنها ليست ببساطة غطاءً للتفكير أو العقل كما يحاول أن يظهرها العقلانيون العرب والأجانب . ولا يمكن إذن استيرادها كما تستورد الآلة أو المصنع إنما بشكل أو آخر سلسلة إحالات لهذا التاريخ وتلخيص لنمط علاقاته الداخلية أيضاً .

وربما لم يكرر من الممكن أن يفصل المقال في العرب فيما بين الحكمه
والشريعة من الاتصال والانفصال ، أي أن تتعايش الفلسفة العقلية والشريعة
النقلية ، لأن الدين كان قد تحول الى لاهوتية مقفلة غير قادرة على استيعاب
العقل ، وأجبية الطابع ، سواء في مفاهيمها الأساسية أو في لغتها اللاتينية وما
كان للعقل أن يستمر إلا في الهامش وفي الزوايا المظلمة التي عجز هذا اللاهوت
الكلي أن يحتلها في الحقل الثقافي ، أي في العلم^(١) لذلك نما العلم لوحده ،
وفي مواجهة الدين وأصبح شيئاً فشيئاً مبصراً لمنظومة جديدة محورها الاهتمام
بأمور الدنيا . وقيمتها الأولى نابعة من تأكيد مكانة الأرض والانسان أمام لا نهائية
السماء والغيب .

وربما كان السبب العميق لنشوء هذه الدنياوية ، أساس التوجهات الحديثة
في كل الميادين ، أن الدين التوحيدي بقي في أوروبا معلقاً على سطح التكوينات
الأقوامية والجماعات والثقافات الفلاحية المتميزة بقوة ، بعضها عن البعض الآخر ،
والتي لم توحد لها ، منذ الغزوات الجرمانية البربرية ، دولة مركزية أو تعدد
تشكيلها مدنية أو ثقافة مركزية داخلة بعد سقوط الامبراطورية الرومانية . وكان
انفصال الدين عن الجماعة هو النتيجة لاندماج الدين منذ البداية بالدولة . وقد
عمق هذا من القطيعة والصراع بين حقيقتين متناقضتين تلغي واحدهما الأخرى
وتستكبرها : الحقيقة اللاهوتية المرتبطة بالسلطة بكل أشكالها ، والحقيقة الوضعية
المرتبطة بالانسان والحياة العملية . لقد كانت الازدواجية الروحية والثقافية إذن في
جوهر هذا الصراع الذي قاد الى نشوء النظام الجديد . وما كان للسلطة المعنوية
النابعة من انحلال النظام القديم والخروج عليه إلا أن تبذل عقلانية تجعل من
الحقيقة الدنياوية والانسانية التي أدى قتلها الى الانحطاط وزوال الحضارة ،
مصدراً للاهوت سياسي مضاد ، يقوم على نفي كل متعال في سبيل خلق المحايث
والدنياوي والمشخص وترسيخه . وهكذا دخلت الطبيعة بقوة في نظام العقل ،

(١) تماماً كما تمت العلاقات الرأسمالية الجديدة والمركتالية بالأحرى ، في ثغرات النظام الإقطاعي
وقطاعاته الثانوية التي لم تكن لضخ ريعيتها لمجذب السعة الاقطاعيين للربطين مصيرياً بالملك
العقارية

وأصبحت قوانينها انموذجاً للقوانين التي يفترض أنها تحكم المجتمع كما تحكم العقل . وكان تحرير العقل من وصاية اللاهوت فرصة لتحرير الدين نفسه من طغيان الكنيسة .

ولا شك أنه مما سهل هذه العملية أن القيم الدينية لم تنبع هنا من قيم المنظومة الثقافية المحلية ، ولكنها جاءت معارضة لها في مضمونها ورمزيتها . وعاكسة لعالم شرقي ومطبوعة بالنزعة الكونية والرسالية المرتبطة بنشوء الامبراطوريات العالمية والنامية في حرجها . وقد استمر النزاع طويلاً بين منظومتي القيم الثقافية المحلية والدينية الوافدة حتى نحتت اورما في ترجمة المنظومة الدينية وقيمها الى لغة ثقافتها . عندئذ أمكنها أن تستوعب مضامينها وتحولها إلى أداة تحرير بعد أن بقيت لحقبة طويلة المصدر الرئيسي للاستلاب .

وبعكس ذلك ، كانت ديانات الشعوب الشرقية مستوحاة عموماً من ثقافتها المحلية ومجسدة لتطورها الروحي ونامية في حجر رموزيتها الثقافية . وقد جاءت عموماً لتسم أو تكرر اتجاهات وخبرات روحية قائمة وتصفيها وتنقيها أكثر مما جاءت لتقف في وجهها . وقد انتهى بذلك منذ البدء التناقض بين قيم الدين وقيم المجتمع ، وضعفت بسببه أيضاً الحاجة إلى وجود كنيسة مستقلة وصية على نشر هذه القيم ورعايتها . وبقيت المنظومة الثقافية ، رغم سيطرة القيم الدينية عليها ، أو رغم صبغها بطابع ديني وقداسي ، مفتوحة أمام كل التجديدات الممكنة والاضافات التي يفرضها الواقع ، ولم تتحول إلى شرقة مغلقة . وما أكد هذا الاتجاه في التطور غياب البابوية وغياب السلطة الدينية السياسية ، أي السيادة النابعة من إلهام رباني مباشر ، وبقاء الحاكم ، مهما كان متديناً عرضة للنقد والمراجعة المبدئين

بل يمكن القول أن المجتمع الشرقي جعل من القيم الدينية ملاده ومصدر وحدته وتضامنه وقوته تجاه الدولة التي بقيت تؤكد نفسها رغم الدين ، بل أحيانا صده ، أي بالعلبة المحضنة . ويقدر ما كانت المشكلة الرئيسية للثقافة وللمجتمع في العرب هي مشكلة التحكم بالكنيسة والمفاهيم الدينية الوافدة والسيطرة عليها

واستيعاب القوى التي أطلقتها ، كانت مشكلة بلاد الشرق الرئيسية هي السيطرة على الدولة التي بقيت ، بقدر استقلالها عن الجماعة ، لا تخضع لأي قانون سوى القوة ولا تقوم بوظيفة سوى إعادة إنتاج هذه القوة وتوسيعها وتدعيم العصبيّة الحاكمة في الداخل والأمن في الخارج . وقد تطور الدين هنا بقدر ما تحول إلى أداة للجسم هذه السلطة ، سلطة القوة ، وعقلنتها وإخضاعها لقيم ومبادئ ، وشرعية وأحكام . ولذلك بقي الدين قريباً من المجتمع ، وبقيت الدولة فوق الدين والمجتمع معاً ، وضعية وطبيعة العصبيّة . وبقي مفهومها ، كدولة امبراطورية متعددة الأقوام والجماعات ، هو « صون نظام العالم » ، أي حفظ التوازن بين هذه الجماعات أكثر مما كان يعني حكمها أو سياستها بالمعنى الحرفي للكلمة . كانت الدولة والسياسة المرتبطة بها والنابعة منها تعني إذن التحكيم ، مما منحها من أن تحتكر كل السلطات والمشروعات ، خاصة القانونية والفقهية منها ، وسمح في الوقت نفسه للجماعة أن تعيش بشكل مستقل نسبياً عنها وعما يطرأ عليها أيضاً من تبدلات وما يدور عليها من أقوام^(١) . وبقدر ما كانت الكنيسة كنموذج للحكم الديني تناصر الفرد والجماعة في كل المجالات ، كانت الدولة المحكم ، تترك للمجتمع هامشه الكبير من الاستقلال والحرية ، لقاء ما تطلب منه من تأمين لوسائل حياتها حسب قوتها وشوكتها . وبمعنى آخر كان الصراع بين الدولة والمجتمع في العالم العربي يشكل قانون الحركة والتطور التاريخي للفكر والثقافة ، ويستدعي تغيير الدولة والحكم ، كأساس للاحتفاظ بالحرية ، كما كان الصراع بين الدولة والكنيسة هو مصدر التطورات الفكرية في الغرب . وقد ربحت الدولة الغربية المعركة عندما نجحت في أن تقترب من المجتمع وتحول إلى دولة قومية ، أي أيضاً شعبية وإنسانية ، كما خسرت الدولة العربية الحديثة المعركة عندما

(١) لذلك كان من الممكن أيضاً أن تبقى هناك طوائف وجماعات دينية مستقلة ومنمّزة لممارس عاداتها ، ولم يحصل ما عرفت لوربة الوسيطة والحديثة أيضاً من أحاطة دينية وحروب ومذابح دينية وعداء للسلطة . أما الطائفة الحديثة في البلاد الإسلامية فهي ثمرة توظيف الدين في حروب سياسية محضة في تركيبها وأهدافها ، ولا علاقة لها بالحروب الدينية بمعنى الكلمة تهدف إلى نشر الدين وإعلاء كلمته بقدر ما تهدف إلى تقاسم السلطة الزمنية

تجاوزت ميدان نشاطها إلى ما يؤثر على حقوق المجتمع وحرية . فظهر الانتقال من النظام القديم الى النظام الحديث هنا كتضحية بالقيم الروحية والعقلية التي قام عليها في الماضي استقلال المجتمع وتميزه . لذلك أصبح تأكيد المعرفة العلمية والقيم العقلية كأساس لنشوء سلطة اجتماعية جديدة ، واقتضى ، الثورة الدينية أو استفزها . واستدعى ظهور الأخلاق الفردية والوضعية هنا تكسيراً منتظماً للاهوت الأخلاق أو لمصدرها الأساسي .

مازق العقلانية العربية الحديثة

لقد استطاع الفكر الحديث أن يحقق توسعاً كبيراً في الغرب ، في القرون الماضية ، ليس على حساب المسيحية ولا ضدها ، وإنما خارج الكنيسة ، بقدر ما أصبح فكراً مفتوحاً ، وعبر عن حركة اجتماعية ، أو عن حراك اجتماعي عميق وفعال أزال الحواجز الثابتة بين المراتب الاجتماعية . وزادت امكانية هذا التوسع مع ازدياد قوة الحضارة التي نشأت معه وبسيبه ، من صناعة ومكتسبات مادية وقانونية بحيث أصبح للذنيوي وللعقلاني فعلياً لا نظرياً فقط التأثير الحاسم في رسم الظواهر الاجتماعية وتحديد سلوك ومصير الأفراد وموقعهم بعد أن كانت القوى الخارجية ، والخارجة عن إرادة الانسان، هي العامل الحاسم في تحديد فائض الانتاج ، ورعاية التنظيم الاجتماعي وضمان مشروعية السلطة . وبالعكس بدأ انحطاط الفكر العربي أي انغلاقه وتقوقعه على ذاته ، بتدهور هذا العمران وفقدان الجماعة لسيطرتها الفعلية على مصيرها .

فالانتقال من فكرة رسالية إلى فكرة وضعية دنيوية ليس تابعاً لثقافة دون أخرى ، إنما هو نتيجة طبيعية لصعود العمران أو المدنية ، وانعكاس لنمو القدرة البشرية في المجتمع ولدور العقل في صنع العالم الذي يعيش فيه ، أو لظهور ما يسميه كارل بوبر بالعالم الناجم عن عمل الانسان . وبذلك تحمل المؤسسات محل الانتباه الجماعوي والحماسي والاندماجي في تنظيم العلاقات الاجتماعية وتنمية التواصل الإنساني .

ومع ذلك ، لم يحصل تطور الفكرة الدهرية دون صراع عنيف وتاريخي

لاستيعاب المسيحية الشعبية وهضمها . وهذا ما يفسر استمرار الصراع ضد الكنيسة على مدى قرون عديدة لفك ارتباطها بالمجتمع إلى جانب إعادة تأويل التراث المسيحي وتجديده . وبما ساعد على ذلك الحروب الدينية المستمرة التي دمرت تدريجياً أسس سلطة الكنيسة المعنوية وكسرت شوكتها . وكانت هذه الحملة تستفيد من التحولات العميقة في البنية الاجتماعية والاقتصادية وتعكس جزءاً من سيرورة تاريخية واحدة . وبالإضافة إلى هذه الصراعات الفكرية خاضت الطبقة الجديدة ، والدولة المتأثرة بها أو المشاركة لها طموحها ، حرباً طاحنة مع الكنيسة لتثبيت أولوية سلطة الدولة ، وخلق المسيحية كقوة سياسية مستقلة ومنتشرة أو كقيادة للمجتمع . وبقي هذا الصراع كما نعلم بدون حسم على الصعيد القانوني إلى أن أجبر موسوليني البابا على التخلي عن مطالبه بالسيادة على روما . وعندئذ انتهى حلم تكوين امبراطورية مسيحية .

وبقدر ما استطاع النظام الجديد أن يدمج في دائرة حضارته أي دورة استهلاكه وإنتاجه ، الجماهير الفلاحية والحرفية الخارجة من النظام القديم ، ويضفي عليها شخصية السيد الحر والمستقل والمتساوي مع غيره ، بحيث أصبحت تعيش الانتقال تحريراً ، وبقدر ما أعاد تشكيل القطاعات والبيروقراطية والنخب الاجتماعية القديمة الخاصة والحكومية في طبقة جديدة ذات وعي بدورها القيادي وبمصالحتها وطموحاتها ووزنها السياسي والفكري ، أي بالدرجة التي تمت فيها البرجوازية كطبقة ذات مشروع اجتماعي اقتصادي إنساني (الصناعة) ، ومطامح هيمنة قومية تدفعها إلى بلورة سياسات اجتماعية واقتصادية متوازنة تحفظ الحد الأدنى من الوحدة القومية ، ولأن هذه الطبقة لم تبق حشرة طفيلية لا عقل ولا قلب ، لا علمانية ولا دينية ، كمثيلاتها في البلاد التابعة ، أمكن أيضاً للنظام القيمي الجديد أن يفرض نفسه كنظام سائد وأن يتسرب إلى الوعي التقليدي بكل عناصره فيخلق حيزاً مستقلاً لوعي مشترك تتقاطع فيه المثل الروحية والعقلية القديمة والجديدة وتبلور على أساسه الكونية كرسالة إنسانية جامعة .

ومع ذلك ، بقدر ما بقيت الجماعات الريفية في أوروبا معزولة عن

التحديثات الرأسمالية ، حافظ العالم الفلاحي فيها على طابعه المسيحي العميق حتى فترة قريبة جداً ، وحتى الآن في الكثير من المناطق وقد بقي معرولاً وهامشياً بعد أن انتقلت قاعدة السيطرة الى العالم المديني ولم ينج العالم الريفي بعد ذلك إلا خوارنة القرية ، ولم يساهم إلا بقسط لا يذكر في نهوض العلوم والفنون والآداب والثقافة والحضارة . وكان من الممكن لهذا العالم الفلاحي أن يستمر في هامشية حياته المحافظة لو لم يتمتع النظام الرأسمالي بقدرة إضافية على التوسع ودمج الجماعات ، التي بقيت لفترة طويلة خزاناً للجند في الحروب الاستعمارية ، بينما تقدم وسائل الحرب الحديثة تعويضاً كاملاً لدمار هذه الإرادة الجمعية والعصبية التي انطوت عليها الحياة الريفية .

وآليات دمج الفئات الشعبية والشرائح الاجتماعية المختلفة في النظام الجديد لا تعني المساواة ولكنها تعني الانفتاح على المجتمع بدون قيود من طبيعة دينية أو طبقية أو اقليمية أو أقوامية . ويظهر ذلك في نظام التعليم العام ، وأنماط الاستهلاك ، والقيم السائدة وأنظمة الحقوق والعمل إلخ . إن الرأسمالية حاملة النظام الجديد لم تصبح نظاماً مستقراً إلا لأن نمط الحياة الذي صاغته الطبقة المهيمنة فيها يفترض إمكانية تعميمه في حلقة متزايدة الاتساع ، وذلك على المستويات الذهنية الثقافية والمادية والسياسية معاً . ولهذا أمكن للنظام الرأسمالي أن يتحول إلى مشروع تاريخي ينطوي على رهانات اجتماعية معقولة ، إذن جذابة لقسم أكبر فأكبر من الناس بقدر تدليلها على إمكانية تحقيق هذه الرهانات أو حرمانها . وبقدر ذلك تبلورت مفاهيم ثابتة وعلوم وقيم ومعايير خلقية وأدبية وفنية نشأت عنها عقلية اجتماعية . وتطورت العقلانية مع تطور ونمو هذه العقلية ، ونمو نفسية اجتماعية وفردية موازية لها تعكس السيطرة النهائية للنظام الجديد وهكذا أخذت تُستبدل الرموز والصور وأشكال التعبير والموضوعات والأسماء القديمة بأخرى جديدة ويتكون حقل إبداع عقلي مرتبط بتحقيق هذه العقلية ويستند إليها في نطاق البحث عن التوازنات الدقيقة المستقرة بين العناصر الذهنية المتناقضة قديمها وحديثها ، مثاليها وماديها . ويقدر ما يمكن الوصول إلى وحدة ذهنية ، أي في الواقع إلى سيطرة ايديولوجية محتملة ، يتحرر الخيال من وظيفته القسرية كمرور

توحيدية وكبطانة للواقع ، ويطير بأجنحته الخاصة كسمي جمالي فيسقط الحديب
عن الشكل والمضمون في وحدة المعاني المبدعة .

ورغم أن فاصلاً كبيراً يظل يفصل بين الوعي الشعبي ووعي النخبة
السائدة ، إلا أن العقل يدخل في زمانية واحدة . وتحفظ الثقافة العليا بمستويات
مختلفة للتعبير العلمي والفلسفي والأدبي والخيالي . لكن هذه المستويات تتدرج
بصورة لا قطيعة فيها لتخلق سلسلة مترابطة للتعبير والمشاركة العقلية . وما كان،
لفترة من الزمن ، حكراً على الطبقة العليا يصبح بعد زمن في متناول الجميع ،
فليس هناك أنماط حياة مغلقة واحدها على الآخر . وموضوعات الآبه والأزياء
التي تبدأ من حاجة الفئة العليا للتباهي والتمايز الاجتماعي تجدد في هذا التباهي
والتمايز أداة لتعيمها في المستقبل ، كالسيارة والأجهزة الالكترونية مثلاً . إذ
بدون هذا التعيم يفقد المشروع الرأسمالي مصدر مشروعته .

وليس هناك أية علامة استثنائية في اللباس أو الممارسة الفكرية أو الجسدية
محرومة على العامة ومقتصرة على الفئة العليا بقصد تمييزها ، بل أن حيلزة أدوات
وموضوعات الآبه مرتبط بتأمين عنصر موحد هو وسيلة التعامل على مستوى
العمل بين الأطراف المختلفة : المال . وهو لا يسمح بنشوء مرتبة نسيية فقط ،
ولكن أيضاً بوجود طبقات تحكمها حركة صعود وهبوط الأفراد حسب قريهم أو
معدهم عن حيلزة وسيلة التعامل والسلطة هذه . ويعني آخر لا يُتيح النظام
الاجتماعي هذا نشوء ثقافتين متميزتين مع وجود عالين ومزيين . وهذا هو أصل
الاندماج الثقافي ، لا باعتباره معطى أولياً ناجزاً ، بل سيرورة تاريخية ، ومسمى
بحو الوحدة والتكافؤ والتوحيد . أما المجتمعات التابعة فإنها تفتقد هذه التاريخية
بقدر ما تفتقد المشروع الاجتماعي والمهيمنة الداخلية وتبقى لذلك خليطاً من
عناصر متجاوزة متفاوتة الأعمار . ومن هنا على النقد أن يظهر إمكانية إعادة
صوغ التاريخ ، وبلورة استراتيجية وضع هذه العناصر في زمانية واحدة وفي اتجاه
واحد . وفي هذا الاتفاق لا تبدو المجتمعات التابعة محرومة من التاريخ فقط . بل
نعيش أيضاً تفككها الذاتي وروال ملكها وسيطرتها ومصداقية قيمها وثقافتها

لقد نشأت العقلانية الاوربية ونمت بقدر ما كانت سياسة تحرير للعقل من النقل ، وللمعرفة من هيمنة النظام اللاهوتي الذي نظم اختكارها من قبل فئة محدودة ومنعها على الاغلبية الساحقة من المجتمع . وبقدر ما بدأت هذه الاغلبية تشارك فعلياً في السلطة المدنية التي اتاحها لها النظام الحديث ، بدا هذا الاحتكار امراً لا مشروعاً وحرماناً من الانسانية . وظهرت العقلانية لهذا السبب كإطار لاستراتيجية ثقافية تراهن على فك المعرفة عن الهيمنة الدينية ، وانتزاع العقل وفيه عن الدين وعن الوصاية التي يمارسها عليه .

لكن الذي حدث في البلدان التابعة هو سيرورة معاكسة . فقد تحولت المعرفة المقروءة والمسموعة ، والتي تلعب الدور الاول في تنظيم شؤون الانتاج والدولة ، إلى معرفة نخبة ضيقة ومحدودة وارتبطت بنمط حياة وبرؤية تحمل بعض الاوساط المتغربة هي الوحيدة القادرة على حيازتها . فأصبح التحرر العقلي والعقلانية استبعاداً لأوسع الاوساط الشعبية عن السلطة والدولة . وما كان من الممكن لنظام المعارف الجديد إلا أن يسير في اتجاه تضيق دائرة المشرفين على المعرفة العلمية الفعالة ، وتهيش بقية الاوساط بإعطائها معرفة هامشية لا وزن لها في حقل اتخاذ القرارات الأساسية المتعلقة بشؤون الجماعة ، ولا مكان لها في ممارسة السلطة . والمعرفة التي لا تقبل التعميم تخلق بالضرورة سلطة مضاعفة ، وتدفع الهيئة الحائزة عليها الى زيادة الصعاب أمام إمكانية انتقالها وتوزيعها بشكل يلغي الاحباط ويوسع من دائرة النخبة الاجتماعية الفعالة والمشاركة . وليست العلمية التي تستخدم المعلم كقيمة ايديولوجية مطلقة وتسجبه على كل مقال ، إلا إحدى آليات حرمان الفئات الاجتماعية المختلفة والجمهور من حق الكلام والتفكير والتعبير . فباسم « الخطاب العلمي » الذي هو حقيقة واقعة في ميدان البحث والتطبيق ، يمنع الجمهور من كل خطاب ثقافي أو سياسي أو حتى مطلب . فالعلمية ليست شيئاً آخر في الواقع إلا العودة إلى صيغ العقل والمعرفة الانسانية عامة بصيغة لاهوتية جديدة تحرمها من الانطلاق وتمنعها من الانتشار .

في المجتمع العربي والاسلامي وفي كل البلدان التي لم تدخل العصر الحديث إلا في فترة متأخرة دخلت منظومة القيم الثقافية الجديدة أولاً عن طريق

مفهم - بعيدير سبيا عن الشعب وعن الأغلبية ، أما سبب اصوغهم لتدبير
لتنميره او سبب وضعهم الاجتماعي المتميز الذي سمح لهم بتحصيل علوم
العرب وبالفاد الى دحيرو الحضارية . أما بقية الفئات الشعبية فقد كانت
تمسكه بمنظومه القيم التقليدية لا لأنها متعلقة بالفطرة بما هو تقليدي وتراثي .
لكن لأن سوارنها الداخلي المادي والمعنوي كجماعة يقوم عليها فقد دخلت
الزعة العقلانية قبل أن تتطور وتنمو طبقة جديدة متجة ، أي قبل أن يظهر
نموذج انتاجي واقتصادي جديد ، ومجموعة من العلاقات الاجتماعية التي تضمن
استبدال التوازن القديم للمجتمع ، بتوازن جديد أكثر فعالية وأكثر انسانية
دخلت النزعة العقلانية عن طريق الفئات العليا السائدة وحاولت هذه الفئات ان
تستخدمها لتخليد سيطرتها وسيادتها وتأمين ركود العلاقات الاجتماعية واستمرار
النظام الاجتماعي القديم . ودخلت أولاً كعلم وك تقنية ، أي كإنكار لكل قيمة
ومعيار ، أي لكل ما بشكل . سعاً عميقاً للثقافة كمصدر إجماع . دخلت
كأيديولوجية

وسينمو النظام الاقتصادي والاجتماعي المصري على هذا الاساس ،
مستفيداً من التفوق الذي تعطيه النظرة المصرية للطبقة المسيطرة على الطبقات
الدنيا ، أي بشكل يدفع الأغلبية الشعبية أكثر فأكثر نحو الهامشية . ولر يكون
لهذه النزعة اية قواعد شعبية فعلية سوى الفئات الجديدة المتعلمة التي تحاول أن تجعل
من علمها ، لا وسيلة للتحرر من سلطة الطبقات العليا السائدة ، ولكن بالعكس
سلماً للصعود الى مصافها ومجاراتها ومحاكاة نمط حياتها

ثم ان دخول منظومة القيم الجديدة ، وهذا هو العامل المهم والاساسي
لفهم المصير التاريخي للعقلانية العربية ، حمل معه بقدر ما كان يعكس ظهور طبقة
اقطاعية مبرجة مرتبطة بالسوق الغربية ، خطر السيطرة القومية الأجنبية على
المجتمعات الإسلامية وإمكانية خضوع هذه المجتمعات للدول القومية الغربية
وأكد هذا المسار النموذجي للطابع الكمبرادوري التجاري والسمساري للرأسمالية
العربية والإسلامية . فقدر ما كانت الأفكار « العقلانية » تدفع الى تقوية سلطة

إبناء العائلات المسيطرة والفئات المتنفذة التقليدية كانت تخرج الشعب من الساحة السياسية والإدارية والعقلية والاقتصادية ، أي تحرمه من كل انتخابية لفهم ما يجري ومراقبة التحولات الجديدة . وكان نمو الرأسمالية الكمبرادورية لا يتطلب إعادة تنظيم للعلاقات الاجتماعية والمراتية والتوازن المحلي لصالح العاليتين الشعبية ، كما حصل وجسده الثورة البرجوازية الغربية ، ولأنه يعمل على تحويل الطبقة القديمة الى طبقة جديدة أكثر بعداً في فكرها ونمط حياتها . أو كها وقيمتها عن حمرة الشعب . بالإضافة الى أن هذا النمو لرأسمالية تجارزة يسمح باستمرار البنى الاقتصادية والسياسية التقليدية ولا يتم إلا به . فالأحزاب السياسية الفلاحين ، أو بالمنتجات الصناعية اليوم مع السوق الدولية يختلف كلياً عن عملية التصنيع التي تجر وراءها إعادة صهر وتكوين الفئات الاجتماعية على أسس جديدة ، وتفكك البنى التقليدية ، وبالتالي القيم المرتبطة بها .

ومنذ البدء اذن دخلت العقلانية الغربية كحليف للطبقات العليا وللغرب المستعمر أو المهتد بالاستعمار بينما أنكفات الأغلبية الشعبية ، لحتمي نفسها من شراة الطبقة الجديدة التي تريد ان تقلد نمط الحياة الغربية وتزيد من أجل ذلك من معدل استغلالها ، ومن خطر الغزو الأجنبي ، وخطر تحالف طبقاتها العليا مع الأجنبي ، الى منظومة القيم التقليدية . وكان التمسك بهذه القيم يعني إحياء روح التعاون الداخلي والذاتي ضد خطر تفكك الوحدة الشعبية الذي يمثل دخول أنماط الحياة العصرية قبل دخول وسائل الإنتاج العصرية ، والتضامن المحلي ضد خطر تخطيط التوازن القومي الذي يمثل ضغط الغرب والقوى الأجنبية .

وسيحدد ذلك آفاق وأشكال نمو الثقافة المعاصرة في المجتمع العربي (١) . كما سيحدد أيضاً الوظيفة التي ستلعبها هذه الثقافة . فبقدر ما تم دخولها من فوق ستحاول الفئة العليا التي أدخلتها أن تجعل منها أحد أسلحتها الكبرى لتبرير سلطتها السياسية والاحتفاظ بهذه السلطة . ولن تنقل هذه الفئة منها إلا القيم

(١) لم تنقل عن الغرب قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان ، بل نقلت عنه التكنولوجيا والاستهلاك ، ووجدت أكثر من فلسفة تبرر لها إلغاء الديمقراطية وتخطيط ذاتية الإنسان وكرامته .

والمعايير التي تؤكد سيطرتها ، كما أنها ستعمل كل ما بوسعها حتى تبقى حكر عليها ندر الفئة المثقفة لعصرية العربية اليوم بمحدوديتها وسرعتها الفوقية كهيئة كهنوتية تملك وحدها الاسرار المقدسة لعلم « الأولين » وتحتكر القدرة على فهم اللعبة الدبلوماسية والتوسط بين الشعب « الجاهل » والغرب المتحضر ، بين الأرض والسما « وسعكس فكرها » ، « إيديولوجيتها هدفها في استبعاد الأغلبية الشعبية » . إن كان ذاك عن طريق الإشكالية التي ستنظر على تنظيمها أم على صعيد الممارسة اليومية الثقافية أو في التربية والتعليم

ومن الجهة الثانية لن يترك الشعب التمسك بالقيم التقليدية القديمة ، التي ظلت تعني بالنسبة إليه رفض السلطة العصرية الجديدة للطبقة الكمبرادورية التي لا تختلف عن الطبقة الانقطاعية القديمة إلا بالمظهر

أما من وجهة تنظيم العلاقات بين القاعدة والقمة ، بين الحاكم والمحكوم وبين القيادة والمنتجين فإنها لم تعمل إلا على تعميق الهوة بينها ولحطيم كل جسور التواصل والتفاهم كما ظلت تعني أيضاً رفض الخضوع للغرب ورفض الاندماج فيه وفقدان التمايز ، أي : بمعنى آخر التحول إلى مستودعات لليد العاملة الرخيصة المكدحة والفصوله كلياً عن كل تاريخ ، عن قيمها ومطامعها وآمالها وشخصيتها : رفض التحول إلى آلة مجردة عن كل وعي وشعور ، أي إلى « بروليتاريا » رثة ، بدون رسالة وبدون قيم وبدون مثل غير البحث الدائم والدائب عن الرغيف ، أي أيضاً بدون ثقافة ^(١)

سيعمل دخول منظومة القيم « العصرية » إذن على شق المجتمع إلى شقين ، الأول عصري يحتكر السلطة والثروة والثقافة أي العلم والمعرفة واللغة ، والثاني تقليدي محروم من كل سلطة ومن كل ثقافة وقيم وعلم .

(١) في الواقع سارت الجماهير بدون تردد ، ولماوزت كل « تقاليد » « الحاملة » وحلواها ، عندما اعتقدت أن الحركة القومية الناصرية تحمل بالنسبة إليها آمال الدخول الجذلي في الحضارة : آمال التصنيع والإنتاج والحرية والكرامة . ولماخلت عن الحركة القومية عندما أدركت أن النخبة القومية لم تكن تختلف في جوهرها عن سابقاتها إن لم تتجاوزها في الكثير من السلبيات

وسيتجسد ذلك في سياسة ثقافية للدولة مضمونها خدمة أصحاب الكفاءات والمواهب القادرين على ان يكونوا الوسيط بين الشرق والغرب ، أي ان يسهلوا نهب العالم الشعبي واستغلاله وتطوير التجارة ، وبالتالي ان يعمقوا هذه الهوة التي تفصلهم عن الأغلبية الشعبية . ستتركز العملية التربوية ، حتى عندما سيتعمم التعليم ، على إنجاب وتفريخ المبريات والذكاء .

وفي الوقت الذي ستزداد فيه سيطرة الثقافة العصرية على نخبة اجتماعية محدودة سيتدهور وضع الثقافة التقليدية مع تدهور المواقع الشعبية ، وستحول أكثر فأكثر الى بؤرة تمرد وثورة ضد كل ما هو عصري .

بدراسة هذه السياسة الثقافية العصرية يجب ان نفهم فشل الدعوة « العقلانية » وعودة التيار الديني أقوى مما كان عليه في أية فترة من التاريخ الإسلامي . ولا يكفي أن نقف من أجل ذلك هذه النظرية أو تلك . ولا ان نظهر لا عقلانية الدين ، أو عقلانية هذا الجانب أو ذاك من الدين ، فما يجعل من العقلانية العصرية العربية اليوم قشرة ضعيفة ليس هو طابعها الخرافي أو اللامنطقي ، كما ان ما يعطي لمنظومة القيم الدينية قوتها اليوم ليس طابعها العقلاني . ولا عكس ذلك . انما الوظيفة الاجتماعية التي تلعبها هذه الثقافة أو تلك وتظهر أو تختفي مضمونها .

لقد كرس الكثير من المثقفين العرب جهودهم الاصلاحية للبرهنة على ضعف الأسس المنطقية لهذا الجانب أو ذاك من الثقافة الإسلامية التقليدية ، أو قوة هذه الأسس في هذا الميدان أو ذاك من الفكر الإسلامي ، والحقيقة انهم كانوا هنا وهناك يقترحون بتحليلهم هذا واشكالياتهم ونمط معالجتهم للمسألة ، سياسة ثقافية جديدة هي التي نحصد اليوم نتائجها .

فليس استمرار هذه « الإيديولوجية » أو دخول تلك ، دليل على صحتها أو خطئها ، عقلانيتها أو لا عقلانيتها ، وليس في اثبات هذه العقلانية المطلقة أو نفيها يمكن القضاء عليها أو استبدالها بأخرى . وهذا لا يفسر لا كيف تستمر هذه الايديولوجية أو تلك ، ولا كيف تزول . وهذا لا يساهم ايضاً لا في فهم كيف

وصلت الى ما هي عليه ولا كيف يمكن التوجه من جديد في رسم إطار سياسة ثقافية قومية . فمن الممكن التأثير بايديولوجية ونظريات مختلفة لكن ليس من الممكن استيراد ثقافة .

ان الإشكالية المنطقية التي ميزت المرحلة السابقة من التفكير العربي تعكس الى حد كبير رغبة المثقفين في الاحتفاظ بدورهم الأول وسيطرتهم واندماجهم في الطبقات العليا . لأن الثقافة السياسية التي تنجم عنها هي سياسة بناء العقل لنخبة متميزة ، لا سياسة بناء قنوات التواصل والحوار والوحدة القومية للجماعة . وبقدر ما ان هذه السياسة تصب في طواحين الفئات المتسلطة سيخرج المثقف من « اللعبة » بدون فائدة تذكر ، ولن يكون عمله الا تمهيد الطريق امام العسكريين والفئات المتنفذة الأخرى لاحتكار السلطة وفرض الخوة .

وستكون نتائج هذه السياسة كما سيظهر في الفصول القادمة تحطيم كل منظومة قيم اجتماعية ، واحلال العنف محل الحوار والسياسة ، والانقسام والتنافر بدل الوحدة والتضامن ، والجهل والامية بدل العلم والتحرر . فمع تطور نظام اقتصادي متوحش لا قانون له ، لا يمكن استبدال منظومة قيم تقليدية بمنظومة قيم جديدة عصرية . فلا المفاهيم الجديدة الداخلة تستطيع ان تعني شيئاً طالما ان الأغلبية ما زالت تعيش خارج نطاق كل ثقافة وعلى هامش كل حياة عصرية ، ولا المعايير والقيم السياسية العصرية يمكن ان تسود اذا استمر العنف وقانون الأقوى هو الذي يتحكم بظهور السلطات وانتقالها من فئة إلى أخرى ، ولا المعايير الاقتصادية يمكن أن تتأكد مع فقدان كل قدرة على إرضاء الحاجات الأساسية . لا يمكن أن يكون هناك أي معنى للعلم أو للحزبية أو للعمل والراحة إذا كانت الأغلبية « أمية » ، مستبعدة عن الساحة السياسية وخاضعة لقوانين عمل عبودية . ولا يمكن أن تتطور الثقافة إذا كان من غير الممكن بعد تأمين الحاجات المادية الضرورية .

هذا التحليل يريد ان يثبت التالي . لا يمكن فهم استمرار منظومة القيم القديمة وتدهورها في إطار إشكالية عقلانية فلسفية تقوم على التمييز بين الحق والصواب والمنطقي واللا منطقي بل يجب فهم ذلك في إطار العلاقات

الاجتماعية التي تفسر وحدها استمرار هذا الفكر او ذاك واستمرار هذا الفكر لا ينقض ويُتقد باعتباره غيبياً ومعزولاً ومفصلاً عن الواقع ، بل بالعكس ، إنه شديد الارتباط بالواقع وله كل المصادر التي تجعله يستمر في الحياة ويقوى ويتعش

وان مفتح فهم هذا الاستمرار ليس الخصائص الذاتية المحصنة للفكر التقليدي ، او « الذات المريضة » العربية كما يحلو للبعض اليوم ان يقولوا ، ولكن بالعكس ان هذا المفتح هو دراسة الايديولوجية العقلانية والعصرية المسيطرة والسائدة في الحياة الاجتماعية وفي الدولة . اي بالضبط ايديولوجية المثقفين والسياسة الثقافية للدولة ، لا خرافة البسطاء من الشعب هذه السياسة الثقافية هي التي تفسر استمرار « الخرافة » لدى الأوساط الشعبية ، واكثر من ذلك تحول العقلانية الغربية المنقولة الى المجتمع العربي الى ايديولوجية لا عقلانية لاهوتية وخرافية من نوع جديد ، اي الى استلاب عقلي .

وان نتائج هذه السياسة اخطر بكثير مما يصفه المثقفون المقلدون . انه ليس استمرار وانتعاش الفكر الغيبي او الخرافي او الديني ، وإنما انهيار الأسس الموضوعية لكل ثقافة حية ، قومية موحدة ، وظهور ثقافات ذات طابع اقوامي راجناسي مغلق لا عقلائي . وضياح أحد اسس توحيد كل جماعة بشرية مستقلة ذات سيادة : التكلم بلغة واحدة ، اي كلاماً مفهوماً من الجميع ، والخضوع لمعايير واحدة والتمسك بمثل ومبادئ وقيم واحدة تؤسس لسلوك اجتماعي وفردى منظم ومفهوم من الجميع ، أي الثقافة بالمعنى العميق للكلمة التي تجعل ان امة لها ارادة واحدة تجاه الكوارث الطبيعية والاجتماعية ، وتجاه العدوان ، وان للفرد ايضاً فيها ارادة ومبادرة ومثلاً تحكم سلوكه وتجعل منه فرداً ضمن مجموعة بشرية تبادل المشاعر ذاتها ، وليس مجرد حيوان في غابة تسيره غرائز متناقضة للحياة والموت ورغبة غائمة في الخلاص الفردي .

ان دراسة الثقافة لا يمكن أن تتم في صعيد دراسة صحة هذه الفكرة او تلك ، أو بفرض تأكيد هذه الايديولوجية او تلك ، لكن بابرار القواعد الثابتة

سبباً التي تتحكم بتطور أشكال الوعي ومنظومة القيم في مجتمع من المجتمعات .
أي بدراسة الثقافة كعلاقة اجتماعية وكبنية اجتماعية خاصة تتمحور حول
التواصل الاجتماعي

والمشكلة الفعلية لا تصبح إذن مشكلة إفحام هذا الفريق أو ذاك بتفوق
الفكر الجدلي أو الفكر المادي أو المثالي الخ . . . ولا بإقناع الشعب بمساوئي،
التخلف الذهني وخطر التعلق بالخرافة وتكن بالكشف عن عملية تكون منظومة
القيم الجديدة أو ضياع كل منظومة قيم ، والعوامل المختلفة التاريخية والاجتماعية
التي تؤثر على هذا التكوين والضياع . وفي حالتنا المربية يجب البحث عن عملية
تفكك وانحيار كل منظومة قيم ، القديمة منها والحديثة ، فلا القديمة استطاعت أن
تتفجر ذاتياً وتستوعب حاجات العصر ولا الحديثة استطاعت أن تتجذر في الواقع
وتستقل عن نسقها الأول : تكوين نخبة متميزة متسلطة . وهذا الانحيار يعني
انهيار كل قاعدة للسلوك ، واحدة وموحدة ، في المجتمع وضياع الوحدة الثقافية
وتدهور العقل . وذلك أحد أشكال التفكك القومي الذي أحدثه تغلغل
العلاقات الرأسمالية في المجتمع التقليدي بالشكل الذي ظهر به . وفقدان
مجموعة المعايير الاجتماعية الضرورية لكل تواصل اجتماعي ولوحدة الجماعة يعني
أيضاً ضياع أسس التوازن العقلي وإنتاج المعارف وبلورة المفاهيم الأولى الضرورية
لكل عملية معرفة .

باختصار نشأت العقلانية الغربية من الشك في كل المسبقات والنظم
الفكرية القائمة من أجل تأكيد حرية الانسان ، حرية الفرد والجماعة القومية .
أما العقلانية العربية فجاءت لتثبت النظام القائم وتبرره ، نظام الهداة والتبعة ،
باسم التقدم تارة وباسم موضوعية التاريخ تارة أخرى ولكن دائماً ضد حرية
الإنسان . وهكذا تحولت هي ذاتها إلى نقل ، إلى تقليد بمعنى الكلمة ، تقليد
للآخر لا تمسك بالتقاليد، وتدمير للبني القائمة لا بناء لقيم جديدة، وتدعيم للدولة
لا إحياء لمجتمع . لقد جاءت كنموذج لعقلانية ، بل لعقلية خارجية ومجردة
يتطلب تشغيلها إعادة تركيب الواقع المعاش على صورة النموذج الاجتماعي

الأصلي الذي تم استقاؤها منه . وهنا تكمر أيضاً حدودها ، إذ أن هذا التشغيل يفترض في الواقع إمكانية نقل سيرورة تاريخية واجتماعية كاملة ، وكامة وراء المفاهيم والعلائق المختلفة العلمية والإيديولوجية والرمزية المكونة لهذه العقلانية لذلك لن تظهر العقلانية هنا كازدهار لمواقف وتوجهات أصيلة نقدية وموضوعية ، بقدر ما ظهرت « كاستيراد » لنظريات وأفكار وتصورات جاهزة ، أي منزوعة من سياقها الاجتماعي . وبما هي كذلك تشكل عقلانية النقل نقياً لكل تفكير عقلائي وموضوعي . وهي لا تتطور ولا تنمو إلا بقدر ما تحتفظ بصلتها المباشرة بمصدرها الأصلي وتحيل إليه . وتقتصر أشكال إبداعها بالضرورة إما على صياغة القيم الغربية صياغة محلية ، أي على المهجنة ، أو على استعادة قيم تراثية تتمشى مع قيم الثقافة الغربية . فهي لا تملك بنفسها أي إمكانية على الإبداع الأصيل ، وإنما تعيش على ما تنجح في استيعابه وعرضه من إبداعات الثقافة الغربية السائدة أو الكلاسيكية التراثية .

ومن الحاجة العميقة إلى تغطية هذا العقم وتلك التبعية ينبع التمسك بالمذاهب والإيديولوجيات التطورية والكونية والشمولية . فأمام فقدان كل تصور تاريخي متسق وانعدام الزمانية الفاعلة ، يخلق الإيمان بالتطور الدائم والحتمي والمتعاقب وهم السيطرة على التاريخ والإمساك بتلابيبه . وأمام الشعور بالهامشية واللافاعلية ، تعطي الكونية المجردة الوهم بالانتماء إلى إنسانية واحدة . وأمام القلق والخوف من المجهول ووهن المعرفة الذاتية يعطي الإيمان بالعلم وقوانينه الحتمية ، الثقة العقلية والطمأنينة الروحية . وأمام المراوحة والركود الفكري والمادي يعطي مفهوم التقدم مظهر التغير الدائب والأكيد ويعوض عنه في الوقت ذاته . وأمام الانكسار النفسي يصبح الإيمان بالنصر التاريخي تعويضاً عن الهزيمة .

ويُغَطَّى التراجع المستمر بوهم الثورة الدائمة ، فيصبح التقدم متأخراً والمتأخر من البلاد متقدماً ، وتحل المشكلة إذن بإخفاء مظاهرها . ولهذا أيضاً ، يبدو توجه الثقافة المهجنة نحو المذاهب الشمولية التطورية والحتمية ، التعويض الضروري عن الانحلال والتفكك والتقهقر ولا يخضع ، أو لا يبيع أبداً من

اختيارات عقلانية واعية . ولذلك تظل الماركسية المخففة إلى أيديولوجية علموية أحادية الجانب وسياسية المضمون ، أي ساقية لكل دور فعلي للعقل والثقافة . قطب الحذب الرئيسي ، ومحور تطور التيارات العربية الإيديولوجية جميعها ، بما فيها التراثية منها ، حتى لو رفضت الاعتراف بذلك . ولا تتحمل الماركسية مسؤولية ذلك ، إذ أن الوقائع الاجتماعية هي الأكثر أثراً . وهي التي تعيد صياغة الماركسية وتفسرها على ضوء مطالبها وحاجاتها . والأصح أن نقول ، ليست الماركسية هي التي تغري النخبة المثقفة العربية ، وإنما ما استمرت هذه الماركسية تحمله في صلبها من علموية وضعية ومن طوباوية تاريخية ، وما ارتبط بها فيما بعد من إرادة التغيير والانقلاب الكوني الشامل المطابق لقوانين الطبيعة واللاحتمية التاريخية . أي كل ما يعرض عن الركود ويلغي الشعور به .

فالقيم الفكرية والثقافية تتبدل بتبدل السياقات والنظم التي تندرج فيها . ويتغير مضمونها ووظائفها مع تغير حقل العلاقات الاجتماعية والثقافية القائمة في المجتمع الجديد الذي تدخل فيه . فيعاد توظيفها واستخدامها حسب ميزان القوى وحاجات الفئات والأفراد المتأثرين أو المرتبطين بها . وينطبق هذا على جميع القيم الحديثة التي دخلت إلى العالم العربي كالفردانية والعلمانية والعقلانية والقومية وغيرها . فالفردانية التي تجسد روح الاستقلال الذاتي للفرد وحرية مبادرته ، تحولت في الشرق إلى نزعة فردية أنانية منحطة مضمونها نفي الآخر والسعي إلى المنفعة الشخصية الضيقة ، وغياب أي شعور بالمسؤولية الجماعية . وسبب ذلك أنها انتزعت من الإطار الثقافي والاجتماعي الذي نشأت فيه وكانت مصدراً لتأكيد حرية فردية مبنية على احترام حرية الآخر ومحدودة بها ، وهو ما عمقته التربية الوطنية ووجود الدولة الديمقراطية والشعبية القومية^(١) .

وتحولت العقلانية بالمثل إلى علموية ميكانيكية كما رأينا ، لأنها ظهرت كنفي

(١) الجمهورية تعني بالضرورة حكم الشعب والديمقراطية . فإذا زالت السلطة الشعبية لم يعد هناك جمهورية وإنما نظام حكم آخر . وقد كانت الثورة الجمهورية هي علة التحويل الديمقراطي في العديد من دول أوربة . ولنلاحظ كيف أن كلمة جمهورية لم تعد تعني عندنا شيئاً على الإطلاق . ومع ذلك نحن نستخدمها لوصف أنظمة ديكتاتورية . هذا مثال على تغير معنى المفاهيم والقيم . ما هي القيم الجمهورية العربية ؟

لكل تفكير أخلاقي أو ايدولوجي أو فلسفي ، ولأن العلم الذي ارتبطت به اتحد هنا أيضاً طابع المعرفة الحتمية المطلقة والمقدسة ، لا طابع البحث والاجتهاد والنقد والتجربة . وصارت العقلانية تعني هذه المعرفة - الحقيقة التي تتعالى على كل شرط زمني أو مكاني ، موحدة تماماً بين الواقع والنظري . وتحول مفهوم العقل أيضاً حسب حاجات الصراع الايدولوجي فأصبح شعاراً يقصد به الالتئام إلى معسكر ضد آخر ، ونزع شرعية الكلام عن الخصم ، كما تحول مفهوم الدين ليصبح تعبيراً عن هوية اجتماعية بعد ان كان يغطي نشاطاً روحياً وميتافيزيقياً . وهكذا نشأت عن هذا التحول سيروورات ذهنية تشجع على الانعلاق على الذات ، وتمنع إمكانية الحوار أو المواصله ، وتحتمي وراء متاريس الألفاظ التي فقدت معادها المفهومي وقدرتها الاقناعية بقدر ما تحولت إلى سمات صميمة ، وانحدرت إلى مستوى وجود الرمر .

إن أساس النظرة العقلانية الحقّة هو الكشف عن منطق الأمور وترباطها الداخلي ، أي عقلها الذاتي ، لا من منطقٍ منطقي قياسي محرد واحد يسوي بين مطالب المعرفة ، ولكن من وجهة ترابط منهج كل معرفة مع مطلبها . فمطلب المعرفة العلمية هو البحث عن الحقيقة الموضوعية المجردة ما أمكن عن الهوى ، ولا يمكن لمنهجها أن يكون إلا منهج تفسير الوقائع والكشف عن القوانين التي تحكمه ، سواء أكان واقعاً طبيعياً أم اجتماعياً . ومطلب الايدولوجية والعقائديات عموماً ، هو إثبات فكرة مرتبطة بتغيير واقع اجتماعي ، ومنهجها بالضرورة سجالي لا تعريفي . ومطلب العمل الفني هو خلق دلالات حسية جديدة ، ومنهجها هو إقامة علاقات ، أو إنشاء تركيبات أصيلة وغير مطروقة في حقل الدلالات المعروفة .

وهذا يعني أنه من غير المعقول علمياً محاسبة السحر بمنطق العلم الطبيعي ، وإلا لانتفى وجود هذا السحر من الأساس ولما كان هناك أي مبرر ممكن لنشوته ، لأن أصل السحر والشعوذة تكسير المنطق الطبيعي وتجاوزه . فمعقولة « خطاب السحر قائمة خارجه ، لا داخله . بل أكثر من ذلك ، إن الخطاب الايدولوجي

يفقد أصالته وفعاليته ومبرر وجوده . عندما يتحلّى عن مسطّقه الدّائري ويتبنّى منطق العلم ، كما يفقد الخطاب العلمي شرعيّته إذا تبنّى منطق الإيديولوجية وحلّ محلّها

وعندما نتحدث إذن عن عقلانية ثقافة أو عقل أو خطاب ، لا بدّ أن نحدد مسبقاً ميدان المعرفة ونوعية الخطاب . وليس غرض الكلام هو بالضرورة مطلبه . أي ليس ما يصرّح به المتكلم وثيقة عن بنية هذا الكلام . إذ كثيراً ما يكون الغرض المعلن معاكساً للمطلب الفعلي ، وهذا من طبيعة كل كلام إيديولوجي . فكل كلام يطمح إلى أن يكون علماً أو أن يسم نفسه بالعلمية لأن العلم أعلى مراتب المعرفة وأكثرها تجرداً ونزاهة . وبهذا المعنى فإن العقلانية لا يمكن أن تساوي العلمية وإنما معيارها الموضوعية ، أي مطابقة منطوق الخطاب للصدّة . وليست مطابقة خطاب لخطاب آخر ، مهما كان حظ هذا الأخير من العلمية أو الموضوعية .

هل يعني هذا أن ليس هناك حقيقة ، أو أن الحقيقة متعددة ، ولكل متكلم أو لكل مقال حقيقته ؟ أبداً . إن الحقيقة واحدة لكنها متعددة الأبعاد : مادية وروحية وفنية ورمزية ونفسية واجتماعية ، لأنها ليست إلا خطاب الإنسان عن واقعه . ولأنها واحدة - متعددة ليس من الممكن الإمساك بها واستيعابها بنظرة واحدة أو أحادية ، اللهم إلا إذا آمنا بالحدس المباشر والنبؤي . ويخطيء من يضع الحقيقة الروحية نقيضاً أو بديلاً للحقيقة العلمية لأنه يختصّص الواقع الإنساني إلى جزء منه ويختصره في الواقع الطبيعي . ويخطيء أيضاً من يخلط بين الواقع الروحي والواقع الطبيعي لأنه يفقد عندئذ كل قدرة على الرؤية السليمة والتمييز ويخطيء أيضاً من يعتقد أن العقل ينفي التباين والتناقض ، لأنه يقلص الواقع الحيّ إلى واقع ميت ومجرد ، أي إلى مفهوم ، والعقل غير المفهوم . إنّ الحقيقة تستوعب الوهم وتتجاوزه كما أن العقل يستوعب العبث واللامعقول ويذكره .

الكلام والمعرفة هما إذن بحث دائم عن حقيقة ، بل تركيب مستمر لها وإعادة تركيب تفترض التبدل والتغيّر . ولو لم يكن الأمر كذلك لأصبح لدى

الإنسان ، خلال هذا التاريخ الطويل ، رؤية واحدة وحقائق أبدية . ليس هناك حقيقة جاهزة وقائمة أبداً . إنما هنالك خلق دائم لها واكتشاف متجدد لقوانينها . وليس هناك عقلانية جاهزة أيضاً ، إنما بناء مستمر لها . والاعتقاد بديمومة الحقيقة هو الوهم وباستمرارية العقل كما هو ، هو الخطأ . وكل جهود الإنسان الفكرية ، في كل حقبة وكل زمان ، نابعة من سعيه إلى تجاوز الوهم وتصحيح الخطأ : وهم الحقيقة الموروثة ، وخطأ العقل الجاهز المكوّن والمكوّن . وليس للفكر من مبرر إلا تجاوز المعرفة النسبية دائماً بالواقع . لأن الواقع متحرك ومتغير في ذاته ومتبدل أيضاً بتبدل المتكلم والموضوع والشروط التاريخية والاجتماعية . ولا يرى الإنسان إلا ما تسمح له حدود نظامه الاجتماعي برؤيته .

لا شك أن هذا يطرح مسألة علاقة النظر بالواقع والوعي بالوجود . وهي مسألة جوهرية ليس لها مكان هنا . لكن يمكن أن نقول بإيجاز شديد ، أن كل علاقة للإنسان بالواقع تمر لا محالة عبر الوعي . وهذا الوعي ليس هو بالضرورة مقلوب الواقع ، ولا حقيقته المطابقة . إنه يشكل بحد ذاته كينونة تاريخية واجتماعية مستقلة يمكن أن تقترب أو تبعد عن الحقيقة الموضوعية ، أي أن تعكسها بصدق كما يمكن أن تبقى على هامشها . وليس هناك في هذا المجال قانون معطى منذ البدء . إنه أيضاً عنصر من عناصر بناء هذا الواقع .

إن تعميق وعينا بقوانين تفكيرنا ، وضبطنا للمفاهيم وطرق البحث والاستدلال التي نستخدمها ، ومراجعتنا الدائمة لمعارفنا ومسلّماتنا ، كل ذلك كفيل بأن يطور مصداقية وعينا ويدعم قدرته على الإلمام بالواقع ويزيد من استقلاله في النظر إليه . فالوعي الجماعي ينمو ويتطور ويتقدم وتحسن قدراته وإمكانياته إذن عبر الخبرة والممارسة . ونستطيع أن نقول أن هناك تقدماً في المعرفة الإنسانية عامة دون أن يعني ذلك تقدماً حتمياً في كل ميدان ، وفي كل مكان . فالتقدم العام لا يمنع التراجعات الجزئية التاريخية هنا وهناك ، ولا يضمن تقدم العلم والمعرفة الموضوعية عند كل مجتمع دون تمييز . ولا يحصد كل مجتمع إلا ثمرة جهده الخاص .

IV

عن الفضيلة

لعل أكثر ما يظهر فيه قصور العقلانية العلمية هو ميدان الأخلاق . وليس من قبيل الصدفة أن هذا الميدان لم يحظ ولا يحظى بأي اهتمام من قبل الفكر العربي الحديث ، بل يكاد يكون حكرأ على الفكر التقليدي والديني بشكل خاص . ولا نعني بالأخلاق ، مكارم القيم ، أو مبادئ السلوك الحسن ، وهو المعنى الضيق والعامي لها . وإنما مجموع القيم والأفكار الموجهة للسلوك ، والمساعدة على تكوين اختيارات عامة تؤدي إلى تكوين صورة عن المدينة كما تراها كل حضارة ، أو كل مجتمع ، وما يسمى باللاتينية « الاتيك » . وهي تختلف عن الأخلاق بالمعنى الشائع في أنها لا تطلب بالضرورة تحقيق الحسن ، وإنما أيضاً الفعّال أو المريح أو المنتج ، أو المتنوع أو العقلاني إلخ . أي أنها تضم كل الخصال التي تشجع على احترامها حضارة ما أو تستند إليها في الهام الناس وحثهم على الممارسة .

وقد ارتبط معنى الأخلاق في الفكر الشائع بالامثالية والتقليد الأعمى ، وأحياناً المنافق ، لعادات وقيم وقواعد يفرضها المجتمع على الفرد ، وهي موروثه من الماضي . ولهذا فهي تبدو وكأنها أداة من أدوات تقييد الحرية وخنق الروح والرغبة الانسانية . وليس ذلك في الواقع إلا نتيجة طبيعية لتراجع منظومة القيم التقليدية وعدم مساومتها للواقع الاجتماعي . عندئذ لا بد أن يكون الرياء هو المخرج الوحيد لهذا التفاوت بين أخلاق الماضي وأهداف المستقبل .

فإذا تجاوزنا هذه الحالة الخاصة ، لا بد أن ندرك أن للبشر في كل العصور

وفي كل المجتمعات مصالح واهتمامات ورغبات متباينة وأحياناً متناقضة لا يستطيع الإنسان أن يحققها معاً . وهو مضطر كي ينظم سلوكه ويعطيه معنى إلى أن يختار بين هذه الاهتمامات ما هو أبدي من وجهة نظر الأهداف والغايات التي يطلبها والأخلاقية هي التي تبني هذه الغايات وتحدد القيم التي تساعد كل فرد على القيام بذاته ومن تلقاء ذاته ، بالاختيار بين مصطلحتين لمؤيدين ، فتوجه إحداهما بشكل عام ، ونضفي على سلوكه ذاته قيمة إيجابية . ولا تتبع هذه القيمة في الحقيقة إلا من كون هذا السلوك يتقدم نحو تحقيق الغايات الأولى التي يعبر الوصول إليها مصدر السعادة الفردية والتقدير الاجتماعي . فالمنظومة الأخلاقية تضم إذن تحديد هذه الغايات الكبرى والقيم الجزئية الموصلة إليها . وبدون هذه المنظومة لا يستطيع الفرد أن يقوم بأي اختيار ، لأنه إما أن يقف عاجزاً عن المبادرة ، لفقدان المقياس أو أن يعلق اختياره على ما تفرضه عليه الظروف ، فيخضع للأمر الواقع ويتخل عن إرادته الشخصية فيصبح آلة عمياء يتلاعب بها صاحب الإرادة الأقوى ويستخدمها لتحقيق مآربه .

وبعكس ما يتصور العقل العامي ، لا يعطي انعدام هذه المنظومة والقيم المكونة لها حرية أكبر للفرد ، بل يفقده في الواقع شرط الحرية ذاتها كما سوف نرى . وقاعدة الفعل الأخلاقي أن القيم الكبرى لا يضحى بها من أجل قيم أصغر ، وأن المصالح لا ينظر إليها بمقياس تلبية الحاجة المادية أو المباشرة . وليس هناك إلا الثقافة لتحديد سلم الأولويات في هذا الاختيار . فإذا أخفقت الثقافة في ذلك ، أو ضعف النظام الأخلاقي فيها ، أصبحت قاعدة السلوك الوحيدة هي تحقيق الرغبات كيفما اتفق ، دون اعتبار للجماعة ، ودون مراعاة للمستقبل . وهذا من علامات تحلل الروابط الاجتماعية وزوال اللحمة المدنية . فكل مدنية تفترس انخراط الفرد في مشروع جماعي إنساني ، هو الاجتماع المدني نفسه . وهو لا يقوم إلا على مبدأ التضحية بجزء مقابل الكل ، ولا يتجسد إلا بصراع طويل لتأكيد مبادئ السلوك الأخلاقي . وليست المثل إلا المنارات التي يسترشد بها الفرد وتسترشد بها الجماعة لتحقيق الغايات الكبرى ، وأهمها المدنية ذاتها ، أي تجاوز الشنات البربري المتنازع إلى مجتمع مدني متفاعل ومنتج ومبدع لطاقت

وحريات متزايدة لا توفرها إلا الحياة في مجتمع وهذا ما يميز الاجتماع الانساني
عبر الاجتماع الحيواني الذي يكون الصراع من أجل البقاء البيولوجي محور
تاريخه ، أو بالأحرى مصدر غياب التاريخ عنه .

وبهذا المعنى ، يعني تبدل منظومة القيم ويفترض تغيراً مسبقاً في طبيعته
الاجتماع ، وفي الحضارة . إذ أن القيم لا يمكن أن تنفصل ايضاً عن غمط محدد
من المعيشة والانتاج . وقد كان الكرم على سبيل المثال القيمة الاساسية في منظومة
الصحراء ، وهي مرتبطة بالاخوة والتضامن والنجدة التي بدونها تصبح الحياة
مستحيلة في قسوة الصحراء وعزلتها . وبالمقابل تظهر الحرية ، بما هي صياح
ومصدر تطور الفردية أو الفرديات الانسانية وتحقيق الارادة وحمل المسؤولية ، منبع
القيم الحديثة ومصبتها .

واهمية وجود منظومة قيم حديثة أو قديمة نابعة من أنها تقدم وسيلة لضبط
السلوك الفردي من الداخل ، وتتضمن إذن جميعاً ضوابط محددة ، وخضوعاً
لقواعد ثابتة ، وتشكل أساساً للاستقرار الاجتماعي والمحافظة على النظام أو
النسق القائم . فإذا ما أصيب هذا النسق بهزة عنيفة ودائمة أو بتغير عميق ،
زالت تدريجياً هذه المطابقة بين منظومة القيم وبين الواقع الاجتماعي ، أي أن
تحقيق الذات ، وحياسة التقدير والاعتراف الاجتماعيين أصبحتا يتعارضان مع
احترام القواعد الأخلاقية المتبعة . عندئذ يكون تأثير المنظومة القائمة قد ضعف
كثيراً ولم يعد يضبط فعلياً سلوك الأفراد .

وهذا ما حصل فعلاً مع نشوء النظام العربي الحديث الذي قام على شرعية
التقدم واستدراك الفجوة الحضارية العالمية . فما كان صالحاً أخلاقياً من منظور
السعادة الأبدية الأخروية لم يعد يصلح في نظر الناس لتحقيق التقدم
. للحاق بركب الحضارة . وبغض النظر عن أي تنظير صوري ، ارتبطت أفكار
التبديل والتغيير في المبادئ والمواقع والمراتب الاجتماعية ، أي ارتبط هذا
الانقلاب الشامل في الكون الذي دفعت إليه الثورة الصناعية ، برغبة متزايدة
للتحرر من التقاليد والانعقاد من القيود . وليس من الضروري أن يكون هناك

انعقاد فعلاً ، لكر الشعور بما كنه التاريخ هو شعور طاع . وهو مصدر الشعور بالحرية الجديدة والانجاز

بيد أنه إذا كان التحول نحو نظام الحرية قد بدأ عن صراعات وتواريات داخلية مادية ونفسية في الغرب ، وتأسس منذ البداية كنظام ، أي كجملة من الضوابط الذاتية والخارجية معاً ، فإنه ما كان يمكن أن يظهر في الشرق إلا في شكله السلمي أي كنفي لكل قيد ، وتحرر من كل ضابط . وهكذا لم تصبح الحرية ترسيخاً لتقاليد جديدة في المعاملة والمسؤولية ، بل تحولت إلى ثورة على التقاليد ، كل التقاليد . ومن هنا ارتبط الكفاح ضد قيم الماضي باعتبارها عقبة أمام التقدم ، بالكفاح من أجل قيم المستقبل التي هي حريات محضة . وبقدر ما سوى الفكر المتمرد بين القيم الماضية والأخلاق ، وخذ أيضاً بين قيم المستقبل والعلم ، واعتقد أن الأخلاق عموماً فرع من فروع الفكر الماضي ، وأساساً للمحافظة ومصدر للتأخر . وهكذا أصبحت الحرية رمزاً لنفي الأخلاق واستبعادها ، وأصبح مجيؤها يتوقف على التطور العلمي ، في المجتمع وفي العقل معاً ، أي أصبح الوعي العلمي يحمل هنا عمل الوعي الأخلاقي أو الضمير .

لقد اصطدمت الأخلاق منذ البدء بمفهوم الحداثة هذا . فهي تفترض لوجودها التسليم بمسبقات اجتماعية ، أي بقيم إنسانية معطاة لا تحتاج إلى أن تبرر نفسها وإنما تعتبر نفسها مبرر كل نشاط وفعالية إنسانية ، بينما تريد الحداثة أن تبني كل نشاط على العلم ، وتعتبر أن كل ما لا يخضع للمعايير العلمية ، بما فيه الفلسفة ، جزء من أوهام الإنسان القديم وعامل من عوامل استلابه . وبقدر ما أثبتت القيم الكبرى للاجتماع العربي الحديث ، ونعني قيم التقدم والعلم ، جاذبيتها ، بدت القيم العربية القديمة جامدة ومنحطة . فهي ، كما وُصفت أكثر من مرة ، تمحُّ على الاتكالية والكسل والتعصب ، وتدعم الجماعية والعشائرية المدمرة للفردية ، وتؤكد على العاطفة والروح وتقتل العقلانية والموضوعية . لقد نُظر إليها أكثر فأكثر على أنها القيود المفروضة بقوة الجهل وعطالة التقاليد على العقل والجسد والخيال معاً ، وأنها سبب فقدان العرب مقدراتهم على استيعاب الحضارة العلمية ، ومنشأ روح العبودية فيهم

من داخل هذا السجن ، وفي صراعه لتكسير جدرانها ، حاول الوعي العربي أن يصوغ مفهوم هذه الحرية التي هي اعتناق من كل أخلاق واستسلام لمعايير العلم وحركته التقدمية . وكان من الطبيعي أن يبلور أفكاره وينسجها حول الغرب مرتع هذه الحرية وصانعها . إن من الأفكار الراسخة في الوعي العربي العامي والمتقف ، أن ميزة الحياة الأساسية في الغرب هي أن الإنسان يحقق رغباته دون قيد ، وأن الحرية الفردية تعني انعدام الضوابط الاجتماعية . بل إن من المثقفين من يكتب أن سبب تقدم الغرب ونهضته هو تخليه عن مفهوم الأخلاق وتوابعه . وهذه الصورة المبسرة عن العرب هي عامل من عوامل الصراع أيضاً في الفكر العربي بين المحدثين والتقليديين . فبينما ينظر الثوري إلى هذا الاعتناق التخيل كمثال للتحرر لا بد من تعميمه علماً حتى يستعيد العرب إنسانيتهم ، ينظر إليه المحافظ على أنه مثال الانحلال والاباحية ، والدليل الساطع على النقص الجوهرى في حضارة الغرب وعلى حتمية انهيارها القريب . ويقدر ما يصبح هذا الغرب الخالي من الأخلاق رمزاً للتحرر لدى البعض ، يصبح لدى البعض الآخر نموذجاً للعبودية الوثنية والطفيان . وفي الحالتين يبدو التحرر الغربي رديفاً في معناه لانعدام الرادع أو للانتقالات في المطاعم والشهوات ، سواء كان محرراً سياسياً أو مدنياً .

وإن جزءاً كبيراً من النقاش حول وضع المرأة في العالم العربي ناجم عن العلاقة التي نشأت بين فكرة الأخلاق ، أو التحرر من الأخلاق ، وفكرة تحقيق الرغبات دون رادع . فقد تحولت المرأة في الواقع إلى مكثف لكل ميادين النزاع بين المحدثين والمحافظين ، وإلى هدف التصويب الأساسي فيه . وكما أصبح تحجيب المرأة رمزاً لدى البعض للحفاظ على الأخلاق ، ومصدراً لها ، أصبح التحرر الجنسي لدى الفئة الثانية ، رمزاً لتحدي نظام الأخلاق التقليدي . وفي كلتا الحالتين أصبحت المرأة الضحية الأولى لهذا الصراع ، وعليها أن تحمل في الوقت ذاته ضغط الجناح المحافظ والجناح التقدمي من المجتمع وتسير بهما . وليس أمامها إلا الاختيار بين أن تكون أداة ووسيلة في يد هذا أو ذاك ، أي أن تهدر شخصيتها أو تقلصها إلى جانبها الجنسي .

ولعل جاذبية بعض الايديولوجيات الثورية قائمة أيضا على الاعتقاد بأنها تتضمن النقي الفلسفي القاطع والعلمي للأخلاق ، وأنها تمهد الطريق أمام الحرية المطلقة والشاملة على الأرض ، وتبشر بزوال كل عامل قمع أو إكراه داخلي أو خارجي . ولذلك يجب أن لا نستغرب أن يصبح من مستلزمات الثورية وشروطها استغزاز الجماعة في عقائدها وتقاليدها ، والجهر بخرق المحرمات . فمن دواعي التقدمية مثلاً تعاطي ما يمنعه المجتمع أو تحرمه الأديان ، ومن دواعي الثورية التمرد على القيم الاجتماعية والأداب العلية . ولا نبالغ إذا قلنا إن فكرة الالتزام بمبادئ وقيم أخلاقية أصبحت غريبة عن الوعي المحدث ، وهي تعني إذا وجدت ، سذاجة الشخص وساطته ، وتثير الشك في صدق موقفه ، بل ربما دفعت الى اتهامه بالمحافظة ومسايرة الأوساط الدينية .

وتصدر عن هذا التصور للحرية ، أنماط غريبة من السلوك الفردي والجمعي قائمة على إياحة الفرد لنفسه أو لجماعته انتهاك حقوق الآخرين ، وإنكاره عليهم كل ما يبيحه لنفسه وأترابه .

وما ينطبق على الفرد في علاقته مع الأفراد الآخرين من تبرير للغش والتناق والازدواجية والاحتيال ، ينطبق بصورة أخرى على الدولة في معاملتها للمجتمع . فهي تبيح لنفسها كل ما تنكره على غيرها ، تحكم بالقوة وتعتبر استخدام القوة جريمة ، تخرق القانون وتطالب الآخرين باحترامه . وبينما تتحول حرية التحرر من كل رادع الى مصدر للأناية والوصولية لدى الفرد ، تصبح بالضرورة أساساً للعسف ومصدراً للحق المطلق وللسلطة المطلقة لدى الدولة . ونجد هذه العلية الأخلاقية تخبئها على الصعيد السياسي في إرجاع كل علاقة سياسية في المجتمع الى علاقة قوة ، وجعلها رديفاً للعنف والضغط والإكراه . وهذا يعني زوال الأضغ المعنوية للاجتماع البشري ، ومعه زوال الشعور بالواجب الوطني وبالمواطنة . وهكذا بقدر ما تكون الحرية مطلقة أو تبدل للوعي تحمراً من كل قيد ، وليس بناءً لنظام من العلاقات والالتزامات والمسؤوليات ، أي أيضاً تحديداً للرغبات والسلطات ، فإنها تولد القمع المطلق والعبودية الجماعية ، إذ أن تحقيقها من قبل أقلية لا يمكن أن يكون إلا على حساب الأغلبية .

إن جوهر العدمية الأخلاقية ، أي مضمونها ، هو واحد في الدولة والمجتمع ، إنه إلغاء فكرة الواجب وهو المبدأ الذي يتجاوز المصلحة المباشرة والفردية ليعكس تسامي الإنسان أو قدرته على الالتزام تجاه الغير والتضحية في سبيلهم . وما الشعور بالواجب إلا ثمرة للشعور بشرف الانتهاء إلى الجماعة ، وبالرغبة في التماهي معها . فإذا عجز الإنسان عن الالتزام الجماعي أباح لنفسه كل ما استطاع أن يحرمه على غيره . ولا شك أن المجتمع القائم على المصالح الآنية والأنانية لا يمكن أن يعرف الواجب والمسؤولية والتضحية . إذ أن المكاسب تصبح فيه المحرك الرئيسي لسلوك الناس . وطلالما لا يقف حاجز أمام الصراع على المكاسب فمن الطبيعي أن تسود في المجتمع شريعة الغاب ، وأن يقتل فيه القوي الضعيف والغني الفقير ، وأن لا يشعر المتضرر بأي حرج في السيطرة على كل الثروات وحرمان الآخرين منها . وليس من المستغرب عندئذ أن تصبح الشكوى من غياب الأخلاق وانعدام الشعور بالمسؤولية لازمة يومية ، وأن تنمو الحاجة ، مع تطور العنف والنزاع ، إلى ضرورة إيجاد رادع خارجي يفرض على الأفراد والجماعات الطاعة والانصياع والانضباط الآلي . إن ما يعتقد الفرد أنه يكسبه ، بذكائه وحذاقته من غياب الرادع الأخلاقي « والقانون » الداخلي ، يضطر في الواقع إلى دفع ثمنه أضعافاً من كرامته وحرية وإنسانيته . فالغش يعمل على المدى الطويل ضد مصالح الجميع ، بل ضد وجود الجماعة ذاتها .

لا يمكن إذن للمجتمع المدني أن يقوم بدون نظام أخلاقي ، لكن ما هو أصل ومصدر هذه الفكرة المترسّخة في الوعي العربي الحديث حول نسخ العلم والحضارة العلمية عامة للأخلاق كمنظومة اجتماعية ، أي كيف جرت عقلنة هذا النسخ حتى أصبح انعدام الأخلاق يعني التقدم ؟

في اعتقادنا أن مصدر هذه الفكرة هي الفلسفة الوضعية والسوقية ذاتها التي ترى في العلم هدف كل تقدم ، وتنظر إليه باعتباره النمط الأعلى ، أو المرحلة الأخيرة لتطور الوعي البشري . وأن هذا التطور قد قضى على كل أشكال الوعي الأخرى ، أو حل محلها ، فأصبح في الوقت نفسه علماً وأخلاقاً وأدباً فكل ما هو

غته ، أي ، أو لا يمت إلى العلم بصلته هو من بقايا الماضي ومن مخلفات الفكر
اللاهوتي والميتافيزيقي والايديولوجي والفلسفي ولا بد أن يروى لأنه رمز
التخلف وعقبة أمام انتصار الانسانية النهائي إن العلم قد جب ما قبله ،
والتقدم جب الأخلاق ، أو نسخها وأفقدتها قيمتها فإذا كان التقدم يعني روال
الأخلاق ، فإن من المنطقي أن تصبح إزالة الأخلاق رمز التقدم

في الواقع ، إن تقليص التجربة الانسانية الفردية والاجتماعية واختصارها
إلى تجربة وممارسة علمية معرفية ومنطقية ، والحكم على التجارب الروحية الدينية
والاخلاقية الجمالية بالزوال ، هو من مخلفات الوضعية الفلسفية الأولى التي
تحولت في الشرق كما رأينا إلى علموية وتقنوية لا إنسانية وقد جذبت هذه الفكرة
بقوة الوعي العربي لأنها كانت تقدم له في الحقيقة مبرراً وحجة عقلية مقبولة
للاندفاع في تدمير المدنية العربية التي أصبحت غريبة على التاريخ الحديث ،
بهدف الاندماج في الحضارة . وليس هذا التدمير إلا استجابة تلقائية لنظام الغلبة
الصاعد وتأكيداً على توسع نفوذه .

ويتماشى هذا التقليص في التجربة الانسانية إلى جانبها العملي أو المادي ،
مع فكرة النهضة التي بدت للعرب مرتبطة منذ البداية بتحقيق تقدم في الفعالية
الانتاجية والمادية : في القوة والكفاءة والمهارة العلمية والتقنية والعسكرية . وأصبح
على العقل أن يطور نفسه بما يفيد في إحراز هذا التقدم ، وأصبح العلم لذلك
جوهر العقل ومطلبه باعتباره أداة التقدم ومفتاحه وخلاصته . وقد تجاهل المثقفون
بشكل عام أن للعقل ، وللثقافة التي تصدر عنه ، كنظام معقد من المفاهيم
والمطالب ، وظائف أخرى لا تقل أهمية عن إحراز النهضة والتقدم المادي أو
العلمي . ومن هذه الوظائف تحقيق وحدة الجماعة مثلاً وبناء إنسانيتها ، أي
القيم التي تحكم سلوكها ، وتؤسس لمدينتها ، وتدفع إلى التضحية في سبيلها .
ومن الواضح أن ليس لهذه الوظيفة علاقة مباشرة بمستوى تطور القوى المنتجة ،
ولا بتطور أنماط الانتاج . فكما يمكن للمجتمع الصناعي أن يعيش في أزمة
اجتماعية وروحية عميقة ويتحول إلى مجتمع بربري ، يمكن أيضاً للمجتمع

الزراعي أو الرعوي أن يكون مجتمعاً مدياً تنسم العلاقات بين أفراده بالأساية والعدل والقانونية . وبالمثل ، يحتاج الانسان في المجتمع القائم على الصيد إلى إرضاء رغباته الفنية ، وتغيير الواقع في الخيال ومزجه بأهوائه ، بنفس الدرجة التي يحتاجها الانسان في المجتمع الالكتروني .

ولذلك فإن تطور العلم والمعرفة والتكنولوجية لا يلغي حاجة المجتمع الى منظومات معيارية ونظم أخلاقية وفنية ، بل هو يستدعيها أو يستدعي إعادة بنائها بقدر ما يجعل المنظومات القديمة ضعيفة التأثير والنفوذ . وكل مجتمع محكوم إذا أراد أن يبقى ، بإعادة اكتشاف نفسه ، وتقديم أهداف وقيم أساسية لأفراده تضي على أعمالهم وحياتهم معنى إنسانياً سامياً ، أي تجعلهم قادرين على تحقيق إنسانيتهم ، وتزويهم طريق هذا التحقيق . ففي سبيل ذلك يكافح الأفراد وتضحي الجماعات ، وتنتج وتخترع وتطور العلوم والتقنية أيضاً . وليس من قبيل الصدفة أن المجتمعات التي تفتقد الى العلم والابداع هي نفسها التي تنهار فيها النظم الأخلاقية والمعنوية وتزول لديها المشاعر الانسانية .

ولهذا فإن المطالب المعنوية والدينية والروحية ليست غير معارضة للعلم ، ولكنها مرتبطة في تطورها وغناها بتطوره أيضاً . فهي جميعاً تعبير عن ذات واحدة ، وإرادة واحدة في التحقق والانجاز . والفكرة التي تقول بأن المرحلة العلمية قد قضت على المرحلة اللاهوتية أو الميتافيزيقية بمعنى ألغت المطالب الروحية والنفسية والجمالية واللاعلمية ، هي نتاج للتخبط الذي تعيش فيه المجتمعات النامية التي فقدت أسسها المعنوية التقليدية ولم تحرز على التقدم المنشود . فازدهار الوعي والانتاج الديني والفلسفي والأدبي والفني ، وقيم التواصل عموماً ، لم يكن في أية حقبة ماضية أعظم مما هو عليه اليوم في المجتمع الغربي ، مجتمع الابداع العلمي والروحي معاً دون منازع . والنمو الأخلاقي يتمشى دائماً مع النمو الحضاري ولا يتناقض معه . لأن الحضارة تخلق فائضاً في الوعي لا تعبر عنه القيم المنفعية والتبادلية ولا تنوعه . وما الانحطاط والبربرية إلا تقلص النشاطات الفكرية المتعددة والمتنوعة ، وحولها الى نوع واحد متشابه

ومتماثل من السكولستيك الديني أو العلمي أو العلمي - الديني . كما كان سائداً في القرون الوسطى وكما هو في طريقه الى السيادة في العالم العربي . فكما أن أخلاق المدنية تنبع من فضيلة التضحية والمجانية والكرم ، فإن أخلاق البربرية تقوم على المنفعة المباشرة التي تستجيب الى الصراع الذي لا يرحم من أجل البقاء ، وتستخدم الدين والعلم معاً كوسيلة لهذا الصراع .

فلماذا كانت الأخلاق ضرورية لكل اجتماع بشري ، ما هو مصدرها ، وكيف يكتسب المجتمع بنية أخلاقية ؟

لا بد أن نميز هنا بين قيم أساسية صبغت وعي الإنسان منذ بداية تكوينه للمجتمعات ، ونجسدت في لوائح ووصايا رئيسية ما زالت حتى اليوم سائدة المفعول ، وبين الاطار المرجعي الذي يتفرد كل مجتمع في سندها إليه . فالقيم الأخلاقية الرئيسية موروثه في ذاكرة المجتمع الإنساني ، ونابعة من الخبرة التاريخية العامة كشرط لبقاء كل اجتماع ، أما الإطار المرجعي فإنه يختلف باختلاف المجتمعات ، وهو الذي يحدد طرق التربية وتكوين الشعور الأخلاقي أو الضمير فيها . وهذا لا يعني أن منظومة القيم ، أو على الأقل أولوياتها لا تتبدل مع تبدل الزمن ، ولا تتأثر بالاطار المرجعي . وإنما يطرأ عليها الكثير من التعديل . فقد أدى إسناد القيم الاجتماعية الى الوحي ، بعد أن كانت تستند الى سلطة أرضية ملكية مقدسة ، إلى تطور كبير لمفاهيم الإنسانية والعدالة والكرامة والمساواة والحرية ، بينما أثار انفصال الأخلاق عن الدين في مرحلة لاحقة ، إلى خلق قيم جديدة ، والتحرر من قيم قديمة ومخاوف وشكوك متعددة . وقد أتاح هذا الانفصال أيضاً تمييزاً أفضل لحقل الأخلاق عن حقل القانون . وفي الحالتين أدى تبدل الاطار المرجعي الى ثورة حقيقية جديدة في ميدان الأخلاق .

ففي الحالة الأولى أصبحت قدسية النفس الإنسانية وكبريتها جزءاً من القدسية الالهية ، واستقلت عن أهواء السلطة لتصبح أساساً للمساواة في الإنسانية ، إذ أصبح جميع الناس أبناء الله ، وأصبحت عبودية الجميع له ، شرطاً لمساواتهم أمامه . وبذلك صممت الأخلاق لنفسها القوة والديمومة ، وصارت من الممكن

للاجتماع البشري أن يتجاوز الممالك الصغيرة الى الامبراطوريات العالمية الكبرى التي طبعت تاريخ آسيا والشرق جميعاً بطابعها المفتوح والانساني والتعددي . وشكلت من جميع الوجوه ثورة في مفهوم الانسان ونظرته الى نفسه وإلى رسالته في الحياة .

ومع ما أصاب هذه الاخلاقية الدينية من تراجع وضعف مع تطور الحضارة ونفاذ الجذوة الاولى الروحية ، دعت الحاجة الى إعادة بناء هذه القيم الانسانية على أسس جديدة فنشأت فلسفة أخلاقية حديثة جعلت من العقل السند الأساسي لها ، بما هو ملكة مشتركة للحكم عند جميع الناس ، وخلف حدود الأديان والأجناس وقد توافقت هذه الثورة العقلية في مجال الأخلاق بنمو مفهوم الانسان كعضو في مجتمع ، وينمو مفهوم الجماعة القائمة على تعاون الأعضاء من أجل سعادتهم وتدير شؤونهم ومضاعفة قدراتهم وحررياتهم وهو مفهوم جديد بالمقارنة مع ما كان سائداً من تمحور كيان الجماعة حول زعيم ملهم أو مقدس ، أو حول فكرة مقدمة رسالية

وما حصل في هذه الثورة التي بدأت تختبر في المجتمعات الغربية منذ نهاية القرون الوسطى ، ويسبب ما شهدته هذه القرون من عسف وتفريط بالقيم الدينية ، لم يكن يعني إلغاء الأخلاق ، بقدر ما هو تحقيق الفصل بينها وبين الدين ، أو بالأحرى تأسيسها على مصادر جديدة ، وجعلها أخلاقاً مدنية ولذلك فإن الأخلاق العقلية التي أسست نفسها على فكرة الواجب كما عبر عنها الفيلسوف الألماني كانت لم تلغ المبادئ القديمة التي تحرم القتل والسرقة والكذب والغش ، إلخ ، ولكنها أبررت أن الحفاظ على هذه القيم والمبادئ لم يعد ممكناً إلا إذا استند على قناعة عقلية ولم يكن هذا التطور في الواقع إلا أحد مظاهر حركة العقلنة العامة التي شهدتها المجتمع الغربي في القرون الماضية ، كمحاولة لرأب الصدع الذي خلقه تحلل الايديولوجية الدينية وفسادها وما كان لها مع ذلك أن تنبأ لو لم تتحقق مر نيل وحدة الانسان وقديسيته في الأديان السماوية أو المقدسة

وقد أدى ذلك إلى نشوء مفهوم جديد للأخلاق مرتبط بفكرة الواجب التي نمت وظهرت مصداقيتها مع نمو الحياة المدنية القومية وتطور دور الفرد في الجماعة ومشاركته لها أفراحها وأتراحها . وقد عبر عن هذا التطور نشوء مفهوم السيادة الفردية ، دليل المساواة الأخلاقية والتي ليست في الواقع إلا الانعكاس لسيادة المجتمع وحرية الفرد . فأصبحت حرية الفرد وسيادته مصدراً لحرية الأمة وسيادتها ، كما أصبحت سيادة الأمة وحريتها ضماناً لحرية الفرد وسيادته .

ونجم عن ذلك أيضاً فلسفة جديدة للحق ، وتحرر مفهوم الحقوق ذاته من القيود والأطر الثابتة التي كان يفرضها تقديس القيمة . فأصبح من الممكن نشوء حقوق جديدة على قاعدة الاجماع البشري ومع تطور العقلية والحساسية العامة . وهكذا ظهر هذا الانفصال بين الديني والأخلاقي كتأسيس لأخلاق جديدة ، ومصدر لتحرر الأخلاق ذاتها من المحرمات ، ومن فكرة المحرم ذاتها . ودخل في ذهن الانسان الذي يعيش هذه المدنية أو يتأثر بها أن التحرر من الدين هو تحرر للانسان . ولهذا بقي تعميق مفهوم الحرية وتجسيده في حقوق اجتماعية وفردية متزايدة هو نبع الشعور بالالتزام الأخلاقي ، أي بالواجب تجاه الجماعة . فإذا فسد أو ضعف تأثيره ، فسد أيضاً الشعور الأخلاقي وفتح الباب أمام احتمال عودة الأخلاق الدينية كسند ممكن ومرجع قائم ، وإلا جعل من تشديد أجهزة القمع والضغط والمراقبة الوسيلة الوحيدة الباقية لفرض الالتزام الخارجي على وعي فقد في ذاته كل ضابط داخلي .

ويفيدنا هذا في فهم الازمة الاخلاقية التي يعيشها المجتمع العربي ، والتي تتجسد بنظرنا في عجز التحديث عن تقديم إمكانية لنشوء أخلاق عقلية ، في الوقت الذي يدمر فيه بانتظام السند الديني للأخلاق . ويرجع ذلك إلى أسباب نابعة من طبيعة الحداثة نفسها ، وإلى أسباب أخرى نابعة من الثقافة العربية ، ومن العلاقة الخاصة التي تربط فيها بين الدين والمجتمع .

فبعكس ما حصل في الغرب ، نجح الاسلام منذ أيامه الاولى في أن يوحد بين الدين كمصدر لأخلاق فردية خاصة ، وبين النريعة (القانون) كمصدر

لنظام اجتماعي سياسي « مدني » ولعل ذلك نفسه راجع إلى أن الاسلام استطاع منذ البداية أن يوفق بين حاجات الحرية الشخصية وحاجات بناء السلطة، ولم يضطر إلى أحداث القطيعة بينهما وهكذا تطوّرت بشكل مواز ودون تناقض يذكر النزعات الروحية والصوفية مع المنظومة الفقهية التي حاولت أن تستوعب التغيرات الاجتماعية وتفتح باب التأويل والتفسير والاجتهاد العقلي ، وتطور طرائق عقلية جديدة مثل القياس والاجماع تلغي التقيّد الحرفي بالنص ، وتغني التجربة العقلية . وباختصار لم يحصل في هذه التجربة ما يدعو إلى الفصل العميق بين الجهد العقلي الانساني والوحي الالهي ، بل اعتبر هذا الجهد مكملًا للثاني ، وموافقاً له ، ومن هنا استنتج المسلمون أن الاسلام دين ودنيا والواقع أن الأديان لا تختلف فيما بينها حول اهتمامها بالروحي والمادي ، بالفرد والعام معاً، ولكن مضمون التجربة الاسلامية الاساسي هو نجاح الاسلام الى وقت قريب في التوفيق بين مقتضيات الدين والدنيا، أي في تطوير المسائل الاخلاقية والسياسية والقانونية التي تواجه الجماعة المدنية على قاعدة من السند الديني . ولم يضطر من أجل حفاظه على الدنيا وتحقيق مكتسباته المدنية إلى التخلص من الدين أو شن حرب شاملة عليه ، كما حصل في المجتمع الاوروبي . ولهذا لم تظهر العلمانية كمطلب اساسي في ايدولوجية التقدم الحديث الاولى . بل بالعكس ، اعتبر المصلحون الاوائل أن تدعيم الشعور الديني وتنقيته هو الوسيلة الاساسية لتدعيم الشعور الاخلاقي ، وتقوية الشعور بالواجب والالتزام بقضايا الجماعة والتضحية في سبيلها .

وفي الواقع ليس هذا التطور حكراً على الاسلام أو على المجتمع العربي . فقد استطاعت بلدان كثيرة ، آسيوية وغربية أن تحقق عقلنة المجتمع ، أي تطوير نظمه الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية ايضاً بما يتلاءم مع حاجات العصر الصناعي ، دون أن تضطر إلى إعلان الحرب على الدين ، بل وبالتكليف مع الحقيقة الروحية وأحياناً بالفهم معها والاستناد إليها . وقد اعتبرت البروقستية التربة الروحية لنشوء الرأسمالية الأكثر نشاطاً وفعالية في قسم من اوربا ، وما زالت المرجع الروحي لها

ومن جهة ثانية لا يمكن مقارنة سيرورة الحداثة العقلية في العالم العربي ، بما حصل في المجتمع الاوربي في القرون الماضية . ولعل أهم ما يمكن الاشارة إليه هنا ، هو أن القيم العقلانية كونت في الغرب الحديث مصدر ثورة روحية وإنسانية عميقة ، وهي الثورة التي تسم بها المجتمعات في عصر نهضتها وتوسعها . ولذلك كانت نتائجها الاولى هي الاصلاح الديني الذي عني أساساً الاحياء والبعث للعقيدة وتفجير طاقاتها المخترنة التي قيدتها الكنيسة ، ولم يكن يعني كما يشاع إضعاف الدين . وقد التقت المجتمعات الغربية في هذا الاحياء الديني والعقلي معاً نفسها وحفقت تضامنها واستقلالها تجاه الكنيسة والدولة معاً ، أي تجاه السلطة . وبالمقابل ، يظهر الأخذ بالقيم العقلية أو العلمانية في الشرق ، ومنذ البداية ، كدعوة للتخلي عن القيم الروحية والمعتقدات والأخلاق معاً . وهو يحصل في سياق تدهور لمواقع المجتمع أمام صعود المدنية الغربية ، وتفاقم الهيمنة الأجنبية ، وإضافة إلى ذلك وبسببه ، يبقى دعوة سلبية ، ولا يحمل في طياته أي مشروع واضح وملموس لبناء نظام اجتماعي جديد متج وإنساني ومستقر .

فبقدر ما ظهرت عقلنة القيم والأخلاق في الغرب كباعثة للآمل ، وحاملة لعلاقات جديدة إنسانية ، ولثورة سياسية تتيح المشاركة المتزايدة في السلطة وتحقيق المواطنة ، وتفصل بين الدولة والايديولوجية الرسمية بحيث تتمكن المواطنين من التماهي مع الدولة رغم اختلاف الدين ، والالتقاء الى الجماعة رغم تعدد المذاهب ، ظهرت العقلنة العربية كوسيلة لاستبعاد الجماعة عن السلطة ، وأداة علمية وتقنية لتحديث الدولة الاستبدادية وقتل الروح الجماعية ، والتفريط بالقيم الروحية والانسانية . وبقدر ما أصبحت الدولة الحديثة عقلانية ، وتمكنت من فرض التبعية المطلقة على الجماعة ، جعلت من سيادتها محصلة لفقدان جميع الافراد لسيادتهم وحريرتهم . لذلك بدل أن يحصل هنا تقدم باتجاه استقلال الأخلاق عن الدين ، واستنادها الى العقل ، حصل في الواقع انتكاس من نموذج الأخلاق الدينية ، الى نموذج الأخلاق البدائية التي تتجسد من خلال التماهي مع زعيم قائد وملهم ، بشكل الولاء له والايمان به مصدر كل سيادة ومنبع الحق والأخلاق . وأصبح صنع القائد المقدس الذي يملأ على الناس حياتهم ويضيئها

كل الشموس هو محور الفقل الأخلاقي وجوهره أي باختصار لم تكن العقلنة هنا تجديد ميتافيزيقا الأخلاق ، وإحياءها ، بقدر ما عني التضحية بها لصالح ما اتفق على أنه التقدم العلمي ، وما ظهر فيها بعد على أنه السلطة الجديدة . ولعل هذا يفسر المصير المؤسسي الذي لاقته فكرة العلمانية ذاتها . فبعد أن كانت تقضي بالفصل بين الدولة والكنيسة ، وتحرير السلطة من العقيدة التي تحرمها من ممارسة العدالة والمساواة تجاه جميع أعضاء الجماعة ، أصبحت تعني تمسك الدولة والسلطة بدين أو بذهب سياسي وحرمان المجتمع من أي دين . فبقدر ما بقي هذا الأخير خارج السلطة أصبح يشكل المصدر الرئيسي للقيم التي تساعد على تكوين عصبية وآليات تضامن وجماعات متناوثة تتعارض مع رغبة السلطة في فرض سيطرتها الشاملة وفي تحويل نفسها إلى دين^(١) .

ولعل هذا يفسر أيضاً الموقف الانفعالي للعرب من الإسلام ، وانقسامهم بين التمسك الشكلي بكل ما يمت إليه بصلة حتى لو لم يكن من صلب الدين ، وبين الوقوف ضد كل ما يشير إليه دون تمييز . والأصل في ذلك أنه ما زال المصدر الأول للأخلاق ، في الوقت الذي تتحول فيه الأخلاق إلى الملجأ الأخير للانسانية عربية ، خانها التاريخ وغدرت بها المؤسسات القانونية والسياسية والاقتصادية . فهو بالنسبة للبعض حسيبة الخلاص الوحيدة ، وهو بالنسبة للبعض الآخر العائق الرئيسي أمام الانعتاق والتحرر من كل قيد ، ومن كل التزام جماعي . ويعكس هذا الموقف الانفعالي أزمة التربية العربية ومازقها . ويطرح سؤالاً أساسياً وخطيراً هو ، من أين يأتي الاطار المرجعي لمنظومة القيم التي تنظم سلوك الناس وتحدد ولائهم في مجتمع معين ؟ وهل من الممكن اختيار هذا المرجع ، أو هل هو مسألة اختيار أم هو ثمرة لتطور موضوعي وتاريخي للثقافة القومية ذاتها وأحد إبداعاتها ؟ هل يكفي مثلاً أن ينادي مسؤول أو مثقف بأهمية هذه القيمة الفكرية

(١) ليس للعلمانية بالمعنى العميق للكلمة إلا ترجمة واحدة ، هي حرية الاعتقاد والتعبير وطالما اعتبرت مدعياً بعد ذاتها يحرص على الآخرى . فقدت جوهرها ، وأصبحت منقضة في قيمها الأساسية لما تدعي هي نفسها التعبير عنه . وهذا يفسر أيضاً ما زقها في العالم العربي

والاجتماعية أو تلك حتى تصبح مقدسة ؟ وهل يمكن إسناد المنظومة الأخلاقية إلى إرادة حاكم أو مشرع ، أو إلى الإرادة بشكل عام ؟ وما الذي يجعل الفرد يؤمن مثلاً أن القتل شر حتى لو كان له فيه مصلحة جزئية أو كلية ؟

قد تبدو هذه الأسئلة غريبة بالنسبة لإنسان تشبع بالقيم الأخلاقية لكنها تشكل في الواقع ، وبالنسبة للباحث الاجتماعي ، المسألة الجوهرية في موضوع الأخلاق . وما يحصل في المجتمعات النامية من تبديد في الأرواح والثروات واختلاس وتلاعب بالمصالح العامة وبمصير الجماعات وحياتها ، يُبين إلى أي حد يؤدي انحلال السند الروحي للأخلاق إلى فقدان الرادع الذاتي .

بالتأكيد لا يشعر المجتمع بأهمية هذا الرادع الذاتي إلا عندما يفقده ويشعر بالآثار الخطيرة الناجمة عن ذلك . والحال أن اكتساب الشعور الأخلاقي لا يتحقق حسب إرادة النظم أو الأشخاص ، ولا ينشأ بالأوامر والنواهي ولا بالقوة ، إنه ثمرة لتطور بطيء وتاريخي للمدنية وللحس الجمعي الذي يرافقها ويعكس علاقات الأخوة والتضامن التي أثبتت الخبرة العملية والتاريخية ضرورتها ومصداقيتها معاً . والدين نفسه لا يستطيع أن يكون منبعاً للأخلاق إلا بقدر ما ينجح ، كعقيدة جامعة وإطار تعاون وتضامن بشريين ، في إثبات هذه الأخوة ، أي واحدية الإنسان التي تجعل من إيذاء الآخر والاعتداء عليه إعتداءً أيضاً على الذات . ويمكن القول أن اندفاع الإنسان نحو الإنسان ونماهيه معه هو فطرة مصدرها تضامن النوع . والنظام الاجتماعي هو الذي يطورها ويجعلها أساساً واعياً للعلاقات الاجتماعية أو يدفع إلى زوالها . وهي مكتوبة في ثقافة كل مجتمع وتاريخه . ولا تستطيع الأمم والشعوب أن تغير منابع أخلاقها كما تشاء وحينما تشاء ، أي لا تستطيع أن تبدل بنيانها الثقافي عندما تريد . إن مراحل التجديد وتغيير الأسس المعنوية والعقلية طويلة ومعقدة ، ولا تحصل إلا في إطار انقلاب اجتماعي عميق الجذور كذاك الذي شهدته الثورة الصناعية .

ولعل نظرة سريعة على حياة الأجيال الجديدة في بلاد العالم الثالث التي فقدت سندها الأخلاقي كافية لرؤية الفراغ الروحي الذي تعيش فيه وانعدام

الآقر والأمل والايام شيء سوى المشاركة الوهمية والسرائية بحضارة استهلاكية ليس لهم منها إلا القشور ولا يخفف من شعورهم بالحرمان إلا قناعتهم بالدوية والسقوط ، وغربتهم في عالم لا يعرفونه ولا سلطة لهم عليه هكذا تظهر الحداثة ، كانخلاع للانسان من كل إطار اجتماعي ومعنوي « وانتاج موسع » لحشود المشردين الذين ينتظرون على باب المجتمع الاستهلاكي حضارة الصورة والصوت المصبوغين بالعنف والدم .

ضد هذا الانخلاع والتشريد ، وضد هذا المصير الحزين تستجمع بعض الجماعات قواها المعنوية « القديمة » ، ومنابع قيمتها التاريخية ، في حركة يائسة لحفظ مدنيته المهددة ومن الطبيعي أن تشعر الفئات الأكثر حظاً في الاندماج بالحضارة ، أن هذه الحركة تخنق فرص ازدهارها وتقدمها وتحجب عنها الشمس لذلك يشتد الصراع بين أنصار الحداثة والتقليد كلما زاد ضغط الحضارة هذه وبدأت على المستوى الأخلاقي تحرراً للنخبة الاجتماعية من كل قيد .

إن التمسك بالأخلاق والقيم الانسانية والاستنجااد بها كان وما يزال سلاح الضعيف الذي يحلم بوضع حد بذلك للقوة ، وبناء العلاقات الاجتماعية على مبادئ الأخوة والمساواة . وبالمقابل لا يمكن للانحلال الأخلاقي إلا أن يعطي لمفهوم التسلط بالقوة أبعاده الشاملة ، ويجعل من اغتصاب حقوق المستضعفين وسيلة للترقي والثروة والاندماج الموسع في الحضارة العالمية . وهذا ما يفسر فساد الطبقات الحاكمة في العالم الثالث بغض النظر عن النظام السياسي . فتحطيم القيم الانسانية الواحدة لا يمكن أن يؤدي إلا إلى تبرير التفاوت الاجتماعي وتدعيم سلطة القوة . ولهذا فإن الدين يطمح في هذه الحالة الى تجاوز حدوده كمنبع للأخلاق ليصبح قاعدة للسياسة والحركات سياسية ، بقدر ما تزداد الحاجة إلى سلطة أخلاقية تظهر كبديل مباشر عن لا أخلاقية السلطة المدنية .

فبعكس ما يعتقد المحدثون ، لا يؤدي تحطيم الدين كمنبع للأخلاق بالضرورة ، إلى ظهور أخلاق مدنية مسنودة على العقل ، أو إلى ابعاد الدين عن التأثير في الحياة الاجتماعية ولكنه يمكن أن يؤدي الى تحويل الأخلاق إلى ايديولوجية سياسية

تجعل من الطهرية مصدر شرعية لسلطة جديدة دون أن تكون هي نفسها بالضرورة سلطة أخلاقية أو أن تلتزم بالمبادئ الإنسانية التي تنادي بها ، والسبب في ذلك أن الدين نفسه يقلص إلى جانبه السياسي . وهذا ما تساهم فيه أيضاً النخبة الحديثة إذ تجعل من مسألة العلمانية أساساً لمناقشة كل المسائل الأخرى المتعلقة بالدين .

إذن ليس لمقولة الأخلاق العقلانية أو العلمية أي معنى . فالأخلاق ترتبط بقيم يدعمها الإيمان الجامع بها والتسليم لها . وهي مفاهيم تلقنها الثقافة للأفراد ، وليس فيها اكتشافات ولا اختراعات . وهي لا تتبدل حسب الطلب . ولا تقاس من حيث عقلانيتها وإنما من حيث هي موجودة أم غائبة . وهي لا تطلب من أجل ما يمكن أن تجلبه من تقدم مادي أو علمي ، وإنما تطلب لذاتها ، ولما تحمله من قوة تأليف وتضامن جماعي . وليس المهم فيها إلى أي سند ثقافي تحيل نفسها وإنما مضمونها . إن من خدع التاريخ أن يظهر التحلل من القيم والتدمير الذاتي الذي يجره تغير الحضارات ، في مظهر التقدم والإنسانية . ولذلك ليس من قبيل الصدفة أن يدان فكر العالم الثالث بالتطورية الرجعية منها والتقدمية ، ويصبح في عمقه وبهذا المعنى فكراً سلبياً قوامه تقديس الانقلابية والقوة والقسر والتعصب ورفض التفاهم والحوار والتسامح والتعدد والتبادل الحر .

ولعل من مظاهر فشل بناء الأخلاقية الاجتماعية على أسس عقلية جديدة في العالم الثالث ، والعالم العربي جزء منه ، أن الثقافة التقليدية عموماً هي التي أصبحت التربة الخصبة لنمو القيم الحديثة نفسها والدفاع عنها ، قيم الحرية والاستقلال والوطنية والكرامة والإنسانية والعدل . فهي التي غذت حركات المقاومة ضد السيطرة الأجنبية وسياسات التمثيل ومحو الشخصية ، وهي التي دعمت الإرادة الجماعية في التصدي الأساسي لمخاطر نمو الدولة الاستبدادية والسلطة المطلقة . وهي التي تحفظ للجماعة الحد الأدنى من التوازن ، ومن القواعد التي تضبط سلوك الناس وتوجه ممارستهم وتعطيهم مبرراً مقبولاً لحياتهم ، وتحفف عنهم ضغط ديناميات التفتت وتحطيم البنية الاجتماعية الناجم عن تطور عملية «الحداثة» وتدمير المدنية العربية . وهي التي ما زالت تمتص صدمات الفشل

في ميدان التنمية الصناعية ، وتقاومها من خلال علائق التكافل العائلي وتحريم التبذير ، والاحتفاظ بنمط استهلاكي كفاقي غير مكلف ، يسمح بتحديد الحاجات وتقليص خطر زيادة الاستهلاك بما لا يستطيع الانتاج أن يتحملة . إنها ما زالت تشكل الرأسمال الاجتماعي المعنوي الوحيد الذي تعيش منه وعليه الجماعة القومية ، وتقي نفسها به من السقوط في البربرية . لكن هذا لا يعني أنها سوف تستمر إلى ما لا نهاية ، أو أنها سوف تبقى فعالة . وليس من المؤكد أن زوالها سوف يفضي إلى نشوء بديل لها . والأمر يتعلق كما سوف نرى بمصير الثقافة العربية نفسها ومستقبلها .

الزمن الموحش

كما أظهرت العقلانية العربية الحديثة عجزها عن تقديم نظرية متجدة في تنظيم التجربة أو الممارسة المعرفية والعلمية التي أغناها الانفتاح على العلم الغربي ، وكان جوابها لا يتعدى الدعوة الى الأخذ بهذا العلم ، وكما أظهرت قصورها عن تنظيم التجربة الاجتماعية التي فجرتها القيم الجديدة الوافدة . فانتهدت الى إلغاء الحاجة الى مثل هذا التنظيم ، بدت أيضاً عاجزة عن تنظيم التجربة الفنية والابداعية التي فتح أمامها تجديد صورة العالم ورموزه ومعالمه وسماته آفاقاً لم تكن تعرفها من قبل . ولذلك انعدمت في الفكر العربي الحديث أية نظرية أصيلة وجديّة في الأدب والفن . تعطي لهذا النشاط الانساني المتميز شرعيته ، وتبين أصول التجديد فيه . والسبب الأساسي لذلك هو أن العقلانية كما وصفناها تنكر من الأساس إمكانية الوجود الشرعي لمثل هذا النشاط الذي يبدو لها منذ البدء منافياً بامتياز للعلم ، ولا مكان له في نظام العقل الذي نظر إليه كنشاط مساوٍ للعلم . وإذا سمح له بالوجود فذلك من قبيل التساهل مع نشاط ثانوي يشكل نوعاً من التسلية البريئة لفريق من الناس المقطوعين عن المجتمع ، والمصابين بنوع من المسّ الجميل . ولا تصبح لهذا النشاط قسمة فعلية ويستحق الاهتمام ، إلا عندما يصبح هو ذاته أداة أو قناة لتمرير قيم عقلية أو اجتماعية حديثة أو تراثية .

وفي هذا المجال يكفي أن نتذكر المناقشة التي -صلت في الثلاثينات من هذا القرن ، والتي رد فيها مصطفى صادق الرافعي ، بمثل تيار الأصالة والتراث ،

على طه حسين ، داعية الحداثة والتجديد في ذلك الوقت فقد قدم كل منها حججاً عقلية لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالنظرية الجمالية ولكنها مرتبطة إما بالدفاع عن تراث الأمة وقيمها ومقدساتها أو بالدفاع عن قيم الحداثة العقلية والعلمية والموضوعية .

وفي فترة لاحقة تبلورت هذه المعارضة بين القديم الباطل والحديث المشرق في الأدب والشعر ، حول مفاهيم ذات طابع ايديولوجي - سياسي أكثر وضوحاً . وامتد النقاش بين أنصار الأدب التقدمي والأدب الرجعي الذي يحمل ، أو افترض أنه يحمل ، القيم التقليدية . وولدت نظرية الواقعية الاشتراكية المحلية التي تربط جمالية الأدب أو تخلصها بـ / وإلى المحتوى الايديولوجي . وعاشت النظرية الأدبية العربية على هذه الأفكار إلى أن جاءت ترجمة النصوص اللسانية المعاصرة فعملت في الجو الأدبي العربي عمل النار في الهشيم ، وتبناها الكتاب والنقاد معاً . فقد أصبح من الممكن أخيراً إيجاد هذه العلاقة الجوهرية المفقودة بين العلم والأدب ، وأصبح من الممكن استيعاب النشاطات الرمزية والمجازية من منطلق العلمية حتى لو بقي ذلك على مستوى تحليل الشكل . وهكذا انتقل النقد فجأة من الالتحاح على المضمون إلى التركيز على النص وعلاقاته الشكلية ، ومن أدب الثورة إلى ثورة الأدب .

في حقيقة الأمر لم يتغير شيء . فمشكلة الابداعية الأدبية كانت قائمة وما زالت على زيادة القدرة على إدخال القيم والدلالات الفنية الحديثة ، في الأدب العربي ، ولم ينتظر الكتاب والأدباء نظرية الفن أو تنظيراتها حتى يقوموا بهذا الإدخال إذ أنهم يدركون بحسهم الأدبي أن قدرتهم على استيعاب هذه الدلالات الجديدة هي التي تحدد مكانتهم في إطار الابداع العالمي العام ، وتعطي لأدبهم القيمة التي يأملون ، وتقربهم من الجمهور الحديث الذي يحملون به . ولم تقم النظرية الأدبية الحداثية في هذا المجال إلا بإضفاء الشرعية على ممارستهم هذه من خلال الحجج العقلية التي تقدمها لدعم هذه الممارسة . ولذلك بقيت النظرية الأدبية الحديثة هنا أيضاً دعوة للحداثة الفنية أكثر مما هي مسمى عقلي منظم لتحليل هذه الحداثة وضبطها والسيطرة عليها من منظور الممارسة المحلية القائمة .

أي أنها لم تفد في شيء أولئك الذين يقومون عملياً بها ومن الطبيعي أن يؤثر فقدان نظرية إبداعية من هذا النوع سلباً على الإبداع الأدبي العربي ، وبقيته على مستوى الاقتباس التلقائي عن الخارج ، ويجعله بالتالي ميالاً إلى تعقب كل جديد ، واعتبار الإبداع قائماً في سرعة التأثر بالخارج وسعته . هكذا أصبح الإبداع الأدبي العربي هو النموذج المحتذى لكل إبداع ، وأصبح معيار كل تجربة محلية قائماً في درجة محاكاتها إيجابياً لهذا النموذج . وأصبح دور الشاط الأدبي والفني العربي هو في الواقع إعادة إنتاج المحيطة الرمزية الغربية في فضاء العقل العربي . وعندما نتحدث هنا عن النظرية الأدبية فنحن نقصد بالطبع النظرية الجمالية التي لا يشكل موضوع الإبداع الأدبي بالمعنى الضيق للكلمة إلا أحد عناصرها . فالأمر يتعلق إذن بكل ما يتعلق بالموقف الجمالي الذي يميز جماعة أو حضارة ما ، وينعكس في أداها كما ينعكس في معمارها وفنونها المختلفة . وجوهر الموقف الفني أو الجمالي كما يقول ج . ستولتيز هو : التأمل المنزه عن الغرض لأي موضوع مدرك ، ولأجل هذا الموضوع بالذات ^(١) . وهو يحدد ميدانه بأنه : « سيطرة الإنسان الواعية على عالم المواد والحركات الذي ينبغي على الإنسان أن يستوطنه وعلى عالم الدوافع الباطنة والعمليات الآلية التي تؤلف كيانه الباطن » ^(٢) . وقريب من ذلك ما يقوله الجرجاني عن الشعر من أنه الذي لا يمكن أن يقال أنه صدق ، وأن ما أثبتته ثابت وما نفاه منفي . أي أنه لا يناقش بمعايير الصدق والكذب التي يقاس بها الكلام العلمي لأنه توليد لدلالات جديدة تعبيرية لا انتاج لقضايا نظرية . وبهذا المعنى فإن كل موضوع يتناوله الإنسان له طابع جمالي أو يمكن أن يتناوله من زاوية جمالية . فالكتابة يمكن أن تكون ، مهما كان موضوعها حميلة أو ركيكة ، والبناء يمكن أن يكون جميلاً أو ركيكاً ، وقس على ذلك في المدينة والمنزل والغناء والكلام والحركة إلخ .

وفي هذا الميدان الجمالي كما في ميدان المعرفة والعقيدة ، غزت الحداثة

(١) الجماليات وفلسفة النقد الفني ، بوسطن ١٩٦٠ ، ترجمة فؤاد زكريا ، بيروت ، ص ٤٥

(٢) سانتانا ، العقل في الفن ، ص ٤

العقل الخيالي - الرمزي العربي وأحدثت فيه شروخاً كثيرة . فقد تغيرت مع تغير
انماط الحياة والاستهلاك والانتاج معالم العالم اليومي المعاش وسماته كما تغيرت
بلاطاته . ولم يمر وقت طويل قبل أن تدخل الى الوعي العربي أشكال وأجناس
وطرائق التعبير الأدبي والفني الحديثة ، ثم متجلات الثقافة وموضوعاتها الأكثر
انتشاراً . ومنذ اللحظة التي أدرك فيها مثقفو العرب فنون وآداب الغرب ، رأوا
ما فيها من ديناميّة وحيويّة وتوتر ، ومن تجديد هائل في محتواها وشكلها بالمقارنة
مع القيم الوسيطية السائدة ، ومن تنوع شديد يعكس ظهور الشخص الانساني
كفردية حرة وفاعلة ومتميزة ، بل متاونة للهوية الجماعية التعميمية . وقد بدا لهم
عالمهم الخيالي - الرمزي التقليدي عالماً فارغاً من المعنى تردادياً ومملأً مسكوناً
بالأشباح أكثر مما هو تعبير عن الواقع أو إحالة الى الحقيقة الواقعية . وبدأت القيم
الفنية الأدبية ، التصويرية والسماعية والكتابية قيماً متكلفة ، بالية ورتيبة لا توحى
بأي حياة . وبدأت القصص والأساطير الكبرى الموجهة سخيّة ولا عقلانية
وعاجزة عن تفسير شيء . وأصبح الاصلاح شعاراً عابثاً يعني الاستفادة من
الحداثة ومعطياتها لبث الدم في هذه الأدبيات الراقدة أو لاستبدالها بأفضل منها -
دون خوف ودون تردد . وأصبحت الحداثة الفنية واقعاً يومياً يجبر من نفسه في
طريقة التفكير والعمل واللباس والاكل والتسلية والبناء . واحتلت الأجهزة الحديثة
الفضاء الثقافي العربي بأكمله ودفعت الى الهامش كل ما يمت الى القديم بصلة .
وأصبحت شيئاً فشيئاً مطلباً عاماً ، ومحور اهتمام الجمهور بكل فئاته وطبقاته دون
أن يكون للمثقفين من محدثين وثرثريين أي أثر يذكر في خلق هذه الحركة أو في
ايقافها . فلم يكن هناك حاجة لاقتناع أحد بأهمية التلفزة أو جمالها ، ولا كان هناك
أثر لتحريم الصورة الظاهرة فيها . بل إن اقتناء الأجهزة الحديثة من كل نوع هو
اليوم من علامات الدخول في الحضارة والمشاركة فيها . وإذا أراد الرأي الشعبي
ذاته إظهار تقديره لشخص أو لأمر قال إنه كالأوروبيين أو من انتاجهم .

ولم يكن ما حصل للمثقفين أفضل من ذلك . يقول عبد الرحمن شكري :
إن آداب اللغة العربية قد فسدت ، حين ساد الجهل البلاد العربية في العصور
الآخيرة ، فإن سنة التقدم تقتضي الاطلاع على ما يستحدث في الآداب

والعلوم . وكلما كان الشاعر أبعد مرمى ، وأسمى روحاً كان أغزر إطلاعا ، فلا يقصر همهته على درس شيء قليل من شعر أمة من الأمم () وما عجبت من شيء عجبي من القوم الذين يريدون أن يجعلوا حداً فاصلاً بين آداب الغرب وآداب العرب ، زاعمين أن هناك خيلاً عربياً . وإذا قرأ الشاعر العربي آداب الأمم الأخرى ، أكسبته قراءته جدّة في معانيه وفتحت له أبواب التوليد ،^(١) ويقول العقاد مبيّناً انقطاع جبل التأثر المحلي ، والأصول الروحية الغربية لأدب جيله : فالجيل الناشئ بعد شوقي وليد مدرسة لا شبه بينها وبين من سبقها في تاريخ الأدب العربي الحديث . فهي مدرسة أوغلت في القراءة الانجليزية ، ولم تقصر قراءاتها على أطراف من الأدب الفرنسي ، كما كان يغلب على أدباء الشرق الناشئين في أواخر القرن الغابر . وهي ، على أيّ حالها في قراءة الأدباء والشعراء الانجليز ، لم تنس الألمان والاطليان والروس والاسبان واليونان واللاتين الأقدمين ، ولعالمها استفادت من النقد الانجليزي فوق فائدتها من الشعر وفنون الكتابة الأخرى ، . ولا أخطئ إذا قلت إن هازليت William HAZLIT ، هو إمام هذه المدرسة كلها في النقد لأنه هو الذي هداها الى معاني الشعر والفنون وأغراض الكتابة ، ومواضع المقارنة والاستشهاد ،^(٢) .

وقد بالغ فريق من المثقفين في السخرية من الثقافة العربية ولغتها وآدابها تحت تأثير فتنة الآداب الغربية وأقوال بعض المستشرقين ، ونادوا بالتخلي عن اللغة الفصحى والاستقلال عن التاريخ والتراث العربيين . وعلى هؤلاء رد محمد كرد علي يقول : ومن هؤلاء الشعوبيين في مصر رجل يزعم أن الاسلام دين بدوي ينسم بكراهية الترف ، وبشدة الايمان بالوحدانية ، وأن الوهابيين اليوم يمثلون روحه أصدق تمثيل ، فحطمت الفنون الجميلة لأن البدوي يكره بطبيعته جميع ضروب الترف والحضارة ، وهو نفسه يعيش في صحراء لا يحتاج معها الى فنون الحضارة من عمارة وتصوير ونقش ولذلك حرم التصوير والتماثيل . والموسيقى والغناء .

(١) عن صدمة الحداثة ، ص ٨٩

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم ، ص ١٩١ - ١٩٢ . وكذلك المرجع الأول ص ٧٩

أصبحت للسكرارى . والرسم يبنى فوق الأمة والدرامة سليقة التقد الاجتماعى
وأن تعصبنا للشرق تعصب للقديم أكثر مما هو للشرق ، نستمطك بالشرق لكى
تعلل به فى كراهية الغرب ، ونستمك بالقديم كبرياء وأنفة من أن يقال إن
حضارتنا قد أفلست أمام حضارة أوربا^(١) . ويتابع :

قال : وليس علينا للعرب أى ولاء . وإدمان الدرس لثقافتهم مضغفٌ
للشباب ومبعثر لقواهم ، فيجب أن نعودهم الكتابة بالاسلوب المصرى الحديث ،
لا بالاسلوب العربى القديم . ويجب أن يعرفوا أننا أرقى من العرب ، وأن ندرس
العربية الفصحى كما ندرس الآشورية والبابلية ، وأن ننظر إلى لغة النابغة
والمتنبى كما ننظر إلى اللغة الروسية أو الإيطالية ، وأن العربية ليست لغتنا
ولا نستفيد منها ، وأن لنا من العرب الفاظهم فقط لا لغتهم بل
بعض الفاظهم . قال وكل من اختبر هذه اللغة يعرف أن قاسم أمين ولطفي
السند كانا على حق عندما نصحا باستعمال العامية المصرية بدلاً
منها وقال إن من تأمل أحوال الأمم الناهضة يعرف أنه ليست أمة تنهض
فى العالم الآن إلا وتنسلخ من قديمها سواء أكان هذا القديم آسيوياً لم
غير آسيوى . فاته أن العرب ليسوا كلهم سكان بادية وأن الاسلام لا ينكر
الرفاهية . هو يريد أن يمزق شمل العرب ويأتى على رابطتهم اللسانية فيحلها جملة
واحدة كما انحلت رابطتهم السياسية ، ولغة القرآن هي التي تحتهم كل هذه الملة
على كثرة ما لاقوا من عنى الدول الشرقية الاسلامية ، ومن عنى الدول الغربية
النصرانية . هو يستشهد برجلين يقولان بزعمه هذا القول فى إحلال العامية بدل
الفصحى ، وهما قد كتبا تأليفهما بالعربية الفصحى ، ولو كتباها بالعامية لكان
سبيلها الدفن ساعة تولد^(٢) .

ومثل ذلك ما جاء فى رد مصطفى صادق الرافعى على أصحاب التحليلات
فقال إن الأديب يكون أو يعتبر نفسه مجلداً إذا جرى فى اتحال الأدب عبرى

(١) الإسلام والحضارة العربية ، المة ١٩٣٤ ، ص ٤٢ - ٤٤ .

(٢) - م . ص ٤٤ - ٤٥ - ٤٦ .

التكذيب والرد والقيصة والزراية عليه وعلى أهله ، والجبظ ما بين أصوله وفروعه^(١) . ولغاية الأديب من هذا النوع هي « أن لا يستخرج من بحثه إلا ما يخالف إجماعاً أو يعيب فضيلة أو يفرض من دين أو ينقص أصلاً عربياً جذلاً بسحافة أجنبية ركيكة أو يحقر معنى من هذه المعاني التي يعظمها أنصار القديم من القرآن فنارلاً^(٢) .

في ميدان الآداب كما في الميادين السابقة أثارت الحداثة إذن هزة عنيفة في القيم ومعايير الذوق الفني ، وأدت الى فتح باب جدل لم ينته ولن ينتهي بسرعة . ولكن حوهر ما أنتجته في هذا المجال هو دون شك شعور عميق وشامل بفقر المخيلة العربية القديمة بالصور والمعاني والأفكار مقارنة مع الواقع الجديد ، ورفضاً تلقائياً لها أو للاستمرار في العمل في إطارها . وليس الرد العنيف لرجال مثل كرد علي والرافعي ، وغيرهم كثير ، إلا ثمرة للشعور بعمق الردة عن القديم في المجتمع وتفاقم التعلق بالحديث . ولذلك لم يأخذ الرد بالاعتبار المعايير الفنية والجمالية بقدر ما ركز على ما يتضمنه هذا النقل عن الغرب من تهديد للأسس القومية والدينية للجماعة .

ومع غياب نظرية جمالية جديدة تؤطر لهذا النقل وللممارسة ، أي تضبط آلية التجديد وتحول دون انهيار معايير الجمالية وبالتالي الذوق العام . كان لا بد أن تتحول الحداثة في العمارة كما في الموسيقى والآداب والفن ، إلى تقليد أعمى ونقل عشوائي وفوضوي دون ضابط ، ودون اعتبار لظروف البيئة وخصائص اللغة ، والتراث الثقافي ، والقيم الاجتماعية . وكان من نتيجة ذلك تطور أشكال لا انسجام فيها ولا اتساق حتى أصبح النشاز في ذاته قيمة فنية أصيلة . فلم تنتج الحداثة ، كما كان يؤمل أصحابها ، نماذج فنية حية مماثلة للنماذج الغربية ، ولكنها أنتجت أشكالاً هجينة تنبع قيمتها على الأكثر من مناهضتها للقديم ولحديثها له .

(١) تحت راية القرآن ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٠٠ .

(٢) ص م .

ومغايرتها للعادات والتقاليد والقيم الفنية التراثية ، أي في الواقع مما تحمله من قيم التمرد الايديولوجية ورفض الذات ، ومما تعكسه من مواقف سياسية واجتماعية

هكذا أخفقت الحداثة في التوليف بين العناصر الغربية الوافدة والعناصر المحلية لابتداع نظام متسق من الدلالات الفنية ، سواء أكان ذلك في ميدان العمارة أو في ميدان الموسيقى أو في ميادين الآداب والفنون الأخرى . ولم تستطع لهذا السبب بالذات ، أن تصبح منبعاً للابتداع وللتجديد من الداخل ، أو بالأحرى لم تصبح حادثة عربية ، بل بقيت تستقي عناصر تجديدها وتقدمها من الارتباط المباشر بالحداثة الغربية والاعتماد عليها ، أي أن النقل أو التقليد للنماذج الغربية أصبح يستدعي نقلاً وتقليداً أوسع وأعمق ولا يجد شرعيته ومبرر وجوده إلا في هذا التوسع . وأصبح نفي التراث وإزالة تأثيره شرطاً لنمو الابتداع الحديث ومطلباً أول له ، مما فاقم من عمق الأزمة وحدتها .

ولا تكمن المشكلة إذن في النقل عن الغرب أو في وجود الثقافة الغربية ، إذ ليس هناك ما يمكن أن يقف حائلاً أمام تدفق الدلالات والمعاني والرموز الجديدة القادمة من الغرب مع قدوم الحضارة وفي إثرها ، من موضوعات استهلاك وطرائق عمل وإنتاج وتفكير طالما استمرت الثقافة الغربية حاضنة للحضارة الراهنة ومنبع إبداعاتها . ولكن أصل المشكلة هو نحن ، أي طريقة تعاملنا مع هذه الدلالات وقدرتنا على التحكم بها وإدماجها في سياق المنظومة الخيالية الرمزية المحلية ، وتوظيفها ضمن هذه المنظومة ، ويقصد تطويرها وإغنائها . فمن المؤكد أن الفشل في هذا لن يقود إلا إلى تفجير هذه المنظومة وتفكيكها وجعلها أثراً بعيد عين .

وهنا أيضاً لم تكن نظرية الحداثة في الأدب إلا غطاء لغياب أية نظرية فعلية في الابتداع الفني والأدبي . ولم يقم أصحابها في الواقع إلا بالدعاية لعمية موضوعية تجري بمعزل عن إرادتهم ، بل رغماً عنهم ولم يكونوا فيها إلا أدوات نستخدمها السيطرة الثقافية لتوسيع دائرة نفوذها . والسبب في ذلك أن نظرية الحداثة الأدبية اعتبرت الحقيقة الفنية خاضعة الى نفس القوانين العلمية التي تحكم

الواقع التجريبي ، واعتقدت أن قوة الفن وجاذبيته وجماليته ليست تابعة من معايير الذاتية والرمزية ، بقدر ما هي ثمرة للقيم العقلانية والايديولوجية التي يحتويها . وقد عملت الايديولوجية الوضعية هنا كما في ميدان الأخلاق على التقليل من أهمية الاستقلال النسبي للمنظومة الرمزية - الخيالية الخاصة بكل ثقافة ، بل إنها تجاوزت ذلك إلى موقف أكثر سلبية طابقت فيه بين هذه المنظومة وبين ما أطلقت عليه التراث الخرافي المتخلف . فهي ألغت إمكانية الفن والابداع الجمالي ، منذ اللحظة التي ألغت فيها شرعية الأسطورة والخرافة . ونظرت إلى الآداب والفنون والثقافة الشعبية عامة على أنها تجسيد لقيم تقليدية بالية ، وتعبير عن الجمود والرتابة والفقر والتأخر واللاتاريخية . ووضعت في مواجهتها الفنون والآداب والرموزية الغربية الحديثة باعتبارها مثلاً للقيم الحية وللحضارة والتقدم والعقلانية ، وبالتالي للابداع والتوليد . ومن هنا أصبح الانفتاح على الغرب وآدابه هو ذاته وفي ذاته نظرية في الجمالية وفي التجديد الفني . ومن هنا أيضاً ظهرت النظرية الجمالية العربية المعاصرة كنظرية في الحداثة لا في الابداع ، وظهر الابداع كثمرة طبيعية وتلقائية للحداثة - الشكل^(١) .

تفضي الحداثة من حيث الشكل بنقل النماذج وأنماط التعبير والصيغ السائدة في الثقافة الغربية واستلهاهم ما تجسده من أصناف أدبية روائية وقصصية ومسرحية وشعرية وتصويرية ، وتضمن العمل الفني أكثر ما يمكن من الصور والايقاعات والاشارات التاريخية والرموز الاصطلاحية والأسماء الأعجمية والتراكيب اللغوية والأساطير والميتولوجية الغربية عموماً . ولا شك أن هذا النقل والاستلهاهم والتضمن قد أعطى في المرحلة الاولى دفعا قويا للفنون والآداب العربية وأغناها بذخيرة لا تنضب من الدلالات الفنية النابعة من التراث

(١) ما زال موضوع النقاش الاساسي في هذا الميدان هو الدفاع عن الأدب الحديث أو الشعر الحديث ضد القديم أو العكس ، كما لو أن حداثة الموضوع أو قدمه هي حرمه قيمته الفنية ومع ريادة الاسخراط في الحداثة أصبح النقاش دفاعا عن النماذج الأحدث ضد النماذج الحديثة ، لكن سداثة هكذا يصبح الآتية تقليداً هو الأكثر إبداعاً

الانساني ، والذي لم تكن تعرفه من قبل وعلى أساسه نشأت وتبلورت الفروع الأدبية الجديدة حتى أصبحت هي السائدة في التجربة الفنية العربية .

ولكن أزمة النظرية الحديثة هذه لم تلبث حتى ظهرت عندما تحقق التطابق بين أشكال التعبير الفني العربي والعالمي . وبعد أن كان معيار الجودة بالمقارنة مع التراث كافياً ليضفي قيمة على العمل الفني ، أصبح من الضروري أن يخضع هذا العمل إلى معايير الابداع العالمية . وعندئذ زاد الشعور بأن الانتاج الأدبي الحديث في العالم العربي يفتقد إلى الابداع الفعلي والأصالة ، أي الطرافة ، وأنه رغم مساهمته للأشكال الفنية العالمية ، لم ينجح في أن يكون عالمياً . وظهر أن الحديثة ليست كافية كي يكون للعمل الأدبي قيمة فنية أصيلة . وسبب ذلك في الواقع أن ديناميّة الابداع تتنافى مع التقليد ، وتتبع مباشرة من القدرة على اطلاق الطاقات الدفينة والكامنة في نظام خيالي - رمزي تابع لكل ثقافة ، وذلك بقدر ما تكون هذه الثقافة مجسدة وملخصة لتاريخ تطور الجماعة ، وتراثها وتوازنها ومشاريعها وطموحاتها وآمالها وآلامها . والحال أن الجمالية العربية الحديثة أرادت أن تكون منذ البداية بناء لمنظومة خيالية - رمزية جديدة ، ونفياً للمنظومة القديمة التقليدية بما هي حاملة لقيم بالية ، أي أرادت أن تكون ايديولوجية ، وأن تؤسس لايديولوجية . وهو ما يعني في هذا السياق نفي الخصوصية والاستقلالية الجمالية ، وربطها مباشرة بالمعركة الاجتماعية .

وهكذا افتقد الانتاج الأدبي الحديث إلى نظرية نقدية جمالية تغربله وتنقيه وتفرز فيه بين الغث والسمين والمجدد فعلاً والمقلد . وافتقد الى نظرة فلسفية تلقى على الممارسة الفنية لتستمد منها قواعد جمالية جديدة تقود الفعالية الفنية الجديدة وتوجهها وتساهم في تطويرها في اتجاه التأسيس الثقافي . حتى أن تقويم التراث نفسه أصبح خاضعاً لمعيار التقليد « الجديد » ، وأصبح من قبيل المديح أن يقال أن هذا الجانب أو ذاك من التراث يبدو وكأنه وليد اليوم ، أو بالأحرى كأنه مماثل لما في الغرب .

لكن النسج على منوال ما هو غربي لا يشكل حتى الآن المصدر الأول

للإبداع الفني فقط ، ولكنه يشكل في الوقت ذاته نهايته وسقفه أيضاً فهو في الوقت الذي يمدّه بالوسائل الضرورية للتجديد ، يقيم أمامه جداراً يستحيل اختراقه ، يفصله عن التجربة الحية الشعورية والاجتماعية للمحيط الذي يعيش فيه ، ويشكل بالنسبة إليه نوعاً من الحجاب والغلالة التي تمنعه من الانغماس في الواقع المحلي والتجذر فيه وتحويله الى نبع لا ينضب لإبداعات أصيلة ودائمة . فهو يبقى لذلك كأصيص الزهر الموضوع في « الصالونات » الرسمية ، لا يستطيع أن يجاري في اندفاعه وعنفوانه وغناه ومعناه أيضاً أشجار الحقول ونباتاتها .

إن تحويل الحدائث ذاتها إلى معيار للإبداع يعني في الواقع فقدان أي معيار وتفسير الشيء بذاته . وهي لا يمكن أن تعني في النهاية إلا القدرة على استنساخ آخر ما يظهر في الغرب ، مصدر التجديد والتحديث ، والتسابق بين « المبدعين » على ذلك لتأكيد تفوقهم في الحركة الإبداعية ، وهذا لا يعني قتل أساس الإبداعية فقط ، ونعني به الذاتية ، ذاتية المبدع وذاتية الجماعة التي يأخذ العمل الفني قيمته منها ، ولكن يعني أيضاً قتل الإبداع ذاته ، وتحويله الى مجرد تعميم لدلالات فنية وجمالية ظهرت في مركز الحضارة أي إلى بدعة ، وذلك حتى لو بدا ذلك للمقيمين في الأطراف نوعاً من الكشف والابتداع .

ولعل الشعور العميق بمأزق الحدائث كنظرية جمالية تعكس الخط من قيمة المنظومة الخيالية الرمزية لكل ثقافة ، هو الذي سمح بتطور نظرية الالتزام في الفن والتركيز على المضمون والقيم الاجتماعية التي ينقلها، ودفعها الى الواجهة . حتى ليكاد الفن يتحول على أيدي بعض النقاد والكتاب إلى وسيلة للثورة الاجتماعية ، بل إلى بديل لها . ولا شك أن هذه الثورة الكلامية التي لم تنجح في أن تكون ثوبيراً للكلام وإطلاقاً أو تفجيراً لطاقتها الدلالية ، قد واكبت حقبة سياسية اضطبغت بصبغة النهضة السياسية ورافقت وهم الثورة الاجتماعية . وأصبح التحليل الأيديولوجي ، والكشف عن القيم التقدمية أو الرجعية في هذا العمل الجمالي أو ذاك هو معيار النقد والتمييز . ولم يكن من المستبعد أن يحصل التهجم على عمل أو رفضه وإنكار وجوده إذا بدا لناقده غير ذي قيمة أيديولوجية مباشرة ، أو إذا خالف في أيديولوجيته أو « رؤيته للعالم » أو مواقفه وأفكاره ، أفكار الناقد

ومواقفه إذ أن الشعور السائد هو أن الحرب شاملة وتجري على كل الأصعدة وفي كل الميادين . وليس في الحرب مكان أو مجال للترف الجمالي ، أو للتسامح مع الخصم مهما كانت خصائله وإبداعاته .

ولا يعني هذا الموقف في الواقع إلا محاسبة العمل الجمالي بما هو جزئي فيه ، أو بما ليس له في « جوهره وذاته نصيب » . وهذا يؤكد عدم الاعتراف بالمكانة الخاصة أو المتميزة للعمل الجمالي والفني عموماً . عندئذ تصبح المقالة السياسية أو الاجتماعية هي الأجل لأنها الأكثر قدرة على التعبير عن الأفكار والقيم . فلا يكون للعمل الفني قيمة إلا بقدر ما يتجاوز هذه الأفكار ويترجمها ، إذا صح التعبير ، إلى دلالات حسية تأخذ معناها من قوة المشاعر التي ترتبط بها في سياق منظومة خيالية - رمزية تشكل خزاناً للتجربة الشعورية التاريخية الجماعية .

قد يبدو التناقض هنا كبيراً بين النظرية الحدائية الشكلية التي تربط الجمالية بتجديد الشكل ، وبين النظرية الايديولوجية التي تقود إلى رؤية اجتماعية ، بل أخلاقية ، تستلهم نظرية محاكاة الواقع أو المثال الكلاسيكية . بيد أن هذا التناقض يجد حله في مفهوم الحدائة العام والغامض نفسه . فالحدائة ليست فقط في الشكل ولكن في المضمون أيضاً . وهذا ما يتيح لها أن تتحول الى نظرية . إذ أن مضمونها العميق هو أن هناك علاقة ضرورية بين الشكل الحديث والقيم الايديولوجية الحديثة أيضاً . وأن الشكل يحمل في ذاته هذه القيم . إنه ثورة ايديولوجية قبل أن يكون شكلية . يقول أدونيس : « إن التطور ، المستقل ، نسبياً ، للتعبير الجمالي أتاح ابتكار أشكال تعبيرية لم تتجاوز الأشكال الموروثة وحسب ، وإنما فرضت إعادة النظر في الأسس الجمالية الموروثة . وفي معنى الشعر ذاته »^(١) . وفي الواقع ، قد يكون لهذه النظرية علاقة ما بنظرية الثورة العامة أو الخروج على المجتمع ، لكن ليس لها علاقة حقيقية بالنظرية الجمالية . فالنتيجة كما يقول الكاتب : « أن هذا التطور أدى موضوعياً الى الانفصال عن الثقافة السائدة وقيمها ، أي أدى الى الانفصال عن الجمهور الشعري السائد »^(٢) .

(١) (٢) صدمة الحدائة ، ص ٢٤٤

وأصبحت الحداثة أكثر من أية فترة أخرى نقياً للثقافة المحلية ، أي قناة للسيطرة الثقافية الخارجية ، ولهذا لا بد من تأسيسها في أفق الآخرين :

« فالتفاعل والتبادل هما اليوم خصيصة أساسية من حركة الثقافة في العالم . الحداثة الشعرية في أمريكا اللاتينية مثلاً تؤسس فضاءها في الأفق الفرنسي والحداثة الفرنسية تؤسس فضاءها في الأفق الأمريكي ... إلخ »^(١) .

ويمكن أن نلخص هذه النظرية التي تجعل من الجمالي ايدولوجية ، في هذه الفقرة : « أن الشعر العربي الذي يمكن أن نسميه أصيلاً ، في ضوء هذا المنظور ، هو الشعر الذي يبحث عن نظام آخر غير النظام الشعري القديم ، أي هو الذي يصدر عن إرادة تغيير النظام القديم للحياة العربية ، وعن طموحات الفئات الجديدة بهذا التغيير ، والقادرة على تحقيقه (حقاً !) ، والعاملة له ، لأنه قضيتها الاولى ومصلحتها الاولى . ولأنها بذلك تمارس دورها التاريخي والطبيعي »^(٢) .

فالقيم الشكلية والمضمونية والجمالية عامة تقدم نفسها هنا فداء للتغيير ، تغيير المجتمع وتغيير العالم ، وهو في الواقع مغايرة كما يقول الكاتب أو / ومعاكسة لكل ما هو قديم وسائد : فإذا كان القديم خطابة ، كان الحديث (المتغير - الجديد) كتابة ، وإذا كان وزناً وتقفيه ، كان الحديث نثراً ، وإذا كان آياتاً شعرية منفردة ، كان الحديث وحدة عضوية ، وإذا كان عربياً كان الحديث عالمياً ، وإذا كان مبنياً للمعلوم كان الحديث مبنياً للمجهول ، وإذا كان دينياً وقائماً على قواعد شرعية كان الحديث معادياً للدين والشريعة ، وإذا كان محافظاً كان الحديث ثورياً ، وإذا كان بدوياً كان الحديث مدنياً حضارياً^(٣)

والحديث يعني هنا طبعاً الجميل والمبدع . أي أن العمل الفني (القصيدة)

(١) ن . م . ص ٢٧٠ .

(٢) ن . م . ص ١٤٦ (التشديد من عندنا)

(٣) ن . م . التأكيد لا تعكس نظرية أدونيس النقدية شعره ولا تقلل من أهميته . ونحن نعتقد فضلاً عن ذلك ، أن أدونيس الشاعر يهتم بالتراث الشعري واللغوي ويتعارك معه ، أكثر بكثير مما نفصح عنه نظريته النقدية التي تهتم بمعكس ذلك

الحديث هو الذي ينقل قيم الحداثة ، وقيم الحداثة هي معيار الابداع في الوقت نفسه . وهنا يعود الى محاسبة الفن بما ليس من جوهره ونصيبه . فالمعاني العامة والقيم الاجتماعية والافكار ليست من وظائف الفن . ولا تظهر الجمالية في نقل المعاني العقلية التي تخاطب المحاكمة والمنطق العادي ولا في ابداعها . إنما هي ثمرة إبداع المعاني الفنية ، لذلك بدل أن تبين نظرية الحداثة كيف تكون الجمالية في الفن أرادت أن تستخدم الجمالية ، والمعاني الفنية في نقد المجتمع وإظهار فساد نظامه . أي أن تكتب الايديولوجية التغييرية أو تصيغها في صورة أدبية . وهكذا جعلت من الجمالية ثوره على المنطق بدل أن تظهر وتفجر منطقها الذاتي . ومن هنا ، لم يعط تفسير المجتمع « لامنطقياً » ، أي لم تعط الثورة العشوائية عليه مجازاً حمالاً ، ولم تصبح أدباً عظيماً ، بل مقالة تفتقد الى المنطق في رفض الثقافة والمجتمع

وكما رأينا في ميدان الأخلاق ، تعمل الحداثة هنا كمفهوم في الجمال على جعل الفن أداة ووسيلة لغاية خارجة عنه ولا تنظر إليه إلا من زاوية المنفعة التي يقدمها لهذه الثورة الايديولوجية . وهو ما يشكل قضاء على الموقف الفني من أساسه . فهذا الموقف كما ذكرنا من قبل لا يقوم إلا بالنظر الى الموضوع لذاته وكفاية في ذاته . وإذا افتقدت البربرية للموقف الفني الحقيقي فذلك لأنها لا تستطيع أن تتصور وجود قيمة لشيء أو لموضوع بمعزل عما يمكن لهذا الموضوع أن يقدمه من إمكانات للارضاء المادي والفوري للغيريزة ، أي من منفعة مادية أو سياسية مباشرة

وباختصار نستطيع أن نقول أنه إذا كانت الجمالية قائمة في إبداع المعاني الفنية ، فإن جعل الحداثة في ذاتها معياراً للابداع يعني غياب أية نظرية في هذا الابداع الفني باستثناء نظرية النسيج على منوال ما هو حديث ، أو ما هو باستمرار أحدث من السابق . وهي نظرية ، إذا صح التعبير ، عبثية منوالية .

إن الابداع في الفن ، كما في أي ميدان من ميادين النشاطات العقلية والاجتماعية ، لا يعني البدعة ، أي الأخذ بكل ما شاء الفنان من دلالات

وارتباطات وإنما هو توليد دلالات جديدة خاضعة الى ضوابط ونواظم معطلة في كل فن ، أي هو إطلاق الطاقات الكامنة في نظام دلالي معين ، وهذا يشمل أيضاً معاكسة النظام ، ولا يعني ولا يحصل أبداً خارج كل نظام دلالي أو بمعزل عنه . بل ربما كان أيضاً تجاوزاً للتجسيدات التاريخية لهذا النظام بقصد إبراز روحه وحيويته . وهذا النظام هو ما سميناه النظام الخيالي الرمزي . وهو في نظرنا منظومة الوعي الأولى في كل ثقافة . ومصدر الدلالات الأعم والأشمل والأقرب الى الواقع وإلى الحقيقة المباشرة والأكثر امتداداً وديمومة . وهو يعكس الأشكال الأساسية التي لمحاول من خلالها كل ثقافة أن تنظم وتوجه في درجة أولى التجربة الشعورية أو الانفعالية للجماعة ، وتقدم للفرد بذلك فرصة تنظيم تجربته الشعورية الخاصة في إطار المجموع .

وعندما نتحدث عن تنظيم التجربة الشعورية ، فنحن نعني في الواقع إعطاءها معنى ، أي وضعها في سياق هو ما تقدمه التجربة الثقافية التاريخية لكل جماعة . وعندما نتحدث عن درجة أولى فنحن نعني أن وراء بلورة المفاهيم والأفكار الكبرى في مجتمع ما ، وفي أساسها ، يوجد حقل من الروابط الرمزية التي تدرك بمضامينها النفسية المباشرة ، وتقرب بين أفراد الجماعة بغض النظر عن اختلاف أفكارهم ومذاهبهم ومعتقداتهم ومواقفهم وخصائصهم الفردية ، فتجعلهم يخضعون لنفس المؤثرات ويستجيبون لها بطرائق واحدة ، ويشعرون بنفس الحاجات ، ويعملون على إرضائها بطرق متشابهة ، ويضطربون لنفس الانغم والاصوات ، ويشتركون في نفس المشاعر والأمال والآلام ، ويعيشون نفس الصراعات والتحديات المعيشية ويميلون الى تقديم حلول متشابهة لها ، ويطورون آليات دفاعية مشتركة ، ويتمتعون بمواقف متماثلة وطقوسيات واحدة أمام الموت والولادة ، ويصيغون لأنفسهم ولأقرانهم صورة يتعرفون من خلالها على أنفسهم عفوياً ويعرفون الآخرين عليهم ويتبادلون معهم عواطف لا تحدها أنظمة عقلية ، وإنما هي قائمة في عمق الشعور الفردي . وهذه الاشارات التي تكون معالم هذه التجربة الشعورية وتنظمها ، والتي لم تتحول الى مفاهيم منظمة ومضبوطة في دائرة علم أو منظومة مذهبية ، هي التي تمتع منها في الواقع الآداب والفنون كي تبني عالمها الخاص ، وتبني في الوقت ذاته عالم الصور

والمعاني الاولى الذي يكون حقل الدلالات الحسية المباشرة في كل ثقافة

وتتبلور هذه الدلالات في ترسيمات أولية تشكل البنيات الانثروبولوجية الاولى لكل ثقافة . وهي بنيات متكررة ومتردة ، تبقى صالحة لحقب طويلة جدا أي طالما بقيت الثقافة . وكل ما يحصل هو تغير شحناتها أو إعادة توظيفها في نظم جديدة . وأفضل مثال عليها هي البنى اللغوية البسيطة التي يعبر بقاؤها عن بقاء اللغة ، رغم أن ما تحمله هذه اللغة ومفرداتها من معاني وأفكار ومذاهب لا يكف عن التبدل مع تطور المجتمع والثقافة

وبعكس ما يعتقد البعض ، تشكل هذه البنية الاولى ، اللاواعية والاعتباطية الرمزية ، الأساس الثابت والراسخ لكل ثقافة وتلعب في تطورها ووجودها دوراً لا مثيل له ولا غنى عنه . وهذه البنية هي التي تميز كل ثقافة عن غيرها ، وتعكس في ثباتها استمرارية الثقافة وديمومتها ، أكثر مما تفعله المنظومات العلمية أو الايديولوجية الواعية . لأن الاولى تتطور في الواقع مع تطور الحضارة ، وتنتقل معها من حقبة إلى أخرى دون أن يطرأ عليها تغير يذكر ، أما النظم الايديولوجية فإنها تتطور وتتبدل أيضاً داخل نطاق ثقافة واحدة ، ومن جماعة إلى أخرى ، مع تبدل الأوضاع والظروف والانظمة الاجتماعية^(١) . ففي هذه البنية الشعورية - الرمزية تتجلى إمكانات الثقافة وتكمن شخصيتها . وهي التي تعبر عن حيويتها . وهي التي تلجأ إليها الثقافة أيضاً للدفاع عن نفسها عندما تنهار نظمها العقلية والايديولوجية حتى تحتفظ للجماعة بمستوى أدنى من التواصل وتحقق لها أرضية مشتركة للتماهي والوحدة . ومن ترددها الطقوسي والمكرر ، تستمد الثقافة أيضاً قوة مقاومتها المتجددة للثقافات الأخرى التي تحاول أن تقضي عليها ، وتذيب الشخصية الجماعية . ومن لا تاريخيتها تستمد قوة استمرارها التاريخي وديمومتها . فهي بالنسبة للثقافة كالأساس الذي يقوم عليه البناء بأكمله رغم أنه ما لا يظهر على السطح .

(١) حتى أن اللغة اعتبرت أساس القومية ، وكذلك الثقافة بالمعنى الانثروبولوجي للكلمة ، أي بمنزل عن النظم العقلية العليا أو ما نسميه بالثقافة العلة

وعلى مستوى حقل الدلالات الاولى ، أي الرموز الأساسية والأساطير المكونة ، تعمل الآداب والفنون ، وتصبح هي نفسها مصدراً لتجديد هذا الحقل وإغنائه بدلالات جديدة فهي خالقة أيضاً لبنية رمزية - خيالية ، بقدر ما هي استمرار لها . ويعكس تطورها نمو هذه البنية المنظّمة ، كما قلنا ، للتجربة الشعورية والمثرية لها

وفي الواقع يشكل الرمز بعداً من أبعاد الحقيقة العلمية ذاتها وتسم المفاهيم الدقيقة التي تستخدمها في سياقات مختلفة ، بما فيها مفهوم العقل أو السلطة أو الدولة إلخ ، بعد رمزي أساسي يعكس التجربة التاريخية لكل ثقافة والاستعمالات الخاصة والاحالات المتعددة التي يخضع لها في هذه الثقافة كل مفهوم . بل إن هدف المفاهيم أن تصبح رموزاً أي أن تتحول إلى دلالات ثابتة ومعطاة لا تناقش ، فتصبح أداة لتكوين دلالات أخرى أو علامة أولية وهدف السلطة أن تصبح مشروعة أي مقبولة بداهة كي لا تضطر الى أن تظهر بمظهر القوة العنيفة . ولذلك ارتبطت المشروعية دائماً بالسيطرة على شارات السلطة وبالمثل ، ترتبط النشاطات الروحية بأشكال رمزية ليس لها قيمة في ذاتها ، وإنما فيما تخلقه من عواطف ومواقف مشتركة مثل الصلوات والاحتفالات والمواكب الدينية والصوفية .

وليست الأساطير والخرافات والملاحم وأنواع الفنون المختلفة من الأمور الكمالية ، ولا من مخلفات الماضي الغابر ، بل هي الرحم الذي يولد فيه الإنسان روحاً وعقلاً وشعوراً . ومكانة الإنسان في الكون ، ونظرته الى نفسه ، وتحديد لغايته لا يحددها العلم الذي لا يهتم إلا بالجزئيات ، وإنما هذه المنظومة الخيالية - الرمزية التي تموقعه قبل أن يقدر على العمل والتفكير . وعندما نقول أن لكل مقولة عقلية بعدها الرمزي ، فنحن نعني أن لها عمقاً في الشعور وفي الخبرة المباشرة لتلكائن ، وأن قيمتها لا تنبع فقط مما تنقله من معنى محدد في إطار المنظومة العلمية أو الفكرية التي تدخل فيها ، وإنما أيضاً مما تثيره من دلالات حسية وتنقله من انفعالات وتحمله من شحنات المعنى .

فالرمز بما هو دلالة مباشرة ، أي هدف في ذاته ، يشكل المادة الخام لانتاج الدلالات الفكرية الأخرى ، فهو كالكلمة التي تتج في سياقها الثقافي واللغوي المعنى . ولذلك كلما تطورت الحضارة وازدهرت اغتنت البنية الرمزية - الخيالية ، وزادت المعاني وتفرعت وتنوعت . فترميز الواقع ، أي وضعه في نظام يخدم انتاج المعنى ومضاعفته هو جوهر الحضارة وعلامة تطورها .

وليس الفن والممارسة الجمالية عموماً إلا المجال الذي يصبح فيه انتاج هذه الدلالات الحسية والرموز هدفاً في ذاته ولذاته . فهو يشكل بهذا المعنى الهدف الأخير للحضارة أو غايتها . فإذا انفصلت عاطفة الحب عند الانسان عن رموزه وصوره والأساطير المحبوبة حوله افقر مفهومه حتى أصبح رد فعل جنسي وحيواني على مؤثر خارجي .

ففي كل ثقافة نظام رمزي - خيالي يحدد القيمة الاولى للمعاني والدلالات القائمة التي يعاد تركيبها وتفسيرها حسب النظم الذهنية التي تدخل فيها . وهو نظام يرثه الفرد ، وترثه الأجيال ، وهو من بين النظم العقلية جميعها الأكثر مساواة بين الأفراد ، والأكثر حرية وعفوية وانفتاحاً . فاستيعابه لا يشترط اختصاصاً كالنظام العلمي ، ولا تربية قاصدة كالنظام الاعتقادي ، إنما تكفي فيه مباشرة الحياة في مجتمع ما والتأثر به والتأثير فيه ، ومشاركته أترابه رؤيتهم لنفس المناظر وسماعه لنفس الأصوات والأنغام ، ومعاناته نفس التجارب ، وشعوره بنفس الشاعر ، وتخيله نفس القصص والأساطير ، ونظره الى نفس الأجواء والألوان ، وتأثره بنفس المناخ .

وتستمر المخيلة الرمزية للجماعة ، رغم تجلدها واغتنائها ، على مدى أجيال وتحقب متعددة ، وتتجاوز أحياناً الحضارات . فكم من بني المخيلة الرمزية البيزنطية ما زالت حية في الثقافة العربية لبلاد الشام مثلاً ، وكم من تمطيات فرعونية قديمة ما زالت متواترة حتى الآن في ثقافة وادي النيل رغم سيطرة الثقافة العربية الاسلامية واحتلالها دون انقطاع نظم الثقافة الكبرى العقلية والعلمية

والدينية والايديولوجية واللغوية . هذا مع العلم أن ما حصل هنا هو انقلاب ثقافي كامل ، وإذن ميلاد لمنظومة رمزية جديدة .

وبالرغم مما يتسم به هذا البيان الرمزي من احتجاب عن الوعي ، ونمطية وتكرار ، بل لهذه الأسباب ذاتها ، فإنه ، قبل المحاكمة العقلية والاعتقادية ، هو الذي يتحكم أساساً بسلوك الناس ويوجه تفكيرهم . وباستثناء ما يتعلق بالنخبة المختصة بشؤون العقل والتفكير ، والتي يلعب السلوك الواعي دوراً كبيراً في اختياراتها ، غالباً ما يصبح هذا البيان ، خاصة عند ضعف المنظومات العقلية أو انهيارها ، العامل الأساسي في توجيه حياة الأفراد وتكوين « وعيهم » السياسي والاجتماعي . ولا يعني ذلك أن هذا النشاط الرمزي الكثيف يتناقض مع النشاط العقلي ، أو بالأحرى يرفض التعايش معه ، فهو الذي يملأ الفضاء الكبير الهائل للإنسان العالم والامي معاً ، ويعطي لوجوده سمة ومعنى ، ويرر إذن بشكل غير مباشر وجود النظم العقلية والأخلاقية . إنه اللاواعي الذي لا يقوم بدونه وعي ، أو الذي يؤسس لكل وعي .

إن الفن الذي يشكل خزاناً عظيماً من الدلالات الحسية هو الذي يقوم بأول عملية تنظيم للخبرة الشعورية الجماعية والفردية . ولا نقصد به الفنون العليا ، إنما كل الممارسات الشعبية الأولية الباحثة عن إخفاء معنى على الحياة وعلى النشاط البشري يكون مقصوداً لذاته لا لمنفعة تصدر عنه . هذا هو مضمون الغناء والرقص والعمار الفني . ولا تقوم النظم الأخرى العقلية إلا بتوجيه هذه التجربة نحو مقاصد أخرى : إما لتوسيع المعارف وزيادتها أو لتحقيق غايات تخدم غايات أخرى . لذلك نجد أن رنين الصوت واختيار اللفاظ ، وطريقة الكلام والمحاكمة ، ومواقف التكلم العامة تؤثر أكثر في عقول الناس وفي مواقفهم من الجدل المنطقي . ولعل الخطباء هم أول من يعرف هذه الحقيقة بالفطرة ، فيستبدلون النقاش الموضوعي غالباً بالفتنة اللغوية .

ليست الأسطورة إذن من خارج الحياة ، ولا مناقضة لها بل إن المجتمع لا يعيش إلا في الأسطورة ، وبالأسطورة . والأسطورة ليست إلا تحول الحياة إلى

هدف لذاتها . وهذا أصل الفن . ففي الفن يكون الموضوع أيضاً غاية ذاته ، لا وسيلة لغيره ، أي معنى أول . ونشوء الفن كنظام رمزي بامتياز يقصد الكلمة والصورة والنغم لذاتها لا لغيرها ، هو التعبير عن اغتناء الحياة ووعيها بذاتها ، أي أيضاً تهذيب الشعور ، وهو مصدر الذوق الجمالي ، أو مصدر الجمالية . ولذلك فهو ثمرة الحضارة ودليل تطورها . وفيه يصبح الانسان حاضراً لنفسه مقيماً عليها ، ومستمتعاً بوجوده .

والفن هو فرح الوعي بذاته ، وتذكره لنفسه . وليس للوعي من هدف في الفن إلا الفن ذاته : أي الجمال . لذلك يسم الموقف الفني المرحلة الأخيرة من كل حضارة ، فتصبح المتعة قبل الحقيقة وقبل العقيدة مقياس كل شيء وغايته ، ويصبح إبداع الدلالات الفنية وتجديدها هو حافظ العمل والممارسة ، وتصبح الحاجة رغبة ، والسلطة شارة ، والالتزام تعبيراً . ويخلد المجتمع نفسه في الفن وبه . هكذا تصبح المتعة النظم الأول والقاعدة للسلوك ، وتزول الحاجة إلى إنتاج الدلالة كمفهوم يتضمن القسر العقلي ، أو كقيمة تتضمن الضبط والانضباط الارادي ، ويسمى كل انتاج عقلي الى أن يظهر بمظهر الانتاج الفني . ويواكب نمو الحس الجمالي هذا نمواً في الفردية على حساب التكتل الجمعي التماثلي ، وفي التنوع اللانهائي على حساب الوحدة الكتيمة والصلدة ، وفي المشاعر الانسانية على حساب المشاعر القومية الجماعية . ولذلك لا تشهد الحضارات في أوج تقدمها التعدد المائل في الفنون والآداب والعمار فقط ، وإنما تصبح هذه الميادين المجال الأرحب لتحقيق الذات وإظهار التفوق ، حتى يمكن القول إن الحضارة المادية كلها ليست إلا توظيفاً واستثماراً في الحضارة الفنية ، أي في الجماليات . وليس من قبيل الصدفة أن أكثر ما تحتفظ به ذاكرة التاريخ من هذه الحضارات بعد زوالها هو أثارها الفنية . أما العلوم والمعارف فلإنها تطل بتغير الحضارة وتقدم المعرفة . ولذلك أيضاً تقاس قيمة الحضارة بما تتركه من آثار تعكس عمق واتساع الساحة التي كانت تقدمها للشعور الجمالي . أما في المجتمعات التي لم تعرف درجات متطورة من الحضارة ، أو التي انهارت مدنياتها ، فإن الصراع من أجل البقاء يستوعب فيها كل شيء ، ولا يمكن للفنون أن توجد إلا مرتبطة بما يخدم هذا

الصراع ، ولهذا يضعف فيها الحس الجمالي الفني ، كما يضعف فيها الحس الأخلاقي أيضاً . لذلك يشكل نفي هذه المنظومات الحرة والمجانية من دائرة العقل والعقلانية علامة من علامات البربرية ويقود إليها . ومن هنا نقول ان « العقلانية » العربية الحديثة ، بسعيها إلى نفي كل صعيد معياري ، فنياً كان أم أخلاقياً أم اجتماعياً أم سياسياً ، ليست إلا التعبير المرائي عن تدهور المجتمع العربي نحو البربرية ، والأداة الفعالة في هذا التدهور . وانه لمن خدع التاريخ أن يظهر الانحدار نحو البربرية في صورة اكتساب للعلم والمدنية .

القسم الرابع

زمن الوعي

(في الوعي الخائبي ،

ونظرية النمضة والإبداع التاريخي)

• إذ لا مطمح في الرجوع الى التقليد بعد مفارقه ، إذ من شرط المقلد أن لا يعلم أنه مقلد . فإذا علم ذلك انكسرت رجاجة تقليده وهو شعب لا يراى وشعب لا يده سالتعيز والتأليف إلا أن يذاب بالار ونسناف له صيغة أخرى م حده .

• حامد العراقي - المنقذ من الضلال

I

من الحداثة الى النهضة : جدل الذاتية والعالمية

من دراسة بنية العقل الحديث العربي ، والصورة التي رسمها للحداثة ،
نريد أن نستنتج التالي :

١ - أن نشوء الحداثة مستقل عن الوعي بها وعن الايديولوجية التي أطلقت على
نفسها هذا الاسم . فلم ينتظر محمد علي في مصر مثلاً مفكري الحداثة ولا
نظرياتها حتى يشرع بتحديث الجيش والتعليم وبناء الصناعة الآلية . بل هو
نفسه الذي أرسل البعثات العلمية للخارج وأعاد توزيع الأرض وبنى
الصناعات ، وأنتج ، بشكل ما ، فكر الحداثة ومفكرها ، دون أن يكون هو
نفسه ، لا في سلوكه ولا في قيمه ، عصرياً أو حديثاً ، بل كان مثالاً
للاستبدادية والسلطة المطلقة والأبوية . ومن قبله فقد السلطان مراد الرابع
حياته لأنه حاول القضاء على الانكشارية واستبدالها بجيش حديث بحارب
على النمط الغربي ، قبل أن ينجح خلفه محمود الثاني في إنجاز هذه المهمة
عام ١٨٢٦ .

لقد تصرف كل منهما ، ومن خلفهما أيضاً ، بدوافع لا تمت بصلة إلى
القيم الحديثة ، وخضع لما أمليه عليه مصالح الحفاظ على الدوا وانقاذها ،
وانقاذ السلطة من خطر التدهور والسقوط في 'نسبية' ، وفقدان القرار الذاتي .
ومن نفس المنظور ، أقام عبد القادر الجزائري أيضاً على تحديث جيشه
لخوض الحرب الطويلة ضد المحتلين الفرنسيين ولم يمنعه تصوفه ولا تمسكه

بأهداب الدين ، من شراء الأسلحة والمعدات من أعدائه فالتاريخ لا يستظر
تبلور الفكرة لينطلق ولكنه هو الذي يتحرك ويحرك الفكر. معه ويغير وعي
الناس وإدراكهم ونمط حياتهم

٢ - إن ايدولوجية الحداثة ، قد نشأت لتساعد المجتمع على عقلنة هذه الحركة
إذ لا يستطيع المجتمع أن يقوم بنشاط واسع وبمبادرات وتغييرات تاريخية
كبرى دون أن يسجلها في سجله العقلي ، ويجعلها واعية وشفافة ومدركة ،
ومن ثم مقبولة . وأن قيمة هذه العقلنة تنبع دائماً من قدرتها على إعطاء
آفاق أوسع للحركة وحل المشكلات الثقافية أو المادية التي يمكن أن تقف عقبة
أمامها . لكن بقدر ما تحولت هذه العقلانية في العالم العربي إلى ايدولوجية فئة
اجتماعية ، وأصبحت تحدد إطار واستراتيجية صراعها مع الفئات الأخرى ،
فقدت شيئاً فشيئاً طابعها الموضوعي ، أي قدرتها على التحكم بالممارسة التحديثية
وضبطها والسيطرة على آثارها السلبية ، وتحولت إلى دعوة عقلية فلم تعد
تهتم بالنهضة وشروطها وإنما أصبحت تدافع عن مشروعية الحداثة ، وبمعنى
آخر ، مشروعية وجود الفئة الاجتماعية المتماهية معها والنظام الاجتماعي -
السياسي الذي يتيحها . فأصبحت معاصرة هذه الفئة للحضارة هي أيضاً
بديل معاصرة المجتمع لها وعائقاً أمام تطور الحداثة نفسها ، أي أمام
النهضة .

ونعني بذلك أن ايدولوجية الحداثة لا تعني الحداثة ، وأن الدافع عن
قيم الثقافة الغربية العصرية لا يعني التمسك بضرورة هذه القيم ، بل كما
رأينا ، يمكن أن تعني الدعوة لنظام يتناقض كلياً مع تحقيق مثل هذه القيم .
ويغطي هذا الدافع الصراع الناشئ بين أطراف النخبة العربية - بشقيها
الحديث النابع من عملية العصرية ذاتها ، والقديم المعبر عن استمرار البنى ما
قبل الاستعمارية - على احتلال ساحة الوعي العربي والسعي إلى بلورة هذا
الوعي وصياغته صياغة جديدة تعكس ميزان القوى الراهن وتراجع قيم
الثقافة العربية الكلاسيكية والقوى الاجتماعية التي كانت هذه القيم تستمد
سلطانها وشرعيتها منها . والثقافة هي القاعدة الموسوعية للوعي في كل مجتمع

ما هو وعي بالذات وبالواقع المحيط بها وبالتاريخ والوعي هو الخلاصة الداتيه لكل ثقافه او روحها وثمرتها والذي يستطيع ان يحتل هذا الوعي اي ان يجعله خاضعاً في حكمه للقيم والتصورات والمفاهيم والاساطير خاصة به ، يكون قد فتح أكبر ثغرة ممكنة في مقاومة المجتمع واستمراريته العاديه وتوازنه يستطيع ان ينفذ منها إلى بقية الهياكل والمؤسسات الاجتماعيه والاقتصادية والسياسية والعلمية ويتحكم بها من الداخل لذلك كان الغزو الفكري أخطر من أي غزو آخر ، إذ متى ما فقد المجتمع ثقافته ، فقد وعيه شخصيته وقبل كل ما تفرضه عليه القوة السائدة باعتباره حقيقة مطلقة ، يسها استطاعت شعوب المستعمرات التي احتفظت بوعياها بذاتها واستقلالها وتميرها أن تتخطى عقبات التدمير المادي وتشويه مؤسساتها السياسية والاقتصادية ، وأن تسترجع استقلالها مستندة على تعبئة قواها الروحية والايديولوجية والدينيه

٣- أن كل جماعة تحتاج كي تقوم وتستمر ، بالإضافة إلى العلم والتقنية ، إلى أط مرجعية روحية ورمزية وأخلاقية ، تكون مصدر تواصلها وإلهامها ، توحد مشاعرها ، وتتحكم برودود أفعالها وتشرط رؤيتها العامة وتوجهاتها العميقة وليست الثقافة في النهاية إلا سلسلة الاحالات التي يتعرف الفرد من خلالها وتتعرف الجماعة على نفسها وتضبط من خلالها وتنظم نشاطها الروحي والمادي التوحيدي والابداعي وهذه الاحالات راجعة الى تجربة تاريخية وقائمة على وحدة مسبقات وإجاءات لاشعورية واعتقادات ، بل ومصادر عامة لا شأن للمنطق الفلسفي أو العقلي أو الرياضي بها وكل جماعة متميزة تحيك لا محالة جملة من الأساطير التي تؤسس بها لشرعية وجودها المستقل ، وترسم من خلالها أصل نشونها ورسالتها . وهي بطاقة سجلها في التاريخ وقد سب العرب أنفسهم إلى إسماعيل ليصبحوا من خلاله حملة ميراث الانبياء وأصحاب الرسالة الانسانية واعتبر اليونان القدماء أنفسهم من سبل الالهة ، وبنى السوفييت في القرن العشرين شرعية مدينتهم على فكرة وطر الاشتراكية والثورة الأممية والانسانية وما رالت الثورة الفرسية مرحعاً للعقل وللروح الفرسيين ، تغذيها وتتغذى منها في الوقت نفسه كاسطورة أم

الأمريكيون فقد ربطوا اجتماعهم بفكرة الحرية الفردية الكاملة والليبرالية .

فلكل أمة سند تاريخي وإنساني . ولا تستطيع أن تؤسس وجودها على بطولات قام بها غيرها دون أن تخاطر بأن تنهاى كلياً مع هذا الغير . وليس من الممكن لا الآن ولا في المستقبل أن تؤسس الجماعة لنفسها أو تبني اجتماعها على تبني أطر مرجعية لجماعة أخرى طالما أن من المستحيل أن تمثل تاريخ هذه الجماعة الأخرى وتعيش وقائعها . وكل محاولات بناء النهضة العربية على مرجعية أجنبية لا بد أن تبوء بالفشل .

وهذا ما يعطي قيمته للتراث ويمكن من نشوء بذور الذاتية في كل مجتمع أو يكون قاعدتها الأولى . ولذلك فإن مبدأ الذاتية ، ينبع من رفض الاندماج في الآخر ورفض التكرار للذات لما ينطوي عليه هذا من استلاب وغياب للوعي الذاتي ، وانحدار إلى مستوى الجماعة الاستهلاكية التي تعيش حالة على غيرها وليس لها في ذاتها أي طموح أو رسالة أو روح تحركها سوى إرضاء الرغبات وإشباع الحاجات الرقوتية . وليس من المبرر التضحية بهذا المبدأ لأن الذاتية فهمت كدفاع عن ماهية جامدة وماضوية من قبل فئة من المجتمع ، فحدود الحدائنة الاستلاكية كامنة في كونها حاملة بالضرورة للسيطرة الخارجية ، وأنها لا تتحقق إلا كتشريد ثقافي وتحليل للبنى وللقيم الانسانية والروحية . ولذلك لا يمكن أن يكون تاريخها أيضاً إلا تاريخ الاجهاض . إنها بالضرورة حدائنة مبهضة .

٤ - ويخطئ أنصار هذه الحدائنة أيضاً عندما يعتقدون أن إجهاضها راجع إلى مقاومة البنى الثقافية التقليدية وأن القضاء على هذه المقاومة يعني فتح الطريق ، أمام تعميم الحضارة وتطويرها . بل إن عكس ذلك هو الصحيح ، إذ أن وجود هذه الثقافة يشكل ثقلًا نوعياً يمنع الجماعة من التحول إلى ورقة في مهب الريح والجريمان وراء كل بدعة وصريعة واعتبارها أساس المدنية . ويسلحها بقوة عطالة ضرورية لموازنة الأمور ومراجعة الخبرة التاريخية وتنقية الوافد الجديد من شوائبه ، وكسر طابعه

العدواني وإدماجه في الوظائف الخاصة المحلية . وهي تشكل بالضرورة قيدا على النخبة العليا التي يمكن أن تمنح مع غياب أي مقاومة ثقافية محلية إلى الاندماج في الحضارة الصاعدة ، واستخدام آلياتها وأدواتها لتقوية سلطتها ، ومن ثم حرمان الشعب نفسه من حقه في المشاركة في هذه الحضارة .

ثم إن انتشار الحضارة لا يتحقق خارج إطار الزمان والمكان ، ولا بمعزل عن الدول والجماعات والثقافات القائمة . وأن ما تستطيع كل جماعة أن تأخذه من هذه الحضارة راجع إلى قوة عناصرها الذاتية المادية والبشرية والعقلية والروحية . وإذا فقدت أمة من الأمم إيمانها بنفسها اضطرت إلى أن تتحول إلى مزيلة الحضارة ، وحاوية ركامها .

فتزعة المقاومة والرفض مرسومة إذن في طموح الجماعات التي حُطمت توازناتها العميقة ودُمّرت مؤسساتها بسبب عدوانية الأمم المتحضرة ، إلى ضمان حقوقها في الحاضر والمستقبل ، وإلى رغبتها في أن تنفذ إلى الحضارة التقنية والمادية بشروط أفضل ، وليس بشروط الأمم السائدة التي تطمح إلى تحويلها إلى مستعمرات ومستودعات لبضائعها . وفي أن تعطي لنفسها الفرصة وتحفظ بالخميرة الخاصة اللتين تؤهلانها لابتداع الحلول الأصلية التي تسمح لها « بتكييف » الحضارة مع بيئتها الروحية والمادية ، وأن تحفظ من ثم بحقوقها في أن تبقى شعوباً وجماعات متمدة .

ويكفي أن نراقب ما يحصل في العالم حتى ندرك أن فرص التحديث نفسها تضعف كثيراً عندما تضعف المشاعر القومية والمقاومة الذاتية المرتبطة بها . فسياسات الانفتاح والتسبب تؤدي عادة إلى حضارة استهلاكية محضة . وبالعكس تزداد القدرة على استيعاب الأسس العميقة للحضارة بازدياد قوة الحافز القومي والشعور بالاعتزاز الثقافي ، بحيث نستطيع القول إن النهضة ذاتها ليست شيئاً آخر سوى التوظيف التاريخي للشعور بالذاتية ولعاطفة الهوية . وإلا فليس هناك ما يمنح الجماعات من أن تكف عن بذل الجهد ،

وتتظر ما يأتيها من غيرها ، كما هي حالة أكثر بلاد العالم الثالث التي فشلت ، مثلنا ، في بناء نهضتها الحديثة .

هـ - ويخطئ أنصار الحداثة أيضاً عندما يعتقدون أن نزعة المقاومة هذه مرتبطة بوجود التيار الأصولي وتابعة منه ، أو من قوة القيم التي يتغنى بها وصلاحيته الأحكام التي يسنها . فلم يتتظر العرب أو المسلمون ، نحو فكرة القومية العربية أو الإسلامية حتى يشنوا كفاحهم ضد الغزو الأجنبي وأثاره . بل إن نحو هذه الأفكار القومية لم يكن هو نفسه إلا استجابة لهذه المقاومة وتدعياً لها .

لذلك ، ورغم كل المظاهر السطحية ، نحن لا نعتقد أن هناك ردة دينية نتيجة لرفض الحضارة ، وإن كان هناك رفض فعلي لنمط من الحداثة وللأيدولوجية التي ارتبطت به وكانت مثلاً لنزعة شديدة المحافظة الاجتماعية في عمقها ، وحاملة لكل قيم التخلف والنخبوية الفرستورية ، ومنافية في جوهرها لقيم الحضارة والمدنية . بل إن وراء هذا الرفض يكمن التعلق الفعلي بالحضارة والأمل بإمكانية المشاركة الفعلية فيها والسيطرة أخيراً عليها وتأهيلها .

ومن هنا يخطئ الأصوليون^(١) أيضاً عندما يفسرون حركة الارتداد عن مفاهيم الحداثة هذه على أنها نداء جماعياً من أجل إقامة الدولة الدينية . وقد دفعوا ثمن ذلك غالياً وسوف يدفعون أكثر في المستقبل إذا استمروا في هذا الفهم . وليس لمطلب الهوية ذاته علاقة بتقليد الماضي ولا استعادة التراث ، بقدر ما هو تعبير عن الحاجة إلى التعريف بالذات وتحديد العلاقة بالآخر بعدما طرأ على الواقع الدولي والمحلي من تبدلات . وهذا يقتضي إعادة تحديد

(١) ليست الأصولية في بطنها تعجيداً للتراث بقدر ما هي توظيفاً سياسياً له . ولذلك فهي تقوم أيضاً بتحويل التراث الثقافي والقيمي معاً إلى ثلاثة أهدافها السياسية . ومن أخطأ اعتناؤها بمرأله . وانتقله من خلالها . ومن الواضح أننا لا نناقش هنا المواقف والبرامج السياسية ، بل نحدث عن التراث كثقافة

الهدف والقصد والوسائل وأساليب العمل على الساحة المحلية والدولية .

وليس للحديث عن التراث في هذا المجال إلا معنى واحداً هو إسناد هذه العلاقة الجديدة التي وهبت ، على تاريخ محلي وربطها برموز تضمن التميز والاستمرارية . وهو لا يعني مطابقة الحاضر للماضي ولا مطابقة الشخصية العربية اليوم للشخصية الماضية . فعدا عن أن ذلك من المستحيلات عملياً ، فهو لا يمكن أن يقود إلا إلى أزمة هوية أعمق وأشد وطأة بقدر ما يؤكد الشعور القائم بالغربة عن الواقع ويزيد من العزلة عن التاريخ ومن الهامشية .

وعندئذ لا معنى لوضع الحداثة أو الحضارة في معارضة الهوية ، بل إن الهوية لا بد أن تكون قضية من قضاياها ومطلباً من مطالبها . إذ ما قيمة حداثة تقوم على نفي الذاتية أو تؤدي إلى الاستلاب ، وما هي فرص تحقيقها ؟

٦ - إن دراسة الفكر العربي الراهن تعني بالدرجة الاولى دراسة الفكرة والنظرية القائدة للتحويلات الاجتماعية ، أي الطروحات والمسبقات والأفكار التي تتصدى للقيام بهذه التحويلات . وإذا كانت حركة الاصلاح العقلي الدينية التي ظهرت في أواخر القرن الماضي قد حققت النقد النظري الذي لا مزيد عليه للفكرة التقليدية ، وفتحت الطريق إلى ظهور الفكرة الحديثة والحركة العقلانية ، فإن أي إصلاح جديد لا يمكن اليوم أن يكتفي بنقد الفكرة التقليدية ذاتها التي بقيت ، وربما سوف تبقى ، بعيدة عن دائرة القرار والفعل . ولا يمكن للفكر الحديث أن يعيش على تردد انتقادات المصلحين الأوائل أو تعميقها بالاتجاه العلماني أو الثوري ، ولكن عليه أن يهتم بمحصر أسسه ذاتها ، أي أطروحاته وممارساته العملية خلال أكثر من قرن . وكل ما عدا ذلك هو هروب من المسؤولية والبحث عن حلول شكلية . إنه على انهام الآخرين لتبرئة النفس . فلا الكشف عن عيوب التراث يلقي المفزومة الطائفية ولا « تأويل » التراث يفتح الطريق للتعبئة الثورية . بل إن ذلك لا يمكن أن

يقود إلا إلى زوال قيمة التراث . إذ ما قيمة تراث هو صورة للعصر وما قيمة حدثاته هي تكرار للتراث . إن وظيفة التراث ناجمة بالضبط من أنه تراث ، أي شيء آخر مميز عن الحدث .

وهذا يعني أن علينا أن نكف عن استخدام تأويل التراث كسلاح أيديولوجي أو سياسي ، وهو الاستخدام الانتهازي والمصلحي المباشر ، وأن ندرسه في ذاته أي كثافة ، وأنماط حلول مقدمة في كل عصر لمسائل محددة طرحها العصر ، وأن نكشف عن معناه في عصره ذاته^(١) .

٧ - إن الحدث ليس قيماً أو مؤسسات نقبلها أو نرفضها كما نشاء ، بل هي عملية مستمرة عندنا منذ قرنين ، ومستمرة بالرغم منا . وليس المطروح على العرب ، ولا يمكن أن يكون مطروحاً ، الاختيار بينها وبين غيرها . ولم يكن في أي وقت كذلك إلا في ذهن بعض المثقفين العرب من الطرفين . المطروح هو رؤية وتحليل المشاكل التي تثيرها هذه الحدثات بما فيها مشكلة التيارات الرافضة لها ، وإيجاد الاجابات الصحيحة عليها لضبط عملية التحديث والسيطرة عليها ، أو بالأحرى للخروج منها بنظرية تتجاوز تبديل التقنيات لتصب في قيم وأهداف وغايات اجتماعية مقبولة ومحددة .

لذلك نقول أن للحدثات مضاعفات لا تحل من مبدأ الحدث ولا من ذاتها . فهي كتغير ، أو بالأحرى كإدخال للاثقة قيم جديدة ، يمكن أن تشكل تهديداً لفاعلية الثقافة العربية بما هي استمرار لقيم ومعانٍ وتقاليد تاريخية ، وتحرم المجتمع بالتالي من أجد مميزات الذات وتضعف مقاومته للهيمنة والسيطرة الخارجية . أي تفقده مناعته . وتزداد أهمية التراث للوجود العربي وفي نظر

(١) لا يستطيع التراث ، مطلقاً ، أن يحتوي أو يستوعب معطيات العصر ومشاكله ، ولكن العصر ، والفكر المصري هو الذي يستطيع أن يحتوي التراث ويستوعبه ، لأنه يتجاوز ولا يعني النفي والإلقاء . وإنما يعني السبق والإضافة . وهذا ما يدفعنا إلى القول أن المبادرة النظرية التاريخية هي بين يدي الفكر المعاصر لا العكس . وأن دخول قيم جديدة تتجاوز القيم الماضية لا يعني أيضاً إمكانية تعاضلها ، بل هو إغناء للثقافة

الجماعة ، كلما تعرض البيان السياسي والاقتصادي الى الهزات والانقلابات العنيفة ، فيلعب فيه دور المرسلة . وبالفعل ، إن كيان العرب لا يمسه عن السقوط اليوم إلا الانتباه لثقافة تسميت لتحفظ بوحدها واستقلالها وتميزها . فإذا فقدت ، لم يبق ما يربط العرب واحدهم بالآخر لا على مستوى الأفراد ولا الأقاليم . ومن الخوف من هذا التحلل ينبع التمسك المفرط بالمثل والثقافة القديمة التي تبدو ذات قيم ثابتة ، والاعتصام « بحبل الله » ، بعد انقطاع حبال التاريخ والمجتمع .

وللحدثة وجه آخر اجتماعي هو كيف يمكن للحدثة أن تحصل دون أن تكون وسيلة لتعظيم قدرة أصحاب الشأن والسلطة وزيادة تسلطهم واحتكارهم . مثلاً كيف يمكن أن نحدث الدولة دون أن تصبح وحشاً مفترساً يمحى على الناس أنفاسهم ، وكيف يمكن أن توجه الحاسب الالكتروني نحو القطاعات المنتجة ، بدل استخدامه في النشاطات المتعلقة بالأمن الداخلي . أي باختصار كيف يمكن ضبط عملية التحديث حتى لا تكون وسيلة بيد طبقة لاختراع واستغلال الطبقات الأخرى . وهذه ليست مسألة بسيطة . إنها تتعلق بأهم قضية : قضية السيطرة على الحديث والتحكم به وتوظيفه ، أي أيضاً تحديد القيم التي توجه هذا التوظيف .

٨ - خلاصة القول في الحدثة أن أصل التخلف أو اللامعاصرة واللافاعلية لا ينبع من استمرار وجود وتأثير التراث علينا ، وعزله لنا عن غيرنا ، وإنما من بقاء هذه الحدثة نفسها غريبة ومغربة ، وأداة تفكيك وتقسيم . أي نقياً للذات . ضد هذا النقي يظهر التنكر للآخر كوسيلة معكوسة لتأكيد الذات .

والواقع أن رفض الذات وإنكار الآخر هما حلان سلبيان متشابهان لتأكيد الذات الذي أخفق على مستوى الواقع العملي^(١) . إن تأكيد الذات

(١) وهما يمكنان معاً غياب الوعي الذاتي ، أي أيضاً عطالة الفكر وتحكم الواقع به . إنها مثال على اللاوعي الذي يتحكم بالسلوك . ويقدم للذات الحلول التعويضية التي تشعرها بالسيطرة الوهمية على واقع أخفق في السيطرة الفعلية على حركته وتناقضاته .

الذي لا يتحقق في عمل ايجابي ، أو الذي لا يستطيع أن يتحقق ، يجد في
نفي الآخر وسيلة لبناء ذاتية شكلية .

وهكذا فإن النزاع بين الحديث والقديم لا يعكس سيرورة موضوعية
لحصول الحضارة أو تحقيق الذاتية ، وإنما هو النتيجة الحتمية لانسداد أفق
التغيير الحضاري ، ولا يظهر بقوة إلا عندما تظهر أزمة هذا التغيير على أشدها
أيضاً . فالأصل في أزمة الهوية هو إخفاق الحداثة في تحقيق النهضة أو
المعاصرة أو الفاعلية بقدر ما بقيت هذه الحداثة تشكل تنكراً للذات . وليس
مصدر التنكر للذات جهل التراث ولا غيابه ، وإنما التهميش الحضاري الذي
يمارسه صعود ثقافة جديدة الى مستوى العالمية على بقية الثقافات فيزيغها
عن حقل المبادرة والفاعلية . وهذه الازاحة تفقدها في الوقت ذاته قيمتها
العميقة والتاريخية ، أي تجعلها غير ذات مردود حقيقي على مستوى تنظيم
الحياة الاجتماعية ، تماماً كما يبطل ظهور النقل بالقطار النقل على الحصان .
وكما تفقد الأزياء الجديدة « موضة » الأزياء السابقة ، دون أن يعني ذلك ،
أن هذه الأزياء الباطلة لا قيمة فعلية وجمالية لها . بل ربما عادت فأصبحت
« موضة » من جديد في حقبة تالية .

وعندما تبطل ثقافة الحضارة الصناعية القيمة التاريخية للثقافات الأخرى ،
وتفرغها من جاذبيتها بالنسبة للجماعات التي تحملها ، تجوف هذه الجماعات
وتشعرها بالخواء وباللاقيمة واللاجدوى في الوقت ذاته ، فتصبح بدون جذور ،
وبدون رأسمال ثقافي ومعنوي ، وتفقد احترامها لنفسها ، وتشعر بانعدام الأصالة
والمعقولية . ولذلك نرى أكثر من يشعر بذلك تلك القطاعات التي تتيح لها
الظروف التماس مع الثقافة السائدة والاقتراب منها . أما فئات الشعب العادية
فلا تشعر بأية أزمة هوية أو أصالة . ولذلك فإن هذا الشعور يزداد أيضاً لدى
الجماعة بقدر ما يزداد اندماجها في دائرة الحضارة الصناعية . ومن هذا الشعور
تنطلق دعوة الحداثة والرغبة المشروعة في مشاركة الشعوب السائدة والاندماج
فيها .

لكن بقدر ما ينطلق هذا الاندماج من رفض للذات يظهر أيضاً كتبنٍ لشخصية الآخر ، ويحقق في انتاج آليات عملية وذاتية لنمو الحضارة ، ويتحول الى اندماج للفئات العليا في المجتمع الغربي ، ويجد تغطيته الايديولوجية في نزعة التمغرب والتقليد والعالية الشكلية وانكار الخصوصية الذاتية . ولذلك فإن الحدائة غير المنتجة لحضارة ، تقاوم من الشعور بالخواء والهامشية أكثر مما تعمق الشعور بالمشاركة الايجابية والفاعلية . ولا يبقى من وسيلة لتجاوز ذلك إلا بعودة الجماعة إلى إحياء التراث والتمسك به باعتباره الفرصة الوحيدة التي ترمز إلى حضارة سابقة ، وتعطي الانحاء بشرف الوجود ضمن الفاعلية الانسانية والمشاركة في التاريخية . ولأن هذا التراث لا يحتوي على قيمة راهنة حضارية ، أو لا يأخذ قيمته من تفاعله مع الحضارة القائمة ، أو لا يعوض عنها ولا يصرف في سوقها ، فلا بد من تحويله إلى قيمة في ذاته ، أي إلى جوهر ثابته وأبدي . ويصبح بما هو ماهية جامدة ، رسماً لهوية مهزوزة وركيزة ثابتة لذاتية مهددة . ويصبح التثبيت بالتراث الفرصة الوحيدة المتاحة لتحقيق الذاتية باعتبارها تميزاً وخصوصية قبل أن تكون استقلالاً حقيقياً وفاعلية .

ولأن الهوية مجسدة في ماهية ثابتة تعني الجمود والتكرارية والعودة للماضي والانكفاء على النفس ، وتتحقق بمعزل عن المشاركة الفعلية في الحضارة ، بل ضدها ، فهي تندفع أكثر فأكثر الى التمسك بالجوانب الثابتة والخالدة للتراث ، أي بالعقائد الاولى للجماعة . وسرعان ما يتحول التراث نفسه ويضيق حتى يتماهى مع الدين^(١) . فيصبح الدين ملجأ ضد الشعور بالهامشية ، ورفضاً للخضوع إلى قانون التهميش الحضاري ، ووسيلة لتأكيد ذاتية مصدرها السلبية وأداتها التمرد على التاريخ . أي باختصار ، بقدر ما تحقق الجماعة في تحقيق ذاتيتها من خلال المشاركة الفعالة في الحضارة ، تضطر الى تأكيدها من خلال إنكار قيمة هذه الحضارة ورفض الثقافة التي تمثلها .

(١) بل مع الإيمان وحده ، فهو يعني أيضاً تراث الإسلام الحضاري برمته كي لا يبقى منه إلا القيمة الروحية الوحيدة . وليس أقل من ذلك من محركات التطرف لخمسة عشر قرناً من الحضارة الإسلامية باسم الإسلام ذاته ، واقتدارها إلى أية روح إحيائية تجديدية .

لكن هذا لا يحل المشكلة ، بل يضع مسألة الهوية في عصر المزدوج الذي انطقت منه ، أي التغطية بين الثقافة المحلية والحضارة وهكذا تبدأ - ثم - جديد من الجمود واحتباس التقدم الحضاري ، تبعها حلقة ثالثة من التمدد على الذات والارتقاء في أحضان الآخر . قبل بناء الحضارة عن رفض الذات يرد تأكيد الذات . بقي الآخر ، والمكسر بالمكسر . وكلما أصبح اللين رمزاً ، فاهرية والذاتية ، أصبحت الحضارة رمزاً للاعترا ب ، وقد اللين والحداثة معاً وثافتها المبدعة الروحية والفنية .

إن الذاتية التراثية هي التعبير عن انقطاع الهوية وزوال الوظائف الحية للثقافة وخياع فاعليتها ورافعتها . كما أن الحضارة هي التعبير عن اقتنار الحضارة وبؤسها وانحطتها في تحقيق الفنية . لذلك فإن التراث الذي قد فاعليته الحضارية ولم يعد ملهماً فعلياً لسلوك الجماعة وتفكيرها لا يعود إلا على شكل موقف سياسي ، أي كإيديولوجية تعطي مطلب اجتماعية . والحضارة التي فقدت نواتها المدنية لا تعود إلا على شكل لتهاء لعالم آخر وكإيديولوجية عقلانية تعكس نزوعات سياسية وترتبط بها . فيها يتحولان معاً إلى قيم عتبة ولذاتها ، أي قيم عاتمة أو معومة ، لا تأخذ أهميتها إلا في ظروف الصراع الاجتماعي ، وقدر ما يمكن لهذا الصراع أن يستغلها . وفي هذا المجال ليس من الناقل للأشارة إلى تحول اللين من إيديولوجية الطبقات العليا في القرن الماضي ، إلى إيديولوجية المقاومة الشعبية ، ومن ثقافة إلى إيديولوجية سياسية تغذي أحزاباً معينة وتسمي جماهير . وهو يصبح أكثر فاكتر إيديولوجية مقنونة القراء ، كما تصبح بالدرجة نفسها عقلانية الحضارة دين الأغنياء . وهذا تقاطع خطوط القسّم في الوعي مع خطوط القسّم في المجتمع ونؤكد استمرار أزمة الجماعة الطريخية والحضارية .

هكذا تطرح في ظلنا مسألة الحضارة . فهذا الاختلاق للتجديد والدائم في استيعاب الحضارة هو المصدر الأساسي والوحيد لاستمرار الحديث عن الهوية والحضارة والصراع بينهما . لأنه بقدر ما يجهل الحضارة العقلية والنتيجة مستحيلة ، أي بقدر ما يتمتع الحضارة من أن تكون حضارة ومدنية ، وبحولها إلى وسيلة من .

وسائل الصراع الاجتماعي ، يزيد من قوة التفكك والانحلال ، ويعمق الاستلاب ومحو الشخصية ، ويدفع إلى تفاقم مشكلة الهوية والعودة إلى الأصول كحل شكلي وحيد لها . إذ ليس للهوية حل بدون النجاح في الوصول إلى مشاركة إيجابية في الحضارة ، وهذا أساس ومصدر الشعور بالذاتية الفاعلة والتاريخية . وليس للوصول إلى هذه المشاركة من طريق سوى تأكيد الذاتية والهوية ، أي تحقيق الوعي بالذات والكشف عن تناقضاتها وحلها وإيجاد الصورة المطابقة أو استخراجها منها . فموضوع الهوية لا يتعلق في نظرنا بالتراث ، ولا بالحدائق ، وإنما بتحديد العلاقة مع الآخر ، ويتميز الذات عن الغير . وهذا التمييز لا قيمة له إلا إذا كان من أفق وضمن نطاق المشاركة في الحضارة القائمة . وليس الاستلاب بهذا المعنى إلا النتيجة المباشرة للتبعية وللمشاركة السلبية والاستهلاكية المحضة في الحضارة . وهذا من دواعي الشعور بالدونية ولا جدوى الذات ولا فاعليتها . لذلك فإن السؤال الأساسي الذي يستحق الطرح هو : لماذا كان هناك تحديث ولم تكن هناك نهضة ؟ فبقدر ما تنفي الحدائق الذاتية وتعتقد أن التقدم لا يسم إلا بالقضاء على التراث ، تبين النهضة أن الحضارة لا يمكن أن تكسب وتستوعب إلا بتأكيد الذاتية . إن التزاع القائم بين أنصار الهوية وأنصار العصرية يعكس إذن غياب مشروع النهضة وإمكانيتها ، وترجم هذا الغياب أي نفي متبادل لعنصرها الأساسيين ، أو لامكانية التفاعل بين التراث والحضارة . ولو كانت هناك إمكانية للتقدم الفعلي ، لاكتشف التراثي قيمة الحدائق ، واكتشف الحدائري قيمة وأهمية التراث .

إن هذا الجدال التاريخي الدائم بين القديم والحديث لا يهدف فعلاً إلى حل مشكلة الحضارة ولا الذاتية ، ولا إلى إيجاد نظرية في النهضة ، ولكنه يؤكد بالعكس غيابها وغياب الوعي النهضوي . وهو في استخدامه لمسألة التراث والحدائق كسلاح في حرب أيديولوجية - سياسية مستمرة ، يخفي في الواقع مشكلة كبرى وأساسية من مشكلات النهضة ، ألا وهي مشكلة الثقافة العربية ذاتها ، وما تتعرض له من تهديد وانقسام وتوتر وانحلال . فالتراثي يلغي هذه المشكلة برفض الاعتراف بأزمة الثقافة ، والحدائري ، يقضي عليها بالقول إن هذه الأزمة دليل

على عدم أهلية الثقافة العربية وتأكيد على ضرورة التخلي عنها . والثقافة بما هي قابلة لحل التناقضات الواقعية ، وللربط بين الخبرة الاجتماعية الماضية والمشاكل الراهنة ، هي أصل فاعلية الذات ، بل مرتكز وجودها . ولا يمكن لنفي الثقافة باسم التراث (خبرة مقطوعة عن الحاضر) أو باسم الحضارة (معطى جديد لا وسيلة لاستيعابه) أن يعني إلا نفي الذاتية ، أي الإرادة الحرة المبادرة والتاريخية . ومن هنا كانت ملاقات الذات بداية كل حركة .

فالنهضة لا تتحقق بدون ذاتية حرة ومتحررة ، أكيدة وواثقة من قوتها ومن هنا كان حل مشكلة الثقافة هو المسألة الأولى من مسائل النهضة . وتتضمن مسألة الثقافة عنصرين : موقفنا من الثقافة العربية ، ومن التراث الذي يعبر عنها ، ونظرتنا الى طريقة حسم الصراع العميق القائم فيها بين الحديث والقديم ، أو بينها وبين الثقافة الغربية أو العصرية .

III

من أحياء التراث إلى نقد العقل

تطرح الثقافة في الفكر العربي الحديث ، إما من زاوية النظر في أسبقية أو عقلانية أو نجاعة منظومة القيم التي تحملها بالمقارنة مع ثقافة أخرى ، أو من زاوية التدليل على تماشيها مع فكرة جاهزة عن قيم الحضارة والتاريخية والتقدم . وهكذا يجهد المحدثون للتدليل على أن نظام القيم النظرية التي تحكم الفكر الحديث هي الوحيدة الكفيلة بنقل العرب من التخلف إلى التقدم . ويجهد الأصوليون لبيان تطابق القيم المستمدة من الثقافة العربية مع قوانين التطور كما عرفها تاريخ العرب والمسلمين أو التاريخ الحديث . وفي الحالتين تتحول المناقشة إلى مجادلة هدفها إثبات أو نفي صلاحية هذه العقيدة أو تلك من خلال إثبات تهاافت الثقافة العربية أو الغربية وانعدام منطقتها .

وإذا كان الطرف الأول ينفي عن الثقافة عند بحثه فيها أبعادها الاجتماعية والتاريخية التي تحدثنا عنها في القسم الأول من هذا الكتاب ، حتى يستطيع أن يردّها إلى نوع من التأمل الفلسفي ويحاسبها على أساسه دون أن يدرك إلى أي مدى يقوم بمسخها وإفقارها ، فإن الطرف الثاني ، إذ يشدد على المقصد الذاتي أو القومي للثقافة الغربية المعاصرة ، يردّها إلى إيديولوجية محضة ، أي يجردها من قيمها ومقاصدها العلمية والإنسانية حتى تتحول إلى تصور عقائدي واسطوري يتنافى مع المنطق ولا يقبله العقل . ويلتقي بذلك في الواقع الطرفان في إفقار الثقافة كنظام متكامل من القواعد والقيم والمبادئ والمسلمات والمواقف والتوجهات حتى تخدم أهدافها الخاصة . ولذلك ، ليس من قبيل الصدفة أن

مسألة الصراع بين القديم والحديث ، والتراث والمعاصرة ، لم تطرح في سياقها الصحيح باعتبارها مسألة صراع تاريخي بين ثقافات تضع في مواجهة بعضهم البعض فئات ومجتمعات وسلطات مشخصة ذات مصالح وأهداف ، وتمس حياة مجموعات بشرية واسعة لها آمالها وآلامها . ولا تعبر عن نزاع بين مصطلحات علمية أو مفاهيم مجردة ، تزيد أو تنقص في دقتها ، وتعكس ماهية مجردة لشعب أو لامة .

إن دراسة التراث من خلال عزله عن مشاكل المجتمع والتاريخ ، ودراسة العقل والعقلانية بعزلها عن سياقها الثقافي ، ودراسة الدين بمعزل عن الصراع الاجتماعي والقومي ، هو شرط إخضاعهم جميعاً إلى منطق واحد . هو منطق الإيديولوجية الذي يريد أن يثبت من خلال كل ما يقوم به من تحليل عقلي صحة مقدماته ومسبقاته . فهو عندما يدرس العلم من وجهة اتساق مفاهيمه مع الدين يحكم عليه في الواقع بالتهافت قبل بدء مناقشة جدواه . وهو عندما يدرس الدين من وجهة اتساق مفاهيمه مع العلم يقضي عليه أيضاً منذ البدء ، ولا يبقى عندئذ تفسير لوجوده ، سوى تخلف عقل الإنسان وقصوره المنطقي أو استلابه التاريخي . وكما يصبح إلغاء العلم هو مصدر الإيمان ، يصبح إلغاء الدين هو أداة ظهور التقدم والعقل .

ينبغي علينا أن ندرك بادية ذي بدء أن هناك اندفاعاً ، وضرورة ، عند كل الشعوب التي همشها التطور الحديث ، إلى تحقيق نهضة شاملة تتيح لها الدخول في العالمية ، وتعيد إليها الشعور بالكرامة والفاعلية الإنسانية . وجوهر هذه النهضة ليس شيئاً آخر سوى المشاركة الإيجابية المادية والروحية في الإنجازات الحضارية . فطالما بقيت هذه الشعوب بعيدة عن تمثل القيم الوجدانية والإنسانية الجديدة التي أبدعتها الحضارة ، قيم الحرية الفردية والإبداع العلمي والتقنية التي تعطي اليوم لكل اجتماع بشري شرعيته ومعناه وقيمه وتاريخه ، فلنأمنها مستظل مفتقدة لاحترامها لذاتها ولشعورها بإنسانيتها العميقة..

وليس استيعاب هذه القيم ومعاصرة التجديدات الحضارية مهما فقط من حيث ما يؤدي إليه من نتائج مادية مباشرة ، كالتمية الاقتصادية ، أو القوة العسكرية ، بل هو ضروري حتى لا نتحول إلى مجتمع متحلل ونفقد أسر المدنية ومعابرها . ولعل رؤيتنا لأهميته من زاوية فائدته المادية فقط هي السبب الذي معاً من فهم أبعاد هذه العملية التاريخية واحتياجاتها ، ودفعنا إلى بلورة حدائث استهلاكية مفقرة واغترابية ، اعتقداً أنها تعفينا من بذل الجهد المستقل ، وتطوير وتنمية منظوماتنا الثقافية والروحية وإغنائها وتدعيمها . وعندما طهر التناقض قوياً بين المؤسسات التي أخذناها وبين القيم المحلية والثقافية التي ورثناها ، لم يعد أمامنا من حل سوى الاختيار بين رفض هذه المؤسسات أو التضحية بالتراث ، بل بالذات .

إن أمة لا تستطيع أن تستوعب القيم الجليلة للحضارة ، تخرج من التاريخ ، وتتفقر نحو البربرية .

ولكن ينبغي أن ندرك ، وأن نقبل ، فكرة أن التراث لا يتضمن حلولاً جاهزة ، لا كلية ولا جزئية للعصر . وهذا ينطبق على تراثنا وتراث غيرنا ، فالحلول تصوغها الجماعات في كل حقبة من التفكير في المشاكل التي تواجهها ولا تستمدّها من التراث أو من الغير . ولم تقم النهضة في الغرب أو في الشرق لأنها كانا يملكان تراثاً أفضل من غيرهما . فالنهضة هي التي تخلق بشكل ما التراث عندما تعيد تأويله وتفسره وتستوعبه ضمن إشكالياتها . وبمعنى ما ، إذا فقدت الجماعة كفاحتها من أجل إيجاد حلول جديدة لمشاكلها فقدت الحاجة إلى التراث والرجع ، وافقدت التراث قيمته أيضاً .

وهذا يعني أن علينا أن ندرك أيضاً أن مسألة النهضة ليست معلقة على مسألة العقل ولا التراث ولا الثقافة . إن لها شروطاً تاريخية واقتصادية واجتماعية متعددة . ولا تستطيع أمة أن تحقق نهضتها متى ما أرادت ذلك ، وكيفما أرادت ذلك ، وإنما لا بد أن تتوفر لها ظروف عالمية وعوامل داخلية كثيرة . ولسنا هنا في معرض دراسة مسألة النهضة العربية ، فهذا موضوع آخر ، وكما أن التراث لم يكن سبباً في تخلف العرب وتأخرهم ، فهو ليس سبباً في تقدمهم . وما كان عاملاً

من عوامل النهضة التاريخية الماضية ليس بالضرورة عاملاً في النهضة المقبلة . بيد أن النهضة الثقافية ، وهي لا تعني مطابقة الثقافة للتراث ، هي شرط أساسي من شروط النهضة العامة وعامل من عواملها . والنهضة الثقافية تعني التراث وطريقة تعاملنا مع التراث وتعني أكثر من ذلك العقل الذي يقرأ التراث كما يقرأ العصر ، والوعي الذي نملكه نحن ، جيل الأحياء عن عصرنا وواقعنا .

ونقصد بذلك ، أن من غير المنطقي ، بل من المرفوض أن نربط مسألة النهضة الثقافية بالتراث ، أو أن نوحّد هذه الثقافة مع التراث فتقول مثلاً إن ثقافتنا أو تراثنا العربي غير قادر على استيعاب الحضارة ، أو بالعكس إنه كل الحضارة . ولا يمكن لهذا أن يعني إلا أننا نعني أنفسنا من مهمة هذا الاستيعاب ونلقيناها على عاتق الأجداد .

إن تطوير هذه الثقافة ، وتطوير التراث المرتبط بها وتجاوزه ، هو بالعكس من المهمات الرئيسية التي يجب أن نطرحها على أنفسنا في موضوع النهضة . ذلك لأن ليس هناك بديل عن هذه العملية أبداً . وليس هناك أمة تستطيع أن تستوعب الحضارة وإبداعاتها الجديدة في إطار غير إطار ثقافتها . والاعتقاد أن من الممكن التخلي عن هذه الثقافة لغيرها أو الاستغناء عنها لا يعني في الواقع إلا التخلي عن النهضة ذاتها . فالنهضة ليست بالأساس إلا التقريب بين عالمين متناقضين ومختلفين ، عالم الثقافة المحلية ، وعالم الحضارة . وهذا التقريب لا يتحقق بنفي أحد القطبين ولا بالاحتياال على تناقضهما كما سوف نرى ، وإنما بإبداع حلول جديدة^(١) . وهنا يكمن الدور الأساسي والاستثنائي للعقل والوعي العقلي .

بل يمكن القول أن غياب الثقافة الخاصة والذاتية يحرم الجماعة من مجرد التفكير بضرورة النهضة والاستيعاب . كما يحرمها من الأداة والأطر الضرورية لذلك . ومن هنا فإن الأمم التي تتمتع بثقافات تاريخية حضارية قوية هي وحدها التي حاولت في هذا العصر ، ونجحت ، في أن تقبل تحدي الحضارة ، وأن تعيد

(١) لذلك نقول إن أعمال حسن حنفي أو محمد خلف الله ، أو حسين مروّة أو طيب يتريني بقيت محاولة لاستهلاك التراث من قبل ايدولوجية ثورية ، تقديمية قومية أو ماركسية ، ولم تضاف في نظرنا شيئاً .

توطئتها في بلدانها وتضيف إليها . وهذا ينطبق على الصين والهند وروسيا ، كما ينطبق على العرب الذين رفضوا وما زالوا يرفضون الاستسلام لآلية السيطرة الأجنبية والانحلال فيها . ونحن نعتقد أن وجود هذه الثقافات المستقلة والتميزة ، يشكل بالنسبة لهذه الجماعة ، ولل البشرية أيضاً ، الأداة الرئيسية والرأس مال الأول لتعميم الحضارة وتطويرها ، والفرصة التاريخية لها . والتراث الذي هو نواة الثقافة هو أيضاً خمرة كل نهضة في كل وقت .

إذن ، القول أن ثقافتنا متخلفة أو لاعقلانية أو لاعلمية أو جامدة أو فقيرة ، ولا حلّ لنا إلا بمكافحتها كما تكافح العامة ، أو ببيترها كما يبيتر العضو المريض ، لا معنى له ، وهو ، كما ذكرنا ، من قبيل رفض الذات والاستقالة الوطنية المعنوية التي تعبر عن نجاح الهيمنة الأجنبية في إشعارنا أو إقناعنا بدونيتنا ولا معقولة وجودنا ، لمضمنا كعنصر ومواد أولية خام ، وإغلاق كل أمل أمامنا بالتقدم العقلي وبالمدينة . أما القول بأننا لم نقم بما يجب أو بما فيه الكفاية حتى نطور ثقافتنا ونغنيها في كل جوانبها ونظمها العلمية والفكرية والأدبية والفنية ، حتى تصبح ثقافة معاصرة ، أي إبداعية ، فهو صحيح .

فبقدر ما تطرح الحداثة نفسها كاختيار بين التقدم وبين التراث الذي يرمز لوحدة الجماعة واستمرارها ، فإنها تقوي نزعة العداة لها . وتخلق داخل المجتمع صراعاً لا حل له بين أصحاب التقدم وأنصاره ، وأصحاب المحافظة . وتربط التقدم بالعدمية الثقافية ، والمحافظة بالعدمية الحضارية . وكلاهما يفقد في نظرنا إلى موقف تدميري . وليس أدل على ذلك ما رأيناه في إيديولوجية الحداثة من نفى لقيم المدنية الأخلاقية والجمالية باسم علمية زائفة استهلاكية . وما رأيناه من رفض لكل حضارة ، خارجية أو محلية تاريخية بالنسبة لإيديولوجية أصولية قائمة على التضحية بالذات والتراث الفعلي ، من أجل شعائرية مفكرة وطقوسية . (من ذلك مثلاً رفض بعض التيارات الأصولية المتطرفة الصلاة في المساجد التاريخية ، لأنها تحتوي على قيم فنية تعمق الاتصال المباشر بين العبد وخالفه ، وتفضيلها عليها قاعات عصرية خالية من كل أثر للفن أو للجمالية) .

وهذا يدعونا إلى القول ، بأن المشكلة ، بعكس ما يقال حتى الآن ، لا تكمن في الحضارة ، ولا في التراث ، وإنما تكمن في النظام الثقافي الذي طورناه نحن في القرون الحديثة من أجل استيعاب هذه الحضارة وهذا التراث . إنها تكمن في فاعليتنا ، أو بالأحرى لا فاعليتنا الثقافية والعقلية الحديثة . فلم يكن تراث أسلافنا البدوي أغنى أو أعظم قيمة من تراث الجماعات الكبرى التي كانت تحيط بهم ، ولم تكن حضارات هاتيك الجماعات أقل قوة وتنوعاً مما يحيط بها اليوم بالمقارنة مع البداوة . ومع ذلك فقد تمكنوا من هضم حضارات عصرهم .

إن المشكلة تكمن إذن في الحدثة الثقافية ذاتها . والحدثة لا تعني الحضارة بشكل عام ، وإنما تعني العقل الذي وجهنا إلى أخذ ما أخذناه ونأخذه من هذه الحضارة ، أو إلى ما اعتبرناه حتى الآن أساساً لخروجنا من الرضعية الدونية التي وضعنا فيها صعود الغرب إلى مركز العالمية . بل إن تفكيرك ثقافتنا وإفقارها ليس هو ذاته إلا ثمرة لهذه الحدثة ونتيجة لها .

وإذا تحولت الثقافة القديمة أو تحول التراث إلى عنصر مقاومة للعصرنة ، فذلك لأن الحدثة كانت وما زالت تعني التبعية المادية والاستلاب الروحي والثقافي ، والشقاق الاجتماعي وتكوين مجتمع حديث مرتبط بالخارج ومعادي للمجتمع المحلي . أي لأنها كانت وما زالت اغتراباً تاريخياً حقيقياً وتراجعاً وتحللاً للذات العربية .

هكذا ينبغي الخروج من نقد التراث وتكييفه أو تحويله إلى نقد العقل ، عقل الحدثة وفكرها ، حتى نفهم لماذا تحولت الثقافة إلى تراث ، وكادت تتحول إلى ركام ، غير قادرة على تحقيق وظائفها الأساسية في المجتمع . ولماذا أصبحت هي نفسها عقبة أمام المعاصرة ، وأمام الحضارة . وعندئذ لن يعود للسؤال : هل تقدر الثقافة العربية (والمقصود بالسؤال ضمناً التراث) على استيعاب الحضارة ؟ أي معنى ، ويصبح السؤال المعقول والصحيح هو هل نستطيع أن نستوعب نحن الحضارة من أفق ثقافتنا ؟ وهل نستطيع أن نتحضر ونبقى أنفسنا ، نبقى ذاتاً فاعلة في الحضارة ، وكياناً يؤثر فيها بقدر ما يتأثر منها . عندئذ يكون سؤالنا :

لذا أحقق العقل الحديث ، عقلنا الحي ، في تحقيق النهضة الثقافية وتكون المحاسبة للعقل لا للتراث . فكما أنه من اللاعقلاني أن نقرر إخفاق تجارب التنمية الاقتصادية وحركة التصنيع بوجود الزراعة أو الاقتصاد الزراعي التجاري القديم ، فمن اللامعقول أيضاً أن نقرر إخفاق التنمية الثقافية والتحرر الفكري بإلقاء التهمة على التراث . لكن كما أن إخفاق التصنيع نتج في جزء رئيسي منه عن الاستهتار بالزراعة ، فإن إخفاق التحرر العقلي قد نجم عن إهمال قطاعات الثقافة الكبرى والأساسية لصالح ما سميناه بالتعليم العقلاني والعلمي . وفي الواقع المسؤولية هنا وهناك هي مسؤولية العقل والفكر المنظر والموجه للتغيير .

لذلك نحن نقول : حان الوقت للانتقال من تهديم التراث إلى محاسبة العقل . والعقل ليس التراث وليس الثقافة . إنه نظام تفكيرنا الراهن ، ونظرياتنا واستراتيجياتنا التي تحدد غايات وأهدافاً جماعية في الثقافة والاجتماع معاً . ومحاسبة العقل تعني محاسبة أنفسنا ، جيل المتعلمين الذي أخذ على عاتقه مهمة النهضة والتحرر العقلي . أما محاسبة التراث ، فهي محاسبة لأسلاف لم يدركوا عصرنا ، ولا كان بمقدورهم أن يفهموه ويتركوا لنا في تراثهم الحلول التي نحتاجها لمواجهة مشاكلنا الراهنة ، وما كان عليهم أن يفعلوا ذلك .

وعندما نقول : حان الوقت للانتقال من نقد التراث إلى نقد العقل ، فنحن نقصد أيضاً أن العقل هو نحن ، لا بمعنى أننا وحدنا العقلانيون ، ولكن بمعنى أننا الوحيدون الذين ما زال بإمكاننا أن نفكر ، أي أن نحكم العقل لأننا أحياء ، أما التراث فلا يستطيع ذلك . وليس الذين يدعون للتراث من التراث ، أي جزءاً منه . فخطاب التراث ليس التراث ، إنما هو إيديولوجية يعتقده أصحابها أنها تقرهم من الشعب ، وهو ليس أيضاً خطاب الشعب . كل خطاب هو خطاب مثقفين .

ولست المسألة إذن بالسبة للعقل هي الرد على هذا الخطاب فهو سهل ،
رغم أنه مستحيل الاقناع . السؤال الذي يطرحه العقل النقدي هو لماذا تحول
التراث في ذهن البعض إلى عقيدة سلبية وتدميرية لم تحتفظ منه إلا بأمور العقوبات
والمنع والتحریم ، ونسيت جوانبه العقلية والإيجابية والمثرية ؟ ولماذا يصبح لهذا
الخطاب صدى في الأوساط الشعبية أو المثقفة ؟ ولا يجب أن يعمينا هذا الخطاب
عن حقيقة التراث والتعامل معه ، فنقع في فخ الذين يريدون أن يماهوا أنفسهم
مع التراث ، فلا نرى منه إلا ما يريدون لنا أن نرى فيه ، ولا ندركه إلا في البعد
السياسي الذي يستخدمونه به ونسي أبعاده الثقافية .

III

الإبداع الثقافي

هذا يعني أن المسألة الرئيسية هي النهضة الثقافية . فهل هي تحديث التراث أم تجديده أم هي تحديث العقل ، أم هي شيء آخر ؟ وكيف يحصل هذا وذاك ؟ أي هل للتحويل الثقافي قواعد « وقوانين » يمكن رصدها ؟

في الواقع ليس هناك خلاف بين من يقول بتحديث التراث أو تحديث العقل ، فكلاهما يرى أن المشكلة قائمة بين جوهر قديم متأخر ، وبين جوهر حديث . وإذا تحدث بعضهم عن العقل العربي فذلك كي يبين أنه استمرار للتراث . وهو إذن مجرد تبديل في الألفاظ .

وليس هناك خلاف أيضاً بين المحدثين حول فهم غاية التحديث ومضمونه ، ولو كان بينهم خلاف حول طرائق هذا التحديث ، أو حول أفضل السبل للوصول إليه . وينادي التراثيون الجدد بفكرة مفادها أن تحديث العقل العربي يبدأ من تأويل التراث بما يتفق مع الفكر العلمي أو العصري ، بينما يصرّ غيرهم على اعتبار هذا العمل قليل الفائدة ولا جدوى منه . وفي جميع الحالات ، يعتقد المحدثون أن سبب « تخلف » أو لاعقلانية العقل العربي كامن في التبرّك وفي الارتباط المستمر لهذا العقل بمنبعه الأصلي . وهم بهذا ينكرون قدرة العقل على تجاوز شرطه الثقافي والتراثي ، أي قيمته الأساسية في الإبداع والوعي المتجدد الناجمين عن التقرب المباشر من الواقع . إنهم يقصرونه على اللاوعي . على الترداد والتقليد . ويودون في الحقيقة أن يستبدلوا تقليداً عقلياً (بالياً) بتقليد

عقلي حديث ، أو عقلية عربية « متأخرة » بعقلية جديدة متقدمة وهذا يخفي كما ذكرنا ، إغناءهم للثقافة كصعيد مستقل ولدورها الخاص . إنهم يتحدثون عن التراث وعن الحضارة ، ولكنهم يتجاهلون العقل .

ومن هذه النظرة ظهرت نظرية التكيف ، أو تكيف تراثنا « وثقافتنا » . وحياتنا العربية عموماً ، مع معطيات العصر ، أي جعلها مماثلة لها ، أو قريبة في مظاهرها أولاً ، وفي وظائفها إذا أمكن ذلك ثانياً ، من حياة المجتمعات العصرية . ويعني التكيف هذا أو يفترض أن الأنماط التي نريد أن نقلدها أو نحاكها أنماط ثابتة ونهائية وكونية ، وأن كل المجتمعات تستطيع أن تجد حلولاً لمشاكلها لدى المجتمعات السائدة . ويكفي من أجل ذلك أن تقرب ما بين أنماطها التراثية التي تعتقد أيضاً أنها راسخة وثابتة ونهائية مع الأنماط الجديدة . فالتكيف هو أيضاً تطعيم لمعطيات محلية وعالمية موجودة . وعكسه هو الإبداع . فالإبداع يعني أن لكل مشكلة جديدة حلولاً جديدة . وأن الثقافة قادرة على تقديم هذه الحلول . وأن هذه الحلول ليست موجودة مسبقاً لا في التراث ولا في الحداثة أو العصر . وإنما لابد من اختراعها حسب المعطيات والظروف الجديدة . الإبداع يعني أن المستقبل ليس قائماً في الماضي ، أي فيما تم إنجازه في الشرق القديم أو في الغرب الحديث ، وإنما فيما ينطوي عليه العقل وتنطوي عليه الثقافة من قدرات وإمكانات إبداعية .

يفتضي التكيف ، سواء أكان تأويلاً للتراث أو تحديثاً « للعقل » ، طمس أو بتر - حسب الأسلوب المتبع - كل ما يمكن أن يعيق وجود الانسجام والتناغم بين البنيات المحلية والبنيات العصرية . ومن الطبيعي أن أول من يمس الموضوع في ذلك هي المنظومات الاعتقادية والرمزية والشعورية العميقة التي تمثل جوهر الثقافة ولحيرتها . إذ أن المنظومة العلمية القديمة تبطل من تلقاء نفسها ولا تجد من يدافع عنها . وقد تكون التغطية على هذا الطمس أو البتر نفى الشرعية العقلية عن هذه المنظومات نفسها كما رأينا ، واعتبارها لا قيمة لها ، أو أنها من آثار التخلف والتأخر .

وحتى يتحقق الانسجام ليس من الضروري أن يحصل التماثل في الوظائف
نما يعتقد البعض بل العكس هو الصحيح . إذ ليس المقصود في الواقع إلا
التأقلم مع وضع وعصر لا سيطرة للمجتمعات النامية عليه وليس لهم فيه أي
دور إبداعي بعد . فهو بالضرورة تكيف الضعيف مع القوي ، أي القبول بما
يليه عليه ، وبالوظيفة الثانوية التي يقدمها له في مجموع النظام . ويعني ذلك في
الواقع الخضوع والتبعية من جهة ومسح الشخصية الخاصة بما يتفق مع حاجات
التأقلم من جهة ثانية . إذ أن بقاء المظالم والنّدى ، يثير النزاع والصراع ويلغي
إمكانية الانسجام والتكيف . وقدرة الإنسان على التكيف ليست مرتبطة بقوة وعيه
وإرادته ، بل بالعكس هي ثمرة التسليم للآخر ، وقابلية محو الذاتية والإرادة
المستقلة ، والتخلي عن المظالم الفردية . وهي نتيجة التراجع نحو دينامية تفهقية
وركودية يقبل فيها الإنسان بالأمر الواقع ويكيف حاجاته حسب الإمكانيات
المتوفرة . أما الإبداع فله يعبر عن رفض لشروط هذا التكيف وللوظائف الثانوية
التي تناط بالمجتمعات النامية ولتحويلها في مجال الاقتصاد ، كما في مجال السياسة
والثقافة إلى مورد للمواد الأولية المادية والبشرية ، وإلى يلحق في لعبة الصراع
الدولية .

باختصار يعني التكيف القبول بالوضع القائم ، والاعتراف بشرعيته ،
والنظر إليه كأمر طبيعي ونهائي ، وبالتالي الخضوع له ومحاولة التأقلم معه
والحصول على شيء ما منه . وهذا هو منحنى سياستنا الراهنة ومصدر التراجع
والتهقرماً .

وفي الواقع إن هذا التكيف هو شرط البقاء الأدنى . لأن رفض التكيف
يعني الثورة على الوضع القائم أو ، إذا لم يمكن ذلك ، الخروج الكلي منه
والموت . فشرط حصول الحكومات النامية على القروض الضريبية لسد رمق
كانها هو الخضوع لسياسات أسوأها .

يعتمد التكيف على قوة الغريزة ، أي غريزة البقاء ، ويعتمد دائماً
استراتيجية الضعيف في مقابل القوي ، وسعيه إلى توفير مكان له في نظام العام .
وينتهي التكيف ذكاء الحيلة والتعايل والبهلوانية والقهلوية ، لأنه يستند على

استغلال ثغرات صغيرة في النظام الموجود فيه والاستفادة منها ، وتوسيعها حسب الظروف إذا أمكن ذلك . فهامش حركته ومبادرته ضيق إلى أبعد الحدود .

والبقاء مرتبط فيه باستغلال الفرص المناسبة والقفز عليها ، وليس من الممكن أن يكون فيه مكان للتمسك بمبادئ ثابتة أو قيم دائمة ومقدسة . بل إنه يتناقض مع الاحتفاظ بقيم ومبادئ . لأن الأمر الواقع هو الذي يحكمه في النهاية ويتحكم به . إن نموذج هو التكتكة والبراغماتية المطلقة التي تقي الضعيف من الانسحاق بين القوى الكبرى المتحكمة به .

أما التغيير فإنه يفترض رفض الأمر الواقع ويستفز العقل ويعتمد عليه ، لأنه يهدف إلى تغيير النظام ويتطلب إبداع حلول جديدة تعيد تركيب الواقع . ولا يتحقق الإبداع إذن إلا مع بقاء جذوة الصراع والتناقض حية بين الأطراف المتنازعة ، ومع وجود الشعور بالندية ، وبالقدرة على مقاومة آليات السيطرة والخضوع . وهو يعني عدم القناعة بهذا النظام وبما يقدمه من تعويضات ثانوية وجزئية ، وبطمح إلى إعادة تركيب هذا النظام بما يمكن من التحول إلى قطب فيه . فمن رفض التكيف مع التقسيم الاستعماري والنظام الاستعماري ، ورفض الخضوع لهما ، ولدت البقطة العقلية والروحية العربية في نهاية القرن الماضي . ومن الثورة ضدهما ، والأمل والإيمان بإمكانية نهضة عربية جديدة ، ولدت فكرة القومية العربية ، وهي فكرة جديدة ومبدعة لم تكن في نظرنا مكتوبة في سجل الفكر الإسلامي السائد في تلك الحقبة ، ولا في سجل الفكر الاستعماري . بل كانت تشكل حلاً أصيلاً أو نموذجاً لحل يتجاوز معطيات الوضع القائم ويفترض تغييرها . وإذا أردنا أن نبين الفرق بين التكيف والإبداع ، بين الغريزة والعقل ، بين الخضوع وإرادة التغيير ، يكفي أن نقارن بين سياسة الانفتاح ، وبين السياسة القومية . الأولى تطمح إلى حفظ البقاء من خلال التعاون مع القوة الأكبر ، والثانية تحاول ، من خلال تغييرها لشروط النظام الدولي وتوزيع القوى ، أن تصبح مركزاً للحضارة ومنبعاً إضافياً لها . الأولى تجهد من أجل طمس التناقض أو إلغائه بين العرب والغرب الصناعي ، أي بين الذاتية والهوية المحلية من جهة والعالمية من جهة ثانية ، على حساب مسح الذات طبعاً ، والثانية تتغذى من

شحن العاطفة القومية وإبراز عمو التناقض بين المصالح الغربية والمصالح العربية . الأولى نسلم الشركات المتعددة الجنسيات كي تخرجها من التهافت الاقتصادي . والثانية سدل جهوداً عقلية ومادية وسياسية كبرى حتى تكتشف وتخرج طريقاً جديداً للتصنيع والإدارة .

الكيف يعني إذن ، في الثقافة والسياسة والاقتصاد ، التسليم بما هو كائن ، اعتبار التاريخ سردد نفسه ، والأنماط والنماذج التاريخية ثابتة وأبدية ، يجب تعالها ، وأخذ الحلول الجاهزة التي طورها الغرب أو التراث ، والإبداع يعني ان ليس في الغرب ولا في التراث حلول جاهزة ، لأن كل الحلول هي ثمرة مشاغل . ظروف وأوضاع وموازين قوى اجتماعية وتاريخية وما يصلح لجماعة أو لعصر لا يصلح لغيرها . وأن لكل زمان حلوله التي يستطيع العقل ان يخترعها . وأن بالإمكان دائماً إيجاد حلول جديدة وأصيلة . ولهذا فإن الإبداع يفترض الإيمان بالعقل المبدع الذي لا يشكل تردداً للحاضر أو الماضي ، والذي يقوم خارجهما ويرفض التقليد . ومن هنا إن غياب هذا العقل هو نتيجة مباشرة للأخذ بسياسة التكيف التي تفترض كما ذكرنا تنمية الغريزة التحايلية ، ولا ينبع لا من تخلف التراث ، ولا من فساد الحضارة والعلم .

لقد ارتبطت فكرة العقلانية في العالم العربي بتحديث العقل أو تحديث التراث . وكان المطلوب في الحالتين هو في الحقيقة ، إلغاء العقل والثقافة ، أي إلغاء إمكانية وفكرة الإبداع والجدد ، وتكييف الثقافة العربية الحديثة والقديمة أكثر ما يمكن مع قيم ونماذج وأنماط الثقافة الغربية العصرية . ولذلك كان الهدف وما زال هو إلغاء هذا التناقض العميق داخل الثقافة العربية بين الأنا والآخر بين الذاتية والعالمية ، فهو تناقض معذب ومثير للتزاع وللقلق الدائم . ولا يعني إلغاؤه تجاوزه ، بل القضاء عليه ، إما عن طريق تحويل العقل العربي إلى عقل غربي حديث ، أو بتحويل العقل الغربي إلى عقل عربي وإظهار قرابته العميقة له . وثمره هذا القضاء ما زالت ظاهرة : اغتراب العقل وانتعاش عقل الاغتراب .

ومن هنا فإن النقاش الدائر منذ سنوات حول تأصيل الوافد وتحديث الموروث جعل همه الأول التوصل الى اتفاق أو توافق ما بين العنصرين . أي بين التراث والغرب ، فنفي ال نحن أو جعلها خفية . ألغى الذات ودورها أو عبر

عن غيابها ونتج عن ذلك محاولات لا تحصى لاعادة تأويل التراث العربي أو الاسلامي على ضوء العصر ، أي نرحمته نرحمه عصرية كثيراً ما تعني الاحتيال عليه ، أو تقريب تراث العرب من الشرق ، وإظهاره بمظهر التراث العالمي والمشارك وعيب هذه المحاولات والنظرية بأكملها أنها تعتقد أنه لمجرد أن حصل التقارب في عقل هذا الباحث أو ذاك بين مفاهيم الاسلام ومفاهيم العصر أو العلمانية فلا بد أن يزول التناقض الفعلي والواقعي بين مطلب الداتية ومطلب الحضارة ، وبذلك يمكن للنهضة التي لم تتحقق بالفعل أن تتحقق بالدهس . لكن مصالحة العربي مع الحضارة ، تستدعي أن يصبح هو نفسه عملياً مركزاً للحضارة ، وفاعلاً مستقلاً وحقيقياً فيها .

وفي الواقع لا يهدف هذا التوفيق الشكلي إلا إلى القفز على مسألة النهضة وتغيبها ، وإلى استبدالها بحداثة هي كما قلنا انحراط في دائرة التعريب والتعبئة والتقليد . ولأنه لا بد لهذه الحداثة من شرعية محلية ، ومن إضعاف للمقاومة التي تواجهها ، كان من الضروري إظهارها بمظهر المسيرة للهوية ، بعد تحويل هذه الهوية إلى تراثية ونزع الارادة الذاتية عنها .

بل إننا نعتقد أن التوفيقية هي النظرية التحديثية الوحيدة المنطقية مع نفسها ، والتي تستطيع لذلك أن تأتي بشمار فعلية على مستوى تكوين التيارات الايديولوجية السائدة الحديثة والتأثير على الرأي العام فهي الغطاء النظري لمسار التكيف والاندماج ، وهو الطريق الوحيدة السهلة والسالكة . وبالمقابل تبقى الحركات الحداثية المتطرفة معزولة ضمن حلقات صغيرة وهي لباسها تقبل بأن تحتل دور المبشر والداعية في البرية مؤملة أن تأتي اللحظة التي سيدرك فيها الرأي العام صحة أفكارها ومنطلقاتها . وبانتظار ذلك ، تحاول أن تبرهن على لاعقلانية هذا الرأي وتخلفه ومناهضته للقيم العصرية والعلمية . وكأنها تعتقد أن بإظهارها هذه اللاعقلانية في فكر الطرف المناوئ قد وضعت حاجزاً أمام تقدمه السياسي أو الاجتماعي . متجاهلة أن . لاعقلانيته ، هذه ، أي عدم توافق قيمه الفكرية والاجتماعية مع قيم الثقافة العصرية السائدة هي مصدر نموه ومبرر وجوده . إنها في الواقع تدرك في صميم تفكيرها ، أنها تقوم بدور الشاهد ونقول في نفسها

اللهم قد بلغت أي لا تسمع إلى القيام بأكثر من نبرته دمتها وكلها بنيت من إمكانية التعبير زاد اندفاعها إلى موقف متطرف يغطي في الواقع استنفالها الاجتماعية^(١) أما التيار التوفيقي فهو يبقى الأكثر ميلا إلى الالتزام والتداول

ويشترك الطرفان في جعل التراث محور عملهم واهتمامهم ، إما لرفضه مطلقا وإظهار عيوبه ، وإما لاصلاحه وإظهار نقاطه الايجابية ودعجها بالتجربة العصرية . ورغم اختلاف الوسائل والنوايا ، وهي مهمة ، فإن الاهداف واحدة : أي تحقيق الحداثة والتمكين لها في المجتمع العربي . والطريقة أو الاستراتيجية واحدة أيضا وهي تحويل الثقافة ، بل الجماعة ، وتحويلها أو تغييرها من خلال تغيير المفاهيم وإعادة صياغتها ، أو تغيير العقول .

ولأن الثقافة فقدت مكانتها ووظائفها الاجتماعية وقيمتها الذاتية وأصالتها ، ساد الايمان بأن من السهل ومن البسيط أن تنتزع عن شعب ثقافته متى ما أصبحت قديمة أو لأنها قديمة . ومن هذا الايمان تصدر النظرية الارادية في التحول الثقافي التي تعتقد أن بإمكان النخبة الاجتماعية ، متى ما توفر لها ما يكفي من العلم والوعي العلمي ، أن تقوم بهذا التحويل . ونتج عن ذلك سياسات ثقافية قائمة على تنشئة جيل العلماء أو على تكوين نخبة متعلمة ، يكفي لها أن تستوعب العلم حتى تقوم بث روح ثقافة جديدة في جسم الأمة الجامد وفي عقلها الخرافي والأسطوري . أصبحت الثقافة أفكاراً ومفاهيم ، وأصبحت الأفكار جواهر أو أصناماً تعيش بنفسها ولنفسها ، ويؤدي تراكمها بالضرورة الى نشوء التقدم الفكري . هكذا يعتقد الكتاب والمحللون الذين يحصون الأفكار الجديدة الوافدة والداخلية الى دائرة الثقافة العربية ، أن ظهور فكرة الوطنية يعني نشوء الدولة القومية ، ودخول فكرة العقل نشوء العقلانية ودخول فكرة العلم نشوء العلم والعلمانية . وبمعنى آخر ، ورغم كل ما عشناه ، ما زلنا ننكر الدينامية الخاصة والداخلية للثقافة ، ونجهل قوانين تحولها

ليس التحديث العقلي بهذا المعنى إذن إلا حلاً شكلياً للمشكلة ، حلاً يقوم

(١) انظر مثلاً مقال فؤاد زكريا . مستقبل لاصوبه الاسلاميه . . فكر ع ١٩٨٤/٤

على إلغائها وحذفها . أي حذف الوعي بها إنه يقوم على الاعتقاد بأنه إذا نجحنا في أن نبني مؤسسات مشابهة للمؤسسات العلمية والثقافية الغربية وفي أن نعبر أفكارنا وقيمنا وطريقة بحثنا بالصيغة العلمية ، وصلنا إلى الحضارة ودخلنا في المعاصرة . أي أصبح لدينا قيم وفكر وعلم مماثل لعلم الغرب وقيمه . وأصبحنا بالتالي منحصرين أو أصحاب حضارة ، وحرمان من دائرة الهامشيه وانعدام الفعل .

ليست هذه إلا مسألة مصطنعة في نظرنا وشكلية ولا قيمة لها . إذ أن النهضة الثقافية والفكرية ليست مرتبطة بمماثلة أو مشاكلة الغرب ، ولا تعني التوصل الى تحقيق نفس الوظائف الاجتماعية أو الثقافية . بل نحن نعتقد أن هذه المماثلة هي السبب في إخفاق العقل العربي الحديث وفشل النهضة الثقافية

إن هدف التحول الثقافي ، أو النهضة الفكرية ، هو بالعكس إيجاد الشروط الملائمة للإنسان حتى يستطيع أن يجد حلولاً جديدة وأصليه للمشكلات المطروحة عليه . وهذه المشكلات ليست أبدأ هي مشكلات المجتمعات الغربية والثقافة الحية هي الثقافة القادرة على إبداع حلول جديدة لأوضاع جديدة . أما الثقافة التي تعجز عن إبداع مثل هذه الحلول فهي الثقافة التكرارية الميتة التي تصطر إلى ترك مكانها لغيرها بقدر ما تفقد قيمتها الإبداعية . فهي لا تستطيع أن تقوم بوظائفها الأساسية عن طريق نقل حلول جاهزة أو تكرارها . وكلما تماثلت البنيات الثقافية العربية مع البنيات الثقافية الغربية وحاكتها ، أصبحت بالضرورة أقل قدرة على إدراك خصوصيات مجتمعاتها ، وفقدت بالتالي قدراتها الإبداعية ومسرر وجودها .

وقد دلت تجربة التحديث العقلي ، وهي تجربة طويلة الآن وأساسية في العالم العربي ، على أن دخول قيم ومفاهيم فكرية جديدة وعصرية لا يعني بالضرورة نشوء ثقافة عصرية مدعة أو معاصرة ولا نشوء ثقافة قادرة على تحقيق الاستقلالية الذاتية والرضى عن النفس . بل إن هذه القيم والأفكار قد أدت في

كثير من الاحيان الى صرب الوظائف الاساسية للثقافة ، وكان مصيرها في الوقت نفسه رفض جزء من المجتمع لها ، أو إعادة تأويلها وتوظيفها من قبل الجزء الآخر لتدعيم قيم استيعادية واستبدادية قديمة . ومن ثم إلغاء جذورها .

لقد أصبحت ثقافتنا عصرية ، أي قلّدت في فروعها ومنتجاتها الثقافة السائدة ، لكنها ، وربما لهذا السبب بالذات لم تصبح معاصرة . تماماً كما أن نقل التكنولوجيا لم يجعلنا مبدعين لتكنولوجيا جديدة . لقد أقمصا في كل البلاد العربية أنظمة تعليمية عظيمة ومكلفة لكننا ، جعلناها عربياً لنخبة اجتماعية تستخدمها من أجل تحسين أوضاعها بالمقارنة مع جماعة شعبية بقيت من غالبيتها العظمى أمية . وقدمنا للمتعلمين معلومات مفككة ومنقطعة عن الواقع ، وحولنا المدرسة إلى جهاز نضال اجتماعي وسياسي ودعاية للقوة السائدة في الحكم أو المعارضة ، في الوقت الذي حرّمنا فيه المتعلمين من كل وسيلة أو فرصة للتفكير الجذوي بالواقع السياسي والاجتماعي . فلم يعد نظاماً لإنتاج العلم وتطوير المعرفة ، بل أصبح وسيلة لتحقيق الصعود الاجتماعي الفردي والجماعي . وصارت وظيفته مناقضة بالكامل لهدف الثقافة الذي هو تمكين الفرد ، بغض النظر عن وضعه الاجتماعي ، أو بتجاوز وضعه ، من الاستفادة من المعارف الموضوعية المتوفرة ، للسيطرة على نفسه وعلى بيئته . فبقي يخضع لهما بسلبية وبعطالة لا يعوضهما إلا الاندفاع وراء المنفعة المباشرة وبأي ثمن .

وأقمنا نظاماً ثقافياً جوهره المراقبة والمحاصرة والعزل والخطر في كل الميادين والمجالات ، ومنع التواصل والتبادل بين الأفراد والجماعات خوفاً مما يمكن أن يبعثه هذا التواصل من شعور بالقوة الجماعية وبالتضامن ، وما يخلق من آمال ومطالب اجتماعية ، وطموحات مدنية وحضارية . حتى لم يعد الكلام ممكناً إلا بالثانويات وبالتفاهات . أما مسائل الحياة الكبرى فهي من اختصاص الآخرين ومن الميادين المحرمة على التداول .

وطورنا مع الزمن نظام قيم أخلاقية وإسكانية مستقفاً من خبرة الظلم والاضطهاد ، قائماً على الامثال والطاعة والانصياع . مغيب المسؤولية الفردية والتسليم للأقوى ، فنشأ الخوف من المبادرة ، وزاد من النقدية ، وانتفى أي

إبداع . بل أصبح ضمان سير هذا النظام وتجديده يقتضي معاقبة المبدع أو طرده أو نفيه لأنه يثير البلبلة والشك ويهدد عقلية ونفسية القطيع الضرورية لبقاء النظام الاجتماعي التمييزي .

واحتقرنا الأدب والفنون والنشاطات الشعبية الروحية والرمزية التي تسمح للفرد بالتماهي مع الجماعة ، واعتبرناها بائدة وخرافية ومتخلفة . فلم يبق له إلا أن يتماهى في إطار الرمزية الدينية أو أن يتمثل مع الغرب وثقافته المحلية الاستهلاكية . وأصبحنا بعد ذلك نحارب هذا وذاك باسم التحرر ومنع الاستلاب .

نعني النهضة الثقافية الايمان بقدرة الوعي الانساني على إدراك الواقع بحرية وابداعية ، واستيعابه بما فيه من تراث وجدة في الوقت نفسه ، أي بقدرة على الارتفاع فوق الحداثة والتراث ، فوق الايديولوجيات ، وفوق التقاليد من أي نوع . وإذا كان هذا الوعي مستحيلاً فليس هناك أية إمكانية للتغيير ولا التجديد . إذ أن الحياة الاجتماعية لن تكون إلا تكراراً واجتراراً لغيرها أو لنفسها . وهذا ينفي واقع التجديد والتطور الحضاري والتاريخي . فالوعي قادر على الابداع . لذلك من الممكن النقد وتصحيح الخطأ . ومن الممكن التغيير .

يبد أن هذا الابداع يقتضي انتزاع الثقافة من الموقع الذي وضعت فيه وأفقدها كيائها ودورها ، وحولها إلى ستار للصراع بين تيارات سياسية ليس لها أية علاقة مع الثقافة إلا الاستخدام المصلحي والرمزي لها وتوظيفها كراسمال ميت في حرب هي أولى ضحاياها . وليس إلغاء مكانة الثقافة المستقلة كما قلنا إلا انعكاساً لالغاء الذات والوعي ودوره الفاعل والابداعي ، حتى لم يعد لها أي وجود خارج التراث بما هو خبرة قديمة جاهزة وكاملة ، وبين الحداثة بما هي خبرة حديثة عالمية جاهزة وكاملة أيضاً . وهكذا تمزقت الذات الحضارية أيضاً وصنعت سير نداء الماضي الذي يعدها بهوية ثابتة . وفتنة الحداثة التي تغيب بحضارة عاجزة لا تتنظر إلا من يأتي ليأخذها أو لينهل منها . ولم يعد من الممكن للذات أن تكون ذاتها إلا إذا نفت نفسها

في التراث أو استقلت من ذاتها واندمجت دون تفكير في الحادثة . وفي الحالتين ، يصبح تحلي العربي عن نفسه ، عن التفكير بالحاضر ، عن الكشف عن التناقضات فيه عن تغيير الواقع فعلياً ، هو شرط تحقيقه لذاته . ولا بد أن يكون هذا التحقيق وهمياً ، ويكون التعبير عنه صبغ الماضي بصبغة الحادثة أو صبغ الحادثة بصبغة الماضي .

من هنا نقول إن وجود الذات العربية ما زال وجوداً سلبياً لأنه يقوم على نفي للعلاقة الاصلية الوحيدة التي تكون تاريخيتها ، وتشكل التحدي الأساسي بالنسبة لها ، وفسحة الابداع الوحيدة التي تدعوها للعمل والمبادرة والتجديد والتجاوز ، ونعني بها العلاقة المتناقضة والمتصارعة التي تكونها كذات قديمة وحديثة في الوقت نفسه . أي كتمسك بالهوية وطموح الى العالمية . فما دام تحقيق الهوية يعني بالنسبة لها الانسحاب من العالم ، وما دام تحقيق الحادثة والعالمية يتناقض فيها مع تحقيق الهوية ، لن يكون أمامها أي هدف مقبول تجمع عليه ، ولا أية قدرة على الخروج من المراوحة ، ولا أي حافز على الحركة .

ولا يمكن لها أن تناس كذات فاعلة وإيجابية إلا بقدر ما تقبل تناقضها هذا وتدركه وتصبح كحبل مشدود بين الماضي والحاضر والحديث والقديم . أي أن تقبل أن تكون في الوقت نفسه ماضياً ومستقبلاً ، وجودها ونفيها ، تراثها وحضارتها . فالذات كما قلنا ليست ماهية ثابتة ، إنما هي علاقة ، وإرادة ، وتوتر ، وقوة . ويقدر ما تقبل تناقضاتها - وانشقاقها - وتستوعبها وتهضمها وتتأمل قيمها ، تستطيع أن تتجاوزها ، أي أن تصل إلى ربط التراث بالحادثة ، والماضي بالحاضر ، والانا بالآخر ، وتحقيق هذا الربط في الواقع وفي الحياة . فهذا الربط ليس معطى نظرياً ولا فكرياً ، إنما هو هدف ومطلب يتحقق بالمجاهدة والصراع . مجاهدة للنفس حتى تنفجر إمكاناتها وقواها الابداعية ، وصراع من أجل تأكيد الوجود أمام الآخر ، والسيطرة على الموضوع أي على الحضارة وقتلها . وكل محاولة لنفي أحد قطبي هذا التناقض لا يمكن إلا أن تؤدي إلى خنق هذه الحركة الدافعة التي هي النهضة بالذات وبالواقع ، وإلى التمثيل بالنفس . ونتيجتها رفض الذات أو رفض الآخر .

وموطن الذات ومكمنها وسلاحها هي الثقافة ، أي الوعي المنظم للحبره
الانسانية والجماعية . فالذات هي الوعي ، والثقافة هي بالنسبة للجماعه وعي
الذات . وبقدر ما تكون الثقافة فاعلة وحيّة وواعية لوجود الجماعة ومشكلاتها
تكون الذات الجماعية فاعلة وحيّة ومؤثرة في محيطها وبيئتها ومن هنا فإن بناء
الذات ليس هو في الواقع إلا بناء الثقافة ، أي الوعي والعقل وحتى نستطيع أن
نبني هذه الثقافة المبدعة ينبغي أن نفهم قوايين التغير الثقافي

IV

ابحار المبحر

يستدعي بناء الثقافة أن نغير نظرتنا إلى مفهومها ، وأن نغير بين الصراع السياسي - الأيديولوجي ، وبين الحوار الفكري ، فلا نجعل الثقافة أيديولوجية أو نجعل من الأيديولوجية السياسية ثقافة ، فنلغي كل إمكانية للحوار العقلي الموضوعي . وينطبق ذلك على استخدام التراث العربي كما ينطبق على استخدام التراث الغربي . فلا تقلص الأول إلى رمز للتخلف والثاني إلى رمز للغزو ونحرم أنفسنا من إمكانية الفهم والتفكير .

ويستدعي بناؤها أيضاً أن نكف عن تقليصها إلى وظيفة واحدة من وظائفها ، ونحل بها ونسخها ونفكر متابعها العقلية والروحية .

فإذا كان العلم هو أداة الوصل بين الحضارات ، وناقل الابتداعات الإنسانية من منطقة إلى أخرى ومستودعها ، إلا أن المدنية لا تنشأ إلا من ذخيرة ثقافية ، ومن تراث حي ، أي من ميراث مشترك روحي واعتقادي ورمزي يكون الرأسمال والخميرة الأساسية لكل نهضة أو تحول اجتماعي . ولا يقلص التراث ولا تقاس الثقافة فقط من زاوية ما تستطيع أن تقدمه من تقدم مادي أو عسكري ، بل أيضاً مما يعطي لهذا التقدم معنى ويحفز إلى التوصل إليه ويدفع إلى طلبه . ولا تحول إلى أداة لتدمير المجتمع ، كما تتحول الذرة عند غياب الأطر الفكرية والسياسية التي تحدد استعمالها بين أيدي المجرمين إلى كابوس يرهب البشرية أو يهددها بالدمار

ويمكن تلخيص هذه الوظائف بـ :

١ - تمكين الفرد ، بغض النظر عن موقعه الاجتماعي ، من الاستفادة من المعلومات والمعارف الموجودة في بيئته وعصره لتحسين شروط حياته ، ورفع قدرته على التحكم بوجوده . ونظام التعليم والعلم ، بقدر ما يقوم على تعميم المعرفة وإزالة التمييز بين الأفراد ، وتحويلهم من أفراد سلبيين إلى إيجابيين ، هو الذي يحقق هذه الوظيفة ويعبر عنها .

٢ - تمكين الفرد والجماعة من التبادل والتواصل فيما بينهم . ويستدعي هذا التواصل وجود منظومات لغوية ومفاهيم ومعاني وقيم ودلالات ورموز وأهداف مشتركة .

٣ - تمكين الأفراد من الابداع ، أي من رفض الامتثال ، والبحث عند الضرورة أو بشكل دائم عن حلول أصلية وجديدة للمشاكل الطارئة . وتقاس قوة الثقافة وحيويتها بقدرتها على زرع روح المبادرة والابداع وإضعاف روح التقليد ، تقليد الآخرين من أبناء نفس الثقافة أو من خارجها ، أي تقليد التجارب السابقة ، ومن ثم عدم الأخذ بالاعتبار تجدد الواقع وتغير الظروف .

٤ - تمكين الفرد من التماهي مع الجماعة ، أي من تحقيق ذاتيته . والذاتية كما قلنا لا تعني الماهية ، إنما تعني القدرة على بناء علاقات إيجابية مع الآخرين ومن حولهم ، مع الواقع والتاريخ والحضارة . فليس هناك إرادة بدون ذاتية ، ولا حافز للعمل بدون إرادة ، ولا دافع للتغيير بدون هدف مقبول وغاية .

إن الثقافة ، والجماعة المرتبطة بها ، تقبل كل ما هو وافد من الأفكار والقيم والرموز العلمية والايديولوجية والفنية طالما ساهمت في تطوير وظائفها ، أو طالما لم تؤثر على عمل هذه الوظائف وتقضي عليها ، وذلك سواء أكانت هذه العناصر

الوافدة نابعة من ثقافة أخرى أو من تراث قديم ، لا فرق في ذلك . ولا تتطور هذه الوظائف إلا إذا تطورت البنيات الاجتماعية التي أدت إلى وجودها والتي تتطابق معها . فهي إذن سجل للحلول الجاهزة والممكنة في إطار نظام اجتماعي معين . إذا تغير هذا النظام ، ولم تستطع أن تعيد ترتيب وظائفها بما يلائم هذا التغيير حررت الوعي من قيوده ، حتى يعيد تنظيم الخبرة الجديدة ويخزنها في المنظومة الثقافية بما يساعد على تطويرها . ومن هنا أهمية التجديد والابداع الفكري الذي يقوم به المفكرون العظام في كل ثقافة فيطبعونها بطابعهم ويؤرخون بشكل ما لمراحل تطورها .

لكن إذا كانت هذه الخبرة الجديدة سلبية ، أو إذا كانت تفرض نفيًا جذرياً لمسبقات الثقافة ولا تستطيع أن تستوعبها في منظومتها ، أبت الثقافة أن تستجيب لها . وإذا استجابت لها حكمت على نفسها بالتفكك والزوال كثقافة متكاملة ومستقلة وذات رسالة خاصة .

فإذا كانت الثقافة تشكل وعي كل جماعة لذاتها ولمحيطها ، وكان تماسك هذا الوعي رهناً بتماسك نظام القواعد الذي يخضع له ، فإن الثقافة تنزع بالضرورة إلى خلق أنماط ثابتة ، وتهدد بأن يصبح الوعي كذاتية مطلقة، حبيسها . وهذا في الواقع أول تناقض تواجهه الثقافة . لكنه التناقض الذي يفسر أيضاً آلية تجدد كل ثقافة وتبدل أشكالها وقيمها فلا تستطيع الثقافة أن تبقى على صلة بواقع متميز وتستوعب تغييره الدائم إلا إذا كان فيها عنصر محرك يسمح لها بمراجعة ذاتها وتبديل أنماط عملها وتحسين فعاليتها نظمها . وهذا العنصر المحرك هو التباين بين الوعي كذات حرة والوعي كبنية موضوعية مرتبط بالنظم الثابتة للثقافة وناجم عنها . وهذا التباين هو مصدر الحركة الداخلية للثقافة . فالوعي ، أكثر من العقل المؤسس ، هو طاقة خلاقية ، وقدرة على النفاذ المباشر إلى الواقع ، وفردية متحوّلة فاعلة بقدر ما إن الثقافة تشكل أطراً جماعية وثابتة ومنظمة . لكن الوعي لا يستطيع أن يجدد الثقافة بنفها أو بالتكرار لها ، وإنما بتكييف وظائفها واستخدام آلياتها وملئها بقيم ومعاني جديدة .

فالدوعي يصطدم في عمله بمشكلات تفرض عليه تقديم إجابات سريعة وناجعة . وهو يتوجه من أجل ذلك ويشكل طبيعي إلى الثقافة باعتبارها مخزون الخبرة الجماعية ورأسمال الممارسة الواعية . فإذا لم يجد لديها الاجابة المناسبة ، أو وجد لديها اجابات ناقصة ، لجأ إلى الخبرة المباشرة التي تشكل التجربة مصدرها الأساسي . فإذا أخفق ثانية لجأ إلى تلفيق أجوبة سحرية أو ابيدولوجية سحرية تساعد على التغلب على القلق الذي يرافق كل مجهول . لذلك يشكل النظام الخيالي الأسطوري منبعاً رئيسياً من منابع الوعي وقاعدة من قواعده . لأن الثقافة إذا عجزت عن أن تستوعب المجهول ، أي أن تسيطر عليه ، واقعياً أو وهمياً ، وتخضعه إلى نوع من العقلنة ، فقدت أهم وظائفها ، ودفعت الجماعة إلى البحث عن الحلول في ثقافات أخرى . بل إن قوة الثقافة قائمة في بنيتها الخيالية - الأسطورية أكثر مما هي قائمة في مؤسساتها العلمية ، لأن الطاقة الكامنة في البنية الخيالية الرمزية هي التي تسمح للثقافة ، كل ما تعرضت لطوارئ وعجزت الخبرة الماضية عن استيعابه ، إلى تجاوز الأطر التقليدية والبحث عن أجوبة - وأسئلة - جديدة . ولما كانت المشكلات الميتافيزيقية الكبرى مثل معنى وجود الانسان ومكانته في الكون وإنسانيته وموته ومستقبله من الأمور التي ليس بمكنة الانسان أن يقدم أجوبة علمية عليها ، فمن الممكن القول أن كل ثقافة تسبح في أثر من المسبقات الأولى الروحية والأسطورية ، وتنفس من خلال منظوماتها الخيالية - الأسطورية . أما المنظومات العلمية فهي مشتركة بين الثقافات الكبرى لأن نواتها المنطقية واحدة ، ولأنها هي ذاتها ثمرة الحضارة المشتركة أكثر مما هي سمة ثقافة معينة .

ليس من الممكن إذن فهم آلية التجديد الثقافي دون فهم هذه العلاقة الثلاثية بين الوعي والواقع والثقافة . وتشكل الثقافة في هذه العلاقة رأسمال الوعي في تعامله مع الواقع . وهذا الرأسمال لا يحدد فقط طاقة الوعي على التوظيف الثمر في الواقع وعلى النفاذ إليه ، ولكنه يحدد أيضاً ، حسب خصائصه ، نوعية الاستثمار وأهدافه وحدوده ، سواء أكان استثماراً روحياً أو علمياً أو خيالياً وليست المدينة

إلا فائض هذا الوعي ، أي قدرة الثقافة على إطلاق طاقات الوعي وتعظيم إمكاناته بما تقدمه له من فرص وأدوات وطرائق ومرتكزات لخلق ديناميّة تراكم للسجربة العقلية ، من مفاهيم ومعارف ورموز ومشاعر وقيم إنسانية وجمالية . لكن كون الثقافة تشكل الوسيط الأول بين الوعي والواقع ، لا يمنحها من أن تتحول إلى حجاب له أيضاً . ويبقى الواقع هو مصدر كل تجديد للوعي وللثقافة معاً . ولا تنمو الثقافة ، أي لا يزداد معدل تراكم القيم الفكرية والمعنوية والمدنية إلا بقدر ما يبقى الوعي حياً ومستقلاً وقادراً على تجاوز الأطر الثابتة للثقافة ، ويقهر ما يبقى في الوقت نفسه منظماً ومتماسكاً بما فيه الكفاية حتى لا يفرق في فوضى الواقع وعدم تمايزه ، وحتى ينجح في إنارته وفرض النظام عليه .

ولا نعي إذن بالوعي الحيّ الوعي كفطرة أو الوعي الفطري ، بقدر ما نعي به الوعي النقدي الذي يتجاوز الثقافة الثابتة من داخلها . ولذلك لا يتجل هذا الوعي في وعي المفكرين المبدعين والمجددين إلا بقدر ما يجسد وعي هؤلاء تيارات عميقة روحية أو فكرية تحتمل وتنمو عبر حقبة كاملة ، وتشكل متابع جديدة للقيم وللخبرة الحية ، ومحاوّر جديدة لتوجهات أصيلة وإيجابية بناءة ، تغير مجرى الثقافة والمجتمع معاً . وهذه التيارات الفكرية هي شيء مختلف عن النظم الثقافية بالرغم من أنها يمكن أن تتحول هي نفسها إلى منظومات ثابتة أو إلى قاعدة لها إن ما نقصده منها ، هو تفجيرها نفسه باعتبارها تغييراً دائماً في نطاق الثقافة وشعلتها التي لا تنطفئ ، ومصدر إعادة تركيب عناصرها وتجديدها .

وليس من الضروري كي يحصل هذا التجديد أن يتحقق في مجال القيم المعرفية والعلوم . فقد تقوم الثورة المجددة للثقافة على قوة نهضة روحية كما يمكن أن تقوم على آثار قفزة علمية أو هبة أيديولوجية أو أخلاقية . فكل واحدة من هذه حركات تستطيع ، إذا توفرت لها القوة والأصالة والعمق ، أن تكون أساساً أو منطلقاً لإعادة تركيب العناصر الثقافية في مجموع النسق الثقافي . وعندئذ لا بد للحركة التي كانت في أساس التغيير أن تفرض لونها الخاص على النسق بأكمله والمثال الأوضح على ذلك ما حصل من تغيير عميق في الثقافة العربية بعد الإسلام

ونحت تأثيره ، وما نتج عن ذلك من بقاء المنظومة الدينية الى وقت قريب المنظومة
المهيمنة مباشرة أو عن طريق تعميم قيمها ، على مجموع المنظومات الأخرى
العقلية والعلمية والخيالية .

ولا بد أيضاً من توضيح معنى الهيمنة هذه . فليس المقصود منها سيادة
ايدولوجية معينة سياسية أو فكرية لا تنقسم ولا تتبدل . فالكثير من التيارات التي
تظهر من فترة إلى أخرى تكون سطحية ولا تعبر عن التوازنات التاريخية العميقة
للثقافة ولا تعكس توجهاتها الكبرى . وقد يسود في حقبة معينة تيار ايدولوجي
يرد على حاجة مؤقتة ، ثم يزول من تلقاء نفسه . وقد تغطي هذه السيادة أغلبية
الرأي العام أو جزءاً منه . وقد تنعكس في جميع المنظومات الثقافية أو تبقى محدودة
النفوذ فتسود في منظومة وتنحسر عن أخرى .

والسيادة الفعلية لا تحصل إلا عندما تسيطر رؤية ذهنية على منظومة ثقافية
وتحولها إلى منظومة قائمة لكل المنظومات الأخرى ، التي تتأثر عندئذ في عملها بها
وتخضع لابقاعها . وفي الواقع لا يمكن لهذا أن يحصل باستمرار ، وإلا لتغيرت
الثقافات في بحر كل عقد . إن التغيرات الدائمة هي التي تتعلق بتبديل مواقع
وعلاقات المنظومات الثقافية واحداً بالآخرى ، أو تبديل العلاقات بين العناصر
الخاصة الداخلة في تكوين كل منها . أما التغيرات الجذرية فهي مرتبطة
بالطفرات الحضارية وتبدل أنماط العمل والإنتاج .

فمهما كان الوعي النقدي عظيماً ، ومهما كانت قوة التيارات الإيدولوجية
التي يبعثها ، لا يمكن تحقيق التغير الجذري داخل النسق الثقافي إلا بقدر ما يرتبط
هذا التغير بظروف اجتماعية - أي خارجة عن نطاق الثقافة ذاتها - ويستجيب إلى
مطالب جماعية وتاريخية . ويعني هذا التغير عندئذ ثورة ثقافية بالمعنى الحرفي
للكلمة . والثورة بالضرورة فعل استثنائي ومؤقت لا بد أن يؤدي إلى بناء نسق
جديد ثابت ، وإلا كان معناه تدمير الثقافة وزوالها وليس تجديدها .

وفيا عدا هذا الاستثناء الذي لم تشهده في الواقع كل الثقافات ، ولم تعشه
بعضها إلا مرة واحدة ، وكان بمثابة ثورة تأسيسية ، تبقى الرؤى الثقافية والأنماط

الفكرية والإيديولوجيات والقيم والتوجهات مسيرة للنسق الثقافي السائد وتستمر على مدى حقبة تاريخية طويلة . ويظل الصراع داخل هذا النسق بين تيارات الفكر المختلفة أو المتباينة صراعاً على الهيمنة الحزبية أو العامة ، دون أن يكون له أي طموح أو أية امكانية للتعبير في بيئة النسق العميقة ، أي في القيم والمعاني والدلالات والمطالب الروحية والنزوعات المادية والمناخ العام . بل إن هذا الصراع على الهيمنة يفرض على كل تيار أن يطانق بين نفسه وبين القيم الأساسية للنسق أكثر ما يمكن ، وأن يظهر وكأنه الوحيد الذي يحقق هذه القيم ، ويحرم خصمه من شرعية تمثيلها أو ينكرها عليه . فالصراع داخل نسق معين لا يضعف بالضرورة قيمه ولا ثقة الناس وتمسكهم به ، بل يؤكدهما .

فلتخل ثقافة خاصة ، كما لكل مؤسسة كبرى ، روحها ، أي نظام عملها وردود أفعالها وتوجهاتها العميقة التي تكون لديها ما يمكن أن نسميه المناعة الذاتية ضد كل نوع من أنواع التغيير الخطيرة التي تهدد انسجامها الداخلي وقيامها بوظائفها . فالثقافة لا تستجيب إلى كل نزوات الفكر والتيارات الفكرية ، ولا لأصبح بمقدور أي مفكر ، بل أي مشعور أن يغير بناء ثقافة كاملة متى أراد ، أو اضطرت الثقافة إلى تغيير بنيتها كلما ظهر مفكر أو متنبئ أو ساحر . والواقع أن الثقافة الحية لا تقبل بضم خبرات جديدة إلى مخزونها المعرفي أو الخيالي ، إلا إذا لم تكن هذه الخبرات تتعارض مع خبرات سابقة وراسخة تضمن توازناتها الكبرى . وهذا ما يحصل مع العقل ذاته عندما يرفض قبول أفكار تتناقض مع مسلمات أساسية لديه أو مع خبرات ثابتة علمية أو روحية . ويستدعي إدراجها فيه سلسلة من العمليات والمناقشات والمقاربات التي نجعلها متفقة مع بعض المبادئ أو كلها ، مما يستند إليه في قناعاته الأولى . وفتاوى الفقهاء ليست شيئاً آخر سوى هذه العمليات الإجرائية التي تفسح للجديد مكاناً في المنظومة الشرعية أو الروحية . وفتاه ، وجد له مبرراً شرعياً . ولكن هذه الفتوى لا يمكن أن تكون مقبولة إلا إذا كان الأمر المفتى به لا يحتمل مخالفة المبادئ الكبرى الشريعة . وتنطبق القاعدة نفسها على موقف الثقافة عامة من التغيرات الواقعية . فلا يثير أي ندد في المعطيات الخارجية حركه تعبير حدري مقابلة في مخطومات العقل

والاعتقاد والنحيل . وإلا لفقدت الثقافة قوامها وتماسكها ومصداقيتها بل إن مثل هذا التغيير الجذري يمكن أن يقود إلى تحلل الثقافة وتتككها إذا كان أعظم مما تستطيع توازناتها الذاتية احتماله ، وإذا فرض عليها بالقوة ، أو بالغلبة ، تماماً كالشجرة التي تموت إذا تغيرت تربتها وشروطها المناخية .

فكل ثقافة هي بنت مجتمع وبيئة محلية وتاريخية ، وهي استجابة للمشاكل التي يطرحها ويلورة لآليات الاجابة عليها . وكل توازناتها الذاتية قائمة على الوفاق بين معطياتها ومستمدة من قضاياها ، ومرتبطة برموزها . وهذا يعني أنها أن للثقافات شخصيات متميزة لا يمكن الخلط بينها ، وليس هناك ثقافة كونية واحدة ، وما يصبح كونياً في الثقافات هو انتاجها وثمارها العقلية والوحية من عقائد وايدولوجيات وعلوم وافكار وآداب تنتقل عبر الحضارات بتعمد منها مدنيات وثقافات مختلفة دون عوائق ودون حدود ، وتدعم بها أيضاً وتعقد توازناتها الداخلية .

ليست الثقافة إذن كتلة جامدة من المعارف أو القيم أو المعاني أو الرموز أو العادات أو القواعد ، بل هي الآليات والفعاليات المعقدة والمتباينة التي تسمح بشيء هذه المعارف وتخلقها . ومتى ما فقدت الثقافة ذلك تحولت إلى تراث ، أي إلى أثر من آثار الماضي ، وتحول البحث فيها إلى بحث في التراث ، حتى لو وسع المرء في معنى التراث ليشمل ما بقي منه حياً في سلوك الأحياء وعاداتهم اليومية . إذ معنى التراث أنه جزء قديم جامد أو قائم يستخدمه نظام أشمل منه ويحدد مكانته ودوره في عمليات الاستجابة للواقع ، كمذكر بالماضي أو واصل به أو رامي إليه ، وليس كوعي للحاضر .

وهذا يعني أن نشوء ثقافة من الثقافات ، واستمرارها وتغيرها أيضاً ، لا يخضع لعملية فكرية بسيطة يمكن استيعابها وفهمها من خلال دراسة الإيديولوجية السائدة في مجتمع معين ، أو ايدولوجية فقهاء أو علمائه أو مثقفيه . ولا يستطيع أحد أن يدرك بالضبط كيف يتم اكتساب مجتمع ما لهذه المنظومات والفعاليات الثقافية فاكنتها لا يتفصل أبداً عن ظروف تكوين الشعب كجماعة مدنية ، أي كمجتمع ، وعن نجاحه في ذلك وانتقاله من البداءة الأولى إلى المدنية . وكما

أنه لا يمكن دراسة ثقافة شعب بمعزل عن شروط تكوينه ، لا يمكن أيضاً دراسة وفهم هذا التكون للاجتماع البشري بمعزل عن نمو ثقافته أو منظوماته الثقافية العقلية والاعتقادية والرمزية وتطورها ، بل إن دراسة تطور الاجتماع المدني كعملية تاريخية كلية ، هو الشرط الأساسي لدراسة تطور الثقافات وفهم أنماط تعاضها واختياراتها وتوجهاتها الروحية الأساسية فهي جزء من هذا المخاض الطويل ، وتكريس له في الوقت ذاته ، وذاكرته الحية ومستودع خبرته التاريخية . فهي التعبير عن شخصيته ، وملخص سيرورته في الظروف التي ظهر فيها ولما . وتبلورها لا يمكن إلا أن يكون ثمرة الإمكانيات والوسائل والوسائط والأفاق التي وفرتها لها البيئة الخاصة والمناخ الفريد الذي نشأت فيه

فليس للمجتمع ذاتية خارج الثقافة التي يملكها ، وهو في الوقت نفسه أوسع منها وقادر على تجاوزها أو تطويرها . ولا نستطيع أن نتهم ثقافة بأنها تسيء إلى مجتمعتها كما لو كانت خارجة عنه . بل هي شرط وجوده كمجتمع مستقل ومتميز . واستقلاله وتميزه شرط لنموها وتطورها . وبهذا المعنى فهي تشكل بنية موضوعية ، متميزة عن الأفكار والمذاهب المتناقضة والمتباينة التي يتداولها أو تتداولها مختلف الفئات الاجتماعية . وهي تختلف عن النظام الثقافي الذي يجسد أو ينظم وظائف الثقافة الأساسية في كل حقبة تاريخية ، ويصوغها حسب توازنات التيارات العقائدية والتصورات والرؤى والآمال والتطلعات السائدة في كل عهد ، محدداً سيطرة تصور على آخر ومركزاً على وظيفة ثقافية دون أخرى . وبهذا المعنى لا يغير النظام الثقافي من البنيات العميقة للثقافة ولكنه يعيد توزيع عناصرتها ، بشكل واعٍ أو غير واعٍ ، وترتيبها حسب غلبة معينة ، تعكس الغلبة الاجتماعية أو الطبقية القائمة . وهو لا ينبغي أن تبقى هذه العناصر المهيمنة متباينة في ذاتها ومتبدلة بتبدل السياسات الثقافية للنظام الاجتماعي ، وتغير القوى المسيطرة عليه . ويخضع انتاج المعارف وأنواعها كما يخضع تداولها وانتشارها داخل النظام الثقافي إلى قواعد يحددها ويوصي عليها هذا النظام الاجتماعي - السياسي . وليس من الممكن إذن رد جميع هذه الشبكة الحية والمعقدة من العلاقات وتخفيضها إلى مستوى مفهوم عقلي مجرد ومطابقتها مع فكرة

العقل أو العقيدة أو العلوم السائدة أو التراث . وعندما يتعلق الأمر بدراسة قوانين التغير الثقافي والمشاكل التي يطرحها ، لا بد من الكشف عن البنيات العميقة لهذه الثقافة وتحليلها بدقة للدراسة التوازنية القائمة وكيفية اشتغالها عندئذ نستطيع أن نفهم كيف أن بعض المذاهب أو العقائد يمكن أن تستمر في ثقافة ما ، لا لقيمتها المعرفية ولكن لقيمتها الرمزية أو لما توحى به على المستوى الاجتماعي أو التاريخي ولما تغطيه من آمال وتعكسه من مطامح ، والعكس صحيح أيضاً . فلا تتبع قيمة التراث مثلاً مما يخترنه من علوم ومعارف ، إذ من طبيعة العلوم والمعارف أنها تتقدم وتتطور بغض النظر عن حدود المجتمعات ، فالطب الحديث لا يقارن لا بالطب العربي ولا بالطب الصيني ، وإنما تتبع قيمته مما يشكله كعمق تاريخي للشعور الجماعي ، وإجماع بعظمة الماضي وبإمكانية استلهامه واتخاذ كرمز لمقاومة الهيمنة الثقافية الغربية المتزايدة .

وقد أظهرت الثقافة العربية حيوية كبيرة في استيعاب معطيات العصر الحديث العلمية والأدبية والروحية . فليس في مقدماتها الأساسية ونظمها ما يمنع من الأخذ بقيم الحرية والعقل والإنسانية ، بل إن هذه القيم أول ما دخل في الثقافة منذ القرن الماضي ولم يجد أمامه أي عائق أو عقبة . فظهرت المدارس ونشأت الجمعيات والأحزاب والحركات القومية الشعبية والحركات الاجتماعية الاشتراكية والليبرالية ، كما نشأت الفنون الأدبية الحديثة ، وأصبح الأدب العربي الحديث من الآداب الإنسانية المهمة .

وإذا لم يكن هناك حريات فردية اليوم ، أو تقنيات متطورة أو دولة قومية واحدة ، فليس ذلك بسبب ما تتضمنه الثقافة العربية التراثية من قيم معادية لها وإنما ، كما نعرف جميعاً ، لأسباب سياسية واجتماعية ، جوهرها الصراع على السلطة ، وعلى الثروة ، وضامنها هو القوة ، وتخريب الثقافة ولحريم المناقشة العقلية .

ولا شك أن الثقافة العربية قد وقفت وما زالت تقف عقبة أمام التحديث في مجالات كثيرة ، بما فيها المجال الثقافي نفسه . وليس ذلك بسبب تعارض مع

القيم المعاصرة ، وإنما بالعكس لأن هذا التحديث لم يتضمن أي معيار صحيح ، أو غاية واضحة ومقبولة لضبط التحول في أبعاده الحضارية والتاريخية والاجتماعية ، ولأنه لم يقدم أية فرصة جدية وخطة متوازنة للوصول إلى العالمية والمعاصرة وضمان الذاتية والاستقلالية في الوقت ذاته . ولأنه كان يعني تقليص دور الثقافة إلى تراث وماضٍ ميت ، وتخفيض المشاركة في الحضارة إلى مشابهة شكلية .

إن قيمة الثقافة تنبع بالضبط من قدرتها على بناء شخصية مستقلة ، ومن مقاومتها لكل تغيير يشكل خطراً على هذه الشخصية ، لا من كونها كالاسفنجية التي تمتص بسلبية كل ماء . وبدون هذه المقاومة ليس هناك أي إمكان للتحديث عن التجديد أو الإبداع .

إن حافز الإبداع هو بالضبط هذا الاختلاف والتناقض العميق بين الثقافة والحضارة . بين الذاتية والعالمية . فهذا التناقض ، هو الذي يخلق التوتر المبدع ويدفع إلى عدم الأخذ بالحلول الجاهزة ، وعدم القبول بالأمر الواقع كنهاية للتاريخ . وهو مصدر تطور التاريخ والحضارة معاً . فالتاريخ هو صراع بين ذوات جماعية من أجل التجاوز الحضاري المادي والفكري ، ومن يتخلل عن هذا الهدف ، ينسحب من التاريخ ويخرج من الحضارة سواء حصل ذلك بالاندماج في ذات أخرى ، أو بالتفوق على الذات . والذين يعتقدون بأن الحل هو في تقليد كل ما قام به الغرب ونقله كالذين يعتقدون أن الحل هو في العودة إلى الماضي ، يريدون أن يلغوا هذا التناقض بإلغاء الذاتية العربية الفاعلة والتاريخية ويزيلون بذلك مصدر الإبداع ، ويحرمون أنفسهم أيضاً منه . ولذلك فهم يتفنون في الواقع على محو الثقافة العربية الراهنة أو ينكرون عليها أن تكون شجرة حية ونبأ إنسانياً عظيماً للتجديدات الممكنة والحتمية ، الآن وفي المستقبل .

ولو نظرنا إلى تاريخنا الحديث لرأينا أن هذا الصراع بين القديم والحديث ، بين التراث والمعاصرة ، بين العرب والغرب ، بين الذاتية والعالمية ، هو السبب الرئيسي لكل ما حصل من تجديد في حياة العرب وحاضرهم . فهو سبب الحديث

عن تجديد التراث ، وسب الحديث عن العقل والعقلانية معا بل إن الحدال
بين التراثين والتحديثيين هو الميدان الوحيد الذي سررت فيه خصوصية الثقافة
العربية وأفكارها الجديدة ، في حين أن مجالات العلوم التي تشارك فيه كل
العقول ، بمعزل عن الثقافات ، لم تحظ بأي إبداع يذكر

خاتمة : تحرير العقل

نخلص من ذلك إلى القول

إن مبدأ الذاتية قائم على مطلب الاستقلال والسيادة الذي ترفعه كل الجماعات الإنسانية التي لم تفقد بعد شعورها بقيمتها ورسالتها وإنسانيتها ورغبتها بالمساهمة الإيجابية . وهو لا يقل في أهميته وثقوقه عن مبدأ المعاصرة الذي تقوم عليه إمكانية تحقيق هذه الرغبة وتجسيد هذا الشعور . فالذاتية تعني تطوير الذات بما يفيها على صلة مستمرة مع الماضي والتراث وبجعل لها جذوراً عميقة وقوية في التاريخ ، ويفترض تحويل كل ما يدخل فيها إلى جزء منها حتى تحفظ وحدتها وتوازنها ، والمعاصرة تعني في كل زمان ومكان استيعاب الحضارة وما يتطلبه ذلك من تبادل وأخذ عن الآخر وتلقف للإبداعات والاكتشفات البشرية المادية والروحية .

وهذا التناقض بين مطلب الذاتية ومطلب المعاصرة هو في الوقت نفسه أساس الأزمة التاريخية العميقة التي نعيشها مع بقية المجتمعات التي لمسوزت حضاراتها ، ومصدر التوتر الذي يسمح للوعي أن يتحرر من قيوده ومن التقليد ليتج عوالم أخرى وأوضاعاً جديدة . فالحضارة ليست غرضاً نشتره أو نتجوزم ، إنما هي أيضاً علاقات وتوازنات تاريخية واجتماعية . ولا يمكن الحصول عليها إلا بتجاوزها . والتجاوز لا يعني الالغاء ، وإنما انتاج حلول أفضل للمشاكل التي خلقتها الحضارة القائمة ذاتها . فمن غير الممكن اليوم ، بل من المستحيل حل مشكلات البلاد النامية الاقتصادية والسياسية والثقافية ، من منظور المؤسسات

الغربية الموجودة اليوم . ومشكلات هذه البلاد لم تعد ثانوية كما كانت منذ قرن
إنها محاور الصراع الدولي الآن ، وهي تشكل الأزمة الحقيقية والعميقة للحضارة
الراهنة ، والتحدى الأكبر لنظمها وقيمها معاً .

هذا يعني أن الصراع من أجل استيعاب الحضارة الراهنة ، وهو شرط
تجاوزها ، لن يتوقف في العالم العربي ، ولن يخدمها حصل من مقاومات جزئية
هنا وهناك . وأن الصراع من أجل تأكيد الذات وتأهيل الحضارة وإخضاعها
لمتطلبات المجتمع لن يتوقف هو أيضاً ، طالما لم تتحقق للعرب المشاركة في
الحضارة من موقع الإبداع والمساهمة الإيجابية لا من موقع التبعية والاستهلاك .

وهذا يعني أن أزمة العقل العربي نابعة هي نفسها من أزمة الفعل العربي ،
وهي مظهر من مظاهر الوجود خارج الذات أو لغير الذات . ولا يمكن نشوء وعي
يتجاوز هذا التناقض ويوحده إلا بقدر ما تتقدم قضية النهضة الحضارية ، وتؤسس
لواقع العرب التاريخي . وقاعدة هذه النهضة هي دون شك النقلة الصناعية .

لكن هذا لا يعني استقالة العقل . بل إن إمكانية حصول هذه النهضة
متوقفة في جزء كبير منها على حصول حد أدنى من الإجماع الفكري ووقف
التعارض والتناحر الذي يمزق العرب فكرياً ويلغي لديهم كل قدرة على التفاهم
والمبادرة التاريخية . ولا يمكن لهذا الإجماع أن يكون تسوية ولا تلفيقاً لفظياً بين
التراث والحداثة ، ولا إبعاداً لطرف من قبل الآخر ، فعدا أن هذا يشكل كما قلنا
قتلاً لإمكانية الإبداع الذي هو جوهر النهضة ومصدر الخروج بحلول جديدة ،
فهو أساس الحرب الأهلية الراهنة الكامنة أو المتطجرة واستلاب الذات . إن
جوهر الإجماع الممكن هو الوعي الذاتي .

ويعني هذا الوعي الاعتراف بأن هناك أزمة حضارية عربية ، تجعل أن
هناك تعارضاً بين تحقيق الهوية وتحقيق الحضارة ، وبين التراث العربي والحداثة
الراهنة . وأن هذا التعارض يخلق انشقاقاً في المجتمع وفي الوعي العربي ذاته بين
عناصره الحديثة وعناصره القديمة . لكنه يقبل بهذا التعارض ، ويعتبر أن مبرر
وجود الذات العربية اليوم ومحور نشاطها وتاريخيتها هو قبولها للتحدي وسعيها إلى

مجاور هذا التعارض . أي إلى تحقيق النهضة التي يعني استمرار الذات واستملاك الحضارة في الوقت نفسه فهذا التعارض هو مظهر إذن للأزمة ، والنهضة تفترض عدم تعارض مطلب الهوية والعالمية ، بل إنها لا تتحقق إلا باستمرار وجودهما كقطبي جذب دائم . فالنهضة هي مشروع تحقق الذاتية العربية بما هي هوية حضارية وحضارة ذاتية فالنهضة تعني الابداع ، والابداع هو مجال تحقق الذاتية العربية ومشروعها معاً .

هذا يعني أن حركتي البحث عن الهوية واكتشافها ، والاندفاع وراء الحضارة وتأهيلها ، هما حركتان أصيلتان تكملان بعضهما بعضاً . وأن استمرار تعارضهما نفسه هو مظهر من مظاهر عجز كل منهما لوحده عن تحقيق المدنية وتأكيده الذات . فمبدأ الحضارة والتعلق بها يصون الجماعة من خطر التحول إلى ركام قديم ، لا صلة لها ولؤوساتها بالتاريخ وبالحركة الابداعية العالمية . ومبدأ الهوية ، يصون الجماعة من الانحلال ، والاندماج في الآخر ، ومن ثم الاندثار كجماعة متميزة ومستقلة . وفي صراعها ومنه تنبع إمكانيات تحول الحضارة إلى مدنية ، أي يتحقق تأسيسها في الثقافة العربية ، ويتحول التراث إلى هوية ديناميكية حية ومتجددة ، أي إلى ذات فاعلة إيجابية .

ماذا يعني ذلك ؟

إنه يعني أن مصير النهضة ليس معلقاً بإحياء التراث لوحده ، ولا باستيعاب الحضارة لوحده . وإنما بالاحتفاظ بهذا التناقض الحي بينهما ، أي بهما معاً . بل إنه يعني أن القدرة على الابداع والابتكار والنهضة ، مرتبطة بالسماح لهذا التناقض أن يتعمق ويستمر . ولهذا فنحن ندعو إلى إحياء أكثر ما يمكن من التراث ، والانغراز أكثر ما يمكن في العمق التاريخي العربي من جهة ، وإلى استيعاب أكثر ما يمكن من الحضارة والازدهار أكثر ما يمكن في حركة التاريخ الكونية العامة من جهة ثانية . ولا نعتبر أن هناك من وجهة نظر النهضة تفضيلاً بين إحياء التراث واستيعاب الحضارة . بل العكس هو الصحيح . فقدرتنا على الاستيعاب تزداد بازدياد انغرازنا في التراث وتمتعنا بهوية مستقلة وغنية . وأن تعمق هذه الهوية يزداد

أيضاً بازدياد استيعابنا للحضارة وسيطرتنا عليها فالمدنية العربية المنشودة هي ثمرة لهذا الابداع الذي يوحد بين التراث والحضارة ويتجاوزهما في الوقت نفسه ومن هنا نقول : نأخذ من الحضارة ولا نؤخذ بها ، ونحيي التراث ولا نحى به ، ونرفض الحلول السهلة ، ونرفض التقليد من أي طرف جاء

ويعني هذا أيضاً أن الحداثة ، أو تأهيل الحضارة ، ليست حلاً جاهزاً ، ولا مسألة محسومة ، بل هي مشكلة بحد ذاتها وهي تحتاج إلى بحث وتدقيق ونقد وتفكيك وإعادة تركيب وأن الهوية ليست حلاً معطى أيضاً قابلاً في التراث ، إذا أحييناه حصلنا على هوية شخصية ، وإنما هي الأخرى مشكلة معقدة تستدعي تجديد التراث وإعادة تركيبه وصياغته في ضوء مشكلات العصر ، دون أن يعني ذلك نفيه أو تشويبه فالتراث ليس أفكاراً أو قيماً شكلية يعاد تاويلها أو تفسيرها أو إلباسها فتصبح شيئاً آخر .

فليس هناك إمكانية ، ولا مبرر ، للتحديث دون نمو للذاتية المبدعة ، ووعي بالذات ، ونزعة قوية لتأكيد القيمة الجماعية والارادة القومية وليس هناك إمكانية لتحقيق الهوية وتعميق الشعور بالذاتية والأصالة دون التقدم في وسائل تمثل الحضارة المادية والتقنية ولذلك فإن فصل أي من المطلبين عن الآخر أو التضحية به لا يمكن أن يقود إلا إلى إجهاض النهضة وتحويلها إلى تحديث رث واغترابي مدمر ، أو تأصيل مفقر مشبوط .

ومن هنا نحن نرفض أطروحات الأصولية السلفية كما نرفض أطروحات الحداثة التفريرية ونعتبرهما انعكاساً سلبياً للأزمة الحضارية العربية لا حلاً لها ومن هذا المنظور نحن نقول أيضاً إن نقد التراث أو الدين لا يعني حضارة ، وليس هو محور بناء النهضة . وإن نقد الحداثة لا يعني من استيعاب الحضارة ولا يحل محلها

ومن هنا أيضاً نحن نعتقد أن على التراثيين الذين يجعلون من مسألة الهوية والأصالة قضية تنحصر . ويعبرون بها دون شك عن قلق المجتمع بأكمله وحواره من الأسس والتعريف . حل مسألة الهوية غير موجود في التراث ذاته .

وإنما في علاقتنا مع التراث ومع العالم أيضا ولا ينبغي أن نوظف كل مسألة الهوية في التراث أو في الدين . فهذه رؤية انهماجية وانطوائية الهوية غير ذلك ، وأوسع من ذلك إنها إبداع المستقبل الروحي والفكري والأخلاقي وهي تعني إعادة تنظيم الحياة الشعورية والعقلية والأخلاقية معاً على ضوء معطيات العصر وإلا تحولت إلى استلاب من نوع آخر إن الذاتية تعبر عن نفسها في تطوير التراث ، لا في الانحياز فيه فالتراث يجب أن يكون أداة لتحرير الذات وإطلاق إمكاناتها وهو رأسمال يستخدمه لتنمية الحاضر ولا قيمة له إلا بما هو تراثنا ، أي رأسمالنا لمواجهة العصر

وإن على التحديثيين أن يدركوا ، وهم الذين يكونون جسم النخبة الاجتماعية ، وجزؤها الأكثر انفتاحاً على الحضارة وعلوم العصر ، أن عليهم تقع المسؤولية الأولى في تقديم الحلول المبدعة لتجاوز المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي خلقها العصر وأنهم ما لم ينجحوا في تقديم مشروع ناجح لتجاوز هذه المشكلات ، فليس لوجودهم أي مشروعية وليست الحداثة مشروعاً اجتماعياً ، إنما هي تحد ، أو بحر من المشاكل المشروع هو أن نبين ماذا نريد من الحداثة ، ولماذا وكيف نستطيع أن نحقق ذلك لا يمكن أن يكون مشروعنا هو استيعاب كل تراث الغرب منذ عشرة قرون ، تراث العلوم والآداب والفنون . هذا كلام لا معنى له المشروع يجب أن يقوم على أساس تحديد المشاكل والأهداف والغايات والوسائل .

وعلى التحديثيين تقع أيضاً مسؤولية إعطاء التراث ، والاسلام جزءاً أساسياً ومقدس فيه بما هو دين الشعب وثقافة اجتماعية ، المكانة التي يستحقها في هذا المشروع الاجتماعي ، إذا قدر لهذا المشروع أن يكون وكل مشروع حديث لا يستطيع أن يستوعب موضوع الهوية والتراث يقضي على نفسه بالبقاء في الأندراج

وعلى التراثيين أن يدركوا بالمثل أن الاشتراك في الحضارة وممارستها هو اليوم الحافز الرئيسي لدى كل الأجيال ، عندنا وفي الأمم الأخرى ، للعمل والنشاط وبدر الجهد فإذا أخفقنا في تحقيق هذه المشاركة وفي إتاحة الفرصة أمام شعوبنا

للتمتع بمكتسبات الحضارة المادية والأدبية نكون قد حكمنا على مجتمعنا بالانحلال ، و حملنا الأجيال الجديدة على التخلي عن هويتها ، للاندماج في الجماعات التي تستطيع أن تقدم لها فرصة المشاركة في مسيرة الحضارة . ولر يفيد في منع ذلك تسويد صفحة الحضارة ولا فرض الحواجز المادية أو الأخلاقية فدافع الاندماج في الحضارة هو من مطالب الشعور بالانسانية وتحقيقها وهو أقوى من أي حجاب .

وبقدر ما ننجح في تطوير ثقافتنا وإغنائها وتفجير قيمها الانسانية ، نزيد الثقة بها ونعمق الشعور بالهوية ، وهذا هو السبيل الوحيد للنجاح في تنظيم الدافع الى مجازاة الحضارة ، ومنعه من التحول الى مسيرة كلية وانقياد ، أي الى تنكر للذات . ويتطلب هذا التضحية بأمور وقيم شكلية وجزئية لصالح تأكيد القيم الأساسية ، وتمييز الأساسيات من الثانويات . وهذه هي وجهة كل إصلاح ديني أو أخلاقي يهدف الى صيانة الاعتقاد من خطر الاقتلاع مع العاصفة .

ولا يعني هذا أننا نقف مع فكرة التوفيق بين الحضارة والتراث . وهي الاشكالية السائدة اليوم لدى فئة كبيرة من المثقفين . فنحن نعتقد أن لا مكان هناك للتوفيق بين أفكار ، أو بالأحرى ليس لهذا التوفيق أية قيمة حقيقية . فالقول بأن تراثنا لا يختلف في قيمه عن تراث الحضارة الغربية ، أو أن هذه الحضارة موجودة في تراثنا، لا يغير شيئاً من حقيقة التناقض القائم . بل إن التراث لا يأخذ قيمته ويصبح مصدراً لحركات سياسية واجتماعية ، إلا لأنه يبدو مختلفاً عن تراث الحضارة الراهنة ، ومغايراً لها .

وقد رأينا كيف أن محاولات التوفيق هذه قد تحولت جميعاً الى محاولات للاحتواء الأيديولوجي والسياسي للتراث ، مما يعني نفى وحدته وأصالته . فالتقدمي يجعل منه تراثاً تقديمياً والمحافظة يجعل منه تراثاً محافظاً . ومن الخطأ الاعتقاد أن من الممكن الوصول الى إجماع حول تأويل التراث . فهو يصبح هنا بالضرورة أداة توظفه كل فئة اجتماعية حسب مصالحها ورؤيتها وتقضي عليه كعمق مشترك للثقافة ، بل تخرجه ، وتخرج دراسته من دائرة الثقافة وتقتله سواء

أدركت ذلك أم لا فكل تيار سياسي - أيديولوجي يحاول أن يوحد التراث ويطابقه مع نفسه وأفكاره ، وينتهي بالتالي حق الآخرين والتيارات المناوئة في أن تكون جزءاً منه . وهكذا بدل أن يكون مصدر توحيد للأمم يصبح أداة تقسيم لها ، ويفقد معناه التاريخي والقومي . وهذا التوفيق لا يلبث حتى يتحول إلى عنصر من عناصر التسييس المطلق للكلام والوعي .

ثم إنه ما قيمة التراث إذا كان يقول ويسرر ويردد ما تقوله النظريات الحديثة ، وما قيمة هذه النظريات إذا كانت تردد ما جاء في التراث . إن العودة إلى التراث ودراسه لا قيمة لها إلا إذا كانت دراسة له بأكمله بقصد إظهار وحدته ، وإبراز إشكالياته ، والحلول الأصلية التي أعطاها لمشكلات عصره ، وبالتالي لمشكلات ما زالت مطروحة وفاعلة في عصرنا أيضاً . ولا يساهم مسخ التراث لا في تقريب الثورة الاجتماعية ، ولا في تعميق الانتماء إلى الجماعة . بل إنه قد يؤدي إلى التشويش على فهم المسائل الراهنة المطروحة . فلا يقدم الربط بين الماركسية والاسلام مثلاً لا حلاً لقضايا الماركسية ولا حلاً للمسائل الدينية ، وإنما هو يغطي عليهما معاً . فليس من الضروري أن تلتقي أفكار الثورة الماضية بقيمها بأفكار الثورة الحديثة وقيمها أيضاً ، لأن التاريخ لا يعيد نفسه ، والقيم لا تأخذ نفس المعادل الرمزي في الماضي والحاضر ولا تشير إلى الشيء نفسه . وقد يؤدي التوفيق إلى مطابقة أوضاع قديمة وقياسها على أوضاع راهنة ، وبخفي جدة هذه الأوضاع وتعقيدها . ويفضي إلى استنتاجات وحلول خاطئة . فحركة الترجمة التي شهدتها الحضارة العربية في أوج قوتها لا تشبه حركة الترجمة اليوم لا في مضامينها المعرفية وآثارها الاجتماعية ، ولا في آثارها التاريخية . فهي في الماضي تعبير عن قوة ، وفي الحاضر تعبير عن ضعف ، أي أنها تحصل في شروط متباينة بحيث أنها لا تواجه مقاومة تذكر في الماضي ، بينما تواجه في الحاضر أنواعاً مختلفة من المقاومات نتيجة لما تثيره من مشاكل يصبغ السيطرة عليها على مستوى اللغة والأداب وعلى مستوى القيم التي تنقلها والتميزات الاجتماعية التي تحملها ، وعلى مستوى الشعور بالهوية والذاتية والمشاركة في الحضارة .

ثم إن كل تأويل للتراث يقتضي أن نحدد منذ البدء موقفنا من الحاضر . وهو لا يمكن أن يحصل إلا انطلاقاً من موقف حاضر ، نريد أن نجد له شرعية في الماضي . والمشكلة إذن ليست في التأويل وإنما في تحديد هذا الموقف المسبق ، أي ماذا نريده من الحضارة ، وماذا نريده كمجتمع ، وما هي أهدافنا . هل نحن نسعى إلى أن يكون لمجتمعنا واجهة حديثة شكلية تجعله يبدو مشابهاً لغيره من المجتمعات الحديثة ، أم نريد أن يكون له وظائف إبداعية وانتاجية مشابهة . وليست مماثلة . لما لدى هذه الأخيرة . أي هل المقصود تحديث القائم والتراث ، أو هل أن تحديث التراث يقدم لنا حلولاً مفيدة ، أم أن الحلول قائمة خارجه ، وعلينا نحن أن نبدها ؟

نحن نؤمن أن المطلوب ليس حلولاً شكلية ولا حلولاً تقليدية . فتأويل التراث لا يهدف في الواقع إلا إلى تغطية تبني الحلول الغربية الجاهزة دون جهد ودون إبداع . إنه مجرد محاولة لاضفاء الشرعية المحلية عليها . وبهذا المعنى نقول إنه ليس حلاً ، بل هو بالأحرى هرب من المشكلة ، يقوم على الاعتقاد بأن مجتمعنا لم يستطع أن يستوعب الحضارة الحديثة لأن ثقافته وتراثه تقليديان . وهذا ينفي عن عملية الحضارة والتحضر كل طابعها الاجتماعي والتاريخي الصراعي . فهل لو طبقنا في بلادنا القوانين الليبرالية مثلاً ، أصبح لدينا بالضرورة صناعة حديثة ؟ نحن نقول ، بالعكس ، أننا لو طبقنا نفس الحلول التي طبقتها المجتمعات الغربية ، دون النظر إلى تغير الظروف التاريخية وأهمها بالضغط نحو الغرب إلى مركز للحضارة يتحكم بآلياتها ووسائلها ويصارع ليبقى المحتكر الأول لها ، لوصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم . أي لزيادة التأخر والتبعية .

ومن هنا ، فإن التوفيق بين القيم والأفكار القديمة والحديثة لا يحل المشكلة ، بل يطمسها . لأنه يلغي الشعور بضرورة الإبداع والتجديد . فماذا يقدم لنا القول بأن ابن خلدون قد اكتشف قبل ماركس قانون القيمة في إيجاد ظروف التنمية الاقتصادية ؟ بالعكس ، الحل المبدع لا ينبع في نظرنا إلا من خلال

الكتف عن الاختلاف ، وتأكيد هذا الاختلاف في الظروف والأوضاع وفي الحاجات والأهداف أيضا

ولا يعني هذا رفض التحديث ، وإنما يعني ربطه بمعيار واضح اجتماعي وقيمي أو أخلاقي باختصار ، لا لتدمير الهوية ، لا لفصل العرب عن العالم ، ولا لكل سياسة أو خطة تظمس أحد قطبي التناقض لصالح القطب الآخر وتلغي التوتر المبدع ، هذا الجدل التاريخي الحار الذي يخرج منه كل جديد وبدل التوفيق والتلفيق الذي أصبح حلاً خادعاً لهذا التناقض ، ومخرجاً للقلق الذي يشيره ، نحن نفضل الصراع ضد التيارات العدمية التي تلغي إمكانية وشروط الخروج بحلول بناء ومبدعة فمن نقد الأصولية المفقرة والتحديثية المدمرة ، لا نخرج طريق ثالث ، إنما موقف نقدي وصراط مستقيم ، هو نقطة التوازن وقاعدة الاتزان وهو موقف صعب يتطلب قوة معنوية ورؤية شمولية متفتحة ، ونظرة عادلة ، لكنه هو الوطن الوحيد الذي تستطيع الذات العربية أن تتظاهر فيه وتؤكد وجودها وهو في الحقيقة ليس وطناً ، إنما الحدود التي تفصل بين أوطان .

فليس التوازن من الأمور الثابتة ، ليس طريقاً ، إنما هو استقرار مؤقت يميز علاقة محددة بين عناصر متناقضة . وكلما تغيرت قوة هذه العناصر وموقعها ، اقتضى الحفاظ على التوازن تبديلاً في الموقف من هذا وذاك

بهذا نحول انقسامنا الفكري الى مصدر لتطوير ذاتيتنا ، أي نوازننا الاجتماعي والتاريخي ، ولاغناء ثقافتنا ، بدل أن يكون مصدراً للاستلاب والقطيعة هذا هو العقل ، وهذه هي العقلانية في النهضة كما نراها

ليست الازدواجية في الثقافة العربية الحديثة إذن مرصاً يجب التخلص منه . بل هي محرك هذه الثقافة ، ومصدر ديناميتها . وفكرة إبطال هذا الصراع بالحيلة أو بالقوة ، ليست ساذجة فقط ، ولكنها لا يمكن أن تقود إلا الى تدمير الثقافة والعقل ، أي الى التدمير المتبادل ولو كانت الحلول التي نحتاجها موجودة في التراث أو في الحداثة كما هما ، لكانت المشكلة حسمت منذ وقت طويل . ولو كانت الحلول موجودة في إلغاء التراث أو إلغاء الحداثة لما بقينا صرعى التناقض

والصراع فيما بينهما . ولو كانت الحلول موجودة في إمكانية التوفيق بينهما لما انتظر هذا التوفيق طويلاً حتى يتحقق أو يفرض نفسه . إنها ليست موجودة هنا أو هناك ، وإنما علينا نحن أن نستخلصها بعقلنا . ونحن مدفوعين إليها ضرورة نتيجة انشدادنا بين الثقافة التاريخية التي هي عمق لنا ولا نخرج منها ، ولا ندبل لنا عنها ، وبين الحضارة كعمق آخر وشرط من شروط وجودنا ومستقبلنا . إذن ، موقفنا هو القبول بهذا التناقض ، بل تعميقه وهذا يعني أن نأخذ ما استطعنا من الغرب ولا نؤخذ به ، ونحیی ما أمكننا من التراث ولا نحیی به . ومن هذا التناقض المثير ، أو الاثراء المتناقض ، سوف تتبع حلول حقيقية ، نعني بها حركات وقوى ومذاهب عقلية ، تختلف كلياً عن الحلول اللفظية والايديولوجية الفقيرة التي تقدمها لنا توفيقية عقيمة يائسة .

ومن هنا علينا أن نتجاوز الشعور بهذا التناقض كتمزق وشرح فينا وانقسام ، حتى نعيشه كتوتر تراجيدي ، يفضي كما في الملاحم الى تاريخ جديد ، بل هو أصل وجوهر التاريخ . علينا أن نقبل بأن التناقض هو أساس الوحدة ، وأن الصراع مصدر الحرية ، ومنبع التقدم . وأن ننزع من أذهاننا روح التشاؤم وأن نستبدلها بروح الثقة بالعقل وبالبانسان . عندئذ يصبح الحوار ممكناً ، وتصبح حرية العقل شرطاً لاستمرار هذا الحوار . والحوار المبدع والمثري يقبل بهذه الحرية ويرفض التضحية بها ، بل هو الذي يعمقها ويؤدي الى تدعيمها وتوسيع آفاقها وطبيعتها حتى تصبح قاعدة للوعي وغاية له في الوقت نفسه . وهذا يتنافى مع منطق الحرب السجالية . ومنطق التصفية المتبادلة والالتهام المفرض والديسيمة التي تغذيها الصراعات الايديولوجية - السياسية . وهو يفترض الاجماع على فتح « مناطق حرة » للثقافة ، يخضع فيها الجدال للعقل « ولقوانين » النقاش الموضوعي ، ويرفض تحجير كل حوار ، بل كل كلام ، لمصالح سياسية أو سلطوية .

ومن هنا نحن نقول أن غاية التغيير الثقافي لا يمكن أن تكون إقصاء العلم أو إقصاء التراث ، وإنما تحرير العقل ، أي إطلاق يديه من كل قيد ، وتوسيع

دائرة النقاش والحوار العقلي . وأي سياسة ثقافية تقوم على فرض أيديولوجية على العقل ، حدائية كانت أو ترائية ، تقتل الحوار ، وتفضي بالضرورة إلى إلغاء الوعي ، وإلغاء الثقافة كمنع للابداعات والتجديدات الذاتية ، وتغلق بالتالي أفق أي تغيير فعلي . إن السياسة الوحيدة المنتجة في الثقافة لا يمكن إذن أن تكون إلا حرية الثقافة .

استطراد

أظهرت لي الملاحظات التي أثرت حول « اغتيال العقل » منذ نزوله إلى الأسواق في مطلع عام ١٩٨٦ ، أن الكثير من الاعتراضات التي وجهت إلى أطروحات الكتاب ناجم عن أن بعض النقاط الواردة فيه قد بقيت في الظل ، أو لم تحظ بما كانت تحتاج إليه من توسيع وتعميق . فلذا كان النقد الذي تضمنه للمدارس الايديولوجية المختلفة قد لقي قبولاً عاماً لا ريبه فيه ، فقد بدت الاستنتاجات المركزة حول الموقف البديل قليلة الوضوح وغير متناسبة مع هذا النقد . لقد كان القارئ يتوقع أن يخرج من هذا العرض بموقف ايديولوجي جديد ، أو بإنحياز واضح إلى أحد الاختيارات الثلاثة المطروحة : التحديثية أو الأصولية أو التوفيقية ، وعلى الأغلب ، إلى الانحياز للمدرسة الأخيرة ، فلم يحصل إلا على دعوة إلى تحرير « منطقة » الثقافة من « الاستعمار » الايديولوجي . فهل يمكن للحرية الفكرية أن تكون بذاتها ايديولوجية ، أو ايديولوجية جامعة وتوحيدية بالأحرى ، هي التي يبحث عنها الجميع منذ أكثر من قرن ؟ وهل يمكن لها أن تكون أناساً لسياسة ثقافية متجة وممكنة التحقيق ؟

وبالفعل ، ألا يؤدي النقد المزدوج للتحديثية والأصولية مثلاً إلى الوقوع بالضرورة في الموقف التوفيقي المعروف ، كما ذكر البعض في انتقاداتهم ؟ وهل هناك محيد عن اتباع مثل هذا الموقف عندما يركز الكتاب بقوة على رفض إشكالية القطيعة التي فرضت على العقل العربي وفرضت عليه الاختيار القاسي بين التنكر للذات أو الانسحاب من العصر ؟ وإذا كان الجواب بالنفي ، وكان النقد شاملاً للمدرسة التوفيقية ذاتها ، فما هو الحل ، وما هو المنطلق الممكن لتكوين رأي جديد عام ، وإيجاد الثورة الفكرية أو النهضة المطلوبة ، وما هي ملامح هذا الموقف ومبادئه ؟

يتعلق السؤال الأول إذن بالموقف التوفيقي ، بينما يشير السؤال الثاني مسألة أكبر هي صلاحية الدعوة إلى موقف يتجاوز المدارس الثلاث ، وبيان الأسس النظرية التي يستند إليها هذا الموقف .

لقد أكد الكتاب بالطبع على هدفه في تحقيق مصالحة العربي مع نفسه ، واعتبره شرطاً لمصالحته مع العالم وتجاوزه للتعامل السلبي مع الواقع المعاصر ، سواء جاء هذا التعامل في صورة تحقير له أو رفضٍ لمعطياته أو اقتداء أعمى بما يصدر عنه . ومن الطبيعي أن توحى فكرة المصالحة هذه بضرورة التوصل إلى نوع من الاجماع الايديولوجي المشترك ، وأن تلتقي مع الرغبة العميقة والملحة لدى أوساط الرأي العام للوصول إلى ايديولوجية جديدة موحدة تجمع بين اتجاهات الفكر العربي الراهنة والمتعارضة ، وأن تستجيب أيضاً إلى مشاعر الحنين الايديولوجية سابقة ، اسلامية أو عربية ، أصبحت تبدو مع مرور الزمن ، أكثر فأكثر ، كنموذج مثالي لايديولوجيات الاجماع والتماهي والوحدة .

وكم نسمع او نقرأ يومياً أفكاراً من نوع : نحن بحاجة إلى ايديولوجية تجمع بين تيارات الفكر الماركسية والقومية والاسلامية ، أو إلى تركيب نظري أصيل ينهي الخلافات العميقة التي تمزقنا . فالتوفيقية هي محاولة إيجاد مثل هذه الايديولوجية الموحدة بين رؤيتين أو أكثر ، سواء عن طريق التقريب بين الألفاظ والعبارات ، أو عن طريق التقريب بين الأفكار . فهي تعني إذن دمج عناصر مختلفة ، وبالأصل متناقضة أو متنافرة ، في وحدة متناسقة .

وكنا قد بينا كيف أن السعي إلى إيجاد نوع من الاتفاق بين قيم التراث وقيم العصر . كان محور عمل حركة الإصلاح السلفي الأولى التي ظهرت منذ نهاية القرن الماضي ، وحاولت من خلال التقريب بين بعض المفاهيم العصرية والمفاهيم الاسلامية كالشورى والعدالة والعلم والعقل إلخ ، أن تقوم بردم الهوة المتزايدة الاتساع بين الحديث والقديم ، وبين تيارات التقريب وتيارات التقليد . وكان منهجها في الواقع قريب من مناهج الفقهاء في البحث عن « تحريجة » أو عن فتوى تبرر أمراً - عملاً أو فكرة أو موضوعاً - لا يبدو في الجواهر أو في المظهر

منسجماً مع القاعدة الشرعية . فأساس التوفيقية هو إذن السعي لايجاد مخرج للتناقض الناجم عن تبدل الواقع بشكل مستمر من جهة ، وثبات القاعدة الشرعية - من الجهة الثانية .

بيد أننا كنا قد أبرزنا في نقدنا لهذه المدرسة حدود هذه المحاولة التوفيقية : حدودها المنطقية والنظرية والتاريخية . وقلنا انه مثلما تشكل التحديثية ، كأيديولوجية اجتماعية ، حلاً وهمياً لمطلب الحضارة والاندماج الفعال في العصر ، والأصولية حلاً وهمياً لمطلب الذاتية والشعور الراسخ بالهوية والاستمرارية والوحدة الذاتية ، فإن التوفيقية تشكل أيضاً حلاً وهمياً لتجاوز التناقض القائم بين العوامل الاجتماعية والتاريخية التي تدفع إلى ظهور الأصولية والتحديثية ، أو بمعنى آخر لتجاوز التناقض بين واقع المجتمع العربي كمجتمع تابع يطور بالضرورة قيماً وأفكاراً وتوجهات خاصة ، وبين المجتمع الغربي ، بما هو مجتمع سائد ومسيطر ؛ هذا التناقض الذي يدفع أكثر فأكثر إلى القطيعة بين ثقافة عربية تصبح مصدر التأكيد على الذاتية من خلال التماهي مع الماضي ، وواقع معاصر يستند أكثر فأكثر في ضبطه واستيعابه على المفاهيم والقيم والمقولات النابعة من الثقافة الغربية . وقلنا أيضاً أن نقائص هذه الرؤية نابع من اعتقادها أنها إذا نجحت في حل هذا التناقض لغوياً ، وتمكنت من الالتفاف عليه ، فقد حلتها عملياً وتاريخياً . فهي في نظرنا مصادرة على المطلوب ؛ ذلك أن تطابق الثقافة العربية مع العصر ، مما يعني حصول التطابق أيضاً أو بالأحرى الانسجام بين مطلب الذاتية ومطلب العصرية ، هو الهدف الذي ينبغي الوصول إليه والصراع من أجله . ولا يمكن تحقيقه إلا إذا تمكن المجتمع العربي من تجاوز فجوة التأخر الحضاري ، وأصبح يشكل بذاته مصدر ابتداعات حضارية خاصة ، ويشارك بشكل فعال وإيجابي في الحضارة . أي عندما يتحقق مطلب المدنية الذي يعني نجاح العرب في استيعاب نظم الحضارة الراهنة والسيطرة عليها ، وهو مصدر نشوء وحدة الذات والموضوع والمصالحة بين العرب والعالم .

والحال أن جذور التناقض بين مطلب الذاتية ومطلب المعاصرة عميقة جداً

وقائمة في قلب السيرة التاريخية التي تؤكد أنه كلما تقدمت الحضارة الراهنة ، بما هي حضارة غربية . أي مجسدة لقيم الثقافة الغربية التي احتضنتها في المرحلة الأخيرة ، زاد تهميش الثقافات الأخرى التي كانت بمعزل عنها . وفلت إذن ثقة المجتمعات المنضوية تحت لوائها بقيمهم التقليدية ونجاعة ثقافتهم . ومن هنا فإن تطور العملية التحديثية يجر معه لا محالة استقطاب الوعي لدى هذه المجتمعات بين تيارين متعارضين يؤكد أولهما على التمسك بالهوية من خلال تمسك بالتراث ، ويؤكد ثانيهما على المعاصرة من خلال تعلقه بالحضارة . ذلك أن تأكيد الذات يصبح أكثر فأكثر في تناقض أو تعارض مع تأكيد المعاصرة . وهكذا فإن السيرة التاريخية تؤكد أن تفاقم الصراع بين قطبي الوعي أو بين المطالبين بزيادة مع الوقت ، فلا يبقى أي مجال للمصالحة النظرية أو للتوفيقية ؛ وذلك طالما بقيت الفجوة الحضارية مستمرة ومتزايدة بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات التابعة . وليست الثقافة هي المكان الأول أو الوحيد لتجاوز هذه الفجوة .

ومن هنا نصل إلى الاستنتاج القائل بأن ليس هناك حل جاهز لازمة الثقافة ، ولانقسام الوعي ، داخل الثقافة ذاتها . وأنه ما لم يتحقق تجاوز عملي ، أي مادي ، لهذه الفجوة فإن التناقض سوف يستمر ولن تستطيع الثقافة أن تجمع في وحدة عضوية ثابتة بين تحقيق وظائف الهوية أو التماهي ، ووظائف التجديد والمعاصرة في الوقت ذاته . إن الذات الضعيفة تبقى ميالة دائماً إلى التشكيك بنفسها من جهة ، وخائفة على نفسها من جهة ثانية . فهي تردد بين نفي نفسها للتماهي مع الحضارة والمشاركة الوهمية فيها (وهذا هو أصل التحديثية العدمية) وبين رفض حضارة العصر للتماهي مع ماضيها ومع التراث (وهو أصل الأصولية النامية) .

هذا يعني أن هذا الشرخ في الوعي قائم في صلب السبق الحضاري العقلي ، وأنه ما لم يتحقق استدراك هذا السبق الحضاري ، فإن تاريخ الوعي العربي سيبقى تاريخ تمزقه وانشطاره .

بالطبع هذا لا يعني أنه لن يكون هناك إمكانية للتوفيق بين قيم الثقافة العربية ونظم الحضارة الراهنة ، وإلا كان علينا أن ننكر أية قدرة على تجاوز الوضع

الراهن وأن ندين أنفسنا بالهامشية والتأخر إلى ما لا نهاية . إن هذا التوفيق والتوافق سوف يحصل دون شك ، وبشكل براغماتي هنا وهناك وفي هذا الميدان أو ذاك ، وحول نقاط أو موضوعات جزئية تشكل مكتسبات تاريخية ومنطلقات لتحقيق مكاسب أكبر . لكن لن يكون هناك أية إمكانية لتسوية جامعة وشاملة ، أي الايديولوجية توفيقية تقترح مبادئ عامة يمكن من خلالها وبالقيااس عليها حل كل نواحي التناقض ومشاكله . ولا يمكن لمثل هذه الايديولوجية ، إذا فرض ، إلا أن تؤدي إلى إغلاق أبواب التفكير والاجتهاد الحر ، وأن تفقر عملية البحث والكشف التجريبي الضروري عن حلول وتركيبات جزئية أصيلة . من هنا نأخذ فكرة تحرير الثقافة ، أي النشاط العقلي والروحي ، من استبداد الايديولوجية ، معناها لتصبح نوعاً من فتح باب الاجتهاد ، أي باب التفكير الحر .

لكن ، وهنا يدخل السؤال الثاني ، إذا كان هذا الصراع سيستمر ، وإذا كان التوفيق الشكلي بين التيارات التي تصدر عنه مستحيلاً ، بل مفقراً للجدلية الاجتماعية ومعطلاً لرؤية التناقض ، ومغطياً عليه ، ألا يعني ذلك أننا مدانون بالحرب الأهلية المستمرة التي ندعو في الكتاب إلى تجاوزها ؟ وما هو في هذه الحالة دور الوعي في تجاوز هذه الحرب ، واستدراك التأخر وردم الهوة التي تفصل بين الثقافة ، ثقافتنا والحضارة ؟

ليس هدفنا من التأكيد على استمرارية هذا التناقض الوصول إلى التسليم بالأمر الواقع والاستسلام للحرب التي نعيشها اليوم ، وإنما هو بالضبط القضاء على هذا الوهم الذي يجعلنا نعتقد أن الأمور معلقة كلها باختراع ايديولوجية موحدة ، سواء كان ذلك عن طريق فرض ايديولوجية تحديثية أو اصولية أو بناء ايديولوجية جديدة توفيقية . فنشوء رؤية موحدة ومتطابقة هو ثمرة لاستملاك الحضارة والسيطرة عليها وإبداعها ، ومن ثم لتحول الثقافة إلى ثقافة حية ومبدعة ، إذ أن مصداقية الثقافة نابعة بالضبط من طاقتها الابداعية التي تسمح للجماعة بالتماهي معها ومن خلالها كجماعة متمدة تاريخية ومعاصرة . وعندئذ لا تقلص الثقافة إلى الايديولوجية ، بل تصبح هي نفسها: حقل ازدهار

الايديولوجيات المختلفة وتعايشها وتفاعلها ، مما يشكل مصدر إبداعيتها وفعاليتها . فالثقافة المفكرة والمفتصة من قبل ايديولوجية ، أية ايديولوجية ، لا تنتج إلا نباتاً كسيحاً لا يسمن ولا يغني من جوع . أما الثقافة الحية والمبدعة فهي الثقافة المركبة التي تتيح التناقض والصراع والجدل ، والتي تتمتع بأكثف وأوسع شبكة من العلاقات وتداول وتبادل الأفكار .

ثم إن توحيد المجتمع النازع إلى التغيير لا يتم على صعيد الثقافة ، أي من خلال الايديولوجية . وفرض الوحدة عليه بالايديولوجية الواحدة هو الحل السهل وغير الفعال الذي يخفي الاخفاق السياسي والاقتصادي معاً . وهو يحمل في طياته الحرب الأهلية وينميتها . فالثقافة هي حقل الاختلاف والتناقض والصراع . لأن هذا الاختلاف وذاك التناقض هما مصدر نمو الأفكار وإبداع الحلول الجديدة . فإذا أصبح قاعدة الوحدة ، قلّصت الثقافة إلى مستوى الايديولوجية من جهة ، واقتصد المجتمع لمجال النقاش والصراع السلمي الوحيد ليحل محله مجال النقاش والصراع بالعنف والقوة والانقلاب .

ليس المطلوب إذن بناء ايديولوجية جديدة ، وإنما المطلوب هو تغيير نوعية العلاقة القائمة بين الايديولوجيات والأفكار والتيارات القائمة ، وتحويلها من علاقة عداوة وقطيعة واقتتال ذاتي إلى علاقة تعايش وحوار وتبادل ، وتفاعل . وليس التعايش توفيقية جديدة . بل هو احتفاظ مزدوج بالتناقض وتجاوز له في الوقت نفسه في اتجاه الصراع غير العدائي . فهو حل سلمي داخل الثقافة يبعدنا عن الاضطرار إلى الاستسلام خارجها . ولا يحصل التعايش إلا بين أطراف متباينة ومتميزة بعضها عن بعض . وإن تغيير نوعية هذه العلاقة هو الذي سيؤدي إلى تغيير تدريجي وجذري لمضمون ووظيفة وطريقة عمل وتطور كل من التيارات الفكرية الداخلة فيها : أي للوعي الأصولي وللوعي الحدائي معاً . فيغني الأول بعنصر تحسّس الواقع التاريخي الذي يميل إلى التجاوز عنه ، ويثري الثاني بعنصر تحسّس الواقع الثقافي ، لاحتصاعي الذي ينجح إلى تجاوزه إلى عالية مسطحة مفكرة وعديمة القيمة ليس في هديه الأمر إلا عالمه الاندماج في سوق الاستهلاك الثقافي والمادي

إن وضع الثقافة في خدمة التغيير المباشر ، أي تحويلها إلى ايدولوجية كما هو سائد اليوم ، لا يعني بالضرورة حصول التغيير ، وإنما إلغاء دور الثقافة كمصدر للابداعات والاكتشافات ، وجعلها مصدر نزاع دائم وتجديد لشروط الحرب والنزاع . أما إذا أردنا أن يكون للثقافة مساهمة حقيقية في حركة التحول والتجديد . فلا بد أن يكون هدفنا الأول في هذا الميدان هو إحياء الثقافة ذاتها . وهذا يستدعي سياسة ثقافية مغايرة بل مناقضة كلياً لسياسة أدلجة الثقافة وتجييرها . فوجود ثقافة حية وفاعلة وجدالية ، هو شرط أول لكل نهضة سياسية واجتماعية واقتصادية .

وهذا يعني أن علينا أن ننظر إلى الثقافة في إطار الرؤية الشمولية والاجتماعية لمسألة النهضة ، ونضعها في مكانها منها ، لا أن نقتصر مسألة النهضة الى مسألة ثقافية . عندئذ تصبح النهضة الثقافية هدفاً في ذاتها وغاية ، لا وسيلة وهمية لطمس المسائل السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخطيرة باسم إيجاد حل لها من أفق الصراع الثقافي الايدولوجي . وتعني النهضة الثقافية إمكانية البحث والحوار الحر والخلاف والتناقض ، أي الابداع المرتبط بذلك . مما يتناقض مع فرض سياسة ايدولوجية ، أو بالأحرى إدخال الايدولوجية والصراع الايدولوجي في السياسة الثقافية . إذ ان الأمر يتعلق هنا بالأساس بالسياسة الثقافية ، لا بالموقف الفكري الذي هو الميدان المفتوح للجميع ، سواء اعترفت به السياسة أم لم تعترف به . وفي هذه الحالة يصبح الموضوع المطروح بشكل أساسي هو التالي : كيف يمكن الاحتفاظ بهذا الاختلاف وهذه الحرية الفكرية دون أن يؤدي ذلك إلى الحزب الأهلية أو إلى تفكك وحدة الوعي الجماعي ؟

إذا كانت رؤيتنا للموضوع نابعة من رؤية شاملة لمشروع اجتماعي عربي ديمقراطي ، فلا بد لنا أن نقبل بفكرة أن الاعتراف بحق الاختلاف هو قاعدة التعايش بين أطراف متنازعة . ولن يصبح الموضوع الأساسي عندئذ : ما هو مضمون الفكر الذي ينبغي أن نجعله يسود في المجتمع ، وإنما ما هي نوعية العلاقة التي يجب أن تسود بين أصحاب المواقف الفكرية المتنازعة . فهذه العلاقة هي التي تحدد طبيعة الأفكار الموجودة وتتحكم بتطورها . فكما أن علاقة الحرب

والتزاع والرفض المتبادل تؤدي لا محالة إلى الانغلاق الايديولوجي والمنطق السجالي الذي تحدثنا عنه ، بل تقود إليه بالضرورة ، فإن العلاقة الديمقراطية القائمة على الاعتراف المتبادل والحوار والجدل العقليين ، تقود الى الانفتاح المتبادل وتطور المنطق الموضوعي لدى جميع الأطراف . وهذه مراهنات تاريخية دون شك . لكنها مراهنات مستندة إلى الاعتقاد بأن ليس هناك ، كما تفترض السياسة الايديولوجية في الثقافة ، ماهيات ثابتة ولا جواهر أزلية تحدد طبيعة العلاقات بين الأطراف ، وإنما هناك بالعكس ، علاقات أساسية هي التي تحدد طبيعة الأفكار والايديولوجيات المتعامل بها وتعطيها معانيها ووظائفها المختلفة . وإن هذه العلاقات المتبلورة في صورة سلاسل متداخلة : محلية وعالمية ، تتغير وتتبدل باستمرار مع تبدل مواقع بعضها تجاه البعض الآخر . وأن يتبدلها يتبدل « محتوى » ومضمون الوحدات أو الكليات الناجمة عنها ، أي المؤسسات والايديولوجيات والنظم .

فتبدل العلاقة بين العرب والغرب الذي هو إطار تحليلنا لازمة الثقافة العربية ، كان مصدر التغيير الذي طرأ على الثقافة العربية فبدل وظائفها مثلما طرأ على الثقافة الغربية فجعلها ثقافة عالمية ومركز استقطاب وتحدٍ للثقافات الأخرى . فهناك إذن دوائر علائقية كبرى تضم وحدات ثقافية واجتماعية ، وتخلق وظائف وتكوينات تاريخية ودوائر أصغر ، تتأثر جميعها ببعضها البعض الآخر .

لكن هذه العلائق لا يمكن أن تتبدل دفعة واحدة ، فتلغي الكلية المكونة لها لتشيء محلها كلية ثانية . وإنما يتم تبدل بعضها على حساب ثبات الآخر في فترة ما ، ثم يعود الثابت ليتبدل بدوره في مرحلة ثانية . وتبدل الكليات الثقافية ، أي الثقافات نفسها ، والعلاقات الداخلية التي تؤسس لها ، يرتبط بالضرورة بتبدل الكليات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وعندما نتحدث عن علائقية ، فنحن نعني أيضاً أن هناك مستويات مختلفة للتوازن الذاتي والخارجي في الكليات الحية المكونة منها . وأن الضابط لهذا التوازن هو الهيمنة النسبية لبعض هذه الكليات أو لجزئياتها على الأخرى . وكل هيمنة تعني أيضاً الصراع وإمكانية الانقلاب في العلاقات القائمة داخل الكلية

العلائقية فكل منها يربط عناصر ، من تواريخ وطبائع واتجاهات مختلفة ، فيها بينها وإذا تغير سياق هذه الهيمنة ، يمكن لهذه العناصر أن تفلت من جديد وتعيد تركيب نفسها في كليات جديدة أخرى ، كالمجتمعات التي تنحل ويعاد تركيبها ضمن دول أو امبراطوريات أو مؤسسات جديدة ، حسب تبدل السياقات التاريخية والاقتصادية المحلية والعالمية ، أي حسب تبدل وجهة الهيمنة ومصدرها .

وما ينطبق على الواقع الاجتماعي - السياسي ينطبق على الثقافة . فليس هناك مفاهيم أو مقولات ثابتة المعنى وأبدية . إنما هي تأخذ دلالات ومعاني جديدة ومتجددة ، كلياً أو جزئياً ، حسب المناخ الاجتماعي الذي يحيط بها والحقل المعرفي الذي يعاد توظيفها فيه ، والمنظومة الفكرية التي تستوعبها . وتجدد المفاهيم والأفكار نابع هو نفسه من تغير السياق العلائقي الذي تدخل فيه ، مما يعني تجديد الاشكاليات والمسائل النظرية ، وتغير الوظائف المعرفية والايديولوجية لهذه المفاهيم والأفكار . ولذلك تبدأ كل ثورة فكرية من تحرير المفاهيم من سياقاتها الماضية ، ودمجها في سياقات واشكاليات جديدة ، فتخلص من مدلولاتها السابقة المرتبطة بخبرة زائلة ، وتصبح مرتكزاً لبلورة وتخزين خبرة جديدة .

ومن هنا فنحن لا نعطي أهمية كبيرة لتغيير الايديولوجيات ، بقدر ما نعطي أهمية لتغيير العلائق التي تربط بين هذه الايديولوجيات والتي تشكل في نظرنا منبع التغيير الفكري الحقيقي والأكيد . ففي سياق اجتماعي وتاريخي معين يمكن لأعظم الايديولوجيات الثورية أن تتحول إلى أكثرها محافظة واستبدادية . ومبدآن العلائق هذا هو الجزيرة التي يمكن للفكر العربي أن يستند إليها لينقذ نفسه من الفرق ، أي من التفتت المتزايد والعصبوية الغبيقة ، والتفكك المتفاقم الذي يدفع إليه المنطق السجالي السائد .

إذن ما يهمنا وما نراهن عليه ، من أفق تغير العلائق الاجتماعية عموماً ، هو إمكانية تغير طبيعة العلاقة المؤسسة للممارسة الثقافية والايديولوجية في العالم العربي . وهذا يعني تغير المناخ وتغير التربة ، وتغير التوجه العام وتغير محور النظر وزاويته وهو التغير الوحيد الذي يسمح بخلق شروط نهضة ثقافية لا بد

منها كما قلت من أجل النهضة الاجتماعية . ولا نقصد بالنهضة زوال الصراع الفكري وحصول الوحدة الايديولوجية لدى جميع أوساط الرأي العام ، فهذا هو الخراب الثقافي والجمود العقلي بعينه . إن ما نريده وما نراهن عليه ، بالعكس ، هو تعمق التيارات الموجودة وثرائها وتنوعها وتفجيرها من الداخل ، أي تحويلها إلى تيارات مبدعة فعلاً ، وأصيلة وراسخة ، قادرة على أن تقدم إضافات جديدة للوعي العربي ، سواء أكانت إضافات روحية وهي أساسية وضرورية ، أو إضافات علمية وهي ضرورية أيضاً . فإذا وصلنا إلى هذا التفجير للطاقات الروحية والعلمية في الثقافة العربية ، أصبحنا فعلاً مبدعين ، وخطونا في طريق العالمية والمشاركة الايجابية والفعالة في الحضارة ، وتحققت ثقتنا بذاتنا وبهويتنا .

والنتيجة هي أننا لا ينبغي أن نتعلق ونعلق رأينا العام بأوهام كبرى من نوع أن هذه الايديولوجية أو تلك هي التي ستقذ الأمة ، وأن المطلوب هو التوصل إلى مثل هذه الايديولوجية . فهذا هو طريق الماضي المسدود . وينبغي أن نتخلص من الوهم الراسخ الآخر والقائل أن أصل المشكلة هو افتقارنا إلى وحدة ايديولوجية أو ثقافية كاملة أو منسجمة أو متجانسة . فعدى عن أن ذلك خدعة كبيرة لا وجود لها في أية ثقافة حية ، وبالأحرى في ثقافات تابعة معرضة لشتى أنواع الضغوط ، فإن وجودها لا يعني في الواقع إلا الافقار المطلق والموت للثقافة وللعقل . إن الثقافة المبدعة هي التي تزخر بالخلاف والتناقض والتعدد . بل إننا نقول أن مشكلتنا هي في وجود هذه الوحدة التجانسية الايديولوجية جوهرياً : أي في وجود خطاب ايديولوجي واحد يعدم إمكانية نشوء وتطور أي خطاب معرفي نقيض . ولا بد من كسر هذه الوحدة - الشرنقة ، من أجل بناء وحدة قائمة على علاقات جديدة بين ايديولوجيات واتجاهات وتيارات متميزة فعلاً ومتصارعة صراعاً منتجاً ، وليست متعائلة في المنهج والوظيفة والغاية ، وبالتالي ، اقتتالية ومتنافسة . ذلك أن الاخوة هم الذين يقتلون لأنهم من طينة واحدة ، أما الصراع فلا يكون إلا بين خصوم أقوياء متميزين بخصائصهم وقدراتهم وإمكاناتهم ووظائفهم ، وواقفين من رسوخ أقدامهم في الواقع والعقل . لهذا يمكن أن تنشأ بينهم علاقة صراع مشري للثقافة والمجتمع ولهم معا وفي الوقت

نفسه ، علاقة يصبح مرتكزها التنافس والتسابق على الكشف والابداع والاضافة وإثبات الجدارة ، أما خطاب الاقتتال الايديولوجي السائد فهو لا يمكن أن يستمر ويؤكد وجوده إلا بالتعمية على المسائل الحقيقية المطروحة ، وفرض المسبقات ، والتهجم بدل المناقشة ، والالتهام بدل المحاجة ، والعدوانية بدل الحوار .

إن تغيير العلاقة يعني قلب المناخ الثقافي السائد ، والتخلص من الأوهام ، وتغيير إطار الرؤية والممارسة ، وفتح فضاء جديد لازدهار الفكر والشعور معاً . فهو قلب لآلية العقل من آلية تطحن نفسها ، إلى آلة تتغذى من تقديمها في السيطرة على الواقع وعلى المشكلات المطروحة ، أي في اكتساحها لمواقع جديدة على طريق تحرير الانسان وفتحها لقارات مجهولة . من هنا قلنا ليست المشكلة في وجود التناقض وإنما في معالجة النزاعات الناجمة عنه . وقلنا ان تحرير الثقافة من استعمار الايديولوجية هو شرط الاحتفاظ بالصراع الايديولوجي وتحويله الى مصدر للابداع والتطور ، بدل أن يكون أساساً للنزاع والاقتتال . فلا يكمن المخرج في إضافة أو إنتاج ايديولوجية جديدة ، وإنما في انتزاع فسحة ولو صغيرة للوعي الحر يمكن له من خلالها أن يطل على كل الايديولوجيات ، ويمكن لهذه الأخيرة أن تطل من خلاله بعضها على البعض .

وفي هذه الحالة ، لن يكون بإمكاننا ولا من أهدافنا اصطناع أو اختراع ايديولوجية كبرى جامعة وشاملة ، لكن لا قيمة لها إطلاقاً على الصعيد العملي ، وإنما سوف نفتتح إمكانيات واسعة لنشوء نظريات علمية وتركيبات فكرية وعقائدية وطرق ومدارس متعددة ترد على حاجات ومشاكل هي نفسها متعددة ومنتشرة ومختلفة . وسيكون هناك مجال لنمو المذاهب العلمية و« الطرق الصوفية » معاً ، وإرضاء متطلبات الروح والجسد في الوقت ذاته ، مما لا غنى عنه لتوازن المجتمع والفرد على السواء ، عندنا كما عند الآخرين .

وعندما نقول أنه لا يوجد حل واحد لجميع المشكلات ، فنحن نعني أن المشكلات المطروحة اليوم على العالم العربي لا يمكن حلها جميعاً من أفق ايديولوجية واحدة ، أو من أفق ايديولوجي بشكل عام . هذا غير منطقي وغير

ممكن وغير واقعي . فليس هناك حل لمشكلة التنمية الاقتصادية ، الصناعية أو الزراعية ، من أفق الايديولوجية السلفية أو الأصولية . كما أنه ليس هناك حل للمشكلة القانونية والتشريعية من أفق ايديولوجية تنكر الاسلام أو تنكر له . فكل تطوير للمؤسسة القانونية لا بد أن يرتبط باعتقادات الناس وأخلاقياتهم ، وإلا كان مجانباً للواقع وفاقداً لأية مصداقية وتأثير . وليس هناك حل لمسائل الأمن الخارجي والتصدي لاسرائيل دون الأخذ بالاعتبار الحقائق القومية والدينية والعلمية بنفس الوقت .

وهذا يعني أن الايديولوجيات لن تزول ولن تفقد قيمتها ، بل سوف تزداد مع ازدياد الحاجة إلى نظريات وحلول خاصة لمشكلات معينة ومحددة . ولكنها سوف تأخذ أكثر فأكثر مكانةً نسبيةً بالمقارنة مع البحث العلمي والاجتهاد النظري الحر . وإذا كانت الايديولوجية السلفية الاصلاحية سوف تستمر في إلهام حلول جديدة على الصعيد القانوني والأخلاقي ، فإن الايديولوجية القومية سوف تبقى أيضاً ذات أهمية خاصة في إلهام كل الحلول المتعلقة ببناء الدولة والسلطة والسياسة . وبالعكس ، لن يكون لهذه الايديولوجيات دور كبير في البحث عن حلول عملية للمشاكل الاقتصادية أو العسكرية . ولكن القاعدة التي سيقوم عليها هذا التعدد والتنوع في الرؤى والحلول ، والناظم لملاقاتها بعضها البعض الآخر ، لا يمكن أن يكون إلا العقل الحر ، أي الجدل الموضوعي والحوار والتعايش السلمي الذي يقدم وحده الفرصة لصراع حقيقي وجدي لا يتحول بالضرورة إلى اقتتال وتصفيات متبادلة ؛ وهو ما تقود إليه كل ايديولوجية تعتقد أنها تتضمن بشكل كامل وجاهز الحلول السليمة لكل المشكلات . لنحرر أنفسنا إذن من وهم الايديولوجية الواحدة والمنقذة ، فالعقل والحرية لا ينفصلان .

فهرس

٥	مقدمة : أزمة التقدم العربي
	القسم الاول :
١٩	زمن الفتنة (أو الوعي المنقسم)
٢١	I - طرح المسألة : النهضة والثقافة النهضة
٢٥	- الثقافة والنهضة
٣٢	- الثقافة والهوية
٤٣	II - العقل السجالي
٥٣	- الاختلاط المنهجي
٥٧	- السكولستكية أو النقاش خارج الواقع
٦٠	- الرؤية التجزئية
٦٣	- التهرب من المسؤولية
٦٧	III - منهج النقد الموضوعي
٦٨	- من التعمية إلى التمييز
٧٠	- المناظرة العلمية
٧٣	- وضوح القصد
٧٤	- مقابلة الأهواء
	القسم الثاني : زمن النكسة
٧٩	(في التجاوز الحضاري وأصل الانقسام)
٨١	I - الثقافة والمجتمع
٩٩	II - جدل الثقافة والسلطة

الثقافة الشعبية والثقافة العليا	١٠٢
الثقافة التقليدية والثقافة الحديثة	١٠٩
III - جدل الثقافة والحضارة	١١٥
IV - صراع الثقافات أو حدود المدنية الغربية	١٢٦
V - نقد السلفية : من الهوية إلى الذاتية	١٤١
القسم الثالث : زمن الغربية	
(في انحلال المدنية العربية وإشكاليات العودة إلى الأصول)	١٥٥
I - سيل التمدن الغربي	١٥٧
II - تأهيل التمدن : النهضة المستحيلة	١٧٧
- النهضة	١٨٢
- الحداثة	١٩٤
III - حجاب العقل	٢٠٦
- في المعرفة العلمية	٢١٠
- العلم والأيديولوجية	٢١٨
- في العقلانية وجذورها أو مقام العقل	٢٢٥
- مازق العقلانية العربية الحديثة	٢٣٦
IV - عدو الفضيلة	٢٥٣
V - الزمن الموحش	٢٧٢
القسم الرابع : زمن الوعي	
(في الوعي الذاتي ، ونظرية النهضة والابداع التاريخي)	٢٩٣
I - من الحداثة إلى النهضة : جدل الذاتية والعالمية	٢٩٥
II - من إحياء التراث الى نقد العقل	٣٠٩
III - الإبداع الثقافي	٣١٧
IV - إبداع المبدع	٣٢٩
خاتمة : تحرير العقل	٣٤١
استطراد	٣٥٢

كتب المؤلف

- ١ - الدولة والصراع الاجتماعي في سورية ، رسالة (بالفرنسية) ١٩٧٤
- ٢ - بيان من أجل الديمقراطية ، دار ابن رشد ، ١٩٧٨
- ٣ - المسألة الطائفية ومشكلة الأقليات ، دار الطليعة ، ١٩٧٩
- ٤ - خطاب التقدم ، خطاب السلطة (بالفرنسية) رسالة دكتوراة الدولة ، سوربون ١٩٨٢
- ٥ - (مع آخرين) التاريخ وتنوع الثقافات (بالفرنسية) يونسكو ، ١٩٨٤

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٩٠ / ١٥٩٤

مكتب النسر للطباعة

٢٧ أموان بن النكم - طرية الزعفران
ص ٠٠ : ٨١ - طبع : ٩٧٦ - ٩٨٧

لقتيل العقل

محنة الثقافة العربية بين السلفية والتجربة

علاقة العرب بثقافتهم علاقة معقدة ومتناقضة تتراوح بين الرفض المطلق والقبول المطلق. البعض يراها سبب التخلف والبعض الآخر ينظر إليها كخشبة الخلاص.

ما هو مصدر هذا التناقض؟ هل الثقافة العربية أداة النهضة؟ هل هي علة للتأخر؟ هل هي قادرة على استيعاب الحضارة الحديثة؟ ما الحداثة وما علاقتها بالنهضة؟ ما الهوية وما هي علاقتها بالذاتية؟ ما علاقة النهضة بالهوية؟ هل يستدعي استيعاب الحضارة الحديثة التضحية بالهوية؟ هل يقتضي الاحتفاظ بالهوية الانسحاب من العالم؟ ما معنى النهضة، ولماذا كان هناك تحديث ولم تكن هناك نهضة في العالم العربي؟

يحاول هذا الكتاب أن يبين كيف أن محنة الثقافة العربية ليست إلا مظهراً لمحنة الذات العربية وتششتها بين التأكيد الشكلي للذات، والرفض السلبي للآخر.

ضد الحداثة المضیعة، والسلفية المفقرة، والتوفيقية السحرية، يطمح هذا الكتاب إلى أن يفتح للذاتية باباً تطل منه على التاريخ وتبدعه في نفس الوقت الذي تؤسس فيه نفسها كذات مبدعة.



٦ ميدان طلعت حرب القاهرة ت ٧٥٦٤٢١

MADBOULI BOOKSHOP

مكتبه مدبولي

6 Talat Harb SQ. Tel: 756421